دراسات فى الأدب العربى

العصر العباسى

الدكتور محمد زغلول سلام
أستاذ اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية



دراسات في الأدب العربي

العصر العبّاسي

الدكتور محمد زغلول سلام
أستاذ اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزي وشركاه

القســم الاول

شــعراء مــن القــرن الثــانى

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــــديم

هذه دراسة حول مجموعة مختارة من شعراء العصر العباسي وأدبائه أردت أن تكون جامعة لنماذج مـن الاتجاهـات الادبية المختلفة خلال هذا العصر الزاخـر من عصور الحضـارة العربية الزاهـرة ، وفي قرنـين مع الزمان بعد قيـام الدولة أي حتى أوائل القرن السابع الهجري أو حول منتصفه ·

وقد شهدت هذه المرحلة الادبية تلك النهضة الكبـيرة التي ظلت أصداؤها تتجاوب في دراسـات الادب والعلم عـلى مـدى العصـور ·

ونجـد بـين هؤلاء الذين نتناولهم بالدراسـة جماعة من المشهورين الكبـار ممن كثرت حولهـم الاحاديث ، وقد لا يجـد القارىء جديدا فيما نقول عنهم · لكنه سـيجد عرضا لعله أقل ايجـازا وأكثر المـاما بخصائصهم ، وربما غلبت عليه اللمحات الدالة أكثر من التفصيل ·

وعـلى هذه الدراسـات يبـدو طابع الاختيـار للرجال والنصوص · ويتفاوت التناول بين واحد وآخر ، فقد تجد شاعرا أو كاتبا نطيل معه الوقفة ، ونطيل الشرح ، ونكثر الاختيار ، وقد نمر على الآخر مرا سريعا ·

وليس من سبب وراء هـذا أو ذاك سـوى ميـل لاطـالة الصحبة يغرى به فن الشاعر وشخصه ، أو كتابة الاديب وروحه أو عكس ذلك ، يزهـد فيـه ، فينفض القلم منـه نفسه ويعجل بطى الورق ·

وقد لا يغــرى بالاطالة كذلك نقص المــادة ، أو كثرة مــا قيل وليس من جديد لتفاد عطاء من كثر حوله القول .

وغاية هذه الدراسة أن تضع بين يدي ناشئة الادب ومريدية تصورا يغريهم بقراءة من قدمناهم ، وزيادة القربى منهم أو من يختارون ميلا وهوى .

والله بعد هــذا الموفق والمسدد للخــير . . .

محمد زغلول

البيئـــــة

المكان والعصـر والمجتمع

الحديث عن الادب يستتبع بالضرورة الحديث عـن المسرح الذى دار فيـه ونبع منـه ، بصورته الجغرافية ، والبشرية ، او الحيوية عامـة ، وما أتاحته هـذه الصورة للادب من فرص للنمو والتطور • ومـا عكسته عليه من الالوان ، وبثت في ثناياه من المعالم والملامح •

والحديث عن الادب العباسي يستتبع بالضرورة حديثا عن مكانه أو أمكنته ، واذا كان الادب الاسلامي والادب الاموى يتخذ ميادين رئيسية له في الحجاز ومدنه مكة والمدينة التى نشأ فيها الاسلام • وتبع الخلافـة الى الشام فصارت دمشق مورد الادباء ومصدرهم • فان الادب العبـاسي انتقل الى العراق واتخـذ من عواصمه الثلاث الكبرى : الكوفة والبصرة وبغداد معقلا وملاذا •

وليس معنى هـذا أن العراق لم يكن موئـلا لادب أو نشاط أدبي قبـل عصر العباسيين ، بل ان العراق كان حافـلا بالنشاط الادبي كذلك في العصر الاموى ، ولكن ثقل هـذا النشاط كان بالحجـاز والشـام كما ذكرنـا ، وعـاد فـي عصر العباسيين بالعـراق•

ونبدأ حديثنا بالكوفة لانهـا كانت مـلاذ العباسـيين ، وموطن دعوتهم ، وكانت كذلك عاصمتهم الاولى ، خرجوا منها الى بغـداد •

والكوفة مدينـة داخلية بعيدة عن البحـر ، قريبـة الى الجزيرة العربيـة أو الى عمق الجزيرة ، وهى بيئـة غلبت عليها

الثقافة العراقية القديمة ، وأحاطت بها آثار المسيحية فى صور الاديرة والبيع المنتشرة بالحيرة ٠

ومن هنا كانت الكوفة أكثر انغلاقا ، وتأثرا أو حفاظا على القديم، لانها ليست من الثغور، ومن ثم فليست مجالا للاختلاط بين الاجناس والثقافات التي قد تطغى على التراث أو تتغول عليه وتمحوه ٠

البصـــرة :

وتختلف فى موقعها وبيئتها عن الكوفة ، فهى مدينة بحرية مفتوحة للثقافات المختلفة التى يمكن لها كونها ثغرا على البحر يفد اليه الناس من أجناس متباينة عبر الخليج وبحر الهند والصين ٠ وموقع البصرة كان وما زال من المواقع البحرية التاريخية الهامة التى تصل الشرق بالغرب ٠

ولذلك كانت البصرة تتلقى الاثار التى تفد عليها من هنا ومن هناك على ظهور السفن وتسند ظهرها الى الصحراء بيئة العرب ٠

والبصرة عربية النشأة نزلتها قبائل العرب بعد فتح فارس وأقامت فيها ، وعاشت بها بعض القبائل العربية الكبيرة ٠ وكانت تنقسم أخماسا كل خمس يسكنه بطن أو فرع ٠

وأهم قبائل العرب بالبصرة أهل العالية وأكثرها تميم وبكر ابن وائل وعبد القيس والازد ٠ ويعنى تعبير أهل العالية « كل من كان من جهة نجد من المدينة وقراها وعمائرها الى تهامة

وتضم قبائل قريش ، وكنانة وبجيلة وخثعم وقيس عيلان ٠ وكانوا أكثر قبائلها عددا ٠ زمزينة وأسد ٠

وتعد تميم المؤسس الحقيقى للبصرة ٠ ومن يقرأ كتاب طبقات ابن سعد يتضح له أن معظم قادة الفكر والدين والسياسة فى البصرة بالقرن الاول كانوا من تميم (١) ٠ وحمل هؤلاء الثقافة العربية وكانوا عمادها ٠

وضمت البصرة مجموعة أخرى من العناصر والاجناس كالنبط ٠ ويطلق العرب هذا الاسم على الاراميين من سكان العراق أو « السواد » دون تمييز ٠ وتمتد أصولهم الى الكلدانيين سكان العراق القدماء ٠

ووقف النبط موقفا وسطا بين العرب والفرس فى النزاع الذى دار بينهم ، وكانت له مظاهره المختلفة ٠ ويمثل الفرس سادتهم السابقين بينما كان العرب سادتهم الحاليين ٠

واشتغل معظم النبط بالزراعة والحرف البسيطة ، وظلوا مواطنين من الدرجة الثانية ينظر اليهم العرب والفرس نظرة احتقار ٠

وكان الفرس من الموالى ومن أبناء الامصار ممن لا يرقون الى مستوى العرب فى الدولة ٠ وظلوا يشعرون بالمهانة فى ظل الدولة الاموية الى أن شاركوا فى الاطاحة بها ٠ وجاءت الدولة العباسية فى حمى سيوفهم وتحت راياتهم فكان لهم فى ظلها

---

١ — راجع « بيئة البصرة وتكوين الجاحظ لشارل بللا ، ص ٥٤ :

٢ — شخصية بشار ص ١٤٦ ٠

شأن ، وزاحموا العرب وغالبوهم ، وفاخروهم ، بل وتعالوا عليهم وناصروا الشعوبية التى حاولت الازراء بالعرب وأصولهم وتقاليدهم وعقائدهم وتراثهم جميعا •

وأثرت الثقافة الفارسية في المجتمعات العربيـة أولا عن طريق اللغـة وتسرب بعض الالفـاظ الفارسـية الى المجتمعات وخاصة مجتمع مدن العراق •

وكانت البصرة مثـلا لظهور اللغـة الفارسية فـى حيـاة الناس وأحاديثهم ومخاطبتهم كما مثلت اللغـة الفارسية جانبا من ثقافة بعض العلماء وظهرت ألفاظها فـى شعر الشعراء وكتابة الكتاب تظرفا وتملحا أو ادلالا بالمعرفة والتحضر •

وأشاع العصر الفارسى كثيرا من التقاليد والعادات ، وصور السلوك الفارسية فـى المسكن والمطعم والمـأكل • وغزت أفكار الديانات الفارسية القديمة من مزدكية ومانونية وغيرهـا عقول الناس وظهرت آثارها على الادب والشعر •

وتمثل طبقة الكادحـين فـى البصرة أجنـاس من العبيد والمكدين من بلاد مختلفة ، وقـد كثر بينهم الزنج لحاجـة ملاك الاراضى وأصحاب البساتين اليهم فيما تتطلبه من العمل الشاق • وأكثرهم من زنوج ساحل أفريقيا الشرقى •

وتضخمت هذه الطبقة ، وشكلت خطورة كبيرة في المجتمع البصرى بل وهددت الخلافـة العباسية بما قامت به من ثورات كان أخطرها ثورة الزنج المشهورة فـى القرن الثالث (من سنة ٢٥٥ هـ الى سـنة ٢٧٠ هـ) • وقـد اختلفت نظرات المؤرخين اليهـا •

ومن سكان البصرة « الزط » أو أهل السند والهند ، وكان أكثرهم يعمل بالحرف الصغيرة والصيرفة • واختمرت فيهم الثورة أيضا أخريات القرن الثاني وأوائل القرن الثالث ، وأثاروا المتاعب في البصرة للخلافة العباسية مما اضطر المأمون سنة ٢٠٥ هـ الى حربهم • وانقطعت بعدها أخبار ثورتهم الى أن ولي المعتصم فبعث بأحد قادته اليهم سنة ٢١٩ هـ وكانوا قد قطعوا الطريق الى البصرة •

ورغم قلة العنصر الرومي نسبيا في البصرة الا أن الثقافة اليونانية كانت بها ذات شأن ، وكان القائمون عليها من عناصر النساطرة الذين حافظوا على هذه الثقافة بالحيرة والعراق ، ويمكن لهذا أن يقال ان الثقافة اليونانية كانت أقدم في هذا الاقليم من الثقافة العربية • ولعلها ترجع الى زمن الاسكندر المقدوني حين جاء الى هذه البلاد وأنشأ المدن وترك جاليات يونانية استوطنتها • ولا شك أنها طبعت الحياة بطابعها وخلفت آثارا واضحة في تراث البلاد الى أن قامت المسيحية فتبنت الثقافة اليونانية وتشربتها ، واستعانت بها في جدلها ضد الديانات الوطنية أو فيما بينها وبين الطوائف المسيحية المختلفة • واعتمدت الفلسفة اليونانية والمنطق خاصة في تلك الخصومات •

وأعادت طائفة المعتزلة الحياة الى تلك الثقافة وبعثتها من جديد ، ودعت الى الاهتمام بها لأنها اتخذت منها وسيلة للرد على المعارضين للاسلام والدعوة له في الآفاق ، كما اتخذ المتكلمون عامة من الفلسفة والمنطق وسائل للبحث في كثير من القضايا الدينية •

ولعبت الترجمة دورا هاما في نقل علوم اليونان الاخرى

كالطب والهندسة والطبيعة والحساب الى العربية • وساهم النقلة من السريان والنساطرة بجهود جليلة في هذا الشان ، وخاصة منذ أخريات القرن الثاني وطوال القرن الثالث • وقد شجع المأمون هذه الحركة وشارك فيها ببغداد بعد البصرة حتى صارت بغداد مركزا نشطا للترجمة عن اليونانية وغيرها •

بغداد :

وهي المدينة المدورة التي بناها ابو جعفر المنصور على نهر دجلة سنة ١٤٥ هـ وسماها دار السلام • وكانت دولة بني العباس بادىء أمرها قائمة بالكوفة ، ثم انتقل خلفاؤها بعد المنصور الى بغداد •

وبغداد أقرب في موقعها الى الكوفة منها الى البصرة ، ولهذا كان للكوفة أثر كبير على الحياة والفكر والادب في بغداد • وقد آثر خلفاء العباسيين ثقافة الكوفة على ثقافة البصرة • فغلبوا علماء الكوفة على علماء البصرة في قصورهم ، وفضلوهم في تربية أبنائهم •

واشتهر من علماء الكوفة ببغداد جماعة من رواة الأدب وعلماء اللغة أمثال المفضل الضبي معلم الخليفة المهدي، والكسائي معلم الأمين ومؤدبه • كذلك اشتهر بها من الكوفيين أبو العباس ثعلب •

وظلت بغداد كذلك يغلب عليها الطابع الكوفي حتى تغير الامر في عهد الخلفاء العباسيين ممن ولوا الخلافة في القرن الثالث الهجري أعني المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ومن بعدهم •

فان عناصر بصرية بدأت تغزو الحياة الفكـرية والأدبية في بغـداد ، حتى سيطرت عـلى مجالس الخلفاء وكبار رجـال الدولة • ونذكر على رأسهم أبا عثمان عمرو بن بحـر الجاحظ وأبا العباس المبرد •

واختلطت الثقافة البصرية بالثقافـة الكوفية ، ومـازج الثقافتين عناصر أخرى وافدة ،وخرج منها جميعا ثقافة جديدة يمكن أن تمثل طابع بغـداد •

ومن هنـا بدأت تظهر في تاريـخ الثقافة العربية مذاهب بغدادية في النحـو واللغـة والادب والفكر عامـة تقابل مذهبي البصرة والكوفة بـل وتجمع بينهما أحيـانا وتوفق فـي كثير من الاحيـان •

وقد غلب على بغـداد العنصر الفارسـي ، وبدت مظاهـر الحضارة الفارسية في وضوح وخاصة في نظم العيش والادارة • وفي اللباس وعـادات الناس • فغلبت القلنسوة الفارسية على العمامة العربية •

ولم يقتصر الامـر عـلى الفرس بل جمعت بغـداد عناصر أخرى ، وبدأ الروم والاتراك يزدادون شيئا فشيئا فـي قصور الخلفاء وكبار القوم ، وخاصـة بعد أن استكثر منهم الخليفة المعتصم وآثرهم للخدمة والجيش على غيرهم •

وكانت هـذه العناصر من التـرك مصـدر متاعب كثـيرة للخلافة لشراستهم وشغبهم • وقد بلغ بعضهم مكانة مرموقة في قصور الخلفاء ، وسيطروا من خلالها على شخص الخليفة نفسه فكان لا يملك معهم شيئا •

المجتمع العباسي :

كان المجتمع العباسي يتكون من طبقتين كبيرتين أو فعالتين الطبقة العليا أو « الارستقراطية » ، وهي طبقة الاشراف وتضم الخلفاء والامراء والقواد وكبار الرؤساء والوزراء والكتاب وكبار التجار وزعماء القبائل • والطبقة الثانية الطبقة الدنيا من الكادحين من الاكرة ورقيق الارض وأصحاب المهن والحرف الصغيرة •

ولا يعني ذلك انعدام الطبقة الوسطى ، لكنها لم تكن متماسكة أو متضامنة فعالة كما هي الحال في المجتمعات الحديثة ، والتي تحتل فيها هذه الطبقة مكان الصدارة وهي مصدر النشاط والابداع ، بل ومصدر الثورات والتغيرات المستمرة في المجتمعات وكانت مصدر الثورة الفرنسية الكبيرة في القرن الثامن عشر الميلادي •

ويمكن أن يقال ان الطبقة الوسطى في المجتمع العباسي كانت تتكون من مجموعة من صغار التجار ومتوسطيهم ، ومن صغار الموظفين في الدواوين ورجال الشرطة ، وغيرهم ممن يحصلون على رواتب معلومة لسد حوائجهم تكاد تكفي حاجاتهم اليومية ، ولا فائض لديهم لحياة الدعة والترف •

وكان للطبقة العليا أثرها الاكبر في المجتمع ، كما شاركت الطبقة الدنيا في الاحداث •

والى جانب تقسيم المجتمع الى طبقات يمكن تحليل عناصره الى مجموعة من الاصول ذات الثقافات المختلفة ، بعضها وافد من الشرق وبعضها وافد من الغرب ، تمازجت تقاليدها ، وأفكارها •

وصارت كل فئة مشهورة بأشياء خاصـــة في طبع أو في فن أو علـــم ٠

وتحدث أبو عثمان عمرو بن بحـــر الجاحظ عن هذه الميزات فقال عن الزنج مثلا : وهم طبقة رقيق الارض في اقليم البصرة خاصـــة « انهم أطبع الخلق عـــلى الرقص والطروب بالطبل على الايقاع الموزون من غير تأديب ولا تعليم ٠ وليس فـــي الأرض أحسن أخلاقا منهم » ٠

وقال عن الصينيين « وميزة ســـكان الصين الصناعة ، فهم أصحاب السبر والصباغة ، والاصباغ العجيبة، والنحت والتصوير والنسج » وعن اليونانيين قال : « انهم يعرفون العلل ولا يباشرون العمـــل ، وميزتهم الحـــكم والاداب » ٠ وأمـــا الفرس فميزتهم مباشرة الملك والسياسة ٠ وبرع الأتراك في الحروب ، واشتهر أهل السند بالصيرفة والعلم بالعقاقير ـ قال الجاحظ : « لا ترى بالبصرة صيرفيا الا وصاحب كيسه سندي ٠ وقل صيدلاني عندنا الا وله غلام سندي فبلغوا أيضا في الخبرة والمعرفة بالعقاقير وفي صحـــة واجتلاب الحرفاء مبلغا حسنا » ٠

كذلك كان لكل بلـــد في العالم الاســـلامي آنذاك شهرته الخاصة ، ينطبع بها أهله ويعرفون في كل مكان ٠ فكانت شهرة مـــرو وخرسان البخل ٠ قال ثمامة بن أشرس : ما رأيت الديك قط في بلدة الا وهو يدعو الدجاج ويثير الحب اليها ويلطف بها الا في مـــرو فاني رأيته يأكل وحده ، فعلمت أن لؤمهم في المأكل ٠ ورأيت في مـــرو طفلا صغيرا في يده بيضـــة ، فقلت له : أعطني هذه البيضة ـ فقال : « ليس تسع يدك » فعلمت أن اللؤم والمنع منهم بالطبع ٠

كذلك عــرف اليمنيون بالعشق ، والحجازيون بالــدل ، والعراقيون أو البغداديون خاصة بالظرف ، وهكذا .

وكان لكثرة العناصر غــير العربية فــى المجتمع الاسلامى آثارها الاجتماعية ، وأبلغ تلك الآثار ظاهــرة الموالى والولاء وأدت الى قيام المشكلة أسباب عدة . منها عصبية العرب لعروبتهم وتمسكهم بأنسابهم واعتبارهم كل مــن لا يمت بنسب أو من لا يمتد نسبه ويعرق دعيا .

وكانوا يعتبرون أنفسهم فــى الدرجــة الاولى ، والعناصر الثانيــة بعدهم فى الدرجــة الثانية . وانتشر الموالى من أبنــاء الامصــار ممن استعربوا أو من أبنــاء الامــاء الذين اختلطت دماؤهم وانتشر هؤلاء وهؤلاء وعرفوا بالموالى ، والحتوا بالقبائل العربيــة ، وفرضت كل قبيلة حمايتهــا على جماعة منهم فى كل مصر من الامصار .

وتروى عن ظاهرة تعصب العرب لدمائهم أخبــار ونوادر كثيرة فى كتب الادب والتاريخ ، منها ما رواه المبرد عن شيخ من الازد عن رجل منهم أنه كان يطوف بالبيت وهو يدعو لابيه فقال له : لم لا تدعو لامك ؟ فقال : أنها تميمية .

وكان العرب يكرهون أبناء الاماء من الفرس وغيرهم حتى نشأت مع الموالى طبقة من أبنــاء الامــاء من الفرس كانوا فى مقدمة الفضــلاء وأهل العلــم والتقــوى والادب مثــل الحسن البصرى ومحمد بن سيرين وسعيد بن جبــير وعطــاء بن يسار وربيعة الرأى وابن جريج . وأمثــال على بن الحسين والقاسم ابن محمد ، وسالم بن عبد الله من فقهاء المدينة الذين فاقوا أهلها فقها وعلما وورعا .

وشعر المولدون أو الموالى باحتقار العرب لهم • فأحسوا في نفوسهم بالضيق ، وشعروا أنهم لا يقلون عن العرب استحقاقا، ورعاية من الناس والدولة ، فهم أكفاء للعرب لا يقلون عنهم من حيث الثقافة والاستعداد والحضارة والتاريخ القديم • بل لعلهم يفوقونهم في التاريخ القديم •

ومن هنا نشأت مشكلة الشعوبية التي أثرت تأثيرا كبيرا في الادب والعلم ، والحياة • وظلت أصداؤها تتجاوب في أنحاء الامة الاسلامية مدة مديدة من الزمن •

الشعوبيــــة :

والاصل في الشعوبية المساواة بين شعوب الامة الاسلامية في الحقوق والواجبات • وتطور مفهوم الكلمة بتقدم الزمن وأصبحت الشعوبية تعنى العداوة للعرب • وكان أكثر الناس مناصبة لهم بالعداء الفرس ، وأكثرهم تعريضا بهم ، واظهارا له عامتهم • يقول ابن قتيبة :

« ولم أر في هذه الشعوبية أرسخ عداوة ولا أشد نصبا للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، فأما أشراف العجم وذوو الاخطار منهم ، وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم ويرون الشرف نسبا ثابتا » •

ويقول : « وان ممن ذهب مذهب الشعوبية أقواما تحلو بحلية الآداب ، فجالسوا الاشراف ، وأقواما اتسموا بميسم الكتابة فقربوا من السلطان ، فدخلتهم الانفة لآدابهم والغضاضة لافتقارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم » •

وبدأ العـداء للعرب بـين الفرس منـذ أخريـات العصر الاموى ، ولكن الامويين قابلوه بقوة لتعصبهم للعـرب ، ولذلك كره الشعوبيون الحكم الاموى وعملوا ضده • فأعانوا العباسيين وانخرطوا في سلك دعوتهم •

وممن يذكر من شعراء الشعوبية في عصر بني أمية اسماعيل ابن يسار • دخل مرة على هشام بن عبد الملك فأنشده قصيدة يفخر فيها بعصبيته ، ويمجد تاريخ الفرس وملوكهم يقول فيها :

اني وجدك ما عودي بذى خور	عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجـدى لا يقاس به	ولي حسام كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقـوام ذوى حسب	من كل قرم بتـاج الملك معموم
جحاجح سـادة بلج مرزابـة	جـرد عتـاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا	والهرمـزان لفخـر أو لتعظيـم

فغضب هشام وقال : أعلي تفخر بأعـلاج قومك ؟ • غطوه في المـاء • فغطوه في البركة حتى كادت تخرج نفسه • ثم أمر باخراجه ونفـاه الى الحجاز من وقته •

وفي مطلع الدولة العباسـية انتشرت حركـة الشعوبية ، ونطق بلسانها جماعة من العلماء والادباء والشعراء بينهم بشار ابن بـرد • وكان ديك الجـن من الشعراء المتعصبين على العرب • ذكر أبو الفـرج في الاغاني أنه كان يقول : « ما للعـرب علينا فضـل » •

واتهم أبو عبيدة معمـر بن المثنى العالم الراوية المشهور بالشعوبية ، وبأنه ألف الكتب في مثالب العرب ورجالهم •

وأدت هذه الحركة الى أن يدافع العرب عن أنفسهم فقاوموا وألفوا كذلك الكتب التى تتحدث عن مآثرهم كما نظم شعراؤهم فى فضائلهم ومثالب الفرس وغيرهم من الشعوب ٠

وكانت نتيجة هذا كله زاد من الكتب والقصائد بقى لنا وأمثلة كثيرة من المفاخرات والمناظرات حفظتها كتب الأدب والاخبار ٠

الزندقـــة :

واذا كانت الشعوب نتيجة لقلة العناصر غير العربية وخاصة الفارسية فى المجتمع العربى فان هذا أيضا ، كان من آثاره تلك الحركة الفكرية والاجتماعية التى عرفت بالزندقة وكان من رجالها وروادها الاوائل جماعة من الموالى الفرس ومن الشعوبية غالبا ٠

والزندقة هذه كلمة قد ترجع فى أصولها الى الفارسية ، ولكنها كانت تعنى غالبا معانى كثيرة ، فهناك زندقة فكرية ، وزندقة دينية ، وزندقة اجتماعية ٠

فأما الزندقة الفكرية فهى الاعتقاد ببعض عقائد الفرس القدماء ، وان كانت لا تعنى بالضرورة الخروج عن الاسلام الى الالحاد والتوقف عن العبادات ٠

وأما الزندقة الدينية فهى معاداة الدين الاسلامى ، والتهجم على القرآن ، تعظيم الديانات الفارسية القديمة ومحاولة التحدث عن فضائلها - وما الى ذلك ، كالحديث عن النار والطين وفضل النار على الطين -- وقد تكون الزندقة هنا كذلك الاعتقاد فى المانوية أو الزرادشية أو المزدكية ٠

وأما الزندقة الاجتماعية فهي الخروج عن حدود الاسلام والمجتمع الاسلامي والاخلاق الاسلامية ، والاسراف في ذلك والتجاهر بالاثم ، أو التحرر وعدم التحرج في ارتكاب بعض المحرمات ، والتهتك ، أو اظهار الاستهتار بالقيم والمقدسات ·

ووجد بين الادباء والشعراء من وسموا بالزندقة الفكرية أمثال ابن المقفع وصالح ابن عبد القدوس ·

ومنهم من رمي بالزندقة الاجتماعية أمثال عصبة المجان التي كانت تضم والبة بن الحباب والحسين بن الضحاك ، ومطيع ابن اياس ، ويحيى بن زياد وأبا نواس ·

واشتهر هؤلاء بالظرف ، وضرب بهم المثل فيه حتى قال شاعرهم :

« تيه مغن وظرف زنديق »

وأتيح لهؤلاء وهؤلاء فرصة الحرية التي نعم بها الناس أيام الدولة العباسية ، وخاصة بعد أبي جعفر المنصور أي في أيام المهدي والرشيد والامين والمأمون · فأسرفوا في استغلال هذه الحرية ، وجاهروا بالمعصية حتى قال بشار :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقال سلم الخاسر :

من راقب الناس مات غما ... وفاز باللذة الجسور

ونادى أبو نواس بالجهر في شرب الخمر وترك التستر :

الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهر

وكان من آثار هذا التحرر في القول والعمل في المجتمع

العباسي ميـل الناس الى المتعـة وخاصة لما اشاعتـه الحضارة المادية المزدهرة بينهم من الرغبـة في الحيـاة والاقبـال عليها والعب من لذاتها ٠

وأصبح الناس يقبلون على الدنيا ويدينون « بالابيقورية » أو مذهب الاستمتاع بالحياة الدنيـا لانها فتـرة قصـيرة ونزهة عارضة من الحماقة ألا يغتنمها الانسان قبل فوات الاوان ٠ وهي ليست جديرة بأن تقضى في طلب المستحيل أو الممتنع ٠

وتفنن النـاس في ضروب الاستمتاع أو التلذذ ، في المأكل والملبس والمشرب فـي السماع والغناء ، والاستمتاع بالخمـر والنساء ، وبالخدم والجوارى وكل ما تتيحه الحضارة ٠

الجـــوارى والحيـــاة :

أثرت الجوارى فـي المجتمع العباسي آثارا متعـددة ، فقد ساعدت على ما سرى فـي المجتمع من روح العبث وان كانت قد دفعت الشعراء الى لون من الشعر لم يكن معهودا من قبل هو ذلك الغزل الظريف ، أو الغزل الرقيق الذى تحس فيه بروح الحضارة والرفاهية ٠ وكانت الجوارى تشيع في المجتمع حب الجمال في صوره المختلفة ، بما يلتزمنه من التجمل فـي الملبس والزينة ، وبما يحرضن عليه من الاهتمام بالزهر والطيب ، وكذلك رققن طباع الناس في المعاملة وآداب السلوك في الشراب والطعام ٠

وتأثر الادب بالجوارى آثارا عدة فقد كن وحيا للشعراء ، كانوا يتعشقون المغنيـات وينظمون الشعر الجميل فيهن ٠ كان

بشـــار يعشق جارية تغنى ويطرب لغنائها وصوتها فيصل صوتها الى قلبه قبل أن يجلس اليها ٠

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم ٭ الاذن تعشق قبـل العـين احيـانا

وكان الجوارى أنفسهن أديبات يعرفن الاخبـــار والاسمار ويحفظن الشعر ويروينه، بل كان منهن من ينظمنه مثل عريب جارية المأمون ٠ وكانت من أعظم جوارى العصر ٠

بشـــار بن بـــرد

ولد بالبصرة حوالى سنة ٧٧ هـ وتوفى
فى خلافة المهدى سنة ١٦٨ هـ

ولد بشار فى البصرة ابان الدولة الاموية فى خلافة عبد الملك ابن مروان من أحد كبار خلفائها(١)، ودهاتها (توفى عبد الملك سنة ٨٦ هـ) • او الوليد ابنه من أب (برد) فارسى الاصل من موالى بنى عقيل بالبصرة •

ونشأ فى حجـر هذا البيت العربى العريق ، وكان يفخـر بولائه فيهم ، وبما أخذه عنهم من الفصاحة • يقول :

انني مـن بنى عقيـل بن كعب   موضع السيف من طـلا الاعنـاق

وبنو عقيل من بنى عامر من « قيس عيـلان » لهـذا اعتبر شاعر قيس كلهـا • وبهذا خاطبـه القيسى بهـذا اللقب ، ونبهه الى خطورته ، وما ينبغى عليه من المحافظة عليه • يقول محمد ابن حازم الباهلى :

اتـق الله أنت شـاعر قيس   لا تكن وصمـة عـلى الشـعراء(٢)

ويفخر بقيس فيقـول :

أمنت معـرة الفحشاء انى   أرى قيسـا تضر ولا تضـار
كأن الناس حين تغيب عنهم   نبات الأرض اخطـاه القطـار
وقد كانت بتدمـر خيل قيس   فكان لتدمر فيهـا دمـار
بحى مـن بنى عيـلان شوس   يسير الموت حيث يقـال ساروا
ومـا نلقاهم الا صـبرنا   بـرى منهـم وهـم حـرار

---

(١) يختلف الناس فى مولده •

(٢) راجع الاغـانى ، وكتاب « بشـار بن بـرد » لحسـين منصور ص ٢ ، طبع القاهـرة ١٩٣٠ •

فبشار اذا يشارك في هذا الصراع القبلي الذي احتدم ابان العصر الاموى بين القيسية واليمنية ، ويأخذ جانب القيسية، لولائه ، ولانه اعتبر شاعر قيس بالبصرة ،وبخاصة بعد موت جرير والفرزدق (١) ·

وتنازعته العصبية الفارسية ، فلم ينج من الفخر بها ، اذا ما اثاره أحد أو غمزه في نسبه غامز · وتراه يجمع بين الولاءين ، فيفخر بعروبته ولاءا ، وبأصله الفارسى ، وقد بلغ به بعض الناسبين ، ورواه الاغانى الى أحد ملوك الفرس القدماء وهو « جستاسب » ، ويشير الى هذا النسب العريق في شعره ، حين يشمخ به فيقول (٢) :

ورب ذى تاج كريم الجد كآل كسرى وكآل برد
قصلته عن ماله والولد

ويقول :

ونبئت قوما بهم جنة	يقولون من ذا وكنت العلم
الا أيها السائل جاهدا	ليعرفنى أنا أنف الكرم
نمت فى الكرام بنى عامر	فروعى وأصلى قريش العجم

فالشاعر اذا منقسم النفس بين الولاء للعرب ، الذين ترعرع فيهم ونشأ ولقن الفصاحة والشعر ، والولاء للفرس الذى يجرى دمهم في عروقه ، وهو في هذا وذاك ينظر الى نفسه فيجد المتناقضات ، وهو شاعر موهوب ، من أصل عريق ، فمن حقه أن ينزل بين الناس منزلة كريمة رفيعة ، لكنه لا يجد فى الوقت نفسه

---

(١) الاغانى ـ دار الكتب ، ج ٣ ، ص ١٣٩ ·

(٢) من أرجوزته المشهورة فى عقبة بن سلم·

تلك المكانة التي يرجوها ، ويأبى القدر الا أن يزيد في تعاسته ، والا أن يباعد بين ما هو عليه من واقع الحال، وما كان يصبو اليه ، فيولد قبيح الوجه بالعمى ، ويأبى الا أن يضاعف هذا القبح فيصاب بالجدرى فيزيده تشوها ، ويشب ضخم الجثة كالفيل أو كالثور ، فيما يصفه الرواة • وكان جاحظ العينين يغشاهما لحم أحمر زاد في قبحه حتى صار يضرب به المثل ، يقول مخلد بن علي السلامي في هجاء ابراهيم بن المدبر :

اراني الله وجهك جاحظيا　　وعينك عين بشار بن برد

ومما روى في صفاته • قال الاصمعي : « وصف لي بشار فكان أقبح الناس عمى ، وأفظعهم منظرا » ،وقال: « كان بشار ضخما عظيم الخلق والوجه مجدورا ، جاحظ المقلتين ، وقد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى وأفظعهم منظرا ، وكان اذا أراد ان ينشد صفق بيديه وتنحنح وبصق عن يمينه وشماله ثم ينشد فيأتي بالعجب » •

وكان لشكل بشار وضخامة جثته أثر على نفسه ، فكان يخشى الناس أن ينبذوه به ، وكان يقف منهم اذا ما تعرضوا لصورته موقفين ، فيهيج تارة ويثور اذا ما رأى ضعف من أمامه من شاعر أو غيره ، فاذا كانت امرأة سلقها بلسان خبيث ، وأما اذا خشى من أمامه أن يشهر به سالمه وضعف أمامه •

وكان بشار يلقب بالمرعث ، لانه كان يلبس رعثين أو قرطين في أذنيه كعادة الفرس القدماء • ويكنى بأبى معاذ •

ويحلل بعض الباحثين ـ الدكتور النويهى ـ شخصية بشار ابن برد في ضوء علم النفس وعلى أساس ما عرف من صفاته

وآخلاقه ، وسلوكه الاجتماعي ، فيراه أعمى دميما ، مولى مضطهدا منجوما حساسا أبيــا مشاكسا ، سليطا فاجرا ، ، متشككا ممقوتا ، كارها للبشر ، الى جانب بعض الصفات الخـيرة ، فقد كان بــارا بأهله وولده وبعض أصدقائه ، كريما ، صدوقا فــي صداقته ، صفوحا أحيانا ، فكها شجاع القلب والرأى ، عنيدا ٠

وحاول النويهي أن يكشف عن أثر بيئته في طبعه ، من خلال تلك الصفات التي ركبت منها شخصيته ، وهو يرى أن العوامل الاساسية فــي اصطباغ شخصيته بتلك الصفات الصارخة هــي خلقته : عماه ، ودمامته ، وحدة شعوره ، وتهتكه الجنسي ٠ وهو مهما تكن البيئة التي يعيش فيها فلابد من أن يتعذب قدرا من العذاب بسبب حرمانه البصر ، وقبح منظره ٠

وكان بشــار ميالا الى العبث منذ صغره ، نزاعا الى الهجاء والسخرية بالناس ٠ وقد بــدأ قول الشعر في صبــاه ، وناش بلسانه مع وقع في طريقه ، فلجأوا الى والده لينهاه فكان يضربه ، فلما ضاق به وزجره لكثرة شكوى الناس منه قال له بشار : يا أبت ان هذا الذى يشكونه اليك مني هو قول الشعر ، واني ان أتممت عليه أغنيتك وسائر أهــلي - فاذا شكوني اليك فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول : (ليس على الاعمى حرج) ٠ فلما أعادوا الشكوى على أبيه قال لهم ما ذكره ابنه فانصرفوا قائلين : والله لفقه برد أغيظ لنا من شعر بشار ٠

وكان عابثا لا يرعى حدود الدين ، والمجتمع ، أو التقاليد

ولا يرعوى من زجر ، ويجرى مع رغباته • كما يقول :

« ولقـد جريت مع الصبا طلق الصـبا »

ويدعو الى اقتحام اللـذات فيقـول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيبات الفاتك اللهـج

وفي شعره دعوة صارخة الى الاباحة وعدم مراعاة الحرم في النساء يقول :

لا يؤيسنك مـن مخبـأة   قـول تغلظـه وان جـرحا
عسر النسـاء الى مياسرة   والصعب يسهل بعدما جمحا

وكان يضع من الشعر السهل في الغزل الفاضح ما يستهوى قلوب النساء وشباب البصرة فيجـرى عـلى كل لسان ، مما دعا متنامهـا ونساكها يثورون بـه • ويطاردونه غيرة عـلى الدين والاخلاق في بلدهم • وكانوا يقولون أنهم لا يخشون شيئا على شباب البصرة أشد من شعر هذا الاعمى لانه دعوة للفجور سافرة •

ويبدو أن بشارا لم يكن يكتفي من الامر بالقول ، بل كان يتبعه بالفعل • وكان له في منزله مجلسان أحدهما قريب المدخل ، ويجلس فيـه وصحابته مسـاء يشربون ويسمعون الغنـاء من القينات ، ومجلس آخـر في داخـل المنزل يجتمع فيه بمن يرى الاجتماع به من الرجـال والنساء ، وكانت بعض النسوة يأتينه ليسمعن الشعر ، أو ليصنع لهن الشعر فيحطن به ويسجل أنبـاء المجلسين وهما «الرقيق» و «البردان» ، فيقول ويحكي زيارة جماعة من النسوة له في بيته ، وتأنيب الحسن البصرى ـ وكان يسمي القس ـ اياه في مجلسه :

لما طلعن من الرقيق على بالبردان خمسا
وكأنهن أهله تحت الثياب زففن شمسا
باكرن عطر لطمية وغمسن في الجادي غمسا
لما طلعن حففنها وأسغن ما يهمسن همسا
وسألنني : من في البيو ت ؟ فقلت ما ياوين انسا
ليت العيون الطارقا ت طمسن عنا اليوم طمسا
لولا تعرضهن لي يا قس كنت كانت قسا

وكان لتهتكه قصص تروى ، وهو لا يرعوى ، يشرب جهارا ، ويأتي من الافعال المنكرة ، ما يثير عقلاء الناس ، فيسمع وهو يؤذن في غير وقت الصلاة ، ويخرج مع الناس ، متظاهرا بقضاء الفريضة ، فيجنح الى بيت للقيان يقضى فيه وصاحبا له أوقات الحج حتى اذا عاد الحجيج الى البصرة لحقا بمواكبه فيظن الناس أنهما حجاولم يحجا الا الى اللهو والشراب ·

ويسجل صاحبه في هذه الزورة « سعد بن القعقاع » ذلك فيقول فيما يروى عنه : « قال يوما لبشار وهو ينادمه : ويحك يا أبا معاذ ، قد نسبنا الناس الى الزندقة فهل لك آن تحج بنا حجة تنفي ذلك عنا ؟

ـ قال نعم ما رأيت ·

فاشتريا بعيرا ومحملا ومركبا ، فلما مرا بمكان يقال له زرارة ، قال له : ويحك يا أبا معاذ ! ثلاثمائة فرسخ متى نقطعها ، مل بنا الى زرارة نتنعم فيها فاذا قفل الحاج عارضناهم بالقادسية وجززنا رؤوسنا فلا يشك الناس أنا جئنا من الحج ·

فقال بشار : نعم ما رأيت لولا خبث لسانك ، واني أخاف تفضحنا · قال : لا تخف ·

فمالا الى زرارة ، وما زالا يشربان الخمر حتى نزل الحجاج بالقادسية راجعين ، فأخذا بعيرا ومحملا ، وجزا رؤوسهما وأقبلا فتلقاهما الناس فقال في ذلك صاحبه سعد :

الم ترني وبشارا حججنا — وكان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبي سفر بعيد — فمال بنا الطريق الى زرارة
فآب الناس قد حجوا وبروا — وأبنا موقرين من الخسارة

ولم يقلع بشار عن هذه الزندقة الاجتماعية ، أو الاباحية ، والمجون ، حتى في أخريات حياته ، وكان المهدي الخليفة غيورا على الحريم فمنعه من ذكر النساء والغزل عامة لاستهتاره .

ويقول في ذلك :

يا منظرا حسنا رأيته — من وجه جارية فديته
بعثت الي تسومني — ثوب الشباب وقد طويته
والله رب محمد — ما ان غدرت ولا نويته
أمسكت عنه وربما — عرض البلاء وما ابتغيته
ان الخليفة قد أبى — واذا أبى شيئا أبيته
ونهاني الملك الهمام — عن النساء فما عصيته
بل قد وفيت ولم أضع — عهدا ولا رأيا رأيته

الى أن يقول :

ويشوقني بيت الحبيب اذا غدوت وأين بيته
حال الخليفة دونه — فصبرت عنه وما قليته

ويقول من أبيات :

قد عشت بين الريحان والراح — والمزهر في ظل مجلس حسن
وقد ملأت البلاد ما بين فغفور الى القيروان واليمن

شعرا تصلي له العواتق والثيـــب صلاة الغـــواة للوثن
ثم نهاني المهدي فانصرفت نفسي صنيع الموفق اللقن

ولكنه لم يرتدع تماما •

ولقد عاداه كما قلت جماعة مـــن نساك البصرة وعلمائها لهذا المسلك ولذاك الشعر الاباحي الماجن ، حتى ان واصل ابن عطـاء ضاق به مع أنه كان صاحبه زمنا يجلس معه في مجالس العلم ، لكنه خرج عن وقاره فاضطره الى معاداته ، وقال لاصحابه : أما لهذا الملحد الاعمى المكتني بأبي معاذ من يقتله ؟ « أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لبعثت اليه من يبعج بطنه على مضجعه ويقتله في جوف منزله وفي يوم حفله ، ثم لا يتولى ذلك منـــه الا عقيلي أو سدوسي » وكان يقول : « ان لمن آخـدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الملحـد الاعمى » •

وانتهى الامر بينهما الى أن نفاه واصل مع البصرة حوالى سنة ١٢٠ هـ والشاعر في أوج رجولته فقصد الى حـــران حيث سليمان بن هشـــام بن عبد الملك • وظل طريدا من البصرة الى سنة ١٣١ هـ قبيل استيلاء العباسيين بعام واحـد فقد توفي في هذا العام واصل بن عطاء •

وكـــان موقف مالك بـــن دينـــار كموقف الحسن البصرى وواصل بن عطاء ، تعرض لبشار مثلهما لاستهتاره • وكان مالك يقول : ما مع شيء أدعى لاهل هذه المدينـــة الى الفسق من أشعار هـــذا الاعمى •

وأصبح مالك يوما فقرع على بشار بابه فقال بشار :
ـ يا جارية ، أنظرى من هذا ؟

فرجعت وقالت ـ مالك بن دينــار ٠

فقال ـ ما هو من أحزابى ولا أشكالى ٠ أدخليه ٠

فدخل مالك وقال : يا بشار أتشتم أعراض الناس وتشبب بنسائهــم ٠

فقال بشار : لن أعود ٠ وما أن ولاه ظهره حتى عاد لمــا كان عليه وأنشــد :

غــــدا مــــالك بملامــــاته	على ومــا كان من باليــة
تــاول خودا هضيم الحشا	مــن الحــور معطوطة خاليــه
فقلت دع اللــوم فى حبهــا	فقبــــلك أعيت عذاليـــــه

وقد غرق بشــار فى لهوه ، وكان يوفر لنفسه المتعــة فى السكن والحياة ، يسكن دارا يجمع فيها كل ما يلــذه ، ويقتنى الخــدم والرقيق من الغلمان والجوارى ، ويقتنــى المغنيات أو يدعوهن للحضور الى مجالســه للسماع مع أصحابه ورفاقــه ، فيشربون الخمر على السماع ويتمعون بأطيب الطعام ٠

وكان يلبس حلة الشاعر من الديباج ، وحين يطرب يصفق بيديه ٠

ويغشى دور القيان بالبصرة ، وفى شــعره تسجيل لمجالس الغناء ٠ ومنــه تلك القصيدة التى يصف فيها مغنية تنشد بلحن مشهور ٠ يقــول :

وذات دل كان الحسن صورتها	باتت تغنى عميد القلب سكرانا
(ان العيون التى فى طرفها حور	قتلننا ثم لــم يحيين قتــلانا)
	(لجرير)
فقلت أحسنت يا سؤلى ويا سكنى	فاسمعينى جزاك الله احســانا
(يا حبذا جبل الريان من جبل	وحبــذا ساكن الريان من كانا)
	(لجرير)

قالت:فهلا فدتك النفس أحسن من — هذا لمن كان صب القلب حيرانا
(يا قوم اذني لبعض الحي عاشقة — والاذن تعشق قبل القلب أحيانا)
(لبشار)

فقلت أحسنت أنت الشمس طالعة — أضرمت في القلب والاحشاء نيرانا
فاسمعيني صوتا مطربا هزجا — يزيد صبا محبا فيك أشجانا
يا ليتني كنت تفاحا مفلجة — أو كنت من قضب الريحان ريحانا
حتى اذا وجدت ريحي فاعجبها — ونحن في خلوة مثلت انسانا
فحركت عودها ثم انثنت طربا — تشدو به ثم لا تخفيه كتمانا
(أصبحت أطوع خلق الله كلهم — لأكثر الخلق في حبيك عصيانا)
فقلت أطربتنا يا زين مجلسنا — فهات انك بالاحسان أولانا
فغنت الشرب صوتا مونقا رملا — يذكي السرور ويبكي العين ألوانا
(لا يقتل الله من دامت مودته — والله يقتل أهل الغدر احيانا)

واذا ما تركنا هذا الجانب من حياة بشار الى جانب آخر ، أكثر جدية ، وجدناه عالما فقيها أديبا جامعا يرتاد مجالس العلماء ، ويصحب جماعة من المعتزلة أمثال واصل ابن عطاء وعمرو بن عبيد زمنا ، ويسجل صداقته لزعيم المعتزلة في البصرة بجملة من القصائد قبل أن تسوء الحال بينهما ·

يقول بشار ممتدحا واصل بن عطاء في خطبته المشهورة التي أسقط فيها الراء للثغة في لسانه ، فجلى على من حضر من الخطباء :

فقام مرتجلا تغلي بداهته — كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد — قبل التصفح والاغراق في الطلب

وقال مرة أخرى :

أبا حذيفة قد أوتيت معجزة — من خطبة بدهت من غير تقدير
وان قولا يروق الخالدين معا — لمسكت مخرس عن كل تعبير

ولكن الخلاف بينهما لم يكن فيما يبدو قاصرا على استهتار بشار أو بسبب شعره الماجن في النساء بل كان كذلك للخلاف في العقيدة ، ولما جاء به لسان الشاعر من أشياء تخالف اتجاه المعتزلة، كالقول « بالجبر » وهم القائلون بالاختيار ، وكتناوله لرجال الدين والصحابة بكثير من السخرية وعدم الاحترام لاقدارهم ، ولقوله كذلك بمذهب الديصانية والرجعة ، وتفضيل النار على الطين ، والاعتقاد بالثنوية الفارسية ، والهين للنور والظلمة .

ومما يثبتون به جبرية بشار قوله :

طبعت على ما في غير مخير	هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد	وقصر علمي أن ينال المغيبا
فاصرف عن قصدي وعلمي مقصر	وأمضي وما أعقبت الا التعجبا

وفي الطين والنار ، والظلمة والنور يقول :

الارض مظلمة والنار مشرقة	والنار معبودة مذ كانت النار

وفي تفضيل ابليس على آدم لانه من النار يقول :

أبليس خير من أبيكم آدم	فتنبهوا يا معشر الفجار
ابليس من نار وآدم طينة	والارض لا تسمو سمو النار

لهذا رماه المعتزلة بالكفر والزندقة ، ولم يكن بشار فيما ورد من أخباره أو ذكر من شعره داعية الحاد أو زندقة فكرية ، بل ربما زلقت على لسانه بعض الآراء والافكار التي علقها في

---

(١) يروى أن بشارا زعم أن جميع المسلمين كفروا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم قيل له : وعلي أيضا فقال :

وما شر الثلاثة أم عمرو	بصاحبك الذي لا تصبحينا

دراساته ومعارفه التـي استقاها مـن علمه بالمذاهب والفـرق المختلفة ، وقد كان الرجل المثقف الذكى الواسع الاطلاع ٠

ومهما يكن من أمر فان العداء بينه وبين المعتزلة خلف لنـا من شعره قصائد في هجـاء واصل بن عطاء ، لتعقبه اياه ونفيه من البصرة ٠ فمما قال فيه :

مـا لى منيت بغزال لـه عنق   كنقنق الله ان ولى وان مثـلا
عنق الزرافـة مـا بالى وبالكم   تكفرون رجـالا كفـروا رجـلا

يريد أن المعتزلة كفروا الخوارج لانهم بدورهم كفروا عليا ، وسمى واصلا الغزال لانـه كان يسكن حـى الغزاليين بالبصرة فعرف بهذا اللقب ٠

ورد أحد شعراء المعتزلة وهو « صفوان الانصارى » أحـد أصدقاء واصل بن عطاء بقصيدة طويلة أنشدها عقب موت واصل ابن عطاء وعودة بشار الى البصرة ٠ قال (١) :

رجعت الى الامصار من بعد واصل   وكنت شريدا فى التهائم والنجد

يقول فيها مشيرا الى عقيدة بشـار التى عـاداه من أجلها ابن عطاء :

زعمت بان النار اكرم عنصرا   وفي الارض تحيى بالحجارة والزند
ويخلق فـي ارحامهـا وأرومها   اعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد

ويعدد فضائل الأرض وما فيهـا من الخـيرات والنعم الكبرى ثم يقول :

---

(١) راجع القصيدة بتمامها ص ١٠١ ـ ١٠٢ بشار بن برد لحسين منصور ٠

وفيها مقام الخل والركن والصفا ومستلم الحجاج من جنة الخلد

* * *

مفاخر للطين الذى كان أصلنا ونحن بنوه غير شك ولا جحد
وذلك تدبير ونفع وحكمة واوضح برهان على الواحد الفرد

* * *

ويقول :

اتجعل عمرا والنطاسي واصلا كاتباع ديصان وهم قمش المد(١)

* * *

فيا ابن حليف الطين واللؤم والعمى وأبعد خلق الله من طرق الرشد
اتهجو أبا بكر وتخلع بعده علينا وتعزو كل ذاك الى برد
كانك غضبان على الدين كله وطالب ذحل لا يبيت على حقد

ويرمونه بالشعوبية كما رمي بالزندقة والكفر والالحاد ، وكانت هذه الاتهامات فى ذلك العصر تعلق على الرءوس ، من يستحق ، ومن لا يستحق لمجرد شبهة ، أو قول يؤول على غير وجهته .

وقد رمي قوم بالشعوبية ومعاداة العرب ، ومن بينهم جماعة من كبار العلماء أمثال أبي عبيدة معمر بن المثنى . وأخذ على بشار تهجمه على العرب وافتخاره بالفرس وتفضيلهم ويروون على رأس الاتهام من الأدلة قوله :

سأخبر فاخر الاعراب عنى وعنه حين تاذن بالفخار
أحين كسيت بعد العرى خزا ونادمت الكرام على العقار
تفاخر يا ابن راعية وراع بنى الاحرار حسبك من خسار

الى آخر القصيدة .

---

(١) قمش المد : غثاء السيل .

وهي أبيات رد بها على أحد الأعراب ، وكان قد سخر به في مجلس أحد أعيان البصرة اذ دخل بشـار وعليه بزة الشاعر فقال الاعرابي : من الرجل ؟ فقيل له شاعر فقال : أمولى هو أم عربي ؟ فقيل له : مولى هو • فقال : ومـا للموالى وقـول الشعر فغاظ بشارا هـذا القول فنظم تلك الابيات •

وهي من نبت ثورة استفز لها ، ولم يكن عن عقيدة يعتقدها ، وكيف كان يعتقد ذلك وهو يمدح العرب من خلفاء بني أمية وكبار رجالهم وقادتهم ، ويمدح العباسيين وكبـار قادتهـم من العرب ويفخر بولائه لبني عقيل ، ويعتبـر شاعر قيس كما أشرنا من قبل ، ولكنه قد يثور على الولاء ، ويعتبره مزريا بالكرامة ، ولا يرى ولاءا الا لله تعالى وحده فيقول :

اصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم	مولى العريب فخذ بفضلك وافخر
مولاك أكـرم من تميـم كلهـا	أهل الفعال ومن قريش المعشر
فارجـع الى مولاك غـير مدافع	سـبحان مولاك الاجـل الاكبـر

وهي نفثـة أخرى من صدر مسجور ، وثـورة على ربقـة الولاء ، وصغاره ، وكيف لا يثـور والدين نفسـه جعـل الناس سواسية لا فرق بين عجمي وعربي الا بالتقوى والعمل الصالح • ولا شك أن هذه الثورة كانت من مصدور ضاق بعنجهية بعض الاعراب وتفاخـرهم الكاذب ودعاواهم بالانساب والاحساب • وهي الدعاوى التي عصفت بالدولة الاموية وهزت أركان المجتمع الاسلامي هزا عنيفا • وقد وضع الاسلام هذه الانساب والاحساب وأرساها النبي في خطبة الوداع •

شـــعره :

قال الجاحظ : كان بشـــار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع المتفننين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه ٠

وقال ابن شرف القيرواني : هو أول المحدثين وآخر المخضرمين ممن لحـق الدولتين ،عاشق سمع ، وشاعر جمع ، شعره ينفق عند ربات الحجال وعند مخول الرجال ، فهو يلين حتى يتعطف ويقوى حتى يستنكف ٠٠ وقد طال عمره وكثر شعره ، وطما بحـره ، ونقب في البلاد ذكره ٠

وقد أجاد بشـــار في فنون الشعر المختلفة ، وكانت شاعريته غنية متدفقة ٠ قال عن نفسه : لي اثنا عشر ألف بيت عين فقيل له : هذا ما لم يكن يدعيه أحد سواك ، فقال : لي اثنتا عشرة ألف قصيدة ، لعنها الله ولعن قائلها ان لم يكن في كل واحدة منها بيت عـــين ٠

وقد سئل مرة : ليس لاحد من شعراء العرب شعر الا وقد جاء فيه شيء استنكرته العرب وشك فيه وان شعرك ما فيه شك أو خطأ ٠ فقال : ومن أين يأتيني الخطأ ٠ ولدت هـــا هنا يعني في البصرة ، ونشأت في حجور ثمانين شيخا من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ٠ وان دخلت الى نسائهم فنساؤهم أفصح منهـم ، ويفعت فأبـديت الى أن أدركت فمن اين يأتيني الخطـأ ؟ ٠

واعتبر بشار آخـر من يستشهد بشعره ٠ وللاصمعي فيه ولأبي عمرو بن العـــلاء رأي حسن ، وكان ذا قدرة على أن يحاكي

شعر الاعراب ، ويصطنع أساليبهم • وقد روى أن خلفا الاحمر وأبا عمرو بن العلاء ، وكانا من رواة الشعر الكبار بالبصرة، يختلفان الى بشار بن برد يسألانه ما جاء به من الجديد ، وقد جاءاه يوما الى داره فقالا له : ما أحدثت يا أبا معاذ • فقد بلغنا عنك قصيدة في مدح سلم بن قتيبة • قال هي ما بلغتكما ، وقد علمت أن سلما يتباهى بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما أحب • ثم أنشدهما :

بكرا صاحبي قبل الهجير   ان ذاك النجاح في التبكير

فقال أحدهما : هلا قلت ، بكرا فالنجاح في التبكير • فقال : انه انما يريد أن يبنيها بدوية وحشية •

وكذلك فعل في أرجوزته البدوية التي مدح بها عقبة ابن سلم بن قتيبة وتحدى فيها عقبة بن رؤبة بن العجاج الذى زعم أن بشارا لا يحسن هذا الضرب من الرجز الذى برع فيه هو وآباؤه : ولكن بشارا أثبت له أنه قدير كذلك في فن الزجر كما هو قدير في فن الشعر ، وأن باستطاعته أن يلبس فيه لبوس الاعراب • يقول في هذه الارجوزة :

يا طلل الحي بذات الصمد   بالله خبر كيف كنت بعدى
أوحشت من دعد وترب دعد   سقيا لأسماء ابنة الأشد
قامت تراءى اذ رأتني وحدى   كالشمس تحت الزبرج المنقد
صدت بخد وجلت عن خد   ثم انثنت كالنفس المرتد
عهدى بها سقيا له من عهد   تخلف وعدا وتفي بوعد
فنحن من جهد الهوى في جهد   وزاهر من سبط وجعد
أهلى له الدهر ولم يستهد   أقواف نور الحسبر المجد
يلقى الضحى ريحانه بسجد   بدلت من ذاك بكا لا يجدى

* * *

وافق حظا من سعى بجد — ما ضر أهل القول ضعف الجد
الحر يلحى والعصا للعبد — وليس للملحف مثل الرد
والنصف يكفيك من التعدي — وصاحب كالدمل الممد

* * *

حملته في رقعة من جلدي — أرقب منه مثل يوم الورد
حتى مضى غير فقيد الفقد — وما درى ما رغبتي من زهدي

* * *

أسلم وحييت أبا الملد — مفتاح بباب الحدث المنسد
مشترك النيل ورى الزند — أغر لباس ثياب الحمد
ما كان مني لك غير الود — ثم ثناء مثل ريح الورد
نسجته في محكمات النسد — فالبس طرازي غير مسترد

* * *

لله أيامك في معد — وفي بني قحطان غير عد
يوم بذي « طخفة » عند الحد — ومثله أودعت أرض الهند
بالمرهفات والحديد السرد — والمقربات المبعدات الجرد
اذا الجبا أكدى بها لا تكدي — تلحم أمرا وأمورا تسدي

* * *

وابن حكيم ان أتاك يردي — أصم لا يسمع صوت الرعد
حييته بتحفة المشد — فانهمه مثل الجبل المنهد
كل امرىء رهن بما يؤدي — ورب ذي تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل برد — أنكب جافي عن سبيل القصد

فصلته عن ماله والولد

ويروض بشار نفسه على قول الشعر منذ صباه ، فيرى تحت سمعه وبصره كبار شعراء عصره يفدون الى مربد البصرة ، يتناشدون الأشعار ، وتثور في نفس الفتى الرغبة في قول الشعر ،

ومعارضة الكبار ، ويحاول أن يطاول جريرا ، وقد رمي به أمله هذا المرمى السابق فلا يجاوبه جرير بطبيعة الحال ، ولو جاوبه على ذاك السن لكان أشعر الشعراء كما يقول ·

ولكنه مع ذلك لا يدع نماذج أشعارهم تفلت من بين يديه ، فيروض نفسه على تقليد جرير والفرزدق ، ولا تزال أبياتهم ترن في أذنيه ، وتتسلل الى قصائده · ونرى مثالا عليها في الميمية التي هجا بها أبا جعفر المنصور ومدح ابراهيم بن عبد الله بن الحسن العلوى الذى ثار فى البصرة ، ثم أخمدت ثورته · قال بشار :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم   وما سالم عما قليل بسالم

وينهج فيهما طريق نقيضتين ميميتين احداهما للفرزدق ، قالها فى مقتل قتيبة بن مسلم، يشمت ويمدح سليمان بن عبدالملك مطلعها :

تحن بزوراء المدينة ناقتى   حنين عجول تبتغى البوائم

وثانيتهما لجرير يقول فى مطلعها :

الا حي ربع المنزل المتقادم   وما حل مذ حلت به أم سالم

وتأثره واضح في بعض معانيهما وفي الصياغة والألفاظ ، مما يدل على أنهما كانتا تدوران في خلده أثناء نظمه لقصيدته · وربما جعل من قصيدته هذه نقيضة ثالثة ليعارض بها الشاعرين الكبيرين ، ويروض بها القول محاولا أن يطاولهما ، وتمر فى كلام بشار على عبارات تستدعى مثيلاتها فى قصيدة الفرزدق أو قصيدة جرير · فاذا مررت بقوله (بشار) :

فلا تجعل الشورى عليك غضاضة   فان الخوافى قوة للقوادم

لا شك تذكر قول جرير :

وريش الذنابى تابع للقـــوادم

ونمى بقول بشار كذلك

على الملك الجبار يقتحم الردى　　ويصرعه فـي المـازق المتلاحم

وهو صدى لقول جرير

وقبلك ما أخزى الاخيطل قومه　　وأسلمهم للمـــازق المتلاحـم

وفـي بيتـــه :

كأنك لـم تسمع بقتل متـوج　　عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم

معنى قول الفرزدق وصياغته في قوله :

كأنك لم تسمع تميما اذا دعت　　تميم ولم تسمع بيوم ابن خازم

ولم يكن تأثره في شعره بهذا النموذج الذى يقدمه شـعراء النقائض بالبصرة فحسب ، بل تأثر كذلك بقدامى الشعراء من جاهليين ومخضرمين ٠ ويروى الخريمي الشاعر أن بشارا قال : لم أزل مذ سمعت تشبيه امرىء القيس شيئين بشيئين فـي بيت واحد حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا　　لدى وكرها العناب والحشف البالي

أعمل نفسي في تشبيه شيئين بشيئين حتى قلت :

كأن مثار النقع فـوق رءوسنا　　وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

وكان لهذا الاحتذاء للشعر القديم قد يورد بعض قولهم في شعره ، أو قـد ينزلق دون ارادة عـلى لسانه ، فيتهمـه العلماء والمعاصرون من الرواة بالسرقة من القدماء ، فقد اتهم بسرقة بعض أبيات المتلمس الشاعر الجاهلي ٠

ولم يكن شعر بشـــار كله يتجه هذا الاتجـاه الى القديم ، يحذوه ، ويصطنع ديباجتــه بل كان يجمع بين القديم والحديث ، ولهذا غمزه بعض النقاد بالتخليط فى الشعر ٠

وكان اسحاق الموصلى يتهمه بذلك فيرى أن أشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا ٠ أليس هو القائل :

انما عظـم سـليمى حبتى ... قصب السكر لاعظـم الجمل
واذا ادنيت منهـا بصـــلا ... غلب المسك عـلى ريح البصل

لو قال كل شيء جديد ثم أضيف اليه هذا لزيفه ٠

ولم يكن الضعف الذى يرد فى شعره ناجما عن التخليط بقدر ما هو راجع الى أن بعضه من مراحل الصبى الاولى ، وقد ذكرت الاخبار أنه قال الشعر فى العاشرة من عمره ٠ ولعله يقصد به خطاب مستوى مع الناس ٠ ونبــه هو الى ذلك حين سئل عما يجيء فى شعره مع الهجين المتفاوت مثل قوله :

ربابـــة ربـــة البيـت ... تصب الخـــل فـــى الزيت
لهـــا عشـــر دجاجـــات ... وديـك حســن الصـــوت

فقال : لكل وجه ٠ وهذا قلته فى ربابة جاريتى وأنا لا آكل البيض مع السوق وربابة لها عشر دجاجات وديك ، فهى تجمع لى البيض ٠ وهذا عندهــا أحسن من « قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل » عندك ٠

وقد يكون بعض هذا الشعر الضعيف فى أسلوبه من المرتجل فى المناسبة العابرة أو للفكاهة والتندر من مثـل قوله انه رأى حماره فى النوم وكان قد مات ، فسأله : لم مت الم آكن أحسن اليك ؟ فقال هذه الابيات :

سيلى خــذبى أتانــا | عنــد بــاب الأصبهــانى
تيمتنـــــى بـــــدلال | وبـــدل قـــد شــجانى
تيمتنـــى يـــوم رحنـــا | بثنايــــاها الحســـــان

الى أن قـــال :

فلـــذا مت ولـــو عشــــ ـــــت اذن طـــال هــوانى

ونعلم بعد هذا أن بشـــارا كان من المطبوعين الذين يرتجلون الشعر ، وأنه قد يصنعه للنائحات والناديات كما يصنعه للمغنيات، وهو الى جانب هذا يقوله في المناسبات العظام فى فتح أو نصر أو مديح عظيم، أو قائد جليل أو خليفة فيرتفع الى مستوى المناسبة والمقـــام ٠

ومن هنا نلاحظ أن شعره التقليدى عامة ، والذى ينهج فيه نهج القدماء غالبا ما يكون فـــى المديح والموضوعات الرصينة ٠ ومنه البائية الشهيرة فى مديح مروان بن محمد ويعرض فيها للفخــر بقيس عيـــلان فيقـــول :

جفا وده فازور أو مل صاحبه | وازرى به ان لا يـــزال يعاتبه
خليلى لا تستنكرا لوعـــة الهوى | ولا سلوة المحزون شطت حبائبه
شفى النفس ما تلقى بعبدة عينه | وما كان يلقى قلبـــه وطبائبـــه

ويقول بعد النسيب :

اذا كنت فى كل الامور معاتبا | صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا اوصل اخاك فانه | مقـــارف ذنب مـــــرة ومجانبـــه
اذا انت لم تشرب مرارا على القذى | ظمئت واى الناس تصفو مشاربه

ويقول فى الوصف فى نمط أعرابى : (حر الصيف فى الصحراء)

فلما تولى الحر واعتصر الثرى | لظى الصيف من نجم توقد لاهبه
وطارت عصافير الشقائق واكتسى | من الآل أمثـــال المـــلاء مساربه
وصد عن الشول القريع واقفرت | ذرى الصمد ما استودعته مواهبه

ولاذ أمها بالظل واستوقض السفا — من الصيف نتاج تخب مواكبه
غدت عانة تشكو بأبصارها الصدى — الى الجاب الا أنهـا لا تخاطبه

وفي فخـرها يقـول :

اذا الملك الجبار صعر خـده — مشينا اليـه بالسيوف نعاتبـه
وكنـا اذا دب العـدو لسخطنا — وراقبنا في ظاهـر لا تراقبـه
ركبنـا لـه جهـرا بكل مثقف — وأبيض تستقي الدمـاء مضاربه
وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى — وبالشوك والخطي حمـر ثعالبه
غدونا له والشمس في خدر امها — تطالعنا والطل لم يجـر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه — وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كان مثار النقع فـوق رءوسنا — وأسيافنا ليل تهـاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجـاءة انـنـا — بنـو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا فريق في الاسار ومثله — قتيل ومثـل لاذ بالبحـر هاربه
وأرعن يغشي الشمس لون حديده — وتخلس أبصار الكماة كتائبـه
تغص به الأرض الفضاء اذا غدا — تزاحـم أركان الجبـال مناكبه

فهذه القصيدة قوية أسر الكلام ، جزلة الصياغة ، لا تظن بصاحبها لينا ولا طراوة ، وشتان بين هذا النمط والنمط الذي أشرنا اليه في شعره المرتجل •

ولا شك أنه كان فـي مثل هـذا الشعر الذي يقصد به الى الحصول على الجائزة يعمد الى تثقيفه وتنقيحه وقد قيل له مرة : بم فقت أهل دهرك، وسبقت رجال عصرك في حسن معاني الشعر وتهذيب ألفاظه فقال : لاني لم أقبل كل ما تورده على قريحتي ويناجيني به طبعي ويبعثه فكري ،ونظـرت الى مغارس الفطن ومعادن الحقائق ولطائف التشبيهات ، فسرت اليهـا بفهم جيـد وغريزة قوية • فأحكمت سبرها وانتقيت حـرها ، وكشفت عن حقائقها ، واحترزت من متكلفها » •

ومع ذلك فان هذا الشعر التقليدى من شعر بشـار لم يكن مناط شاعريته وابداعه بل ان كثيرا منه كان مطبوعا دون تكلف يأتي جميلا، فيه طلاوة الطبع وجمال الشاعرية بل ان به الصدق، والانفعال بالموقف ، وفيه الابداع والاختراع ٠

غزله وموقفـه من المـرأة :

أكثر غزل بشار فى نوع خاص من المرأة هي المرأة الجارية ، أو الغانية المغنية ، وكانت النساء يأتينه أو كان يزورهن في بيوت القيان فيعاتبنه ويعاتبهن ، ويقول فيهن الشعر الخليع الماجن ٠

ويمكن أن نعطي صورة لمـا كان يجرى بينه وبينهن ، وأى نوع من المرأة كان يلقى ويصور فى شعره فى كثـير مما روى أبو الفرج فى الاغانى ٠ ومنه قوله :

« كان بشار يهوى امرأة من أهـل البصرة فراسلها يسألها الزيارة ،فوعدته بذلك ثم أخلفته وجعـل ينتظرهـا ليلته حتى أصبح ، فلما لم تأته أرسل اليها يعاتبها فاعتذرت بمرض أصابها فكتب اليها بهذه الابيات :

يا ليـلتى تـزداد نكـرا ❊ من حب من احببت بكـرا
حـوراء ان نظـرت اليــ ❊ ــك سقت بالعينين خمرا

ويروى أنه كان يجتمع الى النسوة فى بيته بمجلسه بالعقيق أو بالبردان ٠

وكانت بالبصرة قينـة لبعض ولد سليمان بن على وكانت حسنة بارعـة الظرف ، وكان بشار صديقا لسيدها ومداحا له فحضر مجلسه يوما والجـارية تغنى فسر بحضوره وشرب حتى

سكر ونام ونهض بشــار فقالت له الجارية يا أبا معاذ أحب أن تذكر يومنا هذا فى قصيدة ولا تذكر فيها اسمى ولا اسم سيدى وتكتب بها الى فانصرف وكتب اليها :

وذات دل كأن البـدر صورتها باتت تغنى عميد القلب سكرانا

(القصيدة)

مثل هذا الشعر الذى يتغزل فيه بشــار بجــوارى البصرة وقيانها وبعض نسائها كان يعجبهن فيطربن له ويستزدنه منه . وكان ببشار عبث ومجون لا شك ، وقد صور هذا العبث فى قصائده الغزلية مثل قوله :

أمتــا بـدد هـذا لعبى ووشـاحى حلـه حتى انتثر

أو قوله :

قد لامنى فــى خليلتــى عمـر واللـوم فى غـير كنهه ضجـر

ويقول فيها :

حسبى وحسب الــذى كلفت به منـى ومنــه الحديث والنظــر
أو قبلة فى خــلال ذاك ومــا بــأس اذا لـم تحـل لى الأزر

ويعتبر هذا الشعر الماجن الخليع الذى انطلق فيه بشار على سجيته ، وجاء فيه بكثــير من البديع وصور التجديــد فى الموسيقى والتعبير ،وقد أجاد وصف النساء ، وصورهن صورا بصرية جديدة جميلة وهو الأعمى ،ولكنه يدرك ما يقول، ويعلل قدرته على هذا التصوير البصرى فيقول :

عميت جنينـا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلـم موئلا

ويصف شعره :

وشعر كنوز الروض لاءمت بينه	يقول اذا ما احزن الشعر اسهلا

فنعرف هذا الشعر السهل يأتي بكل مشرق بديع في المعاني والأسلوب . مثل قوله :

لم يطل ليلي ولكن لم أنم	ونفى عني الكرى طيف ألم
واذا قلت لها جودي لنا	خرجت بالصمت عن لا ونعم

وقد أعجب به أبو عمرو بن العلاء واعتبره أبدع الناس بيتا . وفي وصف جمال النساء يقول :

حوراء ان نظرت اليك	سقتك بالعينين خمرا
وكأن رجع حديثها	قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها	هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليه	ثيابها ذهبا وعطرا

ومع هذه الصفات البصرية ، التى أعجب بها النسوة ممن نعتهن ، فانا نلاحظ أنها صفات عامة لا تدقيق فيها ،وهي صفات من مخزونه من الشعر العربي فصفة العيون بالحور ، وصفة المرأة في اللون بالصفرة والذهب وما اليها صفات متداولة .

لكن الجديد ها هنا مثلا تحويل صفة الكلام الى صفة بصرية . في تشبيه الحديث بزهر الرياض . وهذا من مواضع البديع في شعره لانه تجديد في المعنى والصورة .

على أن بشار بن برد كما نلاحظ في كثير من الشعر الذى قاله في الغزل ، لم يكن بذلك العاشق الوله المعذب في العشق

والحب ، وانما جرت معاني العشق على لسانه ولم يكن فيه صادقا تماما ، ولهذه عابه بعض الكوفيين في قوله :

نفسي يا عبد عني واعلمي أنني يا عبد من لحم ودم
ان في بردي جسما ناحلا لو توكات عليه لا نهدم

فقد رأى منه جسدا كالجاموس ، ويدعي النحول في الحب . ولعل هذا ما جعل طه حسين يعيبه ويحمل عليه ، ويرى في غزله قولا غليظا لا رقة فيه ، ولا عاطفة ، ويقول في شعره عامة :

« ليس شفافا كشعر أبي نواس والحسين بن الضحاك ومطيع وحماد عجرد ، وانما هو شعر كثيف صفيق لا يدل من نفس صاحبه على شيء ، وهو كاذب أبدا لا يحفل بالكذب » .

فغزله عند طه حسين ليس صادرا عن صدق ، انما هو تهالك على اللذة وافحاش وامعان فيه . فلم يعرف عنه أنه أحب ، وشعره في عبدة التي يردد اسمها على لسانه معظمه متكلف (١) . وكذلك رأى المازني فقال انه لم ير في المرأة غير الأنثى والجنس (٢) .

وتعجب من كلام طه حسين في مثل هذا الشعر الذي يصفه بالصفاقة ، وقد أعجب به القدماء كأبي عمرو بن العلاء ، وها هو ابن المعتز يقول : وكان شعره أنقى من الراحة وأصفى من

---

(١) حديث الاربعاء ج ٢ .
(٢) بشار بن برد (سلسلة اعلام الاسلام) ص ٩٥ — ١٠٠ .

الزجاجة وأملس على اللسان من الماء العـذب .

والحق أن شعر بشار بن برد شعر شاعر صناع ، وهو فى الغزل يأتى بالغزل الرقيق المرقص والمطرب ، وقد فتن به نساء البصرة وشبابها ، ولو كان شعره الغزلى سخيفا كما يقول طه حسين لما فتن به أحد ، ولكفى نفسه بنفسه ولـم يمتد أحد لحربه تلك الحرب التى عرفتموها .

أما أن بشارا لم يكن صادق العاطفة فى الحب ، وأن غزله كان غزلا مصنوعا فهذا شيء آخر ، ومع ذلك فقد أحسن بشار اصطناع مواقف العاشقين ، وهذه قضية من قضايا الخلق الفنى عامة وليست قضية بشـار فحسب ، أينبغـى أن يعانى الفنـان موضوع فنــه ، بمعنى أيشترط للغـزل أن يكون زيـر نساء ، أو للعاشق أن يكون قد مر بتجربة حب عنيفـة ، ألا يستطيع أن يتمثل .

قد تكون التجربة مما يعمق احساس الفنان وشعوره ، ومن ثم تزيد تعبيره غنى وعمقـا .

ومع ذلك فها هو باحث آخر ـ الدكتور النويهى ـ يعارض مقال الدكتور طه حسين ، ويكشف عن جوانب الصدق والعاطفة فى شعره الغزل . فهو يرى فى المـرأة جمالا يعلـو على الجمال الجسدى . ويقول أن شعره المفحش فى الغزل قليل بالنسبة لجملة

شعره في هذا الموضوع ، وليس جل غزله كذلك بل فيه ما هو حلو رقيق ، مفعم بالصفاء والحنان (١) •

ويردد بشار أسماء بعض النسوة في غزله أمثال عبدة ، وسلمى ، ويدعوها بالتصغير أحيانا سليمى ،ووهبى، وحمدة ، وسعدى ، وحبابة ، ويدعوها مرخمة أحيانا ، بحياء ، وطيبة ، وأسماء ، والرباب ، وبانة •

ولا نعدم في غزله الشكوى ، كما يشكو العشاق من الام الحب • يقول مخاطبا عبدة :

يا عبد حتام لا ألقاك خالية ... ولا أنام لقد طولت تعذيبي

ويقول عنها كذلك :

اذا ذكرت دار الهوى بمسامعي ... كما دارت الصهباء في رأس شارب
فان يك عني وجهها اليوم غائبا ... فليس فؤادي من هواها بغائب

وهو يشعر بالأسى لفراق سلمى فيقول :

سيقت الى الشام وما ساقها ... الا الشقا والقدر الغالب
أصبحت قد راح الذي دونها ... ورحت فردا ليس لي صاحب
لا أرفع الطرف الى زائر ... كأني غضبان أو عاتب
يا راهب المصر لنا حاجة ... فانظر لنا هل سكتي آيب

ويقول في عبدة وتحس بحرقة الحب ولواعجه :

أفد الرحيل وحثني صحبي	والنفس مشرفة على النحب
لما رأيت الهم مجتنحا	في القلب والعينان في سكب
والحي قد أخوت وكائبه	والقوم من طرب ومن حسب
ناديت ان الحب أشعفني	قتلا وما احدثت من ذنب

وقد أبدع في ذكر الهجران وطول سهر العاشقين حيث قال :

لم يطل ليلي ولكن لم أنم	ونفى عني الكرى طيف ألم

ولبشار في غزله قصص كقصص عمر بن أبي ربيعة ، وزورات ليلية لمشوقاته يسجلها في شعره كهذه الزورة التي قال عنها لأوانس دعونه لقضاء ليلة في سمر وحديث :

ودمى اوانس من بنات محرق	حور نواعم اوجها وجلودا
أرسلن في لطف الى ان ائتنا	غاب الرقيب وما تخاف وعيدا
فاتيتهن مع الجرى يقودني	طربا ويالك قائدا ومقودا
لما التقينا قلن هات فقد مضى	سنة نؤمل أن نراك تعيدا
حدث فقد رقد الوشاة وليتهم	حتى القيامة يلبثون رقودا
قلت: اقترحن من الهوى، فسألتني	طرف الحديث فكاهة ونشيدا
حتى اذا بعث الأذان فراقنا	ورأيت من وجه الصباح خدودا
جرت الدموع وقلن فيك جلادة	عنا ونكره أن نراك جليدا

مديـح بشـار :

وسبقت الاشارة عند الحديث عن شعره بين التقليد والتجديد الى أنه كان يعمد فى مديحه الى النمط التقليدى فى الشعر ، وقد اتصل بجماعة من الخلفاء والولاة والقواد ، فذكر من بينهم فى عصر الامويين مروان بن محمد ، وسليمان بن هشام ، ويزيد بن عمر بن هبيرة ، وفى عصر العباسيين أبا جعفر المنصور والمهدى ويزيد بن مزيد الشيبانى ، ومن ولاة البصرة سلم بن قتيبة ، ومن العلويين ابراهيم بن عبـد الله بن الحسن بن عـلى ، ومن وزراء الدولة خالد البرمكى .

ومن أشهر مدائحه فى العصر الأموى قصيدته فى يزيد ابن عمر بن هبيرة وقد أنشده اياها سنة ١٢٨ هـ وكان يقود فرقة من جند مروان بن محمد فى حرب الضحاك بن قيس الخارجى . وهى حماسية قوية يقول فيها :

جفا وده فازور أو مل صاحبه

التى مرت بنـــا .

وقصيدته فى مديح ابراهيم بن عبد الله بن حسن والتى يهجو فيها أبا جعفر المنصور وكان ابراهيم قد ثار بالبصرة واستولى عليها من أبى جعفر ، لكن أبا جعفر تمكن من القضاء على ثورته وقتلـه .

وبعث بشـار بهـذه القصيدة الى ابراهيم بن عبد الله قبـل القضاء عليه وظن أنه سيكتب له النصر على أبى جعفر . قال :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سـالم عمـا قليـل بسالم

ولم تصل هذه القصيدة ابراهيم بن عبد الله العلوى ، وأغلب الظن أنها لم تبلغ أبا جعفر المنصور والا كان قد قضى على بشار ، وقد أسرع بشار فغير فيها وحورها وجعلها فى هجــاء أبى مسلم الخراسانى بعد قتله فقال :

أبا مسلم ما طول عيش بدائــم

وفي عقبة بن سلم أرجوزته المشهورة :

يا طلل الحي بــذات الصمــد

ويقول فيــه بيتــه المشهور :

يسقط الطــير حيث يلتقط الحـــــب وتغشى منــازل الكرمــاء

وفيهــا يقــول :

حرم الله أن تــرى كابن سـلم	عقبــة الخـير مطعم الفقـراء
انما لــذة الجــواد ابن سـلم	فــي عطــاء ومــركب ولقــاء
ليس يعطيك للرجـاء ولا الخـ	ـــوف ولكن يلــذ طعم العطــاء

وفى خالد بن برمك يقول أبياته المشهورة :

لعمرى لقد أجدى على ابن برمك	وما كانمن كان الغنىعنده يجدى
حلبت بشعرى راحتيــه فدرتــا	سماحا كما در السحاب مع الرعد
اذا جئته للمجــد أشرق وجهــه	الى وأعطاني الكرامــة بالحمــد
له نعم فى القــوم لا يستثيبها	جزاء وكيل التاجر المـد بالمـد
لمست بكفي كفــة ابتغى الغنى	ولم ادر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى	أفدت وأعدانى فاتلفت ما عندى

وفى عمر بن العلاء وكان من كبار رجـال الدولة العباسية ومن المقربـين للمهـدى يقـول قصيدته الميميـة التى أشرنا الى مطلعها :

لم يطل ليـلى ولكن لـم انـم

والتى يفخر فيها كذلك بقوله :

ونبئت قومـا بهـم جنـة

يقول فى مديحهـا :

فقـل للخليفـة ان جئتـه	نصيحـا ولا خـير فى المتهـم
اذا أيقظتك حـروب العـدى	فنبـه لهـا عمـرا ثم نـم
فتـى لا يبيت عـلى دمنـة	ولا يشرب المـاء الا بـدم
اذا مـا غـزا بشرت طـيره	بفتـح وبشرنـا بالنعـم
دعـانى الى عمـر جـوده	وقول العشـيرة بحـر خضـم
ولولا الذى خبـروا لم اكن	لامدح ريحانـه قبل شـم
فـتى الفعـال كفى المقـال	وفى الصمت عـى كفى الكلم

وجرى بشـار فـى مديحـه على سنن السابقين من صفات الكرم ، ووصف الممدوح بالغيث والبحر ، وأنه يتهلل للسائلين ، وما الى ذلك مما يتردد فى هذا المعنى ، ويضم اليه صفات الشجاعة والاقدام ، وخاصة عندما يصف القادة ، والخلفاء ٠

ومع ترديده للمعانى السابقة فى هذا الموضوع لكنه يحاول مع ذلك التجديد ، فيبدع أو يأتى بالبديع ، فأما أن يسوق المعنى القديم فى صورة جديدة ، أو يأتى به جديدا لفظا ومعنى ٠ وقد مر بنا مع اللونين أمثلة مما سقنا ٠

هجـــــاؤه :

وقد عرف بشار بالهجاء . قال : انى وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديـــح الرائع ومن أراد من الشعراء أن يكرم فى دهر اللئـــام على المديح فليستعد للفقر ، والا فليبالغ فى الهجاء ليخاف فيعطى .

ولعل من أشهر من هجاهم بشـــار وندد بهم العباس بن محمد عم المهدى ، وكان معروفا بالبخل . قال فيه قصيدته المشهورة وبها كثير من المعانى الجديدة فى الهجاء وأعنى قوله :

ظل اليسار على العباس ممـــدود ... وقلبه أبـــدا بالبخـــل معقود

يقـــول فيهـــا :

ان الكريم ليخفى عنـــك عسرته ... حتى تراه غنيـــا وهو مجهـــود
وللبخيل عـــلى امواله عـــلل ... زرق العيون عليها اوجه ســـود

ويقــــــول :

اذا تكرهت ان تعطى القليل ولم ... تقدر على سعة لم يظهر الجود
أورق بخير ترجى للنـــوال فما ... ترجى الثمار اذا لم يورق العود
بث النـــوال ولا تمنعك قلتـــه ... فكل ما سد فقرا فهـــو محمود

وهجا حماد عجرد ، وكان صديقه فأفحش فى هجائه ، وتبادلا الهجاء المقزع . كما هجا جماعة من أصدقائه كيـــدا أو معاتبـــة ، ولهذا عرف بخبث اللســـان ، وبأنه كثير الوقوع فى الناس . ومن أطراف معانيه قوله فيمن يسمى ابن قزعة :

فلا تبخلا بخـــل ابن قزعة انه ... مخافة أن يرجـــى نـــداه حزين
اذا جئته للعـــرف اغلق بابـــه ... فلـــم تلقـــه الا وانت كمـــين

ويسخر من الصفات الجسدية لمهجويه . فقد سخر من طول عنق واصل اذ هجاه فقال :

مالي أشايع غزالا له عنق	كنقنق الدو ان ولى وان مثلا
عنق الزرافة ما بالي وبالكم	تكفرون رجالا كفروا رجلا

ويكاد أن يكون بشار شاعرا جامعا ، قال في كل موضوعات الشعر ، مما يدل على قوة شاعريته ، ومن هنا كان مقدما على معاصرية ممن اقتصر على لون واحد مثل مروان بن أبي حفصة .

وله في الرثاء أبيات يرثي بها ابنه .

وعجيب أن يأتي هذا الرجل بالرثاء الحزين ، وهو من عرفنا مع السخرية واللامبالاة ، والعبث . قال أبو الفرج : توفي ابن بشار فجزع عليه فقيل له : أجر قدمته ، وفرط افترطته ، وذخر أحرزته . فقال : ولد دفنته وثكل تعجلته ، وغيب وعدته ، فانتظرته ، والله لاني أجزع للنقص ولا أفرح للزيادة :

اجارتنا لا تجزعي وانيبي	أتاني من الموت المطل نصيبي
كأني غريب بعد موت محمد	وما الموت فينا بعده بغريب
لعمري لقد دافعت موت محمد	لو ان المنايا ترعوى لطبيب

ويقول :

فاصبحت ابدي للعيون تجلدا	ويالك من قلب عليه كئيب
يذكرني نوح الحمام فراقه	وارنان أبكار النساء وثيب

وله فى الوصف ابداع كابداع المبصرين ، وذكر عن نفسه دهشة الناس لدقة وصفه فقال فــى معرض الحديث عن احــدى النسوة اللائى وصفهن • قال :

عجبت فطمــة مــن نعتى لهــا ... هل يجيــد النعت مكفوف البصر

ويقــول مــرة أخرى :

ان تك عينى لا ترى وجهها ... فانها قــد صورت فى الضمير

وسبق أن أشرت الى أنه استوحى صفات القدماء فى رســم صورة للصفات الجميلة فى المرآة مع تجديد فى بعض المعانى مثل وصف الحديث بالزهر وقطع الرياض ، وكذلك المعنى الذى عاب به الشاعر القديم •

انما سـلمى عصــا خيزرانــة ... اذا غمزوهــا بالاكف تلــين

فعدل هذا القول الى قولــه :

وحــوراء المدامــع مــن معــد ... كــأن حديثهــا ثمــر الجنـــان
اذا قــامت لمشيتهــا تثنت ... كأن عظامهــا من خــيزران

ونعرض مجموعة لهذه الصفات الأنثوية ،منها الجديد، ومنها القديم ، ومنها القديم المجدد • يقــول :

وجــوار اذا تحلين لم تــلـ ... ـرجــوار فى حليهــا ام ظباء
يتعرضن لى بفاتــرة الطــر ... ف اذا أقبلت ثناهــا الحياء
وحــديث كأنــه قطــع الرو ... ض فيه الصفراء والحمراء

ويقـــول :

ألا يـــا طيب قـــد طبت   ومـــا طيبـك الطيـب
ولـكن نفس منـــك   اذا ضمــك تقريـــب
وثغـــر بـــارد عـــذب   جـرى فيـه الاعـاجيب
ووجـــه يشـــبه البــد   ر عليه التـاج معصـوب
وعـين تسـحر العـــين   ومـا فـي سحرها حـوب
ووصف زان متيســــــك   رزانتـــه التقاصيـب
وجيـد يشـــبه الـــدر   ر كجيـد الريـــم سـاهوب
ونحـــر بـين حقـــين   يشـف العـين محبـوب
عليـــه الجوهـــر الاحمــــر   والياقـــوت منصـوب

ويردد ألوانابذاتها هي البياض والصفرة في لون البشرة ، والاحمر في اللباس· ويتيم باللون الأحمــر فيقول :

فغـــلى ملابس زينـــة   ومصبغات فهـى افخــر
واذا دخلـــت تصنعـى   بالعمــر ان الحسن احمر

ولا غرو أن تلذذه بالحديث مع ذلك ، وبالشم كان أكمل · ولهذا يفيض في ابـــداع صفات الحديث الـــذى شـبهه بالزهر وروض الجنان ، والشمس ، والخمر ، ووشي المطارف ·

وله في صفة الحرب ذلك التشبيه الجارى على كل لسان :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا   وأسيافنا ليل تاوى كواكبه

ويضع العلماء بالشعر ونقاده بشــارا على رأس المحدثــين والمجددين وأصحاب البديع وفي مقدمتهم كما رأينا أبو عمرو بن

العلاء والأصمعى . وأشاد بفضله ابن المعتز . قال مستحسنا شعره معجبا برائيته العجيبة البديعة المعانى الرفيعة المبانى(١) :

رأيت صحابتى بخنا صرات	حمولا بعد ما متع النهار
فكاد القلب من طرب اليهم	ومن طول الصبابة يستطار
وفى الحى الذين رأيت خود	خلوب الدل آنسة نـوار
برود العارضين كان فاها	بعيد النوم عاتقة عقار
كان فؤاده كرة تنزى	حذار البين لو نفع الحذار
يروعه السرار بكل شىء	مخافة ان يكون به السرار
وود الليل زيد اليه ليل	ولم يخلق له أبدا نهار
جفت عينى من التغميض حتى	كان جفونها عنها قصار

ففى القصيدة كثير من البديع المعنوى فى تشبيه القلب بكرة الصولجان يتقاذفها اللاعبون ، وهذا المعنى المجدد فى قوله :

« يروعه السرار » وقوله : « وود الليل زيد اليه ليل »

ومعناه الجديد البديع : « كأن جفونها عنها قصار » ويذكر من بديع غزله :

يا منية القلب انى لا أسميك	أكنى بأخرى أسميها وأعنيك
يا اطيب الناس ريقا غير مختبر	الا شهادة اطراف المساويك
قدزرتنا زورة فى الدهر واحدة	فاثنى ولا تجعلها بيضة الديك
يا رحمة الله حلى فى منازلنا	حسبى برائحة الفردوس من فيك

---

(١) طبقات المحدثين .

وفى البيت الأخير توريه باسم محبوبته « رحمة الله » ولكنه ورى واستخدم التورية فى المعنى اللاحق عندما شبه رائحة فمها برائحة الفردوس ٠

ومن تجديده كثرة الأوزان السهلة من مجزوءات البحور ، وفيها يبدو الايقاع الراقص المطرب ، من مثل قوله :

من المشهور فى الحب — الى قاسية القلب
سلام الله ذى العرش — على وجهك يا حبى
فاما بعد يا قرة — عينى ومنى قلبى
لقد انكرت يا عبد — جفاء منك فى الكتب
أعن ذنب ولا والله — ه ما أحدثت من ذنب
ولا والله ما فى الشرق من أنـ — ـثى ولا الغرب
سواك اليوم أهواها — على جد بلا لعب

وتذكرنا هذه الصيغة من صيغ الرسائل الشعرية ، بسابقتها عند أبى ربيعة ، واستخدمها كذلك أبو نواس وأخذ عن أستاذه بشار بن برد هذا الفن ، بل نظم على هذا الوزن رسالة مشهورة لصاحبته جنان ٠

وكان مطبوعا فى معانيه وألفاظه ، لا يتكلف القول ، ولا تشعر فى شعره بجهد المثقفين ، وانما يجرى كلامه سلسا سهلا ، كما يقول ابن المعتز : « ولا يتوقف أمام بعض الالزامات اللفظية ، بل تبحث فى طريقته ما يروق له من الالفاظ وقد يضع منها ما يراه ، فاذا سئل تعلل بعلة ما » ٠

ومن أمثلة تحرره من الالتزامات اللغوية قوله :

زرى روحـا فلن تجـلى كروحى

وأصلها فعل الأمـر من زار يزور والامر للمخاطبة زورى باثبات الواو ٠

واستخدم ثيب فى جمع ثيب والصحيح الوارد ثيب ٠

وكأنه جوز أن يقال : امرأة ثيبـاء فقال :

فلا بد أن تغشاك حين غشيتها هواجـد أبكـار عليك وثيب

وبعد ، فان بشارا ترك فى تاريخ الشعر العربى أثرا ظـل يتردد ، وصدى يتجاوب ، وفتح للشعراء طريقا سلكوها ، وأبدعوا فيها هى طريق البديع ٠ وكان اهتمام القدماء به عظيما ، وعلى رأسهم ابن المعتز ، وابن رشيق القـيروانى ، وابن دريد سـال أبا حاتم عن بشار بن بـرد فقال : نظـار غواص ، مطيل مجيد ، يصف ما لم ير كأنه قد رآه ٠

واهتم به الباحثون ، وتذكر على سبيل المثال منهم الدكتور طه حسـين فى حديث الأربعاء والعقاد فى مراجعات فى الآداب والفنون ، والمازنى ، فى مجموعة أعلام الاسلام ، والنويهى فى شخصية بشار ، والحاجرى فى مجموعة نوابغ الفكر العربى ٠

مصادر بشار بن بـــرد :

١ ـ الاغاني لابى الفرج الاصفهاني ، طبع دار الكتب ـ الجزء الثالث

٢ ـ المختار من شعر بشار وشرحه ، طبع لجنة التاليف والترجمة والنشر بالقاهرة •

٣ ـ ديوان شعره تحقيق محمد الطاهر بن عاشور بجامع الزيتونة ، ثلاثة اجزاء ١٩٥٠ ـ ١٩٥٧ •

٤ ـ بشار بن برد ـ احمد حسين القرني ـ طبع القاهرة سنة ١٩٢٥ •

٥ ـ بشار بن برد بين الجد والمجــون لحســين منصور ـ طبع التجارية بالقاهرة سنة ١٩٣٠ •

٦ ـ بشار بن برد ، مجموعة أعلام الاســلام للمــازني •

٧ ـ بشار بن برد ، مجموعة نوابغ الفكر العربى للدكتور طه العاجرى •

٨ ـ مراجعات في الآداب والفنون للاستاذ عباس محمود العقاد •

٩ ـ شخصية بشار بن برد للدكتور النويهى ـ طبع القاهرة •

١٠ـ تاريخ آداب اللغــة العربية للدكتور شوقي ضيف ، الجزء الثالث ، العصر العباسى •

١١ـ حديث الاربعاء الجزء الثاني للدكتور طه حسين ، طبع دار المعارف بمصر •

أبو نواس المجدد المفتن

(توفي سنة ١٩٩ هـ)

وصف أبو عبد الله الجماز أبا نواس فقال :

« كان أظرف الناس منطقا ، وأغزرهم أدبا ، وأقدرهم على الكلام ،وأسرعهم جوابا ، وأكثرهم حياء ، وكان أبيض اللون جميل الوجه ، مليح النغمة والاشارة ، ملتف الأعضاء ، بين الطويل والقصير ، مسنون الوجه ، قائم الأنف ، حسن العينين والمضحك ، حلو الصورة ، لطيف الكف والأطراف » .

وكان فصيح اللسان جيد البيان ، عذب الألفاظ ، حلو الشمائل ، كثير النوادر ، وأعلم الناس كيف تكلمت العرب ، راوية للاشعار ، علامة بالأخبار ، كأن كلامه شعر موزون (١) .

ولد أبو نواس من أب عربي وأم فارسية . كان أبوه من جند مروان بن محمد الذين بعث بهم الى الأهواز - بين البصرة وفارس - وكان من دمشق . وأقام في معسكر ظاهر المدينة . وهناك التقى بجلبان الأهوازية الفارسية أم أبي نواس فتزوجها ولم يقم معها طويلا لانشغاله بحرب الخرسانية مع جند مروان . وبعد هزيمة جيش مروان أمام الخراسانية سرح الجند ، فكان « هاني » بين من سرحوا ، وأقام مع زوجه جليان واشتغل برعى

(١) زهر الآداب للحصري القيرواني ، بتحقيق الدكتور زكي مبارك ١ / ١٦٣ .

الاغتـام واشتغلت هى بالحياكـة ، تصنع الاخـراج ، وتنسـج الجوارب . ولد لها عـدة أبنـاء . بينهـم الحسن (أبو نواس) وولدان آخران وفتاة .

ولد الشاعر سنة ١٤١ هـ على أرجح الأقوال ، فى خلافة أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس . ووفد مع ابيه وأمه الى البصرة عام ١٤٣ هـ ، وسكنت الأسرة بيتا من القصب ، وظلت أمه تزاول عملها فـى الرعـى والحياكـة ، واضطرت أحيانا الى الارضاع لتكسب قوتها وعيالها ولتمين زوجها على العيش .

ولم يلبث أن مات هانىء ، وظلت جلبان تجاهد وتعمل حتى انفرجت شـدتها بعض الشىء فسكنت بالبصرة دارا من الآجـر والجص . وصار منزلهـا مرتـادا للناس رجـالا ونساء للشراء ورميت بالريبة لأنها كانت تجمع بين الرجـال والنساء . وكان هذا الامر مما هجى به الشاعر .

ووردت الأخبار بعض لمحات أو سـمات لجلبان ، منهـا أنها ربما كانت بخيلة كغيرها من أهل الأهواز الذين يرمون بالبخل . لكنها على أية حال كانت مديرة استطاعت أن تقوم بعبء أطفالها حتى دفعت بهم الى الكتاب والدرس ، وتسنم منهم الحسن الذروة بين شعراء عصره .

تعلم الحسن باحد كتاتيب البصرة ــ وكانت أمه تبعث للمعلم أجره خبزا ، حتى تقدم الطفل فى تعليمه وحفظ القرآن ومعرفة بعض الحساب . وكانت ترسل اليه بالدرهم والدرهمين . ويبدو أن

هذا الكتاب كان يدعى بكتاب «حفص» باسم معلمه. وقد وصلتنا في ذكرى استعادها لهذا الكتاب صورة طفل ناعم من أنداده ضربه حفص عقابا .

قال حفص اجلسوه   انه عندي بليد

ثم هالوه بسير   لين صافيه سود

ولم يزل مذ كان في الدرس عن الدرس يحيد

عندها صاح حبيبي   يا معلم لن اعود

كشفت عنه خزوز   وعن الخز برود

وتدرج الحسن في تعليمه من الكتاب الى مجالس العلم بالمساجد يتلقى عن العلماء والشيوخ من قراء ورواة ومحدثين ولغويين .

قرأ على الشيخ القارىء يعقوب الحضرمي ، وكان قد ذاع صيته في تعليم القراءات وفي العلم بمذاهب النحاة في القرآن . وكان يعقوب زاهدا ورعا . علم أبا نواس حسبة ولم يتقاض على تعلميه أجرا ، ويبدو أنه أعجب بذكائه فألقى بخاتمه اليه وقال : اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة .

وظل يتردد على الشيوخ بالمسجد الجامع فانضم الى حلقة أبي زيد الأنصاري اللغوي النحوي صاحب كتاب « النوادر » يسمع لما يستشهد به من أوابد الأبيات وفرائد البلاغات من كلام العرب ، وما ينشده من القصائد أو الرجز .

وجلس الى أبي عبيدة معمـــر بن المثنى اللغـوى الراويـة الاخبارى ، فعرف عنه الكثير من أخبار العرب وأيامهم ، وقبائلهم وأنسابهم • وظل يذكره بالخير دائما ويقول عنه انه : « أديم » طوى على علم •

وجلس الى خلف الأحمر راوية البصرة ، وناقدهـا ، وأعلم أهلها بالشعر القديم • فكان أستاذه في الشعر ومعلمه • ومسدد خطاه ، وهو الذى لقبه بأبي نواس في رواية اذ قال له : أنت من اليمـن ـ أى قبيلـة (بنـى الحكـم) فتـكن باسـم من أسـماء الذوين ، أى باسم أحد ملوك اليمن القدماء الذين تبدأ « بذو » فتسمي بذى نواس •

ورحل الى البادية يأخذ الفصاحة عن ألسنة أصحابها • وأقام سنة ثم عاد الى بلده • وكان يقال لـه : أرغبت عن والبة ومللت الكوفة ؟ • فيجيب : هي « أجدى » وأطيب من أن تمل ، ووالبة لا يرغب عنه • ولكنى نزعت الى الاوطان واشتقت الى الاخوان •

واستأنف بالبصرة حياة الدرس والتحصيل بعد تلك الزورة للبادية والسرحة في الكوفة واصطحاب بعض شعرائها • وارتاد في البصرة المربد ، واعتاد حلقات الشعراء به، وجمع من الشعر والعلم ما جعل الناس يرددون القول بأن « أقل ما في الحسن من بضاعة قول الشعر فقد كان فحلا راوية علامة » •

وفي غير علوم العربية ، وعلوم الأدب واللغة خاصة ، اتصل ببعض الثقافات الأجنبية فوقف على التنجيم باتصاله بآل نوبخت

الذيه اشتهروا فيه ، وفي قصيدة له يمدح يحيى بن خالد البرمكى أمثلة لمعرفته بأسماء النجوم ومساراتها ٠

وألم بطرف من علوم الطبيعة ، والحياة ، والفلسفة والطب ، وفي شعره آثار من العلوم عن طبائع الانسان الأربع من البرودة والرطوبة واليبوسة ٠ والقول بأقوال المتكلمين من المعتزلة ومعارضيهم من الجبرية ٠ ولا يروق له جدلهم العقيم حول قضية « الجبر والاختيار » ٠

يا ناظرا فى الدين ما الامر | لا قدر ولا جبر
ما صح عندى من جميع الذى | يذكر الا الموت والقبر

ومما جاء فى شعره من آثار علوم الكلام ويقول فى الجزء الذى لا يتجزأ :

تركت منى قليلا | ومن القليل اقلا
يكاد لا يتجزا | أقل فى اللفظ من لا

وزعموا أن ابراهيم النظام المعتزلى أستاذ الجاحظ لما سمع ذلك من قوله قال : « أنت أشعر الناس فى هذا المعنى ٠ والجزء الذى لا يتجزأ منذ دهرنا الأول نخوض فيه ، ما خرج لنا فيه من القول ما جمعته أنت فى بيت واحد » ٠

وربما اتخذ أبو نواس بعض معارفه وسيلة للتظرف كما فعل فى الحديث مع المحب يداعب المحدث الشيخ عبد الواحد بن زياد أستاذ الحديث بالبصرة ٠ اذ طلب الى الناس فى حلقته أن يسأل كل رجل ثلاثة أحاديث مهمة ، ففعل الناس حتى انتهى الى أبى نواس

فقال له : سـل يا فتى ، فقعد بين يديه وأنشا يقول :

ولقـد كنـا روينـا عن سـعيد عن قتـادة
عـن زرارة ابن اوفـى أن سـعد بن عبـادة
قال : من مـات محبـا فلـه أجـر الشـهادة
اتـرى ذاك صـوابا نتبـع منـه سـدادة

فالتفت اليه الشيخ مغضبا وقال : أغرب عني يا خبيث ، والله لا أحدثك بعد ذلك ولا أعرف وجهك » ·

أسـاتيذه في الشـعر

شعره التقليدى وأستاذه خلف الأحمر :

قلنا أنه اتصل بخلف الأحمر فعلمه الشعر القديم ، وشجعه على حفظ كثير منه · ويرى أن خلفا قال له : « لا آذن لك في عمل الشعر الا أن تحفظ ألف ماثور للعرب ما بـين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة » · ففعل ما طلب اليه خلف وعاد اليه فقال له : انس هذه الألف الأرجوزة كأنك لم تحفظها ، ثم انظم الشعر بعد ذلك ·

وروى عن أبي نواس أنه قال : ما قلت الشعر حتي رويت لستين امرأة من العرب ، منهن الخنساء وليلى (الاخيلية) ، فما ظنك بالرجال ؟ ·

وراض الشعر على هذا النسق القديم ، فقال يرثى أستاذه :

لو كان حي وائـلا من التلف لو ألت شغواء في أعـلا شغف

وفي رثاء أبي البيداء الرياحي الأعرابي الشاعر الراوية يقـــول :

هل مخطيء حتفه عفر بشاهقة رعى بأخيافهــا شـثا وطباقا

وفيها يقـــول :

زار الحمام ابا البيداء مخترما ولم يغادر له في الناس مطراقا

وتعلم الشعر من المولدين والمحدثين على يدى أستاذه وصاحبه والبة بن الحباب ، وشيخه محمد بن مناذر في بعض الروايات ٠

وأثرت صحبته لوالبة في حياته وسلوكه وشعره ٠ وقد لقيه والبة صبيايقول الشعر فعرف فيه فطنة وذكـــاء وتعلقا بالشعر ورغبة في عمله والتجويد فيه ، فقال له : انى أرى فيك مخايل فلاح ، وأرى لك ألا تضيعها ، وستقول الشعر وتعلو فيه فأصحبني حتى أخرجك ٠

وصحب أبو نواس والبة الى الكوفة ، وجلس الى عصبة المجان من رفاق الشاعر الماجن أمثال يحيى بن زياد ، ومطيع بن اياس ، وحماد عجرد ٠ وقد عرفوا بالعبث ، والغزل بالغلمان ، وشرب الخمر والقول فيها ٠

وكان والبـــة يتعمد اغراء السقاة بالحسن بن هانيء الفتى فيسقونه حتى التلف ، وكان يغريـــه بالمجـــون والاستهتار حتى أفســـده ٠

وكانت مجالس هؤلاء الخلعاء الماجنين لا تخلو من انشاد للشعر ، وصنعة له على البديهة ، وهو شعر سهل يجرى بلغة الحديث ينظمونها فى أوزان خفيفة ، يتناولون بها موضوع العبث الذى يشغلون به أو يتحاورون فيه ، وكان هذا الانشاد ، وذاك الحوار الشعرى الذى يجرى على البديهة مما شجع الحسن على أن ينشد بديهة ، ينظم كما ينظمون فى تلك الاوزان السهلة والألفاظ الجارية والمعانى الحاضرة .

وكانت هذه المجالس مما شجعه على الولع بالخمر ، وعمل الشعر فيها وفى مجالسها ، ثم خرج الى ضواحى الكوفة حيث تنتشر الأديرة المسيحية فى الحيرة ، وصحب جماعة المجان الى تلك الأديرة للهو وشرب الخمر ، وكان رهبانها يعتقونها، ويقدمونها، ويطرب الوافدون ، نزلاء الأديرة ويرحب بهم أهلها ويهيئون لهم أسباب اللهو وخاصة فى أعياد النصارى « كالشعانين » وفى أعياد الفرس القدماء ، كالنيروز .

وتظهر فى شعر أبى نواس الخمرى ملامح الديارات ، ورهبانها ، وقسيسيها ، ويبدع قصائد من أجمل قصائده فنا وحسنا - كتلك التى قالها فى دير حنة ، وذاعت بين الادباء وبلغت شهرتها الآفاق ، وتعلق بها الناس فى أقطار العالم العربى شرقا وغربا . وهى :

يا دير حنة من ذات الاكيراح   من يصح عنك فانى لست بالصاحى

على أن أبا نواس لم يتوقف طموحه عند حدود بلده البصرة والكوفة، وأوساطها الادبية، بل رمى ببصره ، وتطلع الى أفق أوسع ، الى مركز الخلافة بغداد • يقول :

ما يغى الفتى اما جليس خليفة   يقوم سواءا أو مخيف سبيل

وجاء بغدادا ، فأم قصور البرامكة ، ومدحهم ، وحدث ما حدث بينه وبين الشاعر الرقاشي من منافسة ومهاجاة ، والرقاشي من شعراء البرامكة المخلصين ، وأما أبو نواس فانه لم تدم صلته بالبرامكة ، وقيل أنه لم يلق عندهم القبول ، أو لم يلق النجاح الذي ينتظره ، وفسر المؤرخون سوء حظـه مع البرامكة بأخبار كثيرة ، منها أن جعفر بن يحيى تشاءم من مطلع احدى قصائده •

ومدح أبو نواس الرشيد ، وصلته بهذا الخليفة العظيم غير واضحة المعالم ، وتربط الأخبار بينهما برباط وثيق ، وخاصة في قصص الشعب ، والعامة ، تجعله هذه القصص نديما له ومضحكا لكن المحقق أنه مدح الرشيد بجملة من قصائده ، وأنه لقي عنده بعض النجاح ، لكنه ربما سجن في عصره كذلك ، وقاسى السجن ومرارته • ونظم القصائد لاستعطافه كي يطلقه •

واتصل بالامين من بعد الرشيد ، ولكن صلته بالخليفة هذه هذه المرة كانت مختلفة تماما ، فقد كان نديمه ، وصاحبه الذي لا يصبر عنه ، وربما جرت صحبة الشاعر على الخليفة كثيرا من المتاعب وربما وجد من طبع الأمين في خلواته استجابة لاستهتاره ، فتمادى الشاعر في خلاعته، وجهر بها وأعلن اسم الخليفة معه • كقوله:

ونديمان يـرى غبنـا عليـه | بأن يمسي وليس لـه انتشـاء
اذا ناديتـه مـن نـوم سـكر | كفـاه مـرة منـك النـداء
فليس بقائل لك ايـه دعـني | ولا مستخبر لـك ما تشـاء
ولكن « يا اسقني » ويقول ايضا | عليـك الصـرف ان أعيـاك داء
وذاك محمـد تفديـه نفـسي | وحق لـه وقـل لـه الفـداء

وقيل ان الأمين أجـازه على هـذه القصيدة بكل بيت ألف درهـم ٠

ولم تصف الحياة لهما ، فأثار أعداء الخليفة الناس عليه ، وشهروا به ، وجعلوا من الشاعر مـادة للتشهير ٠ وكان لابد أن ينتهي الأمر بالشاعر المجاهر الى السجن ، وقد وجدوا الدليل في شعره على ادانته ، مثل قوله :

الا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر | ولا تسقني سرا اذا أمكن الجهـر

ومثـل قولـه :

يا أحمد المرتجى في كل نائبـة | قـم سـيدي نعص جبار السماوات

وبعد أن قضى زمنا في السجن عفا عنه الامين ، وقـد أخـذ عليه وزيره الفضل ابن الربيع عهـدا بتـرك القول فـي الخمر والمجون٠ يخاطب ابن الربيع بأبيات يظهر فيها نسكه وتوبته، ولا تخفى نغمة السخرية ٠ يقول :

انت يـا ابن الربيـع الزمتني النسك وعودتنيه والخير عادة
فارعوى باطـل واقصر حبلي | وتبدلت عفـة وزهـــادة
لو تراني ذكرت للحسن البصري | في حسن سمته وقتــاده
المسابيـح فـي ذراعـي والمصحــف فـي لبتي مكان القــلادة

وتدوم الصلة بين الأمين والحسن بن هانيء حتى تقوم الفتنة بين الأخوين على الخلافة ، وتحاصر جيوش المأمون بغداد ، ويهب أهل بغداد للدفاع عن بلدهم ، ويتراشق الفريقان بالنبال وتصب المجانيق وابلها على المنازل والأسوار ، ويدافع شطار بغداد ويستبسلون • ويشارك الناس كلهم في الحرب ، لكن الشاعر لا يبالي ، وينصرف الى كأسه :

اذا عبا أبو الهيجاء للهيجاء فرسانا
وسارت راية الموت وأم الشيخ اعلانا
وشبت حربها واشتعلت تلهب نيرانا
جعلنا القوس ايدينا ونبل القوس سوسانا
وقمنا مكان الرمح والمطرد ريحانا
فعادت حربنا سلما وعدنا نحن خلانا
بفتيان يرون القتل في اللذة قربانا
اذا ما ضربوا الطبل ضربنا نحن عيدانا

وتنتهي الحرب بمقتل الأمين ، فيرثيه الشاعر في حرقة وألم ، وصدق عاطفة ، ولا تطول بعده حياته فيقضي ما بقي من عمره عليلا يشكو العلة والهرم • فقد قارب الستين ، ويقضي في النهاية نحبه سنة ١٩٩ هـ •

اتصل الشاعر في مرحلته البغدادية ببعض الامراء والولاة ، سافر الى مصر فلقي أميرها الخصيب ومدحه بجملة من القصائد الجيدة ، منها رائيته المعروفة :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجى لديك عسير

وقيل أنه أقام في مصر عاما من سنة ١٩٠ الى ١٩١ هـ •

شعره ، دراسة موضوعية وفنية :

يحمل شعره سمات شخصيته ، وملامح عصره ، ومجتمعه ، وربما كان شعر أبي نواس من أصدق شعر العباسيين تعبيرا عن صاحبه وحياته ومجتمعه • وأول ملامح شخصيته الظرف ، وعدم المبالاة وحب الظهور ، أو الاعتداد بنفسه ، وكراهيته للمرأة وحبه للغلمان •

وربما كانت هذه الاشياء جميعا متصلة معا بوشائج في نفسه ، وكان لحياته ، وظروفها كذلك أثر في نموها أو تكوينها •

ولد جميل الصورة ، مطبوعا على الظرف وحلاوة الروح، وربما ظلت هذه الخصلة ، أى الظرف وخفة الدم ـ السمة الغالبة عليه ، حتى صار رمزا للنادرة والفكاهة فى الأدب الفصيح ، والأدب الشعبي جميعا ، وربما كان جمال صورته ورقته ، سببا من أسباب حب الظهور ، والميل الى العبث والمجون ، خاصة وأن والبة بن الحباب ، قد غرس فيه ذلك منذ صغره ، ونماه وتعهده ، وقد زكاه في نفسه نسب رماه الناس فيه ، وعقدة الموالى التي استقرت فى قلبه تحرقه ، وتشعره كانداده من أبناء الموالى ، بالضعة وصغر الشأن ، فكان لابد له من مجال للتنفيس ، فكان التمرد ، والخروج ، والعناد ، والمجاهرة بالعصيان •

وربما كانت عقدة والدته ، وما لقيه من « جنان » صاحبته أو فتاته الأولى التي علقها بالبصرة من أسباب اتجاهه الى الغزل بالمذكر ، وكراهته المرأة في أعماقه ، أو خشيته منها ، ذلك الى

ما وجد في طفولته من ميل عصبة المجان لهذا اللون من الشعر • واعتيادهم عليه باعتباره جديدا خارجا وهم الولعون بكل جديد وخـارج •

ويحدثنا الأسـتاذ العقاد عن عقدة النرجسية أو عبادة الذات عنده ، وأن من أسبابها اعتداده بجماله (١) • يقول : فالنرجسية التي تنبع أعراقها في الحسن بن هانىء ليست حالة طبيعية تلاحظ على أنداده ، وفي مثل عمره ، ولكنها حالة منحرفة • ولد ببعض أعراضها ، وجاءت الأعراض الأخرى من البيت والمجتمع والعصر الذى نشأ فيــه ، وعاش سائر حياته وهي حالــة لا يشابهه فيها أحد من شعراء عصره » •

وأول دلالات النرجسية في نفس أبي نواس عند العقاد هي تكوينه الجسدي ، وجمال صورته ، وقد ساق جملة من الأخبار تشير الى ذلك • وقد ردد هو نفسه اعجابه بجماله قال وقد جاوز الشباب:

تتيــه علينا ان رزقت ملاحــة	فمهــلا علينا بعض تيهك يا بدر
فقد طالمـا كنــا ملاحــا وربما	صــددنا وتهنا ثم غيرنا الدهر

ومن دلالات نرجسيته عقدة الأنثى ، وهي عقدة علقت به مع أمه طفلا وصبيا ، حين كانت تكثر من تدليله وتترك شعره مرسلا، فيبدو في مظهر الفتاة لا الفتى ، وقد مات عنه أبوه صغيرا ، فعاش

---

(١) أبو نواس للعقـــاد ، كتاب الهــلال ص ٨٨ •

فى كنف أمه حتى يفع ، وقد سمع عن أمه الكثير من الغمز فى وسط البصرة ، ومن شعراء هاجموه ، واتهموها بريبة . وقد حاول أن ينتسب الى قبيلة والده اليمنية أو بنى الحكم ، ولهذا عرف بالحكمى ، لكنه ربما ضاق بهذه النسبة ، أو هاجمه بها مهاجموه ، فنسب نفسه الى مضر ، وهى غير اليمنية . وربما ضاق بهذا كله ، وبالعرب والأنساب ، وجرى مع الشعوبية ، يفخر بآبائه وأجداده الفرس ، ويقول :

راح الشقى على الربوع يهيم ... والراح فى راحى ، ورحت أهيم

بمزمزين غدوا بسدفة ليلة ... والليل ملتبس الظلام بهيم

متقرقرين كلامهم ما بينهم ... ومزمزمين خفاؤهم مفهوم

نادمتهم أرتاش فى آدابهم ... فالفرس عدوى سكرهم محسوم

ولفارس الاحرار أنفس أنفس ... وفخارهم فى عشرة معدوم

* * *

ويقول عن العرب :

واذا أنام عصبة عربية ... بدرت الى ذكر الفخار تميم

وعدت الى قيس وعدت قوسها ... سبيت تميم وجمعهم مهزوم

وكان هذا التمرد والخروج على التقاليد ، والاعتداد ، والمجاهرة ، مظهرا لهذه الشخصية الشاعرة - ربما شابه بشارا فى بعض ملامحه ، وربما شابه غيره من شعراء الموالى أو عصبة المجان ، أو الزنادقة ، لكنه ظل نموذجا فريدا ، وطابعا مميزا بجملة سماته الخاصة بين الشعراء جميعا ، وهى سمات فيها الجميل المحبب الى النفوس ، وفيها القبيح الذى تنفر منه ، لكنه حتى فى هذا

القبيح ، غير غليظ الطبع ، ولا ثقيل الظل كسابقه بشار · لكنه يظل فيه محتفظا بخفة ظله ورقته ·

وشعوبية أبي نواس ، وزندقته ، مع صلتها بشخصيته وحياته ، وظروفه الخاصة في حياته لا يمكن فصلها عن ظروف حياته ومجتمعه · وقد شاعت هذه الروح كما قلنا في عصره · وتجاوب الشاعر معها ، وتلاقى وبشارا وآخرين في الحملة على نهج القدماء في القصيدة ، والدعوة الى هجر مقدمتها الطللية ، وبكاء الديار · يقول :

قل لمن يبكي على رسم درس — واقفا ما ضر لو كان جلس

ولعله بذلك يلمح الى قول الشاعر القديم امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل — بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ويسخر من قول السابق :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا — نبكي الديار كما بكى ابن حذام

فيقول (١) :

عاج الشقي على رسم يسائله — وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي الشقي على طلل الماضين من أسد — لادر درك قل لي من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ولفهما — ليس الاعاريب عند الله من أحد
لا جف دمع الذي يبكي على حجر — ولا صفا قلب من يصبو الى وتد
كم بين ناعت خمر في دساكرها — وبين باك على نؤى ومنتضد

---

(١) ديوانه ص ٢٦٦ ·

ويقـــول فـــي أخـــرى :

دع الأطـلال تسـفيها الجنوب	وتبكـي عهد جدتهـا الخطوب
تحـل لراكب الوخيـاء أرضـا	تخب بهـا النجيـبة والنجيب
ولا تأخذ عن الاعـراب لهـوا	ولا عيشـا فعيشهم جديب
ذر الالبـــان يشربهـا أنـاس	رقيـق العيش عندهمـو خديب
بأرض نبتها عشر وطلـح	واكثـر صيدهـا ضبـع وذيب
اذا راب الحـليب فبـل عليـه	ولا تحرج فمـا في ذاك حـوب
فاطيب منــه صافيـة شـمول	يطـوف بكاسـها ســاق أريب

حتـــى يقـــول :

فاين البـدو من ايـوان كسرى	وأين من الميـادين الدروب

وهذه الدعوة الجديدة الى نبـذ الحياة العربية القديمة حياة الصحراء ، وما بها في الشعر والتعبير عن الحياة الحضرية ، وهي حياة عراقية فارسية ، تمت بمدنيتها الى حضارة الفرس القدماء ونظمهم في العيش • وهذه الدعوة وان تلونت باللون الفارسي ، وبدت شعوبية المظهر لكنها دعوة الى التجديد ، والملاءمة بين الشعر والحياة ، وترك القيم والتقاليد الموروثة والتي تمسك بها شعراء العرب وعلماء العربية ردحا من الزمن •

هذه الصرخة الى فك قيود الشعر ، والخـروج عن اطـاره القديم الى اطار جديد كانت دعوة صادقة من الشاعر ، تتلاءم مع مزاجه ، وان مقدمته الجديدة التي دعا الى بدء القصائد بها هي القول في الخمر أو النسيب الخمري اذا صح هذا القول •

واذا كان بدء القصيدة بالنسيب عند القدماء مدعاة لأنس السامع وتوددا الى قلبه ، لأن حديث النسيب والغزل محبب الى كل القلوب ، فان حديث الخمر في دعوة أبي نواس محبب الى من هم في مثل مزاجه ، ممن يعشقون الخمر ، ويطيفون بد ساكرها ٠

ويردد هذه الدعوة فـي مطلع كثـير من خمرياته ٠ فيطيل أحيانا ويقصر أخرى حتى لا يذكرها الا في سطر بيت كقوله :

لا تبك ليلى ولا تطرب الى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد

ومـزاج أبي نواس وهو مزاج أبيقوري ، عاشـق للحيـاة وملاذها ، يدفع به الى نشدان ملاذه كلها في ظل الخمر ومجالسها، لذة النساء ، ولذة الغلمان ، لذة الطعام ، ولـذة الشراب ، لذة النظر ، والشم ، وسعادة الحديث والسحر كلها تجتمع الى الخمر ، وتصب فيها ، فكأسها ذوب اللذات ، من يد ساق جميل الصورة يضع فيهـا أو على أذنه عود الريحـان ، وتحيط بـه الرياض ، والبساتين ، أو الكـروم ٠

وهو في مزاجه هذا لا يحول ، يدعوه أبو العتاهية الى ترك اللهـو ، والامتناع عن سماع الغنـاء فيقول له :

أتــراني يامتـــاهي تاركـــا تــلك الملاهي
أتــراني مفسـدا بالنسك عنـــد القـــوم جـاهي

وقد كان هذا المزاج داعيا له الى المجاهرة والتبذل ، فهو واع مدرك لطريقه وغايته غير جاهل ، ولا غافل ، لذا تـراه يجاهر

بميوله النرجسية ، وحب الظهور أو الميل الى العرض . يعتب على صاحبته التى تلومه على التمادى فى الشراب والاغراق فى اللهو ، فيقول :

وملحة باللوم تحسب أننى	بالجهل او ثر صحبة الشطار
بكرت على تلومنى فاجبتها	انى لاعرف مذهب الابرار
فدعى الملام فقد أطعت غوايتى	وصرفت معرفتى الى الانكار
ورأيت اتيانى اللذاذة والهوى	وتعجلى من طيب هذه الدار
احرى وأحزم من تنظر آجل	علمى به رجم من الاخبار
ما جاءنا آحد يخبر آنه	فى جنة من مات أو فى نار

ويردد هذا المعنى مرة أخرى فى قوله :

الم ترنى أتحت اللهو نفسى	ودينى واعتكفت على المعاصى
كانى لا أعود الى معاد	ولا أخشى هنالك من قصاص

نفسية متمردة ، ألهاها اندفاعها نحو اللذة ، وأغفلها ، فجأرت بالقول بالخلاف حتى يلتفت اليه الناس ، فيؤاخذونه ويلومونه ، أو يتهمونه ، ويرجمونه ، وهو لا يعبأ بهذا كله ، بل يكفيه منه أنه معروف عند الناس ، تجرى سيرته على كل لسان ، ويدور شعره الغريب فى مجالسهم ، خفاء أو جهرا ، ويسعده أن يسير هذا الشعر ويشيع ، والناس وراء كل غريب ، وخاصة العامة . وقد لاحظ النقاد القدماء ميله لهذا اللون الخارج أو الصارخ ، الذى يسعى فيه أحيانا لرواجه عند العامة وأوساط الناس .

يقول ابن شرف (١):

« اما أبو نواس فأول الناس في خرم القياس، وذلك أنه ترك السيرة الاولى ، ونكب عن الطريقة المثلى ، وجعل الجد هزلا ، والصعب سهلا ، فهلهل المسرد ، وبلبل المنضد ، وخلخل المنجد وترك الدعائم ، وبنى على الطامي والعائم ، وصادف الأفهام قد نكلت ، وأسباب العربية قد تخلخلت واتحلت ، والفصاحات الصحيحة قد سئمت وملت ، فمال الناس الى ما عرفوه ، وعلقت نفوسهم بما ألفوه فتهادوا شعره ، وأغلوا سعره ، وشغفوا بأسخفه ،وعلقوا بأضعفه ، وكان ساعده قوى ، وسراجه أحتوى ، لكنه عرض الأنفق ، وأهدى الأوفق ، وخالف فشهر وعرف وأعرب ، فذكر واستطرف ، والعوام تختار هذه الأعلاق وأسواقهم أوسع الأسواق • فشعر أبي نواس نافق عند هذه الأجناس ، كاسد عند أنقد الناس ، وقد فطن الى استضعافه • وخاف من استخفافه ، فاستدل بفصيح طرده طرفا من جد اللسان الأول وجده • وهو مجد في كثرة التظاهر على من غض منه بالحق الظاهر ، ليس الا لخفة روح المجون ، وسهولة الكلام الضعيف الملحون على جمهور العوام ، لا على خصائص الأنام » •

وشعر أبي نواس الجديد ، أو الذى يذهب فيه هذا المذهب الجديد ، يدور في الخمر والمجون ، والغزل بالمذكر والوصف ، والغزل بالمؤنث وان كان قليلا • ويميل فيه الى الأوزان الخفيفة الرشيقة ،والايقاع الموسيقي المطرب ، وكثيرا ما لجأ الى

---

(١) الذخيرة قسم ٤ مجلد ١ •

مجزوءات البحور ، وكذلك حاله في أهاجيه ، وهي قليلة نسبيا ، لأن سيرورة الهجاء تقتضي السهولة في القول والبحر ، ولأبي نواس أراجيز ، ومجزوءات الرجز كقوله في الفضل بن الربيع :

وبلدة فيها زور صعراء تخطى في صعر

ويدخل شعره الصنعة في اللفظ والصورة ، لكنه لا يسرف اسراف المتصنعين كمسلم ابن الوليد وأبي تمام • وانما يجيء صنعه كالحلية البديعة •

ويرى النقاد المحدثون خلاف رأي القدماء في شعره الجديد ، اذ يعتبرونه أكثر صدقا وأظهر تعبيرا عن شخصه ، وعصره • يقول طه حسين :

« كان أبو نواس في شعره صادقا في التعبير عن أحاسيسه ، صادقا في وصفه للحياة من حوله ، فهو يصدق في وصف لذات الحياة ، وان كانت خارجة عن الدين والفضيلة لأنه لم يرد أن يخفي نفسه أو أن يتحدث بما لا يرى ، أو أن لا يقول الشعر في كل ما يرى ، فهو صادق الوصف ، لأنه أراد بهذا الصدق أن يرضي نفسه •

وقد دفعه هذا الصدق الى ترك ما ليس معبرا عن هذه الحياة من أنماط التقليد الذي توارثه الشعراء كذكر الأطلال ، والرغبة في التقعر والاغراب في اللغة والأساليب ، والدعوة الى التعبير عن الحياة الجديدة بألفاظ تتمشى مع الحياة سهولة ورقة (١) » •

---

(١) حديث الاربعاء جـ ٢ ، ص ١٥٠ •

ويقول عبد العزيز البشرى (١) عنه فى هذا الشعر الصادق

« هو رجل يشعرك مرسل شـعره بأن نظـره كان ينفـذ الى صميم الأشياء ، بل يشعرك بأن الأشياء كانت تلطف له وتشف ليتناول صميمها ما يشاء ، وسرعان ما يتنفس بهذا الذى أدرك شـعرا » .

ويقول أحمد أمين فى شعره الجديد :

«فان كان بشار يستحق لقب « المجدد الأول » فان أبا نواس يستحق لقب المجدد الثانى » .

شـعره فى الخمـر :

واذا كان قوله فى الخمر من أبرز موضوعات شعره الجديد ، فينبغي الوقوف عنده لنتلمس عناصره :

وليس شعر الخمر من جديد الموضوعات ، فقد عرف فى شعر الجاهلية ، وبدأ عمرو ابن كلثوم قصيدته النونية بقوله :

الا هبـى بصحنـك فاصبحنا ولا تبقى خمـور الاندرينا

وأكثر الأعشى من ذكرهـا ، وكان من وصافها المشهورين ، وربما تأثر أبو نواس ببعض معانيه قال الأعشى :

وكاس شـربت عـلى لـذة واخـرى تداويت منهـا بهـا

---

(١) الاغانى ٩/٧٨ .

وقال أبو نواس :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء　　وداوني بالتي كانت هي الداء

لكن شعراء الجاهلية الذين قالوا في الخمر لم يزيدوا على وصفها ووصف شرابها ، من الندامى ، وبعضهم جعل منهم فتيانا يتحلون بخلق الفتوة العربية لا تأخذ الخمر بألبابهم ، وهم ينعمون بمجالسها ،وقد تجتمع لذة الخمر عندهم بلذة النساء ، أو بلذة الصيد والركوب ، وتجتمع هذه اللذات جميعا عند امرىء القيس في قولـــه :

كأني لم اركب جوادا للـذة　　ولم اتبطن كاعبا ذات خلخـال
ولم اسبأ الزق الروى ولم اقل　　لخليلي كرى كرة بعد اجفـال

ولمـا جاء الاسلام كان بعض شعراء المدينة يذكرون الخمر في قصائد المديح كحسان ابن ثابت :

لله در عصابـــة نادمتهـــم　　يومـا بجلق فـي الزمـان الأول

فلما حرمها الاسلام، أقلع الشعراء عن ذكرها،وظلوا كذلك حتى عصر بني أمية ، وقد عرف بالقول فيها شاعر نصراني كبير هو الأخطل ، ولم يكره المسلمون بمانعي النصارى من شرب الخمر ، أو القول فيها ،وكان الأخطل مجيدا في صفة الخمر ،ومجالسها ، ولكنه جرى في ذلك على سنن شعراء الجاهلية ،وظلت الفاظه ومعانيه وصوره مكررة ، أو تمت الى خمريات البادية بصلات وطيدة .

وأول ما بدا من تغير في شكل الخمريات على لسان الوليد ابن يزيد ،وبعض شعراء الكوفة في أخريات عصر بني أميـة أوائل

القرن الثاني للهجرة . وطبيعي أن يظهر هذا اللون الجديد من شعر الخمر في الكوفة وهي ما ذكرنا مع وجودها في وسط تحيط به الأديرة النصرانية . وقد نهج هؤلاء الشعراء الكوفيون في شعرهم عامة وفي الخمريات خاصة نهجا جديدا في شكله وأسلوبه ومعانيه ، يميل الى الخفة وسهولة اللفظ والعبارة ومسايرة المعاني لروح الحضر والمدنية . ويمكن أن نذكر لهذا النهج مثالا من شعر الوليد بن يزيد (الخليفة الأموي الشاعر) . يقول فيه :

أدر الكأس يمينا	لا تدرها ليسار
اسق هذا ثم هذا	صاحب العود النضار
من كميت عتقوها	منذ دهر في جرار
ختموها بالأفاويه	وكافور وقار

وأمثال هذا النهج الجديد هو الذي سار عليه أبو نواس في خمرياته شكلا وأسلوبا ومعنى . لكنه أتقن فيه وتنوع وأبدع .

وكان شعر الخمر في الكوفة على آخر عهد الأمويين وأول عصر العباسيين في القرن الثاني قد تلون بلون الحضارة الجديدة، واستمد بعض معانيه من تراث الفرس ، أو النصارى ، وتنوع تناول الشعراء للخمر وصفاتها ، فقالوا في تقديرها ، وذكر مكانتها ، ووصفوها بالعروس غالية المهر ، وهي كريمة لا بد وأن تزف لكريم ، ووصفوا رائحتها ، وما يوضع حولها أو مع كؤوسها من مختلف الأفاوية والطيب وأنواع الرياحين ، ثم ذكر

تعتيقها ،وقدمها ، ووصف رائحتها وفعلها في الألباب ، وحالات السكرى والنشاوى ممن دارت برءوسهم ، وما قد يحدثه المـزج بها مـع فقاقيع ، وما يتـلألأ من ألوانها فـى الكؤوس ووصف الكؤوس والأباريق ، الى غير ذلك كله ٠

وهى أوصاف قد يكون كثير منها جديدا ،فـى صورة ، وفى ألفاظه ، لكن الشاعر لم يرتبط بالخمر ذلك الرباط الذى ارتبطه أبو نواس ، فهو يحس ازاءها بقدر غير قليل من الحب ، والاجلال يبلغ ذروة التقديس أحيانا ، تحسه فى قوله مثلا :

اثن على الخمـر بآلائهـا وسمهـا احســن اسمائها
لا تجعل المـاء لهـا قاهـرا ولا تسلطها على مائهـا

وهى عذراء تزف اليه ، ومهرها غـال ، يبـذل فيها الـدر والياقوت ، وهى كريمة لا يخطبها الا الكرام :

يا خاطب القهوة الصهباء يمهرها بالرطل يأخذ منها مـلاه ذهبا
قصرت بالراح فاحذر ان تسمعها فيحلف الكرم أن لا يحمل العنبا
انى بـذلت لها لمـا بصرت بها صاعا من الدر والياقوت ما ثقبا

* * *

يا قهوة حرمت الا عـلى رجـل اثرى فاتلف فيها المـال والنشبا

وهو حين يشرب الخمر من الكأس فكأنما يقبل حبيبته التى يزهر وجهها كالنجم أو البـدر :

اذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

وهي دائما مشرقة منيرة ، تضيء أينما وجدت من البيت أو الحانة :

ترى حيثما كانت منالبيتمشرقا ... وما لم تكن فيه من البيت مغربا
يدير بها ساق أغن ترى له ... على مستدار الأذن صدغا معقربا

وهي بأضوائها ولألائها شمس :

قامت بابريقها والليل معتكر ... فلاح من وجهها في البيت لألاء
فأرسلت من فم الابريق صافية ... كأنما أخذها بالعين أغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نورا لمازجها ... حتى تولد أنوار وأضواء

وهي كالورد ، وكعين الديك حمراء أحيانا ، وحين تختلط بالماء ، تفور ، وتبدو فقاقعها فوقها بيضاء كالحبب ، أو حبات الدر :

وقهوة كجنى الورد خالصة ... قد أذهب العتق منها الذام والرنقا

ويقــــول :

واشرب سلافا كعين الديك صافية ... من كف ساقية كالريم حوراء

* * *

تنزو فواقعها منهــا اذا مزجت ... نزو الجنادب في مرج وأفيـاء

ويقــــول :

اذا ما علاها الماء خلت حبابها ... تفاريق در فــي جوانبها شتى

ويفتن في تصوير كؤوسها وأباريقها صورا فنية جميلة ، أبدع خلقها وتكوينها - يقول في ابريقها وهو على صورة ظبي مشرف مع مكان عــال :

كأن ابريقهـا ظـبي على شرف　　قد مد منه لخوف القانص العنقا

وأحيانا هي كالكراكي تمد برقابها الطويلة ورءوسها الدقيقة :

لدينـا أباريـق كأن رقابها　　رقاب كراكي قد نظرن الى صقر

ويجمع الصورتين معـا في واحدة فيقول :

في أباريق مـن لجـين حسـان　　كظبـاء سـكن عرض القفـار
أو كراك ذعرن من صوت صقر　　مفزعات شواخص الابصـار

وتصب الخمر في الأباريق في الكؤوس ، وهي بيضاء زجاجية ، أو من نحاس مصور عليه صور الاكاسرة ، أو صور الحيوان :

والكوب يضحك كالغزال مسبحا　　عند الركـوع بلثغـة الفافـاء
وكأن أقداح الزجاج اذا جرت　　وسط الظلام كواكب الجوزاء

ويقـول :

فحـل بزالهـا فـي قعر كاس　　معفـرة الجـوانب والقـرار
مصورة بصورة جنـد كسرى　　وكسرى في قرار الطهر جـار
وبحـل الجند تحت ركاب كسرى　　بأقبيـة وأعمـدة قصـار

ويعرض هذه الصورة في صيغة أخرى فيقول :

تدور علينا السراح في عسجدية　　حبتها بأنواع التصاوير فارس
قرارتهـا كسرى وفـي جنباتها　　مهما تدريهـا بالقسي الفوارس

ويصف زوراته للحانات فـي قطربل أو غـيرها من أماكن اللهو والشراب في ضواحي بغداد ، وغالبا ما تكون زورته بالليل والناس نيام ، يدب وحـده أو مع بعض صحابته ، فيطرق باب

صاحب الحانة ، وهو نصراني حينا، يهودي أحيانا فيجيبهم هو أو تجيبهم ابنته ، ويتوجس من الطارقين أول الأمر ثم لا يلبث أن يطمئن اليهم لأنه يعرف فيهم زبائنه الذين اعتادوه ، واعتادوا أن يقدموا المـال في سبيل الخمر ولا يبخلون • فيجود لهم بأحسنها •

يقـــول :

وفتيـة كنجوم الليـل أوجههم	من كل اغيـد للنعمـاء فـراج
انضاء كاس اذا ما الليل جنهم	ساقتهم نحوهـا سـوقا بازعـاج
طرقت صاحب حانوت بهم سحرا	والليل منسدل الظلماء كالساج
لـما طـرقت عليه الباب أوجله	وقال بين مسر الخوف والراجي
من ذا ؟ فقلت : فتى نادته لذته	فليس عنهـا الى شيء بمنعـاج
افتح • فقهقه من قولي وقال:لقد	هيجت خوفي لامر فيه ابهاجي
ومر ذا فـرح يسعى بمسرجـة	فاستل عذراء لم تبرز لازواج

ويقـــول :

وخمـارة للهـو فيهـا بقيـة	اليها ثلاثا نحـو حانتهـا سرنا
والليل جلبـاب علينـا وحولنـا	فما ان ترى انسا لديه ولا جنا
يسايرنـا الا سماء نجومهـا	معلقـة فيهـا الى حيث وجهنـا
الى ان طرقنا بابهـا بعد هجعة	فقالت: من الطراق؟ قلنالها: «انا»
شباب تعارفنـا ببابك لم تكن	نروح بما رحنـا اليك ، فادلجنا
فان لـم تجيبينـا تبـدد شملنا	وان تجمعينا بالـوداد تواصلنا
فقالت لنا: اهلا وسهلا، ومرحبا	بفتيان صدق ما أرى بينهم افنا
فقلت لها : كيلا حسابا مقوما	دواريق خمر ما نقصن ولا زدنا

ولا يأخذ الشاعر فى هذه القصيدة نفسه باستقلال البيت فى لفظه ، بحيث تكون القافية نهاية للمعنى ، كما هى نهاية للنغم فى البيت الواحد • اذ نلحظ ارتباط معنى القافية بمعنى البيت الذى يليه ، وهذا عند نقاد الشعر التقليديين عيب يسمى التضمين •

ويقول مرة أخرى :

وفتيان صدق قد صرفت مطيهم	الى بيت خمار نزلنا به ظهرا
فلما حكى الزنار ان ليس مسلما	ظننا به خيرا فظن بنا شرا
فقلنا على دين المسيح بن مريم ؟	فاعرض مزورا وقال لنا كفرا
ولكن يهودى يحبك ظاهرا	ويضمر فى المكنون منه لك الغترا
فقلنا له : ما الاسم قال سموأل	على أننى أكنى بعمرو ولا عمروا
وما شرفتنى كنية عربية	ولا اكسبتنى لا سناء ولا فخرا
ولكنها خفت وقلت حروفها	وليست كاخرى انما جعلت وقرا
فقلنا له عجبا بظروف لسانه	اجدت أبا عمرو ،فجود لنا الخمرا
فادبر كالمزور ينظر نحونا	لأرجلنا شطرا، وأوجهنا شطرا
وقال لعمرى لو اطعتم بامرنا	للمناكم ، لكن سنوسعكم عذرا
فجاء بها زيتية ذهبية	فلم نستطع دون السجودلها صبرا

وتارة يكون صاحب الحانة رجلا أصلع الرأس ، يقرعه أبو نواس وعصابته ليلا فيقوم مروعا ، لكن يفرخ روعه عند تعرفه اليهم ، وأنهم زبائن لا ينوون به شرا :

يارب صاحب حانة قد رعته	فبعثته من نومه المتديل
عرفت ثياب الطارقين كلابه	فيبتن عن سنن الطريق بمعزل

ما زلت امتحن الد ساكر دونه ... حتى دفعت الى خفى المنزل
فعرفته والليل ملتبس بنا ... برقيف صلعته وشيب المسحل

ويقول في صورة أخرى مع فتيـة وخمارة :

وليلـة قد سرت بفتيـة ... تنازعها نحو المدام قلوب
الى بيت خمار ، ودون محله ... قصور منيفات لنا ودروب
فقزع من ادلاجنا بعد هجعة ... وليس سوى ذى الكبرياء رقيب
تناوم خوفا ان تكون سعاية ... وعاوده بعد الرقاد وجيب
ولما دعونا باسمه طار ذعره ... وايقن أن الرجل منه خصيب
وبادر نحو الباب سعيا ملبيا ... له طرب بالزائرين عجيب
فاطلق عن تابيه وانكب ساجدا ... لنا وهو فيما قد يظن مصيب
وقال : ادخلوا حييتموا من عصابة ... فمنزلكم سهل لدى رحيب
وجاء بمصباح له فانباره ... وكل الذى يبغى لديه قريب
فقلنا: أرحنا هات ان كنت بائعا ... فان الدجى عن ملكه سيغيب
فابدى لنا صهباء ، ثم شبابها ... لها مرح فى كأسها ووثوب

ويجيد رسم مجلس الخمر فيصور الساقية أو الساقى ، وشعرها ، وتصفيف الشعر ، والملباس والزينة . وغالبا ما تكون مجالس الشراب وسط الرياض ، أو تحت ظلال الكروم ، وقد اشتهرت قطربل والكرخ وطيرناباذ فى عصره بمجالس الخمر وحانات وسط البساتين :

قطربل مربعى ، ولى بقرى الكر ... خ مصيف ، وأمى العنب
ترضعنى درها ، وتلحفنى ... بظلها والهجير يلتهب
اذا ثنته الغصون جللنى ... فينان ما فى أيكه جوب
تبيت فى مأتم حمائمه ... كما ترثى الفواقد السلب

يهب شوقي وشوقهن معا ... كأنما يستخفنا الطرب
فقمت أحبو الى الرضاع كما ... تحامل الطفل مسه سغب

ويقول :

ومجلس خمار الى جنب حانة ... بقطربل بين الجنان الحدائق
نجاة ميادين على جنباتها ... رياض غدت محفوفة بالشقائق

ويكون هذا المجلس بالدير ، وللديارات في شعر أبي نواس صورة جميلة ، منها صورة دير بهراذان ·

بدير بهراذ ان لي مجلس ... وملعب وسط بساتينه
رحت له ومعي فتية ... نزوره يوم شعانينه
لكل طلاب الهوى فاتك ... قد آثر الدنيا على دينه
حتى توافينا الى مجلس ... تضحك ألوان رياحينه
والنرجس الغض لدى ورده ... والورد قد حف بنسرينه

وقصيدته في وصف دير حنه ورهبانه وقساوسته يقول فيها :

يا دير حنة من ذات الاكيراح ... من يصح عنك فاني لست بالصاح

وحانات الكرخ ذات الحدائق والكروم المظللة والورود والرياض مع حول الأرائك المصفوفة :

وصل الى مجلس على شرف ... بالكرخ بين الحديق معتمد
مهد صففت نمارقه ... في ظل كرم معرش خضد
قد لحفتك الغصون أردية ... فيومك الغض بالنعيم تسد

وهو يمزج بين جمال الربيع وجلوته في ابانة ونشوة الخمر :

واغد على اللهو غير متئد ... عنه فهذا أوان مقتبله
اما ترى جدة الزمان وما ... أبدع فيه الربيع من عمله
وافى وجوه الزمان غادية ... عند اقتراب الشتاء من أجله

فاحتل أرجاءه فادركها — من زهو نواره ومن حلله
أدركت في اخريات شتوته — ما كان مد الربيع في أجله
فاشرب على جدة الزمان فقد — وافى يطيب الهوى ومحتلله
من قهوة تذكر السرور وتنسى الهم عند اعتراض مشتكله

فقال في وصف الورود والرياحين :

لا تخشمن لطارق العدثان — وادفع همومك بالشراب القاني
أو ما ترى أيدي السحائب رقشت — حلل الثرى ببدائع الريحان
من سوسن غض القطاف وخرم — وبنفسج وشقائق النعمان
وجني ورد يستبيك بحسنه — مثل الشموس طلعن من اغصان
حمرا وبيضا يجتنين وأصفرا — وملونا ببدائع الالوان
بعقود ياقوت نظمن ولؤلؤ — أوساطهن فرائد العقيان
ومن الزبرجد حولهن ممثلا — (ثملا) يلوح بجانب البستان

ويقول في دير حنة :

يا دير حنة من ذات الاكيراح — من يصح عنك فاني لست بالصاحي
رأيت فيك ظباء لا قرون لها — يلعبن منا بالباب وأرواح
دع التشاغل باللذات يا صاح — من العكوف على الريحان والراح
واعدل الى فتية ذابت نفوسهم — من العبادة تحت الجسم أطلاح
لم يبق فيهم لرائيهم اذا حصلوا — خلاف ما خوفوه غير اشباح
تلقى بهم كل محقو مفارقه — من الزهاد عليه سحق أمساح
لا يدلفون الى ماء بآنية — الا اعترافا من الغدران بالراح

نـــص :

وفتية كمصابيح الدجـى غـرر — شم الانوف من الصيد المصاليت
صالوا على الدهر باللهو الذي وصلوا — فليس حبلهمو منـه بمبتـوت
دار الزمان بافـلاك السعود لهم — وعاج يحنو عليهم عاطف الليت
ناد منهم فرقف الا سفنط صافية — مشمولة سبيت من خمر تكريت
من اللواتي حظيناها على عجـل — لمـا عججنـا بربـات الحوانيت
فـي فيلق للدجا كاليم ملتطم — طـام يحاربه من هوله التوتـى
اذا بكافـرة شـطاء قـد برزت — فـي زى مختشع للـــه زميت
قالت: من القوم؟ قلنا: من عرفتهم — من كل سمح بفرط الجود منعوت
حلوا بدارك مجتازين فاغتنمي — بذل الكرام وقولي كيفما شيت
فقد ظفرت بصفو العيش غانمة — كغنم داود من اسـلاب جالوت
فاحيي بريحهم في ظل مكرمة — حتى اذا ارتحلوا عن داركم موتي
قالت فعندي الذي تبغون فانتظروا — عند الصباح فقلنا بل بها ايت
هي الصباح يجلي الليل صفوتها — اذا رمت بشــرار كاليـواقيت
رمي الملائكة الرصاد اذ رجمت — في الليل بالنجم مراد العفاريت
فاقبلت كضياء الشمس بارغـة — في الكاس من بين دامي الخصر منكوت
قلنا لهاكم لها في الدن اذ حجبت — قالت قد اتخذت من عهد طالوت
كانت مخباة في الدن قد عنست — في الأرض مدفونة في بطن تابوت
فقد اتيتم بها من كنه معدنها — فحاذروا اخذها في الكاس بالقوت
تهدي الى الشرب طيبا عند نكهتها — كنفح مسك فويق النار مفتوت
كانها بـزلال المـزن اذ مزجت — شـباك در على ديبـاج ياقوت
يديرها قمـر في طرفه حـور — كانما اشتق منه سحر هاروت
وعندنا ضارب يشـدو فيطربنا — «يا دار هند بذات الجزع حييت»

اليه الحاظنا تثني أعنتها ... فلو ترانا اليه كالمباهيت
من اهل هيت سخي الجرم ذو ادب ... له اقول مزاحا هات يا هيتي
فينبري بفصيح اللفظ عن نغم ... متقفات فصيحات بتثبيت
حتى اذا فلك الاوتار داربنا ... مع الطبول ظللنا كالمسابيت
فزنا بها في حديقات ملففة ... بالرند والطلح والرمان والتوت
تلهيك أطيارها عن كل ملهية ... اذا ترنم في ترجيع تصويت
لم ينثني اللهو عن غشيان موردها ... ولم اكن من دواعيها بصميت
حتى اذا الشيب فاجاني بطلعته ... اقبح بطلعه شيب غير مبغوت
غدا الغواني اذا ابصرن طلعته ... وقد اذن بتوديع وتشتيت
فقد ندمت على ما كان من خطلي ... ومن اضاعة مكتوب المواقيت
أدعوك سبحانك اللهم فاعف كما ... عفوت ياذا العلا عن صاحب الحوت

صور الساقي والساقية :

ونحن بين بساتين فتنفعنا ... ريح البنفسج لا نشر الخزاماء
يسعى بها خنث في خلقه دمث ... يستاثر العين في مستدرج الرائي
مقرطق صخب الارداف ذو غنج ... كان في راحتيه رسم حناء
عيناه تقسم داء في محاجرها ... وربما نفعت في حولة الداء
اني لاشرب من عينيه صافية ... صرفا واشرب اخرى مع ندامائي

ويقول :

وساق غرير الطرف والدل فاتن ... ربيب ملوك كان والدهم كسرى

والساقية :

وذات وجه كان البدر حل به ... يهدي لك الورد والتفاح خداها
مطموحة الشعر في قمص مزررة ... في زي ذي ذكر سيما وسيماها
فلو يراها غلام يلمحها ... عض الاتامل لولا اللحظ ادماها
تدعى لان كملت في حسنها عللا ... قد غير الاسم خوف العين مولاها

والســـاقي :

يسقى بهـا كالقضيب متجـدل زرفن أصداغــه ولواهـــا
كأن وجنتــه حــين ختمــا من يـده الغمـر ثم ثناهــا
تفاحــة فــي يمــين ذى كلف طيبهــا جاهــدا وطراهـــا

الساقى : وقصــة شــعره :

يدير بها ساق أغن تـرى له على مستدار الاذن صدغا معقربا
سقاني ومناني بعينيـه منيـــة فكانت الى قلبى الـذ وأطيبـا

ويقـــول :

تمد بهــا اليك يــدا غـــلام أغـن كأنــه رشــا ربيب
ينــوء بردفــه فــاذا تمشى تثنــى فى غلائلــــه قضيب
فــان جمشـــته خلبتك منـــه طرائف تستخف لهـا القلـوب
يــكاد مــن الــدلال اذا تثنــى عليك ومن تساقطـه يذوب

الساقية القينــة :

فجاءت بها تحدو بها ذات مزهر يتـوق اليهـا الناظرون ربيب
كثيب علاه غصن بان اذا مشى تكاد لـه صـم الجبـال تنيب
واقبل محمود الجمــال مقرطق الى كاســها لا عيب فيــه أريب
يشم الندامى الورد من وجناته فليس به غـــير الملاحــة طيب

وفى ســاق اسمه المعلى :

ومختلس القلوب بطـرف ريـم وجيـد مهـاة بــرتى هضــاب
اذا امتحنت محاسـنه فابدت غرائب حسنه من كل باب
تقاصرت العيــون له فاغضت عن العظــات خاضعــة الرقاب
لـــه لقب يليــق بناطقيـــه بديع ليس يعجـم فى الكتـاب
يقال لــه المعلى وهــو عنــدى كما قالوا وذاك من الصــواب
يطلبنــا بصافيـــة ووجــــه كبـدر لاح مــن خلل الســحاب

وفـــي ســـــاق :

يسعى بهامثل قرن الشمس ذو كفل ... يشفي الضجيج بذي ظلم وتشنيب
كأنه كلمـا حـاولت نائلـــة ... ذو نخوة قد نشا بين الأعاريب
يسطو على بحسن لست أنكـره ... يا من رأى حملا يسطو على ذيب

الســاقي :

مدام ربت في حجر نوح يديرها ... على ثقيل الردف مضطمر الخصر
كأن ضياء الشمس نيطت بوجهه ... وبدر الدجى بين الترائب والنحر
فلما بدت أزرار جيب قميصه ... تطلع منها صورة القمـر البدر

وقـــال :

وأحور مخلوع الزمام تخالـه ... قضيبا من الريحان يهتز اخضرا
مريض جفون المقلتـين مزتـر ... له شـفة من مصها مص سـكرا
فلو أنه يقظان أو في منامـه ... يجـود لاعمى بالولاء لابصـرا
يخر لصرف الكاس في السكر ساجدا ... وان مزجت صـلى عليها وكبرا
أدار علينـا بالتحيـــة كفـــه ... وسربلها لونا من الراح أحمرا

ويقـــول :

يسقيكهـا مختلـق ماجــــن ... معـــود للسقـى نحريـــر
منقطع الـردف هضيم الحشـا ... أحـور فـي عينيـه تفتـــير
قد عقربت وابيـــة صدغـــه ... فالصـــدغ بالعنبر مطـرور

ويقـــول :

نازعتهم قهـوة صفراء صافيـة ... بشـادن خنث كالغصن ميـاس
مخنث اللفظ يسبيني بمقلتـه ... مقرطق قرشـي الوجـه عباسي
كأن اكليله تـاج ابن مـارية ... اذ راح معتصبا بالـورد والآس
وقد يغنيك من سكر ومن طرب ... والكاس يختال من ساق الى الحاسي
(لله درك قـد عذبتني حرقـا ... بالقرب والبعد والاطماع والياس)
يديرها هاشمي الطـرف معتدل ... أبهـى اذا مشى من طاقة الآس
حث المـدام وغنانـا على طرب ... (الآن طاب الهوى يا معشر الناس)

ســاقية :

وخــذ من كف ساقية وصيف رخيـم الـدل ملثـوغ الكـلام
لهـا شــكل الاناث وبين بين ترى فيها تكاريـه الغـلام
فاحـيانا تقطب حاجبيهـــا واحيانـــا تثنى كالحســـام

الســـــاقي :

نازعتها واضـح الخدين معتدلا يحكي ببهجته للناس بلقيسا
مقرطق حرســـوه في حداثتــه لم أره والله في حرو ولا طوسا

ســـــاقية :

من كف جاريـة حوا مقرطقـة ناهيك من حسن ومـن ظـرف
نظـرت بعيني جوذر خـرق وتلفتت بســوالف الخشـف
فشربت من يدهـا ومن فمهـا ورشـفت غـير ملعن الرشـف
قالت وقـد جـعلت تمايـل لى كتمايل الماشـــى عـلى الـدف
وجهـــى اذا اقبلت يشـفع لى وعذاب قلبـك حسن مـا خلفي

ســـاق :

يسقيهـم ذو وفـــرة أحـــور يسـيل صدغا فاتر الطـرف
يكسـر الـراء وتكســيرها يدعـو الى السـقم مـع الحتف
ان رام اعجـالا أبـى ردفـــه اورام عطفـــا جـــر للعطف

ويقــــول :

يدور بهـا ظبى غريـر متـوج بتاج من الريحان مثل القراطق
فليس كمثل الغصن في ثقل ردفه اذا ما مشى فى مستقيم المناطق
له عقربا صدغ عـلى ورد خده كانهما نونـان من كف ماشـــق
فلما جرت فيه تغنـى وقال لى بسكر الا هات اسقنا بالدوارق

الســـاقى :

يسـعى اليـك بها أخـو هيف	عذب الشمائل طيب اللثم
ذو وجنــة خجــلى موردة	وقفت على التقبيــل والشم
ومؤزر يدعو الكهـول الـى	خلـع الأعنـة فيـه بالقسم
تسقيك كاسـا مـن مشعشعـة	ممزوجـة مـن فيـه بالظلـم

الساقى والساقية معن ونعم :

يديرهما دعجاء رود وأدعـج	أخ وأخته فى القوم واسمهما اسم
يقال لـه معـن فلمـا نكسـته	لتدعو أخته يوما معكوسـة نعم

ويقـــول :

يـا حسنها من بنـان ذى خنث	تدعوك أجفانـــه الى الريب

ويصف الساقيات :

أهديك خذها من يـدى ومات	ـعـزبنى حب غلاميـــات
ذوات أصــداغ معقربـات	مقومـــات القــد مهضمـات
يمشـين فـى قمص مزررات	يصلحـن للاطـــة والزنـــاة

الساقى المغنى من الروم أو اليونانيين :

وغـــزال مـن بنى الأصفـــر	معصـــــوب بتـــاج
شـــخصه منـى بعيـــد	وهـو منـى كالمناجـى
كلمـــا ســـقاك غنـــى	كـل ضيـق لانفـــراج

الساقى العربى :

يديرها خنث فى لهوه دمث | من نسل اذين ذو قرط ودراج
يزهى علينا بان الليل طرته | والشمس غرته واللون للعاج

والساقى العربى :

مزج الكأس لى غزال اريب | هاشمى أصاب فيها المزاجا
فتحسيتها وناولت عليبا | فاتر الطرف ساحرا مغناجا
قال لى والمدام تاخذ فيه | يا اميرى ان كنت بى ملهاجا

الساقية القبطية :

من كف قبطية مزنرة | نجعلها للصبوح مفتاحا
تقول للقوم من مجانتها | بالله لا تحبسن أقداحا

الساقى المغنية :

وغادة هاروت فى طرفها | والشمس فى مفرقها جانحة
تستقدح العود باطرافها | ونغمة فى كبدى قادحة

الساقى :

ودار بكاسنا رشا رخيم | لطيف الكشح مهضوم الوشاح

الساقى نصرانى من بنى العباد من الحيرة :

يسقيها من بنى العباد رشا | منتسب عيده الى الاحد
اشرب من كفه الشمول ومن | فيه رضابا تجرى على برد

السـاقية :

فالخمر ياقوتة والكاس لؤلؤة   في كف جارية ممشوقة القـد
تسقيك من يدها خمرا ومن فمها   خمرا، فما لك في سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحـدة   شيء خصصت به من بينهم وحدي

السـاقي :

فقام كالبدر قد شـدت قراطقه   ظبـي يـكاد من التهييف ينعقد

الساقي المغني :

مـا زال يسـقي ويسـقي   حتـى انثنـى للمـراد
وانسـاب نحـوي يغنـي   مطربـا وينـادي
(سقيت صـوب الغـوادي   يـا منـزلا لسـعاد)

طرف الساقي يسكر مثل كأسـه :

مـا أسكرتني الشمول لكن   طـرف مدير بـه احـورار

السـقاة :

حتى اذا نقلت كاساتها خـرد   من بين ذي قرطق أو ذات زنـار

السـاقي :

فقلنا انسقاها على وجـه أهيف   لـه تيـه معشوق وشخرة شاطر

السـاقي :

قد تحسيتها على وجـه سـاق   خالع فـي هواي كـل عـذار
يقمـر فجـر الدياجـي بوجـه   ضوؤه فـي الدجى صباح نهار
يسحر العـين من بهـاء عينـه   بأني ذاك من بهـاء بهـار

يتثنى كأنه غصن بان — ميلته الرياح بالأسحار
بأبي ذاك من غزال غرير — في قباء محلل الأزرار
كم شممنا من خده الورد غضا — ومزجنا رضابه بالعقار

ساق :

من كف قلبي أغن ذي غنج — اكمل من قرنه الى القدم
أميد مرتجة روادفه — محتلم أو دوين محتلم
كأن خديه في بياضهما — أشربت وجنتاهما بدم
كأن صدغيه في سوادهما — خطا على الوجنتين بالقلم
كأنه درة مخيرة .. — علقها راهب على صنم

ساق :

عاطنيها كما وصفت خليلي — من يدي شادن رخيم الكلام
علم السحر مقلتيه احورارا — شيب تفتيره بلون المدام
وجهه البدر والمدامة بدر — يالبدرين ركبا في نظام

ساق :

بكف أغن مختضب بنانا — مذال الصدغ مضفور القرون
لنا منه بكفيه عدات — يغاطبنا بها كسر الجفون
كأن الشرب مقبلة علينا — تمشي في قلائد ياسمين

ساق :

وغزال يديرها ببنان — ناعسات يزيدها الغمز لينا
كلما شئت علني برضاب — يترك القلب للسرور خدينا

ســاق عليه أطواق الياسمين : (ابن أذين)

بيــدى ســاق عليــه حــملة مــن ياســمين
وعــلى الاذنــين منــه وردتــا اذريــون
غايــة في الشكل والظــر ف وقــرد في المجــون

ســاق :

لعمرى ما يهيج الكاس شوقى ولكن وجـه ساقيهـا شجانى
حسدت الكاس والابريق لمــا بدا لى من يلى رخص البنان
اموت اذا أزال الكـاس عنـى واحيـا مـن يديـه اذا سـقانى
فلى سكران منـه : سكر طرف وسـكر مـن رحيـق خسروانى
تجمع فيـه أصنـاف المعانـى فما يلفى له فـى الحسن ثانى
اذا ما افتر قلت سـناء بـرق اذا ما اهتز قلت قضيب بـان

ســاق كالشمس :

ومـ نر قد صب فى قارورة ريق السحاب على النجيع القانى
شمس المـدام بكفـه وبوجهـه شمس الجمال ، فبيننا شمسان
والشمس تطلع من جدار زجاجها وتغيب حين تغيب فى الابـدان

ســاق :

سـقانى من يديه ومقلتيـه من الـراح المعتـق شربتـين
فبت مرنحـا مـن شربتيـه حريقـا قد منيت بكربتـين
هــلال فوقـه بـدر لتسع وثالثــة مضـت ولليلتــين

يدير من المدامة بنت سبع وواحدة مضت بعد اثنتين
أقول له وقد طردت كرانا أدرها واسقنا بالراحتين

ساق :

وبديع الحسن قد فا ق الرشا حسنا ولينا
كلما ازددت اليه نظرا زدت جنونا

* * *

حـال المطربين والمغنين والمنشدين وآلاتهم في مجالس الخمر

* * *

الأدوار :

١) حتى تغنى ومـا تم الثلاث له حلو الشمائل محمـود السجيات
« يا ليت من مالي ومن ولدي أنـي اجالس ليتي بالعشيات »

٢) وأصبحـت السـن اوتـاره اذ حـرك المثنى بمضرابه
ثم شـدا لمـا جـرت كاسـه حرفـا ومـرت بـين أقرابـه
« عاود قلبي كنـه اطرابه من حب من أصبحت أعني به »

٣) وغنى لنـا صوتا بحسن ترجع «سرى البرق غربيا فحن غريب»
فمن كان منا عاشقا فاض دمعه وعـاوده بعـد السرور نحـيب

٤) وجـدت الـذ عاريـة الليالي قـران النغـم بالوتـر الفصيح
ومسمعه اذا ما شئت غنت « متى كان الخيام بذي طلوح »

ومغـن كلمـا شئـت تغنـى واشـارا
رفـع الصـوت بضـرب هـاج للقـلب ادكـارا
« صـاح هـل ابصرت بالخمسـين مـن أسـماء دارا »

وصـف مغنيـة وعـودها .

وخاذل من جواري الحي يسعدها أصوات مختلف من وقع اوتـار
من بين بـم الى مثنى ومثلثة وما خـلا ذاك من اصوات اوتار
نيطت على بدن كالعلق ليس له روح ولكنـه من نحت نجـار

أتـاه في غيضـة فاختار جيله	وظل ينحي لـه قطعا بمنشـار
معقرب الراس كالمسراج صنعته	سـحر وما مسه تعقيد د حار
تمت ملاويه حتى خلت خلقتها	أصابعا حركت من مفصل جـار
يحكي صدامجيد الصوتاذ نطقت	منه اللغـات على طبل ومزمار

ويقـــول :

في مجلس جلى السرور صباحه	مترا لـه من ناظـر الحدثـان
لا يطرق الأسـماع في ارجائه	ألا ترنـم ألسـن العيـدان
دوما وتصفيق الجليس تطربا	وبكاء خابيـة وضحـك قنانـي

مغنيـــة :

ومسمعه جـاءت بأخرس ناطق	بغـير لسان ظل ينطق بالسـحر
لتبـدي سر العاشـقين بصوته	كما تنطق الاقـلام تجهر بالسر
ترى فخذ الالـواح فيها كأنها	الى قـلم نيطت تضج الى الزمر
أصابعها مخضوبة وهي خمسـة	تختمن بالاوتار في العسر واليسر
اذا لحنت يوما لوت اصبعا لها	فتحكي أنين الصب من حرقة الهجر
تقول وقد دبت عقـار كأنهـا	دم ودموع فوق خد اذا تجري
« سلام على شخص اذا ما ذكرته	حذرت من الواشين أن يهتكوا سري»
فبعض الندامى في سرور وغبطة	وبعض الندامى للمدامة في اسر

اسمهـا قبـــل :

فقال هات واسـمعنا على طرب	(ودع هريرة أن الركب مرتحل)
فاحسنت فيه لم تخـرم مواقعه	والكاس في يدها في جوفها حلل
ثم استهشت الى صـوت تملحه	«انا محيوك فاسلم إيها الطلل»
فما تمالكت عيني أن تبادرهـا	دمعي ، وعاودها من دلها خبل

فقال احسنت،ما تدعين؟ قلتله: معكوســة لبق هــذا هو المثــل
فطار وجدا بها والخمر ياخذها وقال: هات،فانت العيش والأمل
(ان العيون التي فيطرفي مرض) فرجعته بلعن وقعــه شــكل
فخــر معتجــزا مما ترادفـــه منها وقلت لهــا : أحسنت يا قبل
فاستخجلتفتبدى الورد يضحلتفي خد أنيق لها يا حبـذا الخجل

نغـــم :

أكرم بهـم وبنغـم من مغنيـة ففي الغنــاء بنغـم يضرب المثل
هيفــاء تسمعنا والعود يطربنا (ودع هريرة أن الركب مرتحل)

حـــال الندامي والسكاري :

يقول في سكره وظل يشرب طــوال الليل حتــى الصباح وكانت الخمر قد لعبت برأســه :

فما هجـم الصبــاح علي حتــى رأيت الأرض دائــرة الفجــاج

في الندمان وقد سـكر فارتعشت يــداه :

وندمان ترادفــــه خمــــار فاورث فــي أناملــه ارتعــادا
فليس بمستقيل الكاس مــا لــم تكن يسراه لليمنى عمــــادا
رفعت له يــلى وهنــا بكاس بها منها تزيــد مــا استعادا
وقــال الست متبعهــا باخــرى توقرنــي فــان بـي ازديــادا
فقلت لــه : بـلى وباخريــات عـلى أني ساجعلها جيــادا
فذلك دابــه ليــلا ودأبــي اذا مازدتــه منهـــا استزادا
الى ان خــر ما يــدري أارضا توســد عند ذلك أم وســـادا

ويقـــول :

أسقني حتى تراني ... أحسب الديك حمار

ويقول في الندامى وقد غلبهم السكر :

فما برحت حتى الصباح يديرها ... ويجرى بنا في كل حق وباطل
فبين صريع قد تجدل طافحا ... الى ذي وساد مائل الرأس زائل
فلما رأيت الصبح اسفر وجهه ... وخفت نواقيس الدجى في الهياكل
طفقت أفديه وأدعو باسمه ... فقال مجيبا : ماتشا ، بتثاقل
فقلت له : تفديك نفسي واسرتي ... ويفديك طرا كل حاق وناعل
الست ترى ضوء الصباح ونوره ... وتسمع تغريد الحمام الثواكل
فقم فاصطبحها وانف عنك خمارها ... فليس لها مثل الصبوح المعاجل
فما زال حتى ذاقها متكرها ... فردت اليه روحه في المفاصل

ويقـــول :

نبهته بعد ما حل الرقاد له ... عقدا من السكر الا أنه ثمل
فقلت كاسك خذها قال محتجرا ... حسبي الذي أنا فيه أيها الرجل
ثم استدار به سكرا فمال به ... فقمت أسعى اليه وهو منجدل
قد دبت الخمر سرا في مفاصله ... فمات سكرا ولكن حاطه الأجل
فلم أزل أتفداه وارقمه ... عن وهدة الأرض والنشوان محتمل
حتى افاق وثوب الليل منخرق ... وغار نجم الثريا واغتلى زحل

ويقـــول :

رفعت له النداء بقم فخذها ... وقد اخذت مطالعها النجوم
فقام وقمت من اخوين قاما ... على طرب وليلهما بهيم
اجر الزق وهو يجر رجلا ... يجور بها النعاس ويستقيم

ويقــول في وصف ما يخيله السكر :

ذكــر النعــــام :

خلنا الظليم بعيرا عند نهضتنا	والتــل منبطحــا في قد ثهــلان

طلــوع الصباح :

يصوره في صور مختلفة :

فمن بين مسرور وباك من الهوى	وقد لاح من ثوب الظــلام عيوب
وقدغابت الشعرى العبوروأقبلت	نجوم الثريا بالصبــاح تثــوب

صنعته الشعرية (موسيقاه) ·

الترصيع كما في قوله :

في بيت كافــرة بالخمر تاجرة	شــمطاء شــاطرة تعتــز بالوالى
فبيتهــا حـــرم وقولهــا نعــم	وكيلهــا حــكم فــي كل مكيال
وعندها قمــر في طرفــه حــور	في دلــة خفــر في حسن تمثال
مقاكـــــه عبث مقالـــــه أنث	في طرفــه نفث مثــال أبطــال
يسقيك من يده خمــرا وناظره	سحرا ، ومن فمه سكرا على حال

ومن أوزانه ما أعمل فيه الترصيع والتقسيم الموقع :

سـلاف دن كشمس وجــن	كدمــع جفــن كخمر عــدن
طبيــخ شــمس كلون ورس	ربيب فــرس حــليف ســجن
رايت ملجـــا بباطــر نجــا	لهــــا توجــى فلــم يشـــن
حتى تبـــدت وقــد تصــدت	لنــــا وملت حــــلول دن
فاحت بريــح كريــح شــيح	يــوم صبــوح وغيــم وجــن
يسقيك ســاق ، عــلي أشــتياق	الى تـــلافي بمــــاء مــزن

يدير طرفا يعير حتفا	اذا تكفا من التثنى
على غناء وصوت ناء	دواء داء من التجنى
ولثم خد كطعم قند	لذات قد وهى تغنى
غنا بدل وضرب طبل	وحسن شكل وخبث جنى
يا من لحانى على زمانى	اللهو شانى فلا تلمنى
اطلت قولا فلا تقل لا	يريد آلا السلو عنى
استخفت عينا تراك زينا	فاين اينا الفرار منى
هتكت سترى فباح سرى	وعيل صبرى يطول حزنى

الأوزان الراقصة ومنها قوله :

ويجلس ماله شبيه	حل بالحسن والجمال
بمطرفيه السرور سحا	بدينة مالها انتقال
شهدته فى شباب صدق	ما ان يوازى لهم فعال

نسق قصيدته الخمرية :

ويتبع فى قصيدته الخمرية نسقا غالبا، وقليلا ما يعدل عنه، هو أن يبدأ باللوم على من يصف الطلول أو يقف بها ، ويبكى هندا وأسماء وغيرهما من نساء العرب ، ويطلب أن يدع الناس هذا كله لأنه بلاغة القدماء ، وليس أنسب للمحدثين من وصف الرياض والقصور والخمر بآلاتها ، وسقاتها غلمانا وفتيات ، فهذه هى لذات الدنيا · تجتمع فى مجالس الخمر: جمال الطبيعة، وجمال الوجوه والورود من السقاة ، وجمال الحديث ، من الندمان ، ولذة الخمر ونشوتها ، ثم جمال الصوت بالغناء ·

وغالبا ما تختم قصيدته بصوت من الأصوات المعروفة التى يتغنى بهـا فى عصره •

ألفاظــه :

تلاعبـه باللفظ أو توليده :

يريد أن يعبر عن معنى أن الخمر لا يشربها الا كريم فيشتق من الكرم الكرم ويقول مناسبا بين الألفاظ ومولدا :

وخذها ان شربت وبعض خمر	بماء المزن من نطف الغيـوم
لتجمـل هـذه عرســا لهـذا	فـان القطـر بعـل للكـروم
ولا تسـق المـدام فتـى لئيما	فانـى لا أحـلك للئيــم
لأن الخمر من كـرم وجـود	ومـاء الكرم للرجـل الكـريم

الوصف :

يقول من أوصافه فى بستان نخيل وأشجار فاكهة وزينة :

نخـل اذا جليت ابـان زينتها	لاحت باعناقها أعذاقها النحـل
اسقاط مسجدة فيها لآلئهـا	مقصودة بسموط الدر تتصـل
ينتضها فطن علـج بهـا خبـر	فض العذارى حلاها الربط والحلل
فافتض أولهـا منهـا وآخرهـا	فاصبحت وبها من شحلهـا حبل
لم تمتنع عفة منـه ولا ورعا	بـلا صداق ولم يوجد لهـا عقل
حتى اذا لقحت أرخت عثاكلها	فمال منتثرا عرجونها الرجــل
فبينما هـى والأرواح تنفحهـا	شـهرين بارحـة وهنا وتنتحل
أرخت عقودا من الياقوت ملمجة	صفرا وحمرا بها كالجمر يشتعل
فلم تزل بمدود الليل ترضعه	حتى تمكن فى أوصاله العسل
ياطيب تلك عروسا فى مجاسدها	لو كان يصلح منها الشم والقبل

خلالها شجر فى فيئة نقد	لايرهب الذئب فيها الكبش والحمل
ان جئت زائرها غناك طائرها	برجع ألحانه فى صوته هدل
من بلبل غرد ناداك من غصن	يبكى ليلبلة أودى بهـا خبل
هذه قصفة وقل فى وصفه سددا	مدت لواصفه فى عمره الطول
ما بين ربع ولا رسم ولا طلل	اقوى، وبنيتى فى حكم الهوى عمل

غزله بالمرأة :

لئن كان أبو نواس قد وهب شعره للخمر ، ووهب كذلك عاطفته وأحاسيسه كلها فان المرأة لعبت مع الخمر دور باعث اللذة ، أو هي كانت عنصرا من عناصرها ، فالجمال الأنثوى متمم للذات ، وان كان عند أبى نواس يتأخر عن مرتبة الخمر والغلمان .

ولكن ديوانه مع ذلك يحوى قصائد ذوات عدد فى الغزل والنسيب ، ومنها ما يكشف عن عاطفة ما حملها الشاعر للمرأة ، لعلها تكون أول حياته أو فى شرح الشباب وميعة الصبا ، وفلسفة اللذة لم تتبلور عنده على تلك الصورة التى جعلت من الخمر قطبها ومن الغلمان والسماع والطبيعة معرضها ومجلاها .

ومن هذه الأبيات التى تحس فيها بحرقة العاطفة بعض الشىء قوله ولعله قالها شابا كما قلت :

حامل الهوى تعب	يستخفه الطرب
أن بكى يحق له	ليس ما به لعب
تضحكين لاهية	والمحب ينتحب
تعجبين من سقمى	صحتى هى العجب
كلما انقضى سبب	منك جاءنى سبب

وتربط الأخبار بينه وجارية من جوارى البصرة اسمها « جنان » ، وتصور علاقة حب بينهما ، كانت جنان جارية لآل عبد الوهاب الثقفى . رآها مرة تمر أمامه وهو بالمربد فى مجلس مع جماعة من أصحابه . وكانت مقدودة حلوة بديعة الحسن ، أديبة ظريفة عاقلة تعرف الأخبار وتروى الأشعار . واتفقت الأخبار على أن أبا نواس لم يصدق فى حب امرأة غيرها .

ويصور فى مقطوعة لقاءه بصاحبته جنان بين جماعة من الجوارى ، وقد أقبلن من رصافة البصرة فى أتم زينة يحففن بجنان كالتماثيل الحسان . فقال :

ومضمخات بالعبير	نزلن من غرف الجنان
راضعتهن من الصبا	كاسا عقدن بها لسانى
اقبلن من باب الرصا	فة كالتماثيل الحسان
يحففن احور كالغزا	ل امر أمرار العنان
يمشى بردف كالنقا	يختال تحت قضيب بان
فاذا انجليت فجاملى	كيلا اموت على المكان

وتعرف الى جنان ، وكان يكتم حبها أول الأمر لكنه لم يطق الكتمان فلهج بذكرها ، وردد اسمها :

لابيحن حرمة الكتمان	راحة المستهام فى الاعلان
قد تصبرت بالسكوت وبالاطر	اق جهدى فنمت العينان
تركتنى الوشاة نصب المريبيـ	ـن واحدوثة بكل مكان
ما أرى خاليين للسر الا	قلت ما يخلوان الا لشانى

وقـــال :

لمـا تكشف عنـي أنني كلف | كشفت أيضا لهـم عمن به الكلف
جيـم وجدت لها نونين بينهما | لمن تهجـى اسمها او خطه ألف
يضمه من ثقيف بعض دورهم | ما بينكم بعد ذا التبيان مختلف

وله مع جنان هذه نوادر كثيرة ، يقال أنها هجرته لمـا سمعت بتشهيره بها في شعره ، وسجل صدها له وابتعادها عنه في قوله :

زهدت جنـان فـي الـذي | رغبت اليهـا فيـه نفسـي
فزهـدت في الدنيـا وصـا | رت منيتـي فـي زور رمسي
وطـويت عينـي ان تـرا | ني عيتها وامت جرسـي
كيـلا يـروع ذلك الوجـ | ـه الجميـل سـماع حسي

ويقـول :

جنـان تسبني ذكـرت بخـير | وتزعـم أنني رجـل خبيث
وان مودتـي كـذب ومـين | وأنـي للـتي تطـوى يثـوث
وليس كـذا ولا يـرد عليهـا | ولكن الملـول هـو النكـوث
ولى قلب ينازعني اليهـا | وشـوق بين أضلاعي حثيث
رات كلفي بها وقديم وجـدي | فملتني كـذا كـان الحديث

ولكنه لم يطق الصبر طويلا ،وعاد لترديد اسمها واللهج به حتى قال فيه الناس وعذلوه :

أما يفني حديثـك في جنـان | ولا تبقـي عـلى هـذا اللسان
أكل الدهـر قلت لهـا وقالت | فكـم هـذا أمـا هـذا بفـان

وتذكر أخبارهما أنها عزمت الحج مع أهلها ، وسمع هو بذلك فعزم على أن يصحب الركب خفيــة وأن ينوى الحج ليراها هناك فى مكة وعند الطواف . وقد لجأ الى هذا لمـا طلبهـا فلم تحصل له ، وكان طلابها عليه عسيرا :

الـم تــر اننـى افنيت عمـرى	بمطلبهـا ومطلبهـــا عســير
فلمـا لـم اجـد سببا اليهـا	يقربنـى وأعيتنى الأمـــور
حججت وقلت قـد حجت جنان	فيجمعنـي وإياهـــا المســير

ويلتقيان فــى الطواف ، وتقترب لتلثم الحجــر الأسـود ، ويقترب هو منها ويلتقى عليه خداهما .

وعاشـــقين التف خداهمـــا	عند التثام الحجـر الأسـود
فاشتفيا من غـير أن يأثما	كأنما كانـا عـلى موعــد
لولا دفـاع النـاس اياهمـا	لمـا استفاقا آخــر المشـهد
فظللنـا كلانـا سـاتر وجهه	بما يـلى جانبــه باليــد
نفعل فى المسجـد ما لم يكن	يفعله الابـرار فى المسـجد

وعلى أننا نجد من شعره في جنــان شعرا وجدانيا جيداً مثل قولـــه :

ياذا الذى عن جنان ظل يخبرنا	بالله قل وأعـد يا طيب الخبر
قالوا اشتكتك وقالت ما ابتليت به	أراه من حيث ما أقبلت فى أثرى
ويرفع الطرف نحوى انمررت به	حتى ليخجلنى من شـدة النظر
وان وقفت لـه كيمـا يكلمنى	فى الموضع الخلو لم ينطق من الحصر
ما زال يفعل بى هذا ويدمنه	حتى لقد صار من همى ومن وطرى

وربما ترك حب جنان في نفسه بعض حرقة الهوى ، وهو الذى لم يبد في شعره حرقة ، ولا لوعة ، لكنا نعثر مع بعض شعره في الخمر حرقة غير معهودة كثيرا في خمرياته مثل قوله :

وقهوة عتقت في دير شماس ... تفتر في كاسها عن ضوء مقياس
مزاجها دمع حاسيها فأى فتى ... لم يبك اذ ذاقها من حرقة الكاس
سلم ولكنها حرب لذائقها ... يا حبذا بأسها ما كان من باس

ويقول في موضع آخر :

ردا على الكاس انكما ... لا تدريان الكاس ما تجدى
لو تلتما ما فعلت ما مزجت ... الا بدمعكما من الوجد

وبعد فلعل هذا هو الحب الوحيد في حياته الذى خلف في نفسه حرقة ، ولعله فشل ولم يبلغ منه مراده ، فحز في قلبه أسى ، ومن يدرى لعل فشله في الحب ، مع عقدة أمه جلبان وما كان يسمع عنها ومنها تركا في نفسه احساسا مريرا من المرأة ساعده على أن ينحرف أو يحيد عنها ، ويشق في حياته الجنسية طريقا غير السوى ، فيخرج الى هذا الشذوذ في الغرام بالغلمان وكراهة النساء أو العزوف عنهن • ربما كان الأمر كذلك ، وربما كان لعشق النفس أو عقدة النرجسية كما أشار الأستاذ العقاد •

ولكن سائر شعره الغزلى في النساء مع ذلك طبع بطابع جديد ، يختلف عن شعره في جنان ، ويختلف عن غزل الغزلين • فيه ظرف وفيه تندر • تحس بروحه المذبة ودعابته تجريان مع ألفاظه وصوره • مثل قوله :

قــل لندامــاى وجلاســى ... هل لى من عبـدة مـن اسـى
او قائــل يخبــرها حالفــا ... أن ليس منها بـى من بـاس
فراجعــى الوصـل فان زرتكم ... قـدر فراقى فاحلقى راسـى

وقولـــه :

اسـمى لوجهك يامنى صفة ... فكفى بوجهك مخبـرا باسمى
الله وفـق والـــذى لــــه ... من قبـل أن أهواك عن علـم
الله فـــى قتـــل معذبتــــى ... لا تقتلى فـى غـير مـا جـرم
لا تفجعـــى أمـى بواحدهــــا ... لن تخلفـــى مثـلى على أمـى

ويحلو له أن يداعب بعض الجوارى ممن يلقاهن ، ويصور تلك الدعابة في شعره . فيقول :

اين الجواب واين رد رسـائلى ... قالت تنظـر ردهـا من قابـل
فمددت كفـى ثم قلت تصدقى ... قالت نعم . بحجارة وجنـادل
ان كنت مسكينا فجـاوز بابنا ... وارجع ، فمالك عندنا مـن نائل
يا ناصر المسـكين عند سـؤاله ... الله عاتب فى انتهـار السائل

وقد يعاكس احدى الجوارى فى الطريق :

أمشـى الى جنبهـــا أزاحمهـا ... وما فـى الطريق مـن ضيـق

ويقول فى جارية قصرية من جوارى قصور الخلافة أو الأمراء :

وقصريــة أبصرتهـا فهويتها ... هوى عروة العذرى والعاشق النهدى
فلما تمادى هجرها قلت واصلى ... فقالت بهذا الوجه ترجو الهوى عندى
فقلت لها لو كان فى السوق أوجه ... تباع بنقد حاضر وبسوى نقـد
لغيرت وجهى واشـتريت مكانه ... لعلك ان تهوى وصالى من بعد
وان كنت ذا قبح فانى شـاعر ... فقالت: ولو اصبحت نابغة الجعدى

ويقول وقد طلب قبلة من جارية فتأبت عليه وقالت له ، لا تلح في الطلب كالطفل :

سألتها قبلة ففزت بها	بعد امتناع وشدة الطلب
فقلت بالله يا معذبتي	جودي بأخرى أقضي بها أربي
فابتسمت ثم أرسلت مثلا	يعرفه العجم ليس بالكذب
لا تعطين الصبي واحدة	يطلب أخرى بأعنف الطلب

وهو يعرف حب القيان ، وأنهن لا يثبتن على العهد ، وبهذا يخاطب « عنان » جارية الناطفي وكانت أديبة شاعرة ، وكثيرا ما كانت تجالسه مع بعض أصحابه :

قد قلت قولا فاسمعي ذاكم	مني وردي مثله يا عنان
اني لأهواك واني جبان	أفرق من علمي بغدر القيان
يصلن من واصلنه خدعة	بكسرة الطرف ومزح اللسان
لست أرى وصلك أو تحلفي	ألا تخوني ، وتفي بالضمان
أو فذريني وصلي جاهلا	يلقي من الغيرة فيك الهوان

شعره التقليدي :

المديح :

ونخرج من حديث الخمر والغزل الى المديح « وكان مديحه طلبا للمال ، أو استعطافا أو تقربا أو خشية ، كذلك كان مديحه للرشيد وللفضل بن الربيع والأمين والخصيب » . ولكنه أخلص أحيانا اذا ما رضي أو اذا شعر بالمودة بينه وبين من يمدح كما هو الحال في بعض مدائحه للأمين - فيخاطبه فيها مخاطبة النديم

والصاحب ، ومدائحه للخصيب والى مصر ، لأنه أرضاه ، وأطلق له العنان فى ملاهيــه .

ومدائحه تجرى على سنن الشعر التقليدى ، فتبـدأ غالبـا بالنسيب ، ثم يمدح بالصفات المعروفة للمديح ، والتى يتناولها الشعراء ويجرون فيهـا على نهج واحـد ، وان اختلفت الصور والاساليب . ومن أجمل مدائحه ميميته فى مدح الأمين ومطلعها :

يا دار مـا فعلت بـك الأيـام ضامتك والأيـام ليس تضام

وقد يروى الشطر الثانى : « لم تبق فيك بشاشة تستام » . وقيل أن هذه القصيدة من أول ما أنشد أبو نواس فى مديحه . وقد وصلة عليها بألف دينار . ومما يتردد من أبياتها فى كتب الأدب وعلى ألسنة الرواة اعجابا قوله :

ولقدنهزت مـع الغواة بدلوهم واسمت سرح اللهو حيث اساموا
وبلغت مـا بلغ امـرؤ بشبابه فاذا عصـــارة كـل ذاك أثـام

وقولـــه :

واذا المطى بنـا بلغن محمـدا فظهورهن على الرجـال حـــرام
قربننا من خير من وطىء الحصى فلها علينا حرمـة وذمـام
رفع الحجاب لنا فـلاح لناظـر قمـر تقطـع دونـه الاوهـام
ملك اذا علقت يـداك بحبله لا يعتريك البؤس والاعـــدام

وكذلك قصيدته فى الخصيب :

أجـارة بيتينـا ابـوك غيـور وميسور ما يرجى لديك عسـير

ومن جيد قوله فيها :

تقول التي من بيتها خف مركبي عزيز علينا أن نراك تسير
اما دون مصر للغنى متطلب بلى أن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر جرت فجرى في اثرهن عبير
ذريني اكثر حاسديك برحلة الى بلد فيه الخصيب امير

ويصف هذه الرحلة من بغداد الى الفسطاط فيقول :

رحلن بنا من عقرقوف وقد بدا من الصبح معتوق الأديم شهير
فما نجدت بالماء حتى رأيتها من الصبح مفتوق الأديم شهير
وغمرن من ماء النقيب بشربة وقد حان من ديك الصباح زمير
ووافين اشراقا كنائس تدمر وهن الى رعن المداخن صور
يؤممن أهل الغوطتين كانما لها عند أهل الغوطتين ثؤور
وأصبحن بالجولان يرضخن صخرها ولم يبق من أجراحهن شطور
وقاسين ليلا دون بيسان لم يكد سنا صبحة للناظرين ينير
وأصبحن قد فوزن من نهر فطرس وهن عن البيت المقدس زور
طوالب بالركبان غزة هاشم وفي الفرما من حاجهن شقور
ولما أتت فسطاط مصر اجارها على ركبها أن لا تزال تجير

وله من قصيدة أخرى :

انت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر
لا تقعدا بي عن مدى املي شيئا فمالكما به عذر
ويحق لي اذ صرت بينكما الا يحل بساحتي فقر
النيل ينعش ماؤه مصرا ونداك ينعش أهله الغمر

ويمـــدح العباس بن عبد الله بن أبي جعفـــر المنصـــور برائيته الاعرابية الذائعة ومطلعها :

ايهـا المنتـاب مـن عفـرة	لست من ليلى ولا سـمره
لا اذود الطـــير عـن شـــجر	قـد بلوت المر مـن ثمـــره
فاتصـــل ان كنت متصـــــلا	بقـوى من انت مـن وطـــره
خفت ماثـــور الحديث غـــدا	وغـــد ادنـى لمنتظـــره
خـــاب من اســـرى الى بلـــد	غـــير معلـوم مـــدى سـفره

* * *

فـامض لا تمنـــن عـلى يـدا	منـك المعـروف مـــن كـــدره

رثـــاؤه :

ورثاؤه كذلك كمديحه من اللون التقليدي ، وربما كان أقل حظا من حيث الجودة من مديحه . بل ربما كان الرثاء أضعف شعر أبي نواس كما يقول طه حسين . وهذا طبيعي لأنه لم يكن رجلا محزونا ، ولا ميالا للحزن ، وانما كان رجـــلا مبتهجـــا بطبعه . ويقول طـــه حسين : « وأنا أزعم أن أبا نواس لم يصدق في رثائه الا مرة واحدة ، وذلك حين رثى الأمين بهذه الأبيات :

طوى الموت ما بيني وبين محمد	وليس لما تطـوى المنيـة ناشر
فلا وصل الا عبرة تستديمهـــا	احاديث نفس ما لها الدهر ذاكر
وكنت عليه احذر الدهر وحده	فلم يبق لى شيء عليه احـــاذر
لئن عمـــرت دور بمن لا اوده	فقـــد عمرت ممن احب المقابـــر

هجاؤه : مختلف متعدد الموضوع والمناسبة ، فهو يهاجي غيره مع الشعراء ممن تصدوا له أو ناقشوه أو نبشوا عواره ونسبه أو عاب دينه وزندقته - ومن هؤلاء يقف الرقاشي وأبان ابن عبدالحميد اللاحقي في المقدمة .

وربما هجا العرب جميعا ، أو بعض قبائلهم ، ويصح أن يكون هذا الهجاء سياسيا فهو يذهب فيه مذهب الشعوبية في التعرض للعرب وتراثهم وحياتهم وعقائدهم ، وعاداتهم ، فيزرى بهم ويذكرهم ضعة حياتهم في الصحراء ، بين الضباب والذئاب، يشربون اللبن ، ويتزودون بتمرات .

ويهجو العلماء أحيانا من اللغويين وأصحاب الكلام ، ولعل أشهر من هجا منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى .

ويهجو بعض من يلقى من المغنيين والقيان ، هجاء نفور وتقبيح ، لأنه لم يلق عنده قبولا أو لم يقع في نفسه موقعا حسنا .

ففيما يتصل بأبان بن عبد الحميد يقول ابن المعتز : « كان في جميع أحواله أرفع طبقة من أبي نواس وقد هجاه أبو نواس بشعر كثير ، فما سار فيه شيء على شهرة شعره . ولم يقل في أبي نواس غير ثلاثة أبيات ، وقد سارت في الدنيا ، وهي هذه :

أبو نواس ابن هاني ... وأمه جلبان
والناس أفطن شيء ... الى حروف المعاني
ان زدت بيتا على ذي ... ما عشت فاقطع لساني

ويهجـو النوامي الرقاشي فيقول :

رايت قدور الناس سودا من الصلا	وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
يضيق بحيزوم البعوضة صدرها	ويخرج ما فيها على طرف الظفر
يبنيهـا للمحتفـى بغنائهـم	ثلاث كحظ الثاء من نقط الحبر
اذا ما تنادوا للرحيل سعى بها	أمامهم الحولى من ولـد الـذر

ويهجـو اسماعيل بن نوبخت كذلك بالبخـل فيقول :

على خبز اسماعيل واقية البخل	فقد حل في دار الامان من الاكل
وما خبزه الا كاوى ترى ابنها	ولسنا نراها في الحزون وفي السهل
وما خبـزه الا كعنقاء مغـرب	تصور في بسط الملوك وفي المثل
يحدث عنها الناس من غير رؤية	سوى صورة ما ان تمر ولا تحلي

ويخرج هجاؤه عن هؤلاء السادة من الناس ، أو عن زملائه من الشعراء الذين نابذوه القول هجاؤه لبعض من يستثقل ظلهم أو لا يستريح اليهم من الناس ، وخاصة من يتصل بهم في حياته اتصالا مباشرا ، في أوقات لذته ، أو طربه ، وأوقات جده سواء بسواء . فيقول في مغن استثقله :

قـل لزهـير اذا اتكـا وشـدا	اقلل او اكثر فانت مهـــذار
سخنت من شـدة البرودة حتى	صرت عنـــدى كـانك نـــار
لا يعجب السامعون مـن صفتي	كذلك الثلـج بـارد حـــار

الزهـد والنسـك :

ولأبي نواس شعر فـى الزهد اختلف الناس فيه ، لكنه على أية حال يأتي أكثره في مرحلة متأخرة من حياته، ولعله شعر شاعر

أسرف على نفسه ، وشعر بأنه مثقل بالاثم ، ينتظره الحساب المسير ، أو لعله ملّ من اللذة ، ولم يعد فى الجسم شدة الشباب ، ولا سورته ، بل أضعفته العلل ، وأسكنت من نوازعه ٠

ومن هذا الشعر قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر
ليس للانسان الا ما قضى الله وقدر
ليس للمخلوق تدبير بل الله المدبر
أعظم الأشياء فى أصغر عفو الله يصغر

وله عدة منظومات أخرى مثل كتاب مزدك ، وكتاب السندباد، وسيرة أردشير ، وسيرة أنو شروان ٠

وله قصيدة كونية في أحوال الدنيا تسمى ذات الحلل ، كما نظم في فرائض الصوم ٠ وصنف كتبا في حكم الهند ، والصيام والاعتكاف ـ وكتب بعض الرسائل ٠ قال أبن المعتز : يقتضب الخطب ويرسل الرسائل الجياد ٠ واتصل الهجاء بينه وبين أبي نواس فقد رد عليه قصيدته المذكـورة وكان ينفي عليه مكانته عند البرامكة ، يقول أبو نواس :

انت اولى بغسـة الحـظ مـني   للمسمى بالبلبـل الصيـــاح
قبلوا منه حـين غنـي لديهـم   أخرس الصوت غـير ذي افصـاح
ثـــم بالـريش شــــبهه   ممـا يكـون تحـت الجنــاح
لم يكن فيـك غـير شيئين مما   قلت من بعـد خلقك اللحـداح
لحيـة سـبطة وانـف طويـل   وهبـاء سـواهما فـي الريـاح
فيك ما يعمل الملوك على الغرق   ويزرى بالسـيد الجحجـاح
فيـك قبح وفيك عجب شـديد   وطمـاح يفـوق كل طمــاح
بارد الطرف مظلم الكذب تيـا   ه معيـد لحديث غث المـزاح

وتوفي أبان بن عبد الحميد سنة ۲۰۰ هـ (۱) ٠

---

(۱) راجع فيه : الاغاني طبع بولاق جـ ۲۰/۷۳ وما بعدها ، تاريخ بغداد الخطيب البغـدادي ۷/٤٤ ٠
الاوراق للصولي ۱/٥۳ وما بعدها ، الفهرست لابن النديـم ۱۱۹ ـ ۱٦۳ ، الوزراء الجهشياري ص ۲٥۹ ـ
حديث الاربعـاء لطه حسـين ۲/۲٦۲ ـ ۲۷۸ ، عصر المأمون لاحمد فريد الرفاعي ۱/٤۲۹ ـ ٤۳٦ ٠

ويمكن أن نضيف الى هذا الاتجاه المطبوع بالكوفة أمثال مطيع بن اياس ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ، وقد كان معهم أحيانا أبو العتاهية ، وانضم اليهم أبو نواس وتخرج على يدى والبة • كذلك ربما اتصل بهم حماد عجرد •

وتمثل هذه المدرسة الكوفية من المطبوعين اتجاها بعينه قد يبدو منه الاستخفاف بالحياة وبكل ما هو من مقدساتها ، والاستخفاف بالقيم الدينية والاجتماعية ، والمضى فى ذلك الى حد التطرف •

ونشير الى واحد من هذه المدرسة وهو مطيع ابن اياس • ولد ونشأ بالكوفة ، ويرى أبو الفرج أن نسبه فى بنى كنانة بن اياس (١) (توفى سنة ١٦٩ هـ) • والمعلومات عن حياته قليلة وغامضة ، ويبدو أنه مات ولم يعقب ذكورا ، وكانت له بنت واحدة •

وقد اشتهر فى آخريات الدولة الأموية بعد اتصاله بالوليد ابن يزيد الخليفة الأموى • وظل ملازما له الى أن قتل فعاد

---

(١) طبقات شعراء المحدثين لابن المعتز ٢٤١ ، تاريخ آداب اللغة العربية لبروكلمان جـ ٣ ص ١٠٤ طبع دار المعارف •

الشاعر الى الكوفة • ونعرف أن الوليد كان عابثا مستهترا رقيق الاعتقاد والدين ، أو قل هكذا صوره التاريخ ، وقد ذكر من أخلاقه وشعره ما يقارب أخلاق مطيع وشعره وقد بعث الوليد اليه يحضره من الكوفة ليقيم معه في قصره بالرصافة في البادية وظل ملازما له حتى قتل •

وصف أبو الفرج ابن اياس فقال : أنه ظريف خليع ماجن ، وأطرى حسن عشرته • واعتبره من جماعة الزنادقة •

وليس من شك في أن مطيعا لم يكن مهتما بالشعائر الاسلامية، وهو لم يثبت اعتقاده كذلك في دين من أديان الفرس أو غيرهم كالمانوية والديصانية والمرقيونية ، لا نستطيع أن نعزو اليه مذهبا خاصا سوى بعض الميل الى التشيع ، وكان هذا الميل غالبا على بيئة الكوفة ، كما كثر معتنقوه بالبصرة ، بل وكان اتجاها شعبيا غالبا في عصر العباسيين •

كان مطيع اذا معروفا بالظرف والزندقة ، والظرف ملازم للزندقة بمفهومها الاجتماعي• والزندقة بهذا المعنى تعني الجمع بين ضروب من العبث والمجون كشرب الخمر والتهالك على اللذات والعبث بالنساء والغلمان •

ونسوق مثالا من شعره يصور طابعه العام ، بل طابع شعراء الكوفة أيضا ، وهو طابع البساطة وعدم التكلف ، والتعبير عن وقائع الحياة بسهولة دون عناء • يقول :

ان قلبي قد تصابى بعد ما كان انابا
ورماه الحب منه بسهام فاصابا
قد دهاه شادن يلبس في الجيد سخابا
فهو بدر في نقاب فاذا القى النقابا
قلت شمس يوم دجن حسرت عنها السحابا

واتصل مطيع بجماعة من رجال عصره ومشاهيره ، ولعل أشهرهم الوليد بن يزيد الخليفة الأموى العابث ، كما أشرنا ، واتصل كذلك بعبد الله بن جعفر بن أبي طالب والى الرى سنة ١٢٧ هـ ، وقد لازمه الى أن غلبه جنود مروان عند خروجه عليهم ، ثم قتله بعد أبو مسلم الخراساني سنة ١٢٩ هـ ٠

ولم تصلنا أخباره بعد مقتل الطالبى وقيام الدولة العباسية أيام السفاح ، لكننا نسمع عنه يرتاد مجالس محمد بن خالد ابن عبد الله القسرى أمير الكوفة سنة ١٣٢ هـ ٠ ذهب الى البصرة فيما يبدو بعد أن نفاه المنصور ومنعه من منادمة ابنه جعفر ، ويبدو أن المهدى عطف عليه ، ولم يحجر عليه ، على ما عرفه فيه من الزندقة ، مع تشدده في تعقب الزنادقة ، لاعتقاده بأنه يتزندق زندقة اجتماعية سلوكية لا زندقة فكر وعقيدة ، وربما اعتبرت هذه الزندقة ضربا من الحرية الاجتماعية والفردية التي لم يكن المهدى يهتم بالحجر عليها ، بل ان خلفاء بنى العباس أطلقوا بعض القيود ، وتركوا للناس كثيرا من الحريات ما دامت لا تمس كيان الدولة ، والعقيدة الاسلامية من قريب ٠ وبعد موت المهدى اتصل بالهادى ومات في أوائل خلافته سنة ١٦٩ هـ ٠

ويتصل اسم مطيع وأخباره بعصبة المجـان بالكوفة ، وهي جماعة من الشعراء ذكرنا أسماءهم يذهبون الى الزندقة الاجتماعية والحرية أو التحرر في القول والعمل ، وربما كان منشـأ هذه العصبة ببلاط الوليد بن يزيد ، بل لعلها نشأت أصلا بالكوفة ثم آوى الوليد جماعة منهم وشجعهم واتخذ موقفهـم ، وعمل عملهم وقال كالشعر الذى قالوه روحا وأسلوبا ٠

وكان مطيع يعى رأى الناس فيه وفي جماعته ، ويقابل تلك الآراء بعدم الاكتراث ، وقد أطلق عليهم الناس اسم الخلعاء ، أى الذين خلعهم المجتمع ٠ والعجيب أنهم كانوا يتباهون بهذا اللقب فكل منهم يسمى نفسه الخليع ٠ ويخاطب أصحابه بـه تباهيا لا تنابذا أو ازدراء ٠

وكان طبيعيا أن يرتبط مطيع بجماعـة الخلعاء من عصبة المجان ، أو الزنادقة ، وتكثر صلاته واجتماعاته بهـم ، كما أنه كان من الطبيعي أن يحدث بعض الخـلاف ويتبادلون الهجـاء ، والعبث والتنابذ ، وقد يفحشون في عبثهم ، وممن ربطت الاخبار بينه وبينهم حماد عجرد ، ويحيى بن زياد الحارثي ٠

وكان كثير المماحكة لهذا الأخير ، وكان كثير الحب له وملازمته حتى آخر حياته ٠

ولم تكن صلاته قاصرة على هذه العصبة ، بل اتصل بجماعة من العلماء والكتاب في عصره ٠

وكان مطيع مثالا للخلعاء الزنادقة في حلاوة الحديث وظرف اللسان ، وجاذبيــة الشخصية فقد كانت تلك سـمات عامة لكل زنديق . وأبو نواس يقول :

« تيــه مغــن وظـرف زنديق »

وكان كثير الاتصال بالقينات والجوارى فى بيوت القيان ، يعابثهن ويعابثنه ويروى شعره كل ذلك ، كما علق بالغلمان ولم يوله بهم وله غيره أمثال والبــة وأبى نواس .

وكان حديثه فــي شـعره عن تلك الصلات حديثا صريحا مكشوفا لا مواربة فيه ولا حيــاء ، مثله فى ذلك مثل بشــار فى شعره الفاضح .

وربما عثرنا في بعض شعره فى ذلك العبث والمجون ، وشعر الجنس . على شذرات من شعر العاطفة ، وخاصة فى تلك الفتاة التي تدعى « جوهــر » ، يذكر بشعر بشار في عبدة . وهو أظهر ما تهجره وتفارقه .

وجوهر جارية من كثيرات تعشقهن ، أو غازلهن ، أو علق بهن زمنا ، ونسمع منه عن مكنونة وريم ، وبربر .

ونفهم من حديثه عن جوهر أن لها صاحبة كانت تسمى بربر ، ويبدو أنها كانت تدير بيتا للقينات .

ومن غـزله :

لما خرجن من الرصـا	فـة كالتماثيـل الحسـان
يحففن احـور كالغـزا	ل يمير في جدل العنان
قطعـن قلبي حسـرة	وتقسما بـين الأمـاني
ويـلي على تلك الشـما	ئل واللطيف من المعـاني
يا طـول حـر صبابتي	بـين الفـواني والقيـان

ويقول وقد خرج الى الحج كما فعل بشـار مع صاحبه ، فعرجـا على دير بالحـيرة :

خرجنا نبتغي مكـة	حجـاجا وزوارا
فلمـا قـدم الحـيرة	حـادى جملـى حـارا
وقـد كـاد يغـور النجـ	ـم للاصبـاح أوغـارا
فقلت احطط بها رحـلى	ولا تعقـل بمن سـارا
فجددنا عهـودا سـلفت	منـا وآثـارا
وقضينـا لبانـات	لنـا كانت واوطـارا
وصاحبنا بهـا ديـرا	وقسيسـا وخمـارا
وظبيا عاقـدا بـين (١)	النقـا والخصر زنـارا

ويصف دعوة اجتمع فيها مع صحبته (١) :

نعـم لنـا نبيـذ	وعندنـا حمـاد
وخـيرنا كثـير	والغـير مسـتزاد
وكلنـا مـن طـرب	يطـير او يكـاد
فلهونـا لذيـذ	لـم يلهـه العبـاد
ان تشـتهي فسـادا	فعندنـا الفسـاد
او تشـتهي غلامـا	فعندنـا زيـاد

---

(١) الاغاني ج ١٢ ، الديارات ، وشعراء عباسيون ٤٤ .

ويقول معبرا عن اتجاهه وأصحابه :

اخلـع عذارك في الهـوى ... واشرب معتقـة الدنـان
وصـل القبيـح مجاهرا ... فالعيش في وصل القيان
لا يلهينـك غـير مـا ... تهـوى فـان العمر فان

ويصنع سوى هذا الشعر في اللذات ، والمجون ، شعرا آخر فيه الطابع الانساني، فيه الحنين والحنان، وفيه الاسى من فوت الزمان وضياع الشباب، وفيه اللوعة بالفراق . ومنه تلك الأبيات التى قالها فى وداع ابنتـه (١) :

ولقد قلت لابنتي وهي تبكـي ... بانسكاب الدموع قلبـا كئيبـا
اسـكتي قد حززت بالدمع قلبي ... طالمـا حـز دمعكن القلـوبا
ودعي أن تقطعي الآن قلبي ... وتريني في رحلتي التعذيبا
فعسى الله أن يدافع عني ... ريب ما تحذرين حتى اوبا
ليس شيء يشاؤه ذو المعالي ... بعزيز عليه فادعـى المجيبـا
أنا فـى قبضة الالـه اذا كنـــت بعيدا أو كنت منـك قريبا

ويقول في نخلتين قامتا في بلاد فارس النائية حيث لا ينبت النخل في بلد اسمه حلوان هناك ذكرتـاه ببـلاده العربية حيث النخيل ، فيحن ويتذكر ويقول في نغمة يمزج فيها الاسى والحنين :

اسعداني يا نخلتي حـلوان ... وابكيا لى من ريب هذا الزمان
واعلما أن ريبه لم يزل يفـر ... ق بـين الآلاف والجيــران
ولعمـرى لو ذقتمـا الـم الفرقـ ... ـة أبكاكمـا الـذى أبكانـى
اسـعدانى وأيقنـا أن نحسـا ... سـوف يلقاكمـا فتفترقـان

---

(١) شعراء عباسيون ص ٢٣ ، الاغاني جـ ١٢ .

كم رمتني صروف هذي الليالي بفراق الأحباب والخلان
غير اني لم تلق نفس كمالا قيت من فرقة ابنه الدهقان
جارة لي بالري تذهب همي ويسلي دنوها احزاني
فجعتني الأيام أغبط ما كنـ ـت بصدع للبين غير مدان
وبرغمي أصبحت لا تراها العـ ـين مني وأصبحت لا تراني
ان يكن قد تركتني فقد تركت بي لهبا في الضمير ليس بوان
كحريق الضرام في قصب الغا ب رمته ريحان تختلفان
فعليك السلام مني ما صاغ سلاما عقلي وفاض لساني

ومثل هذه النغمة الحزينة التي بدأت تظهر في شعره المفاخر نجدها في الأبيات التي يشكو فيها فراق الشباب، يقول (١) :

اني لباك على الشباب وما أعرف من شوقي ومن طربي
ومن تصابي ان صبوت ومن ناري اذا ما استعرت في لهبي
أبكي خليلا ولي ببهجته بان بالـواب جلة قشب
على الأفحم الأثيث مهتدلا على جبيني تهدل العنب
كان صفيي دون الصفي وذا الألفـ ـة مني في الود والحدب
كان خليلي على الزمان فان راب ريب أبى فلم يرب
كان اذا نمت قال قم فاذا قمت سما بي لأعظم الرتب
وكان انسي اذا فرغت له وكان حصني في شدة الكرب
وابابي أنت من اخي ثقة لوكان تغني مقالتي يابي
كل خليل مضى ففارقني كان شعري لوثوي فلم يغب
فارعه مني يا زمان فقد صرت له في الأذى وفي التعب
ويحك يا دهر كيف جئت بما أكره جهرا على من كثب

---

(١) شعراء عباسيون ص ٣٣ .

شوهتني بعد منظر حسن	كان فيه سبائك الذهب
قلبت لوني الى السواد وقد	بيضت رأسي فصار كالعصب
ما زلت ترمي مخي فترهقه	وتنتحي بالفتور في عصبي
حتى كأني ولم أقم لغب	وكنت أعلو الذرى بلا لغب

ولمطيع ابن اياس ديوان جمع بعد وفاته وذكره ابن النديم في الفهرست ، لكنه لم يصل الينا ، وكان يقع في ١١٠ ورقات.

ويرى العلماء أن مطيعا لم يكن من الفحول ، وانه لم يكن المقدم كذلك في طبقته ويقدم عليه الجاحظ أبان بن عبد الحميد.

وقد تناقلت شعره كتب الأدب ، وغنى فيه المغنون في بلاط الخلفاء لرقته وسهولته، وتناقلته عامة الناس بالكوفة والبصرة وبغداد أكثر من خاصتهم .

النمط الأعرابي ومدرسة البداوة :

ونترك هذه الجماعة من المطبوعين الى لون آخر ، واتجاه غيره هو الاتجاه الاعرابي أو الشعر البدوي الطابع ، ويقف على الطرف المقابل لشعر المطبوعين من أبناء الامصار والحضر ممن ذكرناهم .

ومن ذهب هذا المذهب من الشعر الأعرابي عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، وبكر النطاح والحسين بن مطير وأبو الشيص ، وأبو حية النميري .

يقول ابن المعتز في طبقات المحدثين عن عبد الملك (١) :
« حدثني أبو الأسود الشاعر قال : كان الحارثي شاعرا مغلقا مفوها مقتدرا مطبوعا ، وكان لا يشبه بشعره شعراء المحدثين الحضريين ، وكان نمطه نمط الأعراب ، ولما قال قصيدته المعروفة العجيبة انقاد الشعراء وأذعنوا ، وهو أحد من نسخ شعره بماء الذهب ، والقصيدة التي ذكرناها هي :

ما أنذا يا طالبي ساعي محتضر يسري الى الداعي

فأجمعت الشعراء والأدباء على أن هذه الأبيات ليست من نمط عصره ، وأن أحدا لا يطمع في مثلها ، ولعمري أنه لكلام مع فصاحته وقوته يقدر من يسمعه أنه سيأتي بمثله ، فاذا رامه وجده أبعد من الثريا وكذلك الشعر المتناهي الذي ليس له في الجودة غاية ٠

ويشير ابن المعتز الى مثال آخر لهذا النمط الأعرابي في شعره ، في رثاء أخيه ، ينهج في أبياتها نهج متمم بن نويرة في رثاء مالك أخيه (٢) ٠ ويبلغ اعجاب ابن المعتز به حد قوله في أحد أبيات القصيدة : هذا البيت سجدة الشعراء ، ولو لم يكن في كتابنا الا شعر الحارثي لكان جليلا ٠

ومنه قوله :

ولما حضرنا لانقسام تراثه وجدنا مقليمات النهى والمآثر

أي لم نجد مالا وانما وجدنا فعالا ٠

---

(١) طبقات شعراء المحدثين ص ٢٧٦ ٠

(٢) طبقات شعراء المحدثين ص ٢٧٧ ٠

شـــعراء الغـــزل

العبـاس بن الأحنـف

أصله من عرب خراسان ومنشؤه ببغداد . ولم تزل العلماء تقدمه على كثير من المحدثين ، ولا تزال ترى له الشيء البارع جدا حتى تلحقه بالمحسنين .

وذكر أبو الفرج أنه كان شاعرا غزلا مطبوعا ، شريفا . وله مذهب حسن ، ولديباجة شعره رونق ، ولمعانيه عذوبة ولطف . لم يكن يتجاوز الغزل الى المديح أو الهجاء ، ولا يتصرف في شيء من هذه المعاني . وقدمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضـة على نظرائه . وقال : رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه . قال : وكان العباس من الظرفاء ، ولم يكن من الخلعاء . وكان غزلا ، ولم يكن فاسقا . وكان ظاهـر النعمـة ملوكي المذهب ، شديد التزين . وذلك يتبين في شعره .

وكان قصده الغزل . وشغله النسيب . وكان حلوا مقبولا ، غزلا ، غزير الفكر ، واسع الكلام كثير التصرف (١) وحده » .

قال : قال عنه الجاحظ نقلا عن يموت بن المزرع : لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرا ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد ولا يجاوزه لأنه لا يهجو

---

(١) الاغاني ١٥/٨ .

ولا يمدح ولا يتكسب ، ولا يتصرف • وما نعلم شاعرا التزم فنا واحدا لزومه فأحسن (١) فيه وأكثر » •

وقال فيه الأصمعي : قيل للأصمعي : ما أحسن ما تحفظ من أشعار المحدثين ، فقال : قول العباس ابن الأحنف :

لو كنت عاتبة لسكن لوعتي … أملي رضاك وزرت غير مراقب

لكن مللت فلم تكن لي حيلة … صد الملول خلاف صد العاتب

وقال ابن المعتز في طبقاته : لو قيل ما أحسن شيء تعرفه لقلت : شعر العباس ابن الأحنف • ومن رقيق غزله الحضرى قوله :

قالت ظلوم سمية الظلم … مالي رأيتك ناحل الجسم

يا من رمى قلبي فاقصده … أنت العليم بموقع السهم

وقـــال :

سلبتني من السرور ثيابا … وكستني من الهموم ثيابا

كلما أغلقت من الوصل بابا … فتحت لي الى المنية بابا

مذبيني بكل شيء سوى الصد … فماذقت اقسى من الصدود عذابا

وللعباس بن الأحنف من المعاني الجميلة في الوصف قوله في الليل:

أيها الراقدون حول أعينو … ني على الليل حسبه واقتدارا

حدثوني عن النهار حديثا … أوصفوه فقد نسيت النهارا

وقـــال :

والنجم في أفق السماء كأنه … أعمى تحير ما لديه حاير

---

(١) الاغاني ٨/٢١ •

مراجع العباس بن الأحنف :

١ ـ الاغانى ٨/٣٥٢ ٠

٢ ـ تاريخ الطبـرى ٧/١٠ ٠

٣ ـ تاريخ بغـداد ١١/١٢٧ ٠

٤ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبـة ٠

٥ ـ شذرات الذهب لابن العمـاد ١/٢٣٤ ٠

٦ ـ معجم الادباء لياقوت ٠

٧ ـ معاهـد التنصيص ١/٢٠ ٠

٨ ـ الفهرست لابن النديم ١٩٣ ٠

٩ ـ الكامل للمبـرد ٠

١٠ـ طبقات الشعراء المحدثين لابن المعتز ٢٥٤ ٠

١١ ـ بروكلمان ١/٢٣ ٠

شــعراء الحكمــة

ويذهب بعض شعراء العصر (فى القرن الثانى) الى الحكمة والفلسفة ، فيضعون أشعارهم فى هذا اللون ، حتى يغلب عليهم . وعلى رأس هـذا الاتجـاه بالبصرة صالـح بن عبد القـدوس وعبد الصمد بن المعذل ، وبشر بن المعتمر ·

صالح بن عبد القدوس :

وكان كما يقول ياقوت فى معجمه (١) حكيما أديبا فاضلا ، شاعرا مجيدا ·

وكان يجلس للوعظ فى مسجد البصرة ، ويقص على الناس ·

واتهم بالزندقة الفكريـة ، وكان ممن اجتمع مع بشـار فى البصرة للنظر ودراسـة بعض العقائد القديمة ، واتخـاذ موقف منها ،وربما مال أو اتهم بالميل الى رأى الثنوية الفرس ·

وقد أخذه المهدى بالزندقة ، ودمغـه بقصيدة سينية يقول فيهـــا :

والشيـخ لا يتـرك اخلاقــــه ... حتى يـوارى فـى ثرى رمســه
اذا أرعـوى عـــاد الى جهلــه ... كذى الضنا عــاد الى نكسه

قال البغدادى : قال له المهدى : ألست القائل هذه الأبيات ؟ قال : بلى يا أمير المؤمنين، قال: فأنت لا تترك أخلاقك، ونحن نحكم فيك بحكمك فى نفسك ، ثم أمر به فقتل وصلب على الجسر ·

---

(١) معجم الادباء ، طبع الرفاعى ٦/١٢ ·

وقيل أن المهدى أبلغ عنه أبياتا يعرض فيها بالنبى صلى الله عليه وسلم فأحضره المهدى وقال له : أنت القائل هذه الابيات ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، والله ما أشركت بالله طرفة عين ، فاتق الله ولا تسفك دمى على الشبهة . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : ادرءوا الحدود بالشبهات .

قال البغدادى : ويقال أنه كان مشهورا بالزندقة ، وله مع أبى الهذيل العلاف مناظرات ، وشعره كله أمثال وحكم وآداب .

ومن مستحسنات شعر صالح القصيدة القافية (١) :

المرء يجمع والزمان يفرق	ويظل يرقع والخطوب تخرق
ولئن يعادى عاقلا خير له	من أن يكون له صديق أحمق
فارغب بنفسك لا تصادق أحمقا	ان الصديق على الصديق مصدق
وزن الكلام اذا نطقت فانما	يبدى عيوب ذوى العقول المنطق
ومن الرجال اذا استوت احلامهم	من يستشار اذا استشير فيطرق
حتى يجول بكل واد قلبه	فيرى ويعرف ما يقول فينطق
فبذاك يوثق كل أمر مطلق	وبذاك يطلق كل أمر يوثق
وان أمرؤ لسعته أفعى مرة	تركته حين يجر حبل يفرق

وقد عاش صالح بن عبد القدوس فى البصرة ، وهرب منها عندما طلبه المهدى الى دمشق ويذكر له كتب فى الديانات منها كتاب « الشكوك » ، وذكر أبو هلال أن ديوان صالح ابن عبد القدوس اشتمل على ألف مثل من الأمثال العربية وألف مثل

---

(١) التحفة البهية ص ٢١٧ .

من الأمثال غير العربيــة . وجمع لويس شـيخو قطعا من أشعار صالح في مجلة المشرق أعـداد ٢٢ ص ٨١٩ ـ ٨٢٩ ، ٩٣٦ ـ ٩٣٨ .

وصالح هذا بطـل قصة صالـح بن عبد القدوس مع راهب الصين التي نشرها لويس شيخو بمجلة المشرق في العدد ٢٤/٢٧٤. ص ٢٧٨ ـ ٣٣٤ ـ ٣٣٨ .

ويروى الصلاح الصفدى (١) في « الغيث الذى انسجم فى شرح لامية العجم » أنه حكي أنه توفي لصالح بن عبد القدوس ولد فحضر اليه أبو الهذيل العلاف ومعه ابراهيم النظام ، فوجداه يتلظى حزنا على ولده . فقالا له : لا أرى لتحرقك وجهـا ، اذ الناس متدك كالنبات . فقال : يا أبا الهذيل انما تحرقي لأنه لم يقرأ كتاب « الشكوك » فقال : وما هذا ؟ قال : كتاب وضعته من قرأه شك فيما كان حتى كأنه لم يكن وفيما لم يكن حتى كأنه كان . فقال له ابراهيم النظام : فظن أنت على أنه لم يمت وان كان قد مات ، وعلى أنه قرأ الكتاب وان لم يكن قد قـرأه ، فلم يحر جوابـا » .

وقتل صالح وصلب ببغـداد سنة ١٦٧ هـ (٢) .

---

(١) شرح اللاميـة ص ٤٧ .

(٢) ذكره توماس آرنولد في كتابه عن المعتزلة .

مختارات من شعر صالح بن عبد القدوس :

بقيـــة القافيـــــة :

مــا الناس الا عامـلان فعامل	قد مات من عطش وآخر يغـرق
والناس في طلب المعاش وانما	بالجد يرزق منهم من يـرزق
لكنه فضـــل المليـك عليهـم	هـذا عليـه موسـع ومضيـق
واذا الجنـازة والعروس تلاقيا	ألفيت من تبـع العرائس ينطـق
ورأيت من تبع الجنازة باكيـا	ورأيت دمـع نوائـح يترقـرق

ويروى هذان البيتـان :

واذا الجنازة والعروس تلاقيـا	ورايت دمـع نوائـح يترقـرق
	ورأيت من تبـع الجنازة ينطق
لو سـار ألف مدجج في حاجـة	لم يقضهـا الا الـذي يترفـق
ان الترفـق للمقيـم موافـق	واذا يسافـر فالترفـق أوفـق

ويقــــول :

ان الغنى الـذى يرضى بعيشته	لا من يظل على ما فات مكتئبا
لا تحقـرن من الايـام محتقـرا	كل امرىء سوف يجزى بالذى اكتسبا
قد يحقر المرء ما يهوى فيركبه	حتى يكون الى توريطـه سـببا

ويقول ياقوت : وأشهر شعره قصيدته البائية التى مطلعها :

صرمت حبالك بعد موتك زينب	والدهـر فيـه تصـرم وتقلب
وكذاك ذكـر الغانيـات فانـه	آل يبلقعـــة وبـرق خلب
فدع الصبا فلقد عداك زمانـه	واجهد فعمرك مر منـه الأطيب

ومنهـا :

واحذر معاشرة الدنـى فانهـا	تعدى كمايعدى الصحيح الأجرب
يلقاك يحلف إنـه بـك واثق	واذا تدارى عنك فـو العقـرب

ومن شـــعره :

ليس من مات فاستراح بميت	انمـا الميت ميت الأحيـــاء
انمـا الميت من يعيش كئيبـا	كاسفا بالـه قليـل الرجـــاء

وقولـــــه :

اذا قلت قدر أن قولك مرضـة	نبـاردة أو حجـة لمخاصـم
وان امرءا ألم يخش قبل كلامه	الجــواب فينهي نفسه غير حازم

وقــــــال :

لا اخون الخليل في السر حتى	ينقل البحـر في الغرابل نقـلا
او تمور الجبـال مور سحاب	متقلات وعت من المـاء جمـلا

مراجـــع :

١ ـ تاريخ بغـداد للخطيب البغدادي ٩/٣٠٣ ـ ٣٠٥ .

٢ ـ تاريخ دمشق لابن عساكر ٦/٣٧١ ـ ٣٧٦ .

٣ ـ معجم الادباء لياقوت ٦/٢٦٨ .

٤ ـ فوات الوفيات لابن شـاكر ١/١٩١ .

٥ ـ عصر المأمون لاحمد فريد الرفاعي ٢/٤٠٣ ـ ٤٠٦ .

٦ ـ مجلة المشرق للاب لويس شيخو .

٧ ـ معاني الادب للويس شيخو .

٨ ـ نكت الهميان للصفدي ص ١٧١ .

٩ ـ عيون التواريخ ـ حوادث سنة ١٦٠ ـ ١٦٧ .

١٠ـ امالي المرتضى ١/١٠٠ .

١١ـ الكامل للمبرد ٢٢٧ .

١٢ـ محاضرات الادباء للراغب الاصبهاني ٢/١٨٥ .

١٣ـ الفهرست لابن النديم ٢٣١ .

١٤ـ حياة الحيوان للدميري ١/٢٤١ .

أحمد بن المعذل (١) :

عاش بالبصرة ، وكان صاحب زهد وورع وعبادة ، وانقطاع عن الناس وتقدم في الاعتزال وكان أخوه الشاعر عبد الصمد ابن المعذل على الضد منه صاحب مجون ، شديد الاقدام على الأعراض ، رديء السيرة خبيث الهجاء .

حكى أنه كان في مكان وتحته عبد الصمد في جماعة من أصحابه ، وقد انهمكوا على شرابهم وعكفوا على لذتهم ، فعلت أصواتهم وجلبتهم ، بما هم فيه من صوت الملاهي والغناء ، وغير ذلك ، فشوشوا على أحمد في تعبده ، فناداه : يا عبد الصمد ، أأمنت أن يحل بك وبهؤلاء عذاب من الله ، فرفع عبد الصمد رأسه اليه ، وقال : « وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم » .

وله هجو ظريف في أخيه عبد الصمد . وهو قوله :

قال لي انت اخو الكلب وفي ظنه انه قد هجاني واجتهد
أحمد الله تعالى انه ما درى أني أخو عبد الصمد

قال الصفدي : وهذا الهجو في غاية الأذى على ما فيه من اللطافة (٢) .

---

(١) راجع ترجمته في الاغاني ٢٢٦/١٣ ، الكامل للمبرد ٢٢٤/١ ، وطبقات ابن المعتز ٣٦٨ .

(٢) شرح لامية العجم ٢٢٥/١ .

شعراء الزهد والوعظ :

وربما اتصل شعراء هذا الاتجاه بسبب بالاتجاه السابق فى الحكمة ، وقد يشاركونهم بعض معانى أشعارهم ، الا أن الطابع الدينى هنا أغلب ، والزهد هنا ربما كان متخذا من عناصر غير اسلامية الا أنه يعتمد على تفكير وتراث اسلاميين من القرآن والحديث . ونشير من أصحاب هذا الاتجاه الى شاعرين أحدهما مشهور وهو أبو العتاهية والآخر لا يعرفه غير الخاصة وهو محمود الوراق ، وسابق البربرى .

أبو العتاهية :

ولد أبو العتاهية بالكوفة سنة ١٣٠ هـ ، وكان عنزى الولاء . وكان أول أمره يتخنث ويحمل زاملة المخنثين . وقيل له فى ذلك ، فقال : أريد أن أحفظ كلامهم .

وكان نظيفا أبيض اللون ، أسود الشعر ، له وفرة جيدة ، وهيأة حسنة ، ولباقة وحصافة سمي أبا العتاهية لميله الى المجون ، والتعته ، وقيل أنه سمي كذلك لأن المهدى قال له : انك انسان متحذلق متعته .

اتصل من خلفاء بني العباس بالمهدى والهادى ، وهارون الرشيد ، وحظى عند هارون خاصة حتى قيل انه كان لا يفارقه فى سفر ولا حضر . وكان يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف

درهم ، سوى الجوائز وقيل أنه تزهد فى أيام الرشيد • ويروى انه لما قدم الرشيد من الرقة لبس أبو العتاهية الصوف وتزهد ، وترك حضور المنادمة والقول في الغزل • وطلب الرشيد اليه أن يعود الى حاله الأولى فرفض عليه وحبسه لذلك وضيق عليه •

وعمر أبو العتاهية فتوفي سنة ٢١٠ هـ أو سنة ٢١١ فى سنة ٢٢٣ في خلافة المأمون •

وعرف أبو العتاهية بسهولة شعره وعدم تكلفه القول ، ولذلك سلك مع أصحاب الطبع كالسيد الحميرى وأبان بن عبد الحميد •

وقال أبو الفرج : « قال الشعر فبرع فيه وتقدم ، ويقال : أطبع الناس بشار والسيد الحميرى وأبو العتاهية • وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته • وكان أبو العتاهية غزير البحر ، لطيف المعاني ، سهل الألفاظ • كثير الافتنان ، قليل التكلف ، الا أنه مع ذلك كثير الساقط والمرذول •

وكان الأصمعي يقول : شعر أبي العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجوهر والذهب ، والتراب والخزف والنوى •

وقالوا : أنه أقدر الناس على وزن الكلام ، حتى أنه يتكلم بالشعر في جميع حالاته ، ويخاطب به جميع أصناف الناس •

---

(١) ترجم له ابن المعتز فى طبقاته ص ٢٦٨ وقال توفى سنة ٢٣٠ هـ •

قال المبرد : كان أبو العتاهية حسن الشعر ، قريب المأخذ ، لشعره ديباجة ، ويخرج القول منه كمخرج النفس قوة وسهولة واقتدارا .

وحاول التجديد في الأوزان ، قال محمد ابنه : سئل أبي : هل تعرف العروض ؟ فقال : أنا أكبر من العروض . وله أوزان لا تدخل في العروض . يعني أنه كان يخرج عن تلك الأنماط المذكورة المترددة بين الشعراء والتي حصرها الخليل في الأوزان المعروفة بالبحور .

وقال الشعر في موضوعاته المعروفة ، وكان في شبابه يتغزل ، قال ابن المعتز : وغزله لين جدا ، مشاكل لكلام النساء ، موافق لطباعهن (١) :

وعرف غزله بعتبة من جواري القصر ، ومنه قصيدة مشهورة يقول فيها :

إعلمت عتبة أنني	منها على شرف مطل
وشكوت ما ألقى اليها	والمدامع تستهل
حتى اذا برمت بما	اشكو كما يشكو الأذل
قالت : فأي الناس يعلم	ما تقول . فقلت كل

وهي قصيدة كان يتغنى بها .

---

(١) طبقات ابن المعتز ٢٢٨ .

قالوا ربما بنى شعره على أعاريض غريبة ليست من بحور الشعر . قال ابن المعتز : « كان أبو العتاهية لسهولة شعره ، وجودة طبعه فيه ربما قال شعرا موزونا ليس من الأعاريض المعروفة . وكان يلعب بالشعر لعبا . ويأخذ فيه كيف يشاء » . وذكر أنه جلس يوما الى قصار ، فسمع صوت آلته (١) فقال باقتداره شعرا على ايقاعها منه هذا البيت :

المنـــون مفضيــــات واحـــدا ثـــم واحـــدا

كأنه نظر الى القصار أخذ ثوبا بعد ثوب ، فشبهه بأخذ انسان بعد انسان وأخذ الوزن من وقع الكوبين (٢) .

زهـــده :

زهد أبو العتاهية ولبس الصوف ، وقصر شعره على المواعظ وذكر الموت والحشر والنار والجنة .

وقال ابن المعتز متهما اياه بالزندقة : والذى يصح لى أنه كان ثنويا يعنى يعتقد بالهين .

ونقل ابن المعتز أنه كانت له بنتان احداهما يقال لها بالله والأخـرى لله . وكان له ابن زاهد ناسـك .

---

(١) آلة « الكوبـه » وهى المخـرل .

(٢) طبقات ابن المعتز ٢٢٩ .

يقـــول :

ما اسرع الأيـام في الشـهر	وأسرع الأشـهر في العمـر
ليس لمـن ليست لـه حيلـة	موجـودة خـير من الصبـر
فاخط مع الدهر اذا ما خطا	واجر مع الدهر كما يجرى
من سـابق الدهـر كبا كبوة	لم يستقلهـا آخـر العمـر

ولا ندرى على وجه التحديد ما الذى حدا بأبي العتاهية الى أن يستغرقه هذا اللون الجديد من الشعر أعني به الزهد ، أكان فشله في الحب كما تقول بعض الروايات ؟ التى تقول أنه كان مفتونا بجارية لآل معن اسمها سعدى ، فلم يظفر فى حبه منها بطائل • كذلك يروى أنه كان مفتونا بجارية من جوارى المهدى اسمها عتبة ، ذكرها في شعره فقال :

الا يا عتبـــة السـاعة	أموت الساعة الساعة

ويقال انه ألقى في السجن لغزله بها •

وربما كان اتجاهه الى الزهد ضربا من الرجعة أو التوبة ، أو ضربا من التعويض عن شعر النقص باعتباره من الموالى ، فوجد القول فى الزهد ارضاء لنفسه كما وجد بشار فى الهجاء والازراء بالعـرب ترضية نفسية له • ولعـل الشعوبيسة بمعنى الايمـان بالمساواة بين الناس، وبين العرب والموالى خاصة كان من دوافعه الى هذا اللون حيث يقف الناس جميعا عبادا لله سواءٍ بسواء •

ومهما يكن من أمر فانه قال فى الزهد ، ولم يبق لنا سوى هذا الشعر الذى يضمه ديوانه المتداول بين الناس ، ولم يبق من

موضوعاته الأخرى سوى قصائد مفرقات ، وأبيات منثورة هنا وهناك في كتب الأدب كالأغاني • وقيل انه لما تزهد أحرق ما كان له من شعر في الغزل •

وتتعدد معاني الزهد عند أبي العتاهية فهي دعوى الى القناعة والرضا بالقليل في هذه الدنيا ، فالحياة فيها خيال زائل ، وكل ما أصاب الانسان فمقدور عليه ، مكتوب •

ولذلك ينبغي على الانسان أن يعتبر الدنيا دار عبور والآخرة دار قرار ، وهو يعمل في الدنيا ليحصد في الآخرة ، وحسن العمل ذخيرة في دنياه وفي عقباه ، وينبغي أن لا يؤلم بعمله أو يجرح غيره •

يقول :

ياصاحب الروح ذي الانفاس في البدن	بين النهار وبين الليل مرتهن
لقلما يتخطاك اختلافهما	حتى يفرق بين الروح والبدن
لتجذبني يد الدنيا بقوتها	الى المنايا وان نازعتها رسني
لله دنيا أناس دائبين لها	قد ارتعوا في رياض الغي والفتن
كسائمات ترتع تبتغي سمنا	وحتفها لو درت في ذلك السمن

ومن مشهور شعره في الزهد مزدوجته المشهورة ذات الأمثال :
يقول فيها :

حسبك مما تبتغيه القوت	ما اكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا	من اتقى الله رجا وخافا

هي المقادير فلمني أو فذر ... ان كنت أخطأت فما أخطأ القدر

لكل ما يؤذي وان قل ألم ... ما أطول الليل على من لم ينم

ما انتفع المرء بمثل عقله ... وخير أجر المرء حسن فعله

ان الفساد ضده الصلاح ... ورب جد جره المزاح

من جعل النمام عينا هلكا ... مبلغك الشر كباغية لكا

ان الفراغ والشباب والجده ... مفسدة للمرء أي مفسده

يغنيك عن كل قبيح تركه ... يرتهن الرأي الأصيل شكه

ما عيش من آفته بقاؤه ... نغص عيشا كله فناؤه

يا رب من أسخطنا بجهده ... قد سرنا الله بغير حمده

* * *

— ٣ —

أصحـــاب البديـــع

مسلم بن الوليـــــد

« صريـــع الغـــواني »

(١٤٠ هـ — ٢٠٨ هـ)

كوفي المولد ، نشأ بها وتوجه الى بغـداد في شبابه ، وكان الشعر بضاعته ، فأخذ يرتاد مجالس الكبراء وندوات الوزراء والقادة من أمثال البرامكة ويزيد بن مزيد الشيباني ·

قال المبرد : « وكانت البرامكة ويزيد بن مزيد ومحمد بن منصور بن زياد يرونه ويتعطفون عليه : ، ويتفقدون أحواله » ·

ولم يمدح الخليفة ، لأنه فيما يبدو لم يستطع بلوغ مقامه ، ولم يكن له حظ المثول بين يديه منشدا كغيره من الشعراء ، بل لانه رأى من هو أقل مكانة منه يحظى بالمكانة في بلاط الخلافة من دونـــه ·

وقال المبرد : « ان مسلما كان يمدح من دون الخليفة ، ولا يطمع فيه ، فكان يقول : أرى نفسي تذوب حسرات من أنه يحوى جوائز الخلفاء من لا يوازيني في أدب ولا يماثلني في نسب ، ولا يصلح أن يكون شعره خادما لشعري » ·

واستطاع مسلم أن يبلغ مقام الرشيد وأنشده واحدة من روائعه ومنها قوله :

وما العيش الا أن تروح مع الصبا صريع حميا الكاس والاعين النجل

وقيل أن الخليفة لقبه بصريع الغواني .

وكان الشاعر غزلا محبا للهو ومجالسه ، ينفق ماله في سبيل متعه مع أصحابه وجلسائه . يقال أنه « كان اذا كسب مالا جمع مع أصحابه فلم يخرج من بيته أكلا وشربا ولعبا ولهوا حتى يبقى مما كسب قوت شهر فيظهر » .

واشتهر بهذا باللقب الذى عرف به بين الشعراء ، وربما كان ما نسبه اليه الرشيد تحصيلا لواقع ما عرف به بين الناس ، أو لما تردد كثيرا في شعره ، وروى أنه علق اللقب أيضا مؤكدا ذاك المعنى :

ان ورد الخدود والاعين النجل وما فى الثغور من أقحوان
واسوداد الصدغين في أوضح الخد رما فى الصدور من رمان
تركتني لدى الغواني صريعا فلهذا أدعى صريع الغواني

ومع استهتار مسلم بهذا اللقب فلم يبلغ في تهتكه ومجونه مبلغ غيره ممن سمعنا عنها من معاصريه أمثال بشار بن برد وأبي نواس ويحيى بن زياد . ووالبة .. وغيرهم .

ونقل عن مسلم بن الوليد أنه لم يكن يجهر باللهو ولم يتهتك تهتك غيره ، وان شدا في شعره بالخمر والنساء .

ولقد كان الوقـار ملازما لـه ، والتأديب من سماته · ولعل شخصيته تلك قد انعكست على شعره ، فقد عرف بالتوقر فيه ، والتصنع ، والتكلف أحيانا ·

وأعد مسلم نفسه فى الشعر اعدادا طيبا ، حفظ كثيرا من شعر العرب ، وروى لفحولهم أمثال امرىء القيس وزهير والنابغة ولبيد وعمر بن أبي ربيعة ·

وكان يحب شعر الغزل ويترنم به ، وخاصة فى شبابه ·

وقد جمع فى شبابه بالكوفة بين شعر البادية وشعر المحدثين ، وامتزجت فى نفسه الطريقتان وتعانق النمطان ·

ولما كان شعر المديح عماد الشعراء فى حياتهم للتكسب به فقد لجأ اليه مسلم وقصد به كبار الرجال وضمن قصيدة المديح طرائف صنعته ، وبديع فنـه ·

ويأتي بعد المديح شعر الوصف والغـزل ، وخاصة وصف الغزل ، وخاصة وصف الخمر ومجالس الشراب ·

وكان طبيعيا فى بغداد فى هذا العصر وتلك البيئة أن يبدع فى الفنين معا كما أبدع من قبل بشار وأبو نواس ·

وصف مجالس الخمر كما وصفها أبو نواس ، وجعلها مجوسية الأنساب مسلمة البعل ، ربيبة الشمس قد غذتها فى كرمها ، وراح الشاعر يخطبها ويغالى فى مهرها · وتدور الخمر بيـد سـاق أو

ساقية ، وفي أثناء الشرب تغني القينة الحسناء ، فتبعث أوتارها بالعود ، أو تنفخ في مزمار .

وفي صفته للنساء في غزله صفة أمرىء مدله في حبهن ، قد نالت منه الاعين النجل ، وهو اذا وقع في هوى واحدة منهن ، يكاد يموت صبابة ، وقصص زياراتـه لحبيباته واضحـة جميلة شيقة في شعره ، تذكر بقصص امرىء القيس أو عمر بن أبي ربيعـة .

وهكذا يجمع مسلم بين لذة الخمر وحب النساء في شعره وهو القائـل :

ما لـذة الدنيا اذا مـا لم تكن ... فيهـا فتى كاس صريع حبائب

قال يمدح يزيد بن مزيـد :

اجررت حبل خليع في الصبا غزل ... وشمرت همم العـذال في العذل
هاج البكاء على العين الطموح هوى ... مفـرق بـين توديـع ومحتمـل
كيف السلو لقلب راح مختبـلا ... يهذي بصاحب قلب غـير مختبل
عاق العزاء غداة البـين منهمل ... من الدموع جرى في اثر منهمـل
لولا مداراة دمع العين لانكشفت ... مني سرائر لم تظهر ولم تغـل
أما كفى البين أن أرمى بأسهمه ... حتى رماني بلحظ الأعين النجل

الى أن يقـول :

وليلة خلست للعـين مـن سنة ... هتكت فيها الصبا عن بيضة الحجل
قد كان دهري وما بي اليوم من كبر ... شرب المدام وعزف القينة العطل
اذا شكوت اليهـا الحب حفزها ... شكواي فاحمر خداها من الخجل
كم قد قطعت وعين الدهر راقدة ... أيامه بالصبا في اللهو والجـذل

ويقول في قصيدته المشهورة التي مدح بها الرشيد :

اديرا على الراح لا تشربا قبلي ولا تطلبا من عند قاتلتي ذحلي
فما حزني اني اموت صبابة ولكن على من لا يحل له قتلي
احب التي صدت وقالت لتربها : دعيه، الثريا منه اقرب من وصلي
أماتت وأحيت مهجتي فهي عندها معلقة بين المواعيد والمطل
وما نلت منها نائلا غير انني بشجو المحبين الاولى سلفوا قبلي
بلى ربما وكلت عيني بنظرة اليها تزيد القلب خبلا على خبل
كتمت تباريح الصبابة عاذلي فلم يدر ما بي فاسترحت من العذل
ومانحة شرابها الملك قهوة مجوسية الانساب مسلمة البعل
ربيبة شمس لم تهجن عروقها بنار ولم يقطع لها سعف النخل
تصد بنفس المرء عما يغمه وتنطق بالمعروف السنة البخل
قد استودعت دنانها فهو قائم بها شفقا بين الكروم على رجل
بعثنا لها منا خطيبا لبضعها فجاء بها يمشي العرضنة في مهل

ويقول في صفة الخمر :

اغارت على كف المدير بلونها فصاغت لـه منها أنامل كالذبل

* * *

ودارت علينا الكاس من كف طفلة مبتلة حوراء كالرشا الطفل
وحن لنا عود فباح بسرنا كأن عليه ساق جارية عطل
تضاحكه طورا وتبكيه تارة خذ لجة هيفاء ذات شوى عبل
اذا ما اشتهينا الاقحوان تبسمت لنا عن ثنايا لا قصار ولا ثعل
واسعدها المزمار يشدو كأنه حكى نائحات بتن يبكين من ثكل

* * *

وساقية كالريم هيفاء طفلة بعيدة مهوى القرط مفعمة الحجل
تنزه وجهي في محاسن وجهها اذا احتثت الطاسات يغني من النقل
سانقاد للذات متبع الصبا واغدو صريع الراح والأعين النجل

وتحسب عمر بن أبي ربيعة قد بعث في حكايته لهذه الزورة من زواراته الليلية :

وزائرة رعت الكرى بلقائها	وعاديت فيها كوكب الصبح والفجرا
اتتني على خوف العيون كأنها	خذول تراعي النبت مشعرة ذعرا
اذا ما مشت خافت نميمة حليها	تداري على المشي الخلاخيل والعطرا
فبت أسمي الدر طوراً حديثها	وطورا اناجي البدر أحسبها البدرا
الى أن رأيت الليل منكشف الدجى	يودع في ظلمائه الأنجم الزهرا

وبلغ مسلم بن الوليد في شعره منزلة رفيعة بين علماء عصره، وأدبائه ، لأنه كما قلت جمع بين القديم والحديث ، أو بين الطابع البدوى والحضرى •

قال فيه أبو حاتم السجستاني : « خليج صاف ينزع من بحر كدر ، كالزند يورى تارة ويصلد أخرى • » وقال أبو الفرج : « كان متفننا متصرفا في شعره » •

وقال المبرد : كان مسلم شاعرا حسن النمط ، جيد القول في الشراب • وكثير من الرواة يقرنه بأبي نواس في هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعاني الطريفة واستخرجها » •

وقال ابن دريد في أماليه : « أما مسلم فانه مزج كلام البدويين بكلام الحضريين ، فضمنه المعاني اللطيفة وكساه الألفاظ الظريفة ، فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين » •

وقال ابن رشيق في الموازنة بينه وأبي تمام : « ومسلم أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا وهو زهير المولدين » •

وقد نعته نقاد الشعر بالصنعة المتقنة للشعر ، وحسن اختياره للفظ ، وتأنقه في البديع ، أكد ذلك الحصرى حين قال : « ومسلم أول من لطف البديع وكسا المعانى حلل اللفظ الرفيع » .

وقال ابن شرف : « وأما صريع الغوانى فكلامه مرصع ، ونظامه مصنع ، وغزله مستعذب » .

وقال المرزباني : « وهو شاعر مطلق مستخرج » للطيف المعاني بحلو الألفاظ » .

وكان مذهبه في الصنعة مخالفا لمذهب غيره من شعراء العصر في الطبع . وهو يمثل أمام هذا الاتجاه أى اتجاه الصنعة ، وهو الذى سار فيه أبو تمام وغالى . ويقابل هذا الاتجاه اتجاه أصحاب الطبع من أمثال أبي العتاهية وأبان بن عبد الحميد اللاحقى والسيد الحميرى .

ولم يرض أحدهم عن مذهب الآخرين ، فقد قيل أن مسلما اجتمع بأبي العتاهية متدارسا قول الشعر ، فقال مسلم لأبى العتاهية في كم يوم تصنع القصيدة ، فقال أبو العتاهية : أنها بنت ليلتها . فقال مسلم : اذا كانت من مثل قولك :

ألا يا عتبة الساعة أموت الساعة الساعة

فهذا ليس بشعر ولكني أقول :

موف على مهج في يوم ذى رهج كأنه أجل يسعى الى أمل

انى أسهر في صنعتها الليالى الطوال .

وقد وفر مسلم بن الوليد لشعره زينة اللفظ وجمال المعنى • واستخدم من البديع ما أكسبه جمالا ولم يثقله •

فقد يعمد الى بديع اللفظ من الجناس والترصيع مثل البيت السابق • أو قد يلجأ الى الاستعارات يأخـذ بعضها برقاب بعض قولـــه :

أحيى البكا ليلة حتى اذا بلغت	نفس اللجى واستنار الصبح كالوقد
غادى الشمول فعاطتـه سمادرها	طيفا به الفت روحا الى جسد
كأنهـا وسـنان المـاء يقرعهـا	عقيقة ضحكت فى عارض بـرد
حتى اذا الراح نامت عنه فترتها	ريع الكرى وأقامت كسرة الغلد

فهذه الاستعارات الكثيرة ، التى تعاقبت قد تبدو حجابا يستر المعنى ، لكنها فـى الحقيقة أكسبته حـلاوة الصور المتتابعـة • وابتعدت به عن التقرير والتعبير السهل المباشر •

فهو ببساطة يريد أن يقول انه سهر الليل يعاقر الخمر حتى الصباح ، وشرب فلما أخذت الخمر بلبه تخيل حبيبته أو جاءته بطيف الحبيب ، وهو يشبه الخمر التشبيه المألوف ويرسم لهـا الصور التقليدية عند أبى نواس وغيره من شعراء الخمر ، لكنه يعبر هذا التعبير الجديد عن معنى الفتور وما يصيب الرأس من صداع بعد أن ينجاب السكر ويصحو الشارب من النوم •

موقف النقــاد منــه :

ذكره ابن قتيبة فقال : « وهو أول من ألطف في المعاني ، ورقق في القول ، وعليه يعول الطائي (أبو تمام) في ذلك وعلى أبي نواس (١) » ٠

ويقول التبريزي في شرح الحماسة : « وكان متفننا ، متصرفا في شعره ، شاعرا حسن النمط ، جيد القول في الشراب ٠ وكثير من الرواة يقرنه بأبي نواس في هذا المعنى ، وهو أول من عقد هذه المعاني اللطيفة واستخرجها ، وهو أول من أفسد الشعر بهذا النوع الذي سماه الناس البديع » ٠

وذكره ابن رشيق في العمدة من بين أصحاب الصنعة (صنعة البديـع) ٠

« ٠٠ غير أنا لا نجـد المبتدىء فـي طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم ابن الوليد ، لمـا فيهمـا مـن الفضيلة لمبتغيهما ، ولأنهما طرقـا الى الصنعة ومعرفتها طريقا سابلة وأكثرا منها في أشعارهما تكثيرا سهلهما عند الناس وجرأهم عليها » ٠

على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا - وهو أول من تكلف البديع من المولدين ٠ وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ،

---

(١) الشعر والشعراء ٢/٨٠٨ ٠

ولم يكن في الأشعار المحدثة قبل مسلم صريع الغواني الا النبذة اليسيرة، وهو زهير المولدين، كان يبطيء فيصنعته ويجيدها(١) ·

ويقول : « كان مسلم بن الوليد نظير أبي نواس · وفوقه عند قوم من أهل زمانه في اشعار،الا أن أبا نواس قهره بالبديهة والارتجال ، مع تقبض كان فـــي مسلم واظهار توقر وتصنع · وكان صاحب روية وفكرة ، يبده ولا يرتجل (٢) » ·

ونقل ابن رشيق أن البحتري حضر مجلس عبيد الله بن طاهر، فسأله : يا أبا عبادة أمسلم أشـــعر أم أبـــو نواس ؟ فقال : بل أبو نواس ، لانه يتصرف في كل طريق ، وينزع في كل مذهب · ان شاء جد ، وان شاء هزل ، ومسلم يلزم طريقا واحدا لا يتعداه ويتحقق بمذهب لا يتخطـاه · فقال لـــه عبيد الله : ان أحمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا · فقال : أيها الأمير ، ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ممن يحفظ الشعر ولا يقوله ، فانما يعرف الشعر من دفع الى مضايقة (٣) » ·

وسئل أبو حــاتم عن مسلم بن الوليد فقال : « خليج صاف ينزع من بحر كدر كالزند يوري تارة ويصلد أخرى » ·

---

(١) العمدة ١/١٣٠ ·

(٢) العمدة ١/١٩١ ·

(٣) العمدة ٢/١٠٤ ·

ومن آيات شعره قصيدته اللامية في مدح يزيد بن مزيد الشيباني ، يقول فيها :

اجررت حبل خليع في الهوى غزل ... وشمرت همم العذال في عذلي
هاج البكاء على العين الطموح هوى ... مفرق بين توديع ومحتمل
كيف السلو لقلب بات مختبلا ... يهذي بصاحب قلب غير مختبل

ويقول فيها :

يفتر عند افترار الحرب مبتسما ... اذا تغير وجه الفارس البطل
موف على مهج في يوم ذي رهج ... كأنه اجل يسعى الى امل
ينال بالرفق ما يعيي الرجال به ... كالموت مستعجلا يأتي على مهل
لا يرحل الناس الا نحو حجرته ... كالبيت يفضي اليه ملتقى السبل
يقري المنية ارواح العداة كما ... يقري الضيوف شحوم الكوم والبزل
يكسو السيوف رءوس الناكثين به ... ويجعل الهام تيجان القنا الذبل
قد عود الطير عادات وثقن بها ... فهن يتبعنه في كل مرتحل

وقال في صفة النساء :

ولما تلاقينا قضى الليل نحبه ... بوجه لوجه الشمس من مائة مثل
وخال كخال البدر في وجه مثله ... لقينا المنى فيه فحاجزنا البذل

وله في الأوصاف وخاصة في الخمر وأدواتها أبيات مفردات

كقولـــه :

لطف المزاج لهـا فزين كاسـها بقـلادة جعلت لهـــا اكليلا
قتلت وعاجلها المنير ولم تغـط فاذا به قد صيرته قتيـلا

وقـــال :

ابريقنا سلب الغزالـة جيـدها وحكي المنير بمقلتيـه غـزالا
يسقيك باللحظـات كاس صبابة ويعيدهـا مـن كفـه جريـالا

وقـــال :

اذا شئتما أن تسقياني مدامـة فلا تقتلاهـا ، كل ميت محـرم
خلطنا دمـا من كرمة بدمائنا فاظهر في الألوان منا الدم الدم

وقـــال :

ان كنت تسقيني غير الراح فاسقيني كاسا الـذ بهـا من فيك تشفيني
عيناك راحي وريحاني حديثك لي ولـون خديك لون الـورد يكفيني

وهل يمكن أن يكون وصف مسلم بن الوليد بصريع الغواني وصفا واقعا في محله؟ أى هل كان مسلم بن الوليد غزلا مجيدا في الغزل ـ مدلها في الحب أم أن هـذا الوصف ظاهـرى لا يدل على حقيقـــة ٠

وتتبعنا لأبياته فى الغزل تقفنا على قدره فيه ، وهو قدر لا يسمو الى درجة المجودين المبدعين كالعباس بن الاحنف أو عمر بن أبى ربيعة ، وانما هو غزل جيد بقـدر ما أودعـه من الصنعة وجمال اللفظ ، ورشاقة الصياغة كقوله :

احب التى صدت وقالت لتربها ... دعيه، الثريا منه اقرب من وصلى
أماتت وأحيت مهجتى فهى عندها ... معلقـة بـين المواعيـد والمطـل
وما نلت منها نائلا غـير اننى ... بشجو المحبين الأولى سلفوا قبلى
بلى ، ربما وكلت عينى بنظرة ... اليها تزيد القلب خبلا على خبل

فهذا غزل مصنوع مثل بقية شعره .

* * *

القســم الثــانى

شــعراء من القرنين الثالث

والرابــع

القــرن الثــالث

الاطــار السياسي للعصر

يبدأ هذا القرن الثالث بخلافة المأمون ، وقد تولى الخلافة في أعقاب النزاع الذي ثار بينه وأخيه الامين ، وكانت لهذا النزاع آثاره كما كانت له أسبابه وحوافــزه ، منها مــا يتصل بالبيت العباسي نفسه ، وما كان يدور فيه من خلافات حول ولاية العهد بين المأمون والامين ، وتعصب العنصر العربي للامــين والفارسي للمأمون ، ومنها ما يتصل بالاوضاع السياسية عامة والخلاف الذي كان لا يزال يلقي بظلاله على الدولة والرعية بقسميها من الفرس والعرب ، وقد كانت وقعتا أبي جعفر بأبي مسلم الخراساني ، وهارون الرشيد بالبرامكة تؤرجان الخلاف ، وتثيران كوامن الفتن ، وكلما خبت نارها نفخ فيها المثيرون ، من الجانبين ٠

وكان الصراع الاجتماعي بين العرب والموالي لا يزال يمد نار الفتن بالوقود ، وهكذا تولدت فتنة النزاع بين الاخوين ، وتغلب المأمون وجنده من الفرس على الامين وجنده ، وقتل الامين عــام ١٩٨ هـ وتولى المأمون الخلافة ٠ وأحاط بــه الفرس ، ووزر له وزيره الفارسي الفضل بن ســهل ، وكان المأمون ربعــة أبيض جميلا ، طويل اللحية رقيقها ، وخطه الشيب قبل الموت ٠

وقد كانت للفضل ميوله العلوية زيادة على عصبيته الفارسية ، فحسن للمأمون أن يولي عهده عــلي بن موسى الرضى ، فعهد اليه وكتب بذلك كتابا بخطه ٠ قال ابن الطقطقي (١) :

---

(١) الفخري ص ١٦٢ طبع الرحمانية بمصر ٠

« وكان الفضل بن سهل وزير المأمون هو القائم بهذا الامر ، والمحسق له ، فبايع الناس لعلى بن موسى من بعد المأمون » • وأمر المأمون الناس بخلــع لباس السواد شــعار بنى العباس ، ولبس الخضرة شعار العلويين •

ولم يرض العباسيون ببغداد ، وجماعة ممن يذهبون مذهبهم ويلتفون حولهم من قــادة العرب فثــاروا ، ونقلوا الخلافــة الى ابراهيم بن المهدى عم المأمون ، وكان رجــلا فاضلا وشــاعرا ، فصيحا أديبا ، مغنيا حاذقا •

وبلغ المأمون ذلك ـ وكان بخراسان ، فغضب ، ودس للفضل بن سهل من قتله• ويقال أنه تخلص كذلك من عـلى الرضا بدس السم • وربما كان ذلك صحيحا ، أو كان موته من أكل عنب فى وقته مما مهد الطريق لان يستعيد المأمون سيطرته على الدولة ، ويلقى قبول العباسية والعرب باعادة الســواد وولاية العهــد العباسية •

وظلت خلافة المأمون حوالى عشرين عاما ، أمكنه فيها اعادة الهيبة الى الخلافة والدولة كما كانت فى عهد أبيه الرشيد والتى اهتزت فى عهد أخيه الامين • وذلك لانه كان رجل دولة يحسن تدبير الامور ، واسع الاطلاع ، جادا ، مفكرا ، حازما به دهاء الساسة •

قال ابن الطقطقي : « وقام المأمون بأعباء الخلافة وتدبير الملك ، قيام حزماء الملوك وفضلائهم » .

ولم تخل أيامه من بعض الثورات العلوية التي أخمدت ، ومن قلاقل في الثغور تغلب عليها واستتب له الامر من بعدها .

وتوفي المأمون سنة ٢١٨ هـ وعمره ثمان وأربعون سنة .

وخلفه أخوه المعتصم ، وقد ثار بعض أنصار المأمون رغبة في تولية ابنه العباس لكنه أخمد ثورتهم بمبايعة عمه . وواجه المعتصم في خلافته بعض الفتن والثورات،منها ثورة الخراسانية في أصفهان وهمذان ، فقضى عليهم ، وفتنة خلق القرآن وحبس ابن حنبل في بغداد ، والصراع بين أهل السنة والمعتزلة . وثورة البابكية ، وكانت ثورة عارمة أصيبت لها الرعية بالذعر ، وأفسدت في الارض ، فقتلت وشردت ، وقد أحصى عدد القتلى بأيدى البابكية فكان مائتى ألف وخمسا وخمسين ألفاوخمسمائة انسان . وتمكن المعتصم من الانتصار على بابك الخزمي وقتله ، وبذلك أخمدت ثورة البابكية سنة ٢٢٣ هـ . وكان قائده الافشين صاحب اليد الطولى في القضاء عليه .

وتعرضت بعض ثغور المسلمين مع البيزنطيين للاعتداء من قبل الروم ، فكان أن نهض المعتصم الى عمورية سنة ٢٢٥ هـ وهاجم ثغور الروم وسبي وأحرق . وتآمر الافشين على الخلافة

مع مازيار لنقل الخلافة الى العجم ، فصلب المعتصم الاثنين معا سنة ٢٢٥ هـ أيضا • وحرقا بالنار بعد صلبهما • وفي هذا اليوم أبو تمام رائيته المشهورة التي يقول فيها :

ثانيه في كبد السماء ولم يكن   لاثنين ثان اذ هما في الغار

وتوفي المعتصم سنة ٢٢٧ • وقد أقام في الخلافة ثماني سنوات وثمانية أشهر • وكان قد استكثر من الترك وتولى الواثق ، وهو هارون بن المعتصم ، وكان فاضلا عاقلا شاعرا ، استوزر محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الاديب • وقد كانت في ابن الزيات قسوة على أعدائه ، وظل طوال خلافة الواثق ، وكان الواثق يتشبه بالمأمون ، وأحسن الى الطالبيين، ولم تقع في أيامه فتوح كبيرة أو أحداث عظام ومات سنة ٢٣٣ هـ • وحدثت في أيامه محنة خلق القرآن ، وعوقب من لم يقولوا بخلقه أشد العقاب•

وتولى أخوه المتوكل ، وكان شديد التعصب على آل علي ، وفعل بسبب ذلك ما فعل من الاشياء الغريبة كحرث قبر الحسين ، وكان عمره يوم تولى ستا وعشرين سنة • فولى أبناءه الثلاثة أقاليم الخلافة •

وحدثت في خلافته عدة أحداث في البلاد الخاضعة له في أرمينية ، وبعض الثغور مع الروم •

وقتل المتوكل سنة ٢٤٧ هـ بعد خلافة استمرت أربع عشرة سنة ، وقتل معه وزيره الفتح بن خاقان •

وتولى بعده ابنه المنتصر ، وقد بايع له قتلة أبيه ، ولم تدم

حياته بعده أكثر من ستة شهور وشغب الاتـــراك من قـادة الجند مرة أخرى ، لمبايعة ابن المنتصر وخلع أخويــه المعتز والمؤيد من ولاية العهد • وبعد وفاته تولى المستعين بعد مشاورة بين الترك بغا الكبير وبغا الصغير وأتاش •

وسيطر الترك على مصير الخلفاء بعد ذلك وظلت فى أيديهم مقاليد الامور يولون مـن يشاءون ويعزلون مـــن أرادوا • قال صاحب تاريخ مختصر الدول : « لما توفى المنتصر اجتمع الموالى فى الهارونى من الغد وفيهم بغا الكبير وبغا الصغير وأتاش وتشاوروا ، وكرهوا أن يتولى الخلافة واحد من ولد المتوكل لئـــلا يغتالهم ، فاجمعوا على المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم وبايعوه • وفى سنة ٢٤٩ هـ شغب الجند والشاكرية ببغداد لما رأوا من استيلاء الترك على الدولة ، يقتلون من يريدون من الخلفاء ويستخلفون من أحبوه من غـير ديانة ولا نظـر للمسلمين • فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء والنفير ، وفتحوا السجون ، وأخرجوا من فيها ، وأحرقوا أحد الجسدين ، وقطعوا الآخر وانتهبوا دور أهل اليسار ، وأخرجوا أموالا كثيرة ، ففرقوها فيمن نهض الى الى حفظ الثغور • وأخرجـوا المعتـز من الحبس ، وبايعـوا له بالخلافة ، وخلعوا المستعين • وكانت أيامه سنتين وتسعة أشـهر فر المستعين الى بغداد سنة ٢٥١ هـ وحوصر بها ، ثم فى سنة ٢٥٢هـ خلع نفسه من الخلافة فبايع للمعتز ابن المتوكل وخطب للمعتز فى بغداد • وقتل المستعين •

ووقع الشر بين العباسيين ، فقتل المعتز المستعين ، وحبس

المؤيد أخاه حتى توفي في السجن وفي سنة ٢٥٥ هـ دخل جند الترك على المعتز مطالبين بأرزاقهم ، فقبضوه ، وصلبوه بالشمس حتى مات ، وكانت خلافته أربع سنين وسبعة أشهر .

وفي عهد المستعين قتل أحد أئمة العلويين ، وهو أبو الحسين يحيى بن عمر من ولد الحسين بن على رثاه ابن الرومى بقوله :

امامك فانظر أى نهجيك تنهج طريقان شتى : مستقيم وأعوج

يقــول فيهــا :

سلام ، وريحان ، وروح ورحمة عليك ، وممدود من الظل سجسج
ولا برح القاع الذى أنت جاره يرف عليــه الاقحــوان المبلــج

تناول فيها بني العباس بالتجريح .

وخرج في عهد المعتز بالله الصفارية بفارس وهم فرقة من الخوارج استولت على اقليم فارس ، ولم يستطع الترك مقاومتهم .

وبعد موت المعتز تولى أحد أبناء الواثق وهو عبد الله محمد بن الواثق ولقب بالمهتدى بالله . يقول ابن الطقطقى : « وكان المهتدى من أحسن الخلفاء مذهبا ، وأجملهم طريقة وسيرة وأظهرهم ورعا ، وأكثرهم عبادة . كان يشتبه بعمر بن عبد العزيز .... وكان يجلس للمظالم فيحكم حكما يرتضيه الناس . وكان يتقلل في مأكوله وملبوسه » .

وكان فيه زهد في الدنيا وانصراف عن مظاهرها ، فاطرح الملاهي ، وحرم الغناء والشراب وفي أيامه بدأت ثورة الزنج بالكوفة .

وشغب عليه بعض الجند من الترك ، وخلعوه ، ومات في أيديهم سنة ٢٥٦ هـ · ولم يتم عاما في خلافته ، وتولى بعده المعتمد ابن المتوكل · وكان محبوسا ، فأطلقه الاتراك وبايعوه · وفي سنة ٢٦٥ هـ حدث نزاع بينه وأحمد بن طولون في مصر· وكان أخوه الموفق يعينه في دولته وتولى حرب الزنج · وتوفي المعتمد والموفق سنة ٢٧٩ هـ · وكان الامر في معظم دولته للموفق ، ويقال أنه ضيق عليه في المال ، وحد من مصروفه · وكان مستضعفا · يقول ابن الطقطقي : « وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع · كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة للمعتمد الخطبة والسكة والتسمي بأمرة أمير المؤمنين ، ولاخيه كلمة الامر والنهي ، وقود العسكر ومحاربة الاعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والامراء · وكان المعتمد مشغولا عن هذا كله بلذاته » ·

وتولى بعد المعتمد المعتضد بن الموفق سنة ٢٧٩ هـ وبعث اليه خمارويه بن أحمد بن طولون والي مصر بالهدايا والالطاف وزوجه ابنته قطر الندى سنة ٢٨٢ هـ · وفي أيامه ثار الاكراد والاعراب ، وبنو حمدان بالموصل ، فخرج اليهم وأوقع بهم ، وفي عصره ظهر أمر القرامطة بالبحرين ، وانتشروا في أطراف العراق حتى بلغوا الكوفة سنة ٢٨٩ هـ وتوفي في آخر سنة ٢٨٩ هـ · وتولى بعده ابنه المكتفي ·

قال صاحب الفخري : « وكان المعتضد شهما عاقلا فاضلا ، حمدت سيرته · ولي والدنيا خراب ، والثغور مهملة ، فقام قياما

مرضيا حتى عمرت مملكته ، وكثرت الاموال ، وضبطت الثغور ، وكان قوى السياسة ، شديدا على أهل الفساد • حاسما لمراد أطماع عساكره عن أذى الرعية ، محسنا الى بنى عمه من آل أبى طالب • وكانت أيامه أيام فتوق وخوارج كثيرين » •

وقد مات وفى الخزائن عشرة آلاف ألف دينار •

وكان المكتفى من أفاضل الخلفاء على ما يذكر ابن الطقطقى ، وفى عهده قويت شوكة القرامطة ، وتعرضوا لحجاج بيت الله ، وقد بعث اليهم المكتفى بالجيوش ، وقتل بعض زعمائهم • وثارت القبائل التركمانية فيما وراء النهر ، وقضى فى عهده على الدولة الطولونية بمصر بمقتل آخر أمرائها وهو هارون بن خمارويه سنة ٢٩٢ هـ • وحدثت قلاقل على الثغور الرومية ، وقد توفى المكتفى سنة ٢٩٥ هـ •

وتولى المقتدر بعد المكتفى ، ويقولون انه رد للخلافة بهاءها ، ولم يحفظ مال الخلافة على كثرته ، وما كان بين يديه من كنوز آبائه فأنفقه باسرافه ، وقتل فى أيامه الحلاج سنة ٣٠٩ وقوى نفوذ الحمدانيين أمراء الموصل ، وحدث النزاع بينه وابن المعتز على الخلافة ، وأمكنه الاحتفاظ بها دونه وقتل ابن المعتز • وكان القائد المسيطر على دولته مؤنس الخادم ، وقد كانت نهاية المقتدر على يد أحد أعوانه •

وكان المقتدر آخر الخلفاء العباسيين فى هذا القرن الثالث واستمرت خلافته حتى عام ٣١٧ هـ •

ويبدو مما عرضنا من أحوال الخلافة ذلك الاضطراب الشديد الذى أصابها ، وكان من أسبابه زوال هيبة الخلفاء بتولى بعضهم صغار السن ، واستكثارهم من الخدم الاتراك والجنود المرتزقة ، وقد بدأ بهذه السنة المعتصم، وكان جند الاتراك وقادتهم من اسباب كثير من الاضطرابات وكانوا يثيرون على الخلفاء ويقتلونهم ، ويشهرون بهم على صورة تسقط من هيبة الخلافة ومكانتها فى نفوس الرعية ·

ومما زعزع الخلافة كذلك كثرة الثورات فى أنحاء الدولة الاسلامية فى المشرق بين علوية ، وبابكية ، وصفرية ، وفى سواحل الخليج والبصرة والكوفة بين ثورة الزنج الى ثورات القرامطة · وكان العامة فى بغداد وغيرها من العواصم كثيرا ما يثيرون الشغب ، ويصطدمون بالجند ، كما أن الجنود المرتزقة كثيرا ما طالبوا بأرزاقهم ، وتآمروا ضد الخلفاء مع قادتهم وأمرائهم ·

وقد انتهز بعض ولاة الاقاليم فرصة ضعف الخلافة ، فأقاموا دولا مستقلة ، أو قطعوا الاموال عن العاصمة ، وخطبوا لانفسهم ، وسكوا النقود بأسمائهم كالطولونيين فى مصر · وقام فى اليمن ومكة بعض الطالبيين ·

وقد أدى تغلب العناصر غير العربية من فرس وترك على الخلافة والسلطة الى ثورة العناصر العربية على دولة الخدم

والمـوالي فـي بغداد • وكان من أبرز أمراء العـرب الذين خرجوا على الدولـة نصر ابن شيث وآل حمـدان بالموصل •

وكانت دعوة ابن‌شيث في شمالي العراق قائمة على أسـاس الانتصار للعرب • وكـان يقـول : « انما حاربت بني العبـاس محاماة عن العرب ، لانهم يقومون عليهم العجم » •

وهكذا كان القـرن الثـالث الهجـرى عصر بـذر بـذور الفتنة التي أنهكت الخلافة العباسـية وهدمت أركانهـا ، وكان القـرن الرابع متمما لهذا القرن الثالث ، مبعثا للاضطراب الشديد فـي كل مكان •

الحيـاة الاجتماعية

كان المجتمع البغدادى مجتمعا خليطا من أجناس مختلفة بين ترك وعرب وروم وفرس ، ولـم تكن السيادة فيـه للعرب ، وان ظلوا يحتفظون لانفسهم بمراكز السيادة والقيادة فيما عدا قيادة العسكر فقد تخلوا عن معظمها للترك • وكانت طبقة القواد من الخدم أمثال بغـا ومؤنس وأشباههم • واحتفظ العرب بمراتب الوزارة ، وكانت منهم جماعة من كبار الوزراء أمثـال محمد بن عبد الملك الزيات ، وأحمد بن أبي دؤاد ، وابى الصقر ابن بلبل •
وكثيرا ما يتقدم هؤلاء بالكتابة الى جانب الوزارة ، بل ان الكتابة والوزارة كانتا متلازمتين •

وقد قام العنصر العربي في هـذا القرن الثالث بكثـير من الثورات فـي أنحـاء الجزيرة العربيـة والعـراق والشـام • وأدرك العباسيون التنافر بين العرب ، وتقبلهم بين الشيع والاحزاب واختلاف أهوائهم ، فشجعهم ذلك على التمكين لملكهم بغـير العرب• وقد سأل عربي بالشام المأمون عن سبب اعتماده على الفرس • قال : « يا أمير المؤمنين أنظر الى عرب الشام كما نظرت الى عجـم خراسان » • قال المأمون : « أكثرت على يـا أخـا الشام ، والله ما أنزلت قيسا من ظهور الخيل الا وأنا أرى أنه لم يبق فـي بيت مالي درهم واحد ، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتنى قط ، أما قضاعة فانها تنتظر السفياني وخروجه ، فتكون من أشياعه ، وأما ربيعة فسأخطه عـلى الله عز وجل مذ بعث نبيـه صلى الله عليه وسلم فى مضر ، ولم يخرج اثنان الا خرج أحدهم شاريا • أعزب فعل الله بك » •

وكثر المـوالي والرقيق من الحـروب والتجـارة ، وتعددت أجناسهم ، واختلطوا فيما بينهم وامتزجوا بالعرب ، فولد منهم الهجناء ، وكانوا يسمون أبناء الاماء والسرارى كذلك يقول أحد الشعراء :

ان أولاد السـرارى كثـروا يـارب فينـا
رب أدخلنـى بـلادا لا أرى فيهـا هجينـا

وظهر من شعراء هذا العصر والعصر السابق من الهجناء من برع وتفوق فى الشعر وبلغ مرتبة المقدمـين كالخريمى ، وأبى

نواس ، وابن الرومي ، كما تولى من غير العرب ، او من الموالى مراتب الدولة العليا كالكتابة والوزارة .

وعرفت كل جماعة ، واشتهر كل جنس من الاجناس التى كونت المجتمع العباسى آنذاك بالمهارة فى صناعة أو حرفة بعينها ، فاليونان عرفوا بالحكمة والادب ، والسريان عرفوا بالطب والتنجيم ، والنبط عرفوا بالزراعة ، وعرف الترك بالبصر بالحرب وآلاتها والهنود بالحساب والنجوم وأسرار الطب والخرط والنجر والتصاوير ، واليمن بالتجارة ، وأهل السند بالصيدلة ، واحتفظ العرب بالاشتغال بالادب والشعر ، وقيافة الاثر وحفظ الانساب ، والبصر بالخيل والسلاح ، والحفظ لكل مسموع ، فلم تكن مهمتهم التجارة ولا الفلاحة ، لخوفهم من صغار الجزية .

وكان القرن الثالث قمة الحضارة التى بلغتها بغداد ، وقمة الترف بما صب فيها من الاموال ، وتجمع اليها من أقاليم الدولة الاسلامية فى الشرق والغرب من الخيرات ، وبدت مظاهر الترف فى كل جانب من جوانب الحياة البغدادية . لم تقتصر على علية القوم ، وسراة الناس بل غلبت كذلك على عامتها ، وانعكس الترف على طبائعهم ، وعاداتهم ، وطرائق سلوكهم ومعيشتهم .

ومن مظاهر الترف المادية كثرة القصور الفارهة ، التى تأنق فيها بناتها ، فوشوها بمختلف أنواع الزينة والزخرف ، وزينوها بأصباغ الذهب والفضة ، وأعلوا فى بنائها وأحاطوها بالحدائق ، وأجروا اليها الانهار ، وحفروا فيها البرك وأحواض المياه وجلبوا اليها الاسماك بأنواعها بهجة للمتنزهين .

ومما جاء من بديع وصف القصور أوصاف البحترى للجعفرى ، والكامل من قصور الخلفاء • يقول فى الكامل :

ذعر الحمام وقد ترنم فوقه	من منظر خطر المزلة هائل
رفعت لمخترق الرياح سموكه	وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوه	لجج يمجن على جنوب الساحل
وكأن تفويف الرخام اذا التقى	تأليفه بالمنظر المتقابل
حبك الغمام رصفن بين منمر	ومسير ، ومقارب ، ومشاكل
لبست من الذهب الصقيل سقوفه	نورا يضيء على الظلام العاقل
فترى العيون يجلن فى ذى رونق	متلهب العالى ، أنيق السافل

وكانت تلك القصور حافلة من الداخل بأنواع الحياة الزاهرة، تعمرها الجوارى والغلمان بأزيائها الجميلة ، وتتجمل قاعاتها بالفرش والطنافس ، ويؤمها السادة ، والقادة ، والحرس والخدم ، وكلهم فى كامل البهجة ، وتمام الرونق •

وتعقد مجالس الغناء ، وتتزين الجوارى المغنيات بأبهى زى ، من ثياب مصبغة وموشاة ، عاقدات على الرءوس العمائم تتدلى منها السنابل الذهبية • وصف أحد مجالس الواثق فقيل ان «أحد الشعراء أدخل الى دار مفروشة الصحن ، ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب ، ثم أفضى الى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك ، واذا بالواثق فى صدره على سرير مرصع بالجوهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب ، والى جانبه فريدة المغنية عليها مثل ثيابه وفى حجرها عود » •

وقد كانت الجوارى والغلمان زينة قصور الخلافة ، وعلية القوم ، وكن يكسبن الحياة البهجة ، بظرفهن وجمالهن ، وغنائهن ٠

وتحفل كتب الادب بالحديث عن الجوارى والغلمان ، وأزيائهن وأحاديثهن ، وظرفهن ، وكانت الجوارى والغلمان من لوازم القصور ، ومجالس اللهو والسمر ، واختلفت جنسياتهن ، وعلمن ، وثقفن ، ولقن قول الشعر والغناء ٠ وكانت الواحدة منهن تقوم بما تملك من قدرات في حفظ الشعر والغناء وحسن الحديث والمسامرة ٠

وكان منهن الهنديات والسنديات والمكيات والمدنيات ، والسودانيات ، والحبشيات والتركيات والروميات ، والارمنيات ٠ وأشار الجاحظ فى رسالة الجوارى والغلمان الى ميزة كل جنس منهن ٠ وما يتفوقن فيه ٠

وتكاثر اهل السراء بما يملكون من الجوارى والغلمان ٠ ويروى أن المتوكل جمع فى قصره أربعة آلاف سرية من أجناس مختلفة ٠ ودخل أحمد بن صدقة على المأمون فى يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلباء روميات ، مزنرات قد تزين بالديباج الرومى وعلقن فى أعناقهم صلبان الذهب ، وفى أيديهن الخوص والزيتون ، فقال له المأمون : ويلك يا أحمد ! ٠ قد قلت فى هؤلاء أبياتا فغننى فيها ثم أنشد :

ظبــاء كالدنـــانير ملاح فـي المقاصـير
جلاهـــن الشعانـــين علينا فـي الزنـانير
وقـد زرفن أصداغـا كاذنـــاب الزرازيـــر
واقبلـــن باوســاط كاوســاط الزنـابير

وأشاعت الجوارى جوا من الاناقــة ، ودماثــة السلوك بين الناس ، واشتهرت بغداد بالظرف والظرفـاء ، وكان من ســمات الظرفاء ، أناقة اللباس وجمال المظهر ، ونظافة الهندام ، وحسن المعشر ، ورقة السلوك ، ولباقة الحديث - ويؤلف الوشاء كتابا في سمات الظرفاء يسميه الموشى ٠

وقد خصت في بغداد أحياء للخلفاء والامراء وعلية القـوم تقوم بها قصورهم ، وتزدهر حدائقها تطل على دجلة ، فيكو نالهم المراسى ترسو فيهاأنواع المراكب كالحراقات وغيرها ، ويتخذون لها صور الحيوان والطير ، ويعقدون فيها مجالس السمر والغنــاء والشراب ، وتمخر بهم في ليالي بغداد أو فـي الاعياد وقد زينت بمختلف ألوان الزينة ٠

وتمر مواكب الترف والرفاهية تمخر عباب النهر ، وتتلألأ أنوارها على مياهــه ، وتزدهى القصور حولـه مشرقة بقبابهـا وأبراجها تعكس صورها على صفحة المـاء ٠

وتملأ شوارع أحياء بغداد المترفة الجوارى ومراكب السادة بالنقوش - وكانت البغال مراكب مع خيل مطهمة وبغال مزدانة

أصحاب القلم غالبا من الكتاب وأشباههم ، أما الخيل فكانت مراكب أصحاب السيوف ٠

تلك حياة أحياء الاغنياء وللفقراء أو الطبقة الوسطى في بغداد وضواحيها أحياء عامرة بالحياة ، من أشهرها الكرح وطيرناباذ وبنى ٠

يقول المقدسى : « أعمر موضع بها قطيعة الربيع والكرخ فى الجانب الغربى » ٠ وكانت الكرخ متنزها مشهورا ، يقول على بن الجهم :

سقى الله باب الكرخ من متنزه ... الى قصر وضاح فبركة زلزل
مساحب أذيال القيان ومسرح الـ ... حسان ومثوى كل خرق معدل
لو أن امرأ القيس بن حجر يحلها ... لأقصر عن ذكر الدخول فحومل

وسكن الكرخ من المشهورين أبو دلف العجلى أحد ممدوحى أبى تمام وكثير من شعراء العصر وكانت أسواق الكرخ عامرة بمختلف السلع ، وتمص دكاكينها بطرائف الثياب ، ويحمل التجار من كل مكان أجمل ما فى الاقاليم من بضاعة ينفقونها في مدينة السلام ، ويحمل تجار الروس فراء الثعالب وغيرها من الجلود الثمينة ، وتحمل اليها السيوف الهندية من الهند وجرجان ٠ويحمل اليها التمر من البصرة ٠

وتحفل الدروب بأنواع الباعة وصناع الطعام من صانعى الزلابية ، أو الرقاق ، أو السمك وما اليه ٠ وقد جاء ذكر هذا كله فى شعر العصر ٠

وتعددت دور اللهو فى أحياء الكرخ وغيرها ، وكان أصحابها من أهل الذمة والكتابيين من اليهود والنصارى ، وتقدم فى تلك الدور أنواع الشراب ، وتغنى المغنيات أو المغنون • وتعزف الموسيقى ويؤمها أصحاب الخلاعة واللهو •

وتتجمل بغداد والعواصم العراقية فى الاعياد بأبهى زينة ، ويخرج الناس زرافات متجملين وقد أخذ العرب المسلمون عن الفرس بعض أعيادهم كعيد النوروز وهو رأس السنة الفارسية ومعناه اليوم الجديد • وكان الناس يحتفلون أجمل احتفال ، كذلك احتفلوا بأعياد النصارى وشاركوهم فيها مثل عيد الشمانين ، وكانوا يخرجون الى الاديرة خارج المدن ، يمتعون أنفسهم بمناظر النصارى يحملون أغصان النخيل والورود ويسيرون فى مواكب من والى أديرتهم • وكم تغنى الشعراء بهذه الاعياد وتغزلوا بفتيات وفتيان النصارى فى كنائسهم وأديرتهم فى تلك الاعياد •

وكانوا يهتمون بأعياد الربيع ومواسم الزهور ، ويحتفلون لها أشد احتفال ، فيستقبلون الورد عند بدء تفتحه ، ويحملونه مهنئين به ، وقد شغف المتوكل بالورد ، وكان يحلى مجالسه به ويهب الجوائز لمن يبشره بظهوره • واذا ظهر البنفسج داروا به فى الاسواق ، وتجملوا عليه •

ويقول المقدسى : « وفى اخلاقهم وطاء ، وهم أهل الظرف ، غير أن العيارين اذا تحركوا ببغداد هلكوا » • وقد كانت للعيارين

والشطار انتفاضات كثيرة ببغداد ، وظهرت هذه الطبقة فكانت من سمات المجتمع البغدادى ، وهى طبقة تجمع بين سمات (الفتوة) و (البلطجة) لها نظمها وتقاليدهـا ، ونفوذهـا فـي الاوساط والبيئات الشعبية ، وجاء ذكرهم كثيرا في الادب شعره ونثره ، ووردت نوادرهم وحكاياتهم كذلك عند بعض أصحاب النوادر وفي كتب المحاضرات ٠

وقد نهضت الموسيقى والغناء نهضة كبرى ، واشتهر جماعة من كبار الموسيقيين والمغنين والقيان ، ومن أشهرهن عريب ، وقد بلغ ما صنعته من الغناء ألف صوت جعلته في دفاترها وصحفها ٠

الحيــاة الفكريــة والثقافيــة

جمعت بغـداد بكونهـا عاصمة للدولـة خصائص كثيرة من العواصم الاقليمية ، فاستقطبت علماءها ومفكريها ، وصناعها ، وأدباءها ٠ وكان موقع بغـداد على نهـر دجلة أقـرب الى التأثير الفارسي ٠ وقد كثر الفرس ومن ينتمي اليهـم من المـوالي ٠ أو المولدين في المجتمع البغدادى ، وظهرت آثار الحضارة الفارسية غالبة ، ومناهضة للحضارة العربيـة ، وامتزجت الحضارتان في بوتقـة الاسلام لتظهر منهما حضـارة اسـلامية مطعمة بعناصر أخرى يونانية وسريانية وغيرها ٠

وفي حديثنا عن مصرى العراق الكبيرين البصرة والكوفة ، وما طبع كلا منهما من خصائص تميزه عن الآخر ، وقفنا على دور

البصرة في تنويع الثقافة العربية ، واثراء الفكر الاسلامي بأنواع من الثقافات المختلفة نتيجة تنوع عناصر السكان بالبصرة ، وكونها على شط العرب ثغرا يفد اليه الناس من كل مكان • وقد كان مقابلا لها اقليم الاهواز الفارسي ، وقد ورثت البصرة ثقافة وفكرا يونانيا مما خلفه اليونانيون في مستعمراتهم الشرقية ، وتوارثته الاجيال من سكان البلاد ، والنصارى من أهل العراق والنساطرة وغيرهم ، فغلبت عليها الثقافة اليونانية ، وأثرت الفلسفة والمنطق على علمائها ونتاجهم العلمي في جوانبه المختلفة بين الدراسات اللغوية والنحوية ، والعقلية ، والعقدية • ونشأت في البصرة أول مدرسة فكرية اسلامية تأخذ بالفلسفة والمنطق ، وشرائع العقل في بحوثها ومناظراتها تلك هي مدرسة المعتزلة ، أو جماعة المعتزلة ، أو فرقة المعتزلة كما تسمى أحيانا في كتب التراث •

كذلك ظهر الاتجاه التقنيني في الدرس اللغوى ، ونشأت مدرسة القياس البصرية في النحو يتزعمها سيبويه صاحب « الكتاب » المشهور • وظهر في الادب الاتجاه الواقعي الاجتماعي، الذي يعرض لصور الحياة الجارية ، كما ظهرت الاتجاهات المتحررة التي تدعو الى التحرر من القيود والقيم التقليدية والمتوارثة، وقد عرفت هذه الاتجاهات بالزندقة سواء أكانت زندقة فكرية أو اجتماعية ، وكان أثرها على الادب واضحا فيما عرف بالمجون أو باتجاه جماعة الزنادقة ، أو عصبة المجان • وقد بدأ هذا الاتجاه عند بشار بن برد ، ومضى فيه فرقة من شعراء

البصرة أمثال مطيع بن اياس ، ويحيى بن زياد ، وأبي نواس ، ووالبة بن الحباب • وكانت نتائجها في الشعر الدعوة الى ترك بعض التقاليد في بناء القصيدة كالمقدمة والوقوف على الاطلال ، وذكر الرحلة والراحلة • والاستعاضة عنها بمقدمـــات مناسبة للعصر كالغزل العصرى ، أو ذكر الخمـــر ، ووصفهـــا أو البـــدء مباشرة بموضوع القصيدة •

وكان شعراء الفرس أول من دعا الى هذا الاتجاه ، وارتبطت دعوتهم بالشعوبية ، وهي الحركة المعادية للعرب •

وصاحب هذا كذلك الاتجاه الى الصنعة ، والبديع ، والجدير بالملاحظة أن رواد شعراء الصنعة جميعا كانوا بصريين ، فبشار وأبو نواس ، ومسلم بن الوليـــد ، والعتابي كل هؤلاء كانوا من البصرة ، وكلهم كانـــوا ممن يجمعون الى الشعر العلم ، بل كان يقال ان الشعر أقل بضاعتهم • واذا كان لهذا دلالته ، فان معنى مصاحبة اتجاه البديع للعلم ، هو أن الاهتمام بالعلـــم ، وتحكيم العقل ، والاخذ به في تثقيف الشعر والصنعة البديعية كان ظاهرة بصرية • وهو نتاج لتلك البيئة العلمية الآخذة بمقاييس العقل والاعتماد عليه •

كذلك كانت الكتابة والخطابة تأخذ بمقاييس المنطق والعقل، ولم تعد الخطابة مجرد كلام يلقى ، ، عماده الزخرف ، والسجع ، وجمال العبارة ورصانة المنطق وفصاحة اللفظ بل كان عمادها

الاقناع العقلي الى جانب الاقنـاع الحسي أو العاطفي ، ومن هنا ســاد أسلوب الجـدل والحجاج ٠

وكان المعتزلة قادة هذا الاتجاه الجديد في الخطابة ومنهـم واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ٠وأشار بشار بن برد الى قوة عارضة واصل في الخطب٠ وعلموا ناشئتهم الجدل والحجاج والاخذ بأسباب المنطق والفلسفة في الخطابة والجدل ليواجهوا أعـداء الاسلام والمعارضين ممن يوجهون مطاعنهم قياسا على حجج العقل٠

وشاع اتجاه الواقع والعقل في أدب الادباء ، وبدأت الكتابة التي تعرض لمشكلات الحياة والمجتمع ومحاولة تحليلها وتعليلها بناء على الاسباب والنتائـج ، والتجربـة العمليـة والمشاهدة ٠ وظهرت آثار هذا كله فـي مؤلفات كاتب بصري مشهور هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ٠

تلك اذا كانت حال البصرة وآثارهـا على الفكـر العربـي والاسلامي ، ونتائجه على الادب البصري في القرن الماضي الثاني الهجري ، وانتقلت الثقافة البصرية والفكـر البصـري والادب البصري الى بغداد العاصمة ٠

وكانت الكوفة بمكوناتها الجغرافيـة والتاريخية مختلفة عن البصرة ، فقد آثرت بيئتها وموقعها على حافـة الصحـراء ، على عزلتها ، فلم تكن مدينة مفتوحة كالبصرة ، واحاطت بها الاديرة المسيحية التي حافظت على الموروث الديني والفكري المسيحي الى

جانب مخـزون ثقافـي وعلمي ممـا يحتفظ به رهبـان الدير وقساوسته ، وكان هذا كله ذا أثر على فكـر الكوفـة فنمت بهـا الاتجاهات الواقية التي تعتزل الحياة بمظاهرها المترفـة وتـرى السعادة في التأمل والحياة الاخرى حياة الروح لا حياة الجسد ، وابتعدت الكوفة لهذا عن الاخذ بمنطق العقل وقياسـه الصارم ، وحكمت الفلسفات الغيبية ، واتجهت الى الباطنيـة ، والغيبيات دون الواقع والتجربـة ، والتسليم بالموروثات دون الاجتهـاد ، والتلقائية والفطرية دون الصنعة والتكلف ٠

ومن هنا بدت في ثقافتها العربية تأخذ بالسماع ، والنقل عن العرب ، والتسليم بما يروونه عن الثقات في اللغـة والنحو ، واعتبار السماع من العرب هو الاصل ، على غير حـال البصريين الذي جعلوا القياس هو الاساس والخروج على القاعدة حتـى لو كان صحيحا سماعا هو الشاذ٠ وكان التقنين عماد العلم البصرى، على غير الحال لدى الكوفيين الذى سلموا بالنقل ٠

وقد كان لهذا أثره في علوم التفسير ، والفقـه ، والعقائـد والفرق المذهبية ، فلم يظهر الاجتهاد العقلي واضحا في علم الكوفة وتفسير مفسريها بل مالوا الى التفسير المأثور أو الغيبي والعاطفي، وشاعت عقائد العلوية الباطنية بالكوفة ، ووجدت في بيئتها مرتعا خصبا على مـدى القرنين الثاني والثالث ، وحتى نهايـة القـرن الرابـع ٠

وفـي الادب كانت الاتجاهـات العلوية والشيعية غالبة على

الكوفة ، وكان الطبع وعدم التكلف سمة الشعراء البارزة ، كان منها السيد الحيرى ، وأبو العتاهية ، واشتهر تيار الزهد واختلط بموروثها الثقافي والمقدى المسيحي وغيره ٠

وانتقلت الثقافة الكوفية كذلك بمقوماتها الى بغداد ٠

وكانت بغداد باعتبارها العاصمة الجديدة للدولة العباسية تخط لنفسها اتجاها يجمع بين كل الثقافات وتصب فيها كل التيارات ٠ وقد بدأ القرن الثالث في بغداد بعصر المأمون ، وكان رجلا طلعة يحب العلماء والمفكرين والادباء والمترجمين ويشجعهم ٠

وقد كان المنصور جد المأمون كلفا بعلم الفلسفة والنجوم فلما أفضت الخلافة الى المأمون تمم ما بدأ به جده المنصور ، فاقبل على طلب العلم فى مواضعه ، وداخل ملوك الروم ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة ، فبعثوا اليه منها ما حضرهم ، فاستجاد لها مهرة التراجمة ، وكلفهم احكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ٠ ثم حرض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها وتعلمها » (١) ٠

يقول صاحب تاريخ مختصر الدول :

« فكان يخلو بالحكماء ، ويأنس بمناظراتهم ، ويلتذ بمذاكراتهم علما منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه ،

---

(١) تاريخ مختصر الدول ، طبع بيروت ، ص ١٣٦ ٠

ونخبته من عباده ، لانهم صرفوا عنايتهم الى نيـل فضائل النفس الناطقة » (١) ٠

واشتهر جماعة من علماء المنجمين ، وألفوا الكتب والازياج، واشتهر من بينهـم آل نوبخت ، ومحمد بن موسى الخوارزمـي ٠ وأقيمت المراصد ببغداد ودمشق لرصد النجوم ٠

وكان من الحكماء يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، كان أمينـا على ترجمـة الكتب الحكميـة (الفلسفية) ، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب (٢) ٠

ومن الاطبـاء فـي عصر المأمون سـهل بن سابور ويعرف بالكوسج ، ويوحنا بن ماسويه ، وجيورجيس بن بختيشوع ٠

وقد شجع المأمون المعتزلة وأصحاب الكلام وتبعـه فـي ذلك خلفاؤه المعتصم والواثق ، وحدثت في عصر الواثق محنـة خلق القرآن ، وحبس أحمد بن حنبل ، وجاء المتوكل فأطلق ابن حنبل من حبسه ووصله وأمر بترك الجدل في القـرآن ، وأن الذمـه بريئة ممن يقول بخلق القرآن ٠

وتعلق شباب المثقفين ، وناشئة الادباء بالثقافات الوافـدة من يونانية وفارسية وغيرها ، وأخذوا بأسباب المنطق والفلسفة ، الى تعليمها ، وتراخوا في تعلم العربية وعلومها - وقد لاحظ ذلك

---

(١) تاريخ مختصر الدول ، ص ١٣٦ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٨ ٠

عليهم ابن قتيبة فنعى هذا الاتجاه واسف له في مقدمة كتاب أدب الكاتب • قــال :

« وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئا من تقويم الكواكب وينظر في شيء من القضاء وحد المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن ، وهو لا يعرف معناه • وعلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب وهو لا يدرى من نقله • قد رضي عوضا من الله ومما عنده بأن يقال : فلان لطيف • وفــلان دقيق النظــر ، يذهب الى أن لطف النظر قد أخرجه عن جملة الناس ، وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء ، والغمر ، وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى ، وهي به أليق ، لانه جهل ، وظن أن قد علم ، فهاتان جهالتان • ولان هؤلاء جهلوا ، وعلموا أنهم يجهلون ، ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الاسلام برايه نظــر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى ، وبلج اليقين • لكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب ، وفي أخبار الرسول صلى الله عليه وســلم وصحابته • وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك ، وعاداه ، وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقل فيه المناظرون له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم • فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله الكون والفساد وسمع الكيان ، والاسماء المفــردة ، والكيفيــة والكمية ، والزمــان والدليل ، والاخبار المؤلفة راعه مــا سمع وظن أن تحت هذه الالقــاب كل فائدة ، وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يفز منها بطائل ، انما هو الجوهر يقوم بنفسه ، والعرض لا يقوم بنفسه » •

ثم يقول : « ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب » .

وقد دافع ابن قتيبة في هذا الحديث عن الثقافة العربية الاسلامية ضد تلك الاتجاهات اليونانية الممثلة في علوم الطبيعة والحكمة والفلسفة التي استهوت شباب عصره .

وكان لهذا الصراع الفكري والعقدي بين الثقافات المختلفة بعضها وبعض ، وبينها والثقافة العربية الاسلامية أثر واضح على الادب شعره ونثره . وقد شبه الدكتور طه حسين الصراع بين الثقافتين الفارسية واليونانية ، في عصر المأمون وما بعده بالصراع بين الثقافتين الفرنسية والانجلو سكسونية في عصرنا الحديث .

وقد ترجم في هذه المرحلة من كتب العلوم والآداب عن الفارسية واليونانية ، وكان قد ترجم قبل كتب في هذا الميدان على أيدي ابن المقفع ككليلة ودمنة ، وقد نظمها أبان بن عبد الحميد شعرا ، كما ترجمت بعض كتب أرسطو ككتاب الحيوان ، وحد المنطق ، ، « والشعر » . وكان لكتاب الشعر الذي عرفه العلماء في القرن الثالث هو وكتاب الخطابة أثرهما في البلاغة وعلوم النقد منذ هذا القرن . وربما تأثر غير واحد بهما من أمثال الجاحظ وابن طباطبا وقدامة بن جعفر .

ويرجع بعض الباحثين آثار هذين العملين الخطابة والشعر الى ما قبل ذلك . وعلى أية حال فقد ساعد هذان الكتابان وغيرهما على تكوين مفهوم عام للحدود التعبيرية او لفنون التعبير وصور الكلام . ويقال ان حدود قدامة بن جعفر وتصوره العام للشعر من خلال تقسيماته يرجع الفضل فيه الى أرسطو ، لكن كتاب الشعر لم يبرز في دراسات مباشرة ، ولم يشر اليه علماء المسلمين صراحة الا فى القرن الرابع للهجرة وما بعده فى ترجمات عربية أو تعريفات وتطبيقات ومقارنات أمثال ابن سينا والفارابى وابن رشد من فلاسفة المسلمين ومفكريهم .

وقد أثرت المذاهب الفكرية والعقدية فى الشعر والكتابة ، فكان من الشعراء والكتاب من عبروا عن تيارات فكرية أو عقدية بعينها، وكانوا لسانها الناطق من أمثال على بن الجهم الذى كان شاعر أهل السنة ، ودعبل الذى كان لسان الشيعة والعلوية ، ولم يقف غيرهما من الشعراء جامدين حيال تلك التيارات ، بل نجدها قد تسللت الى أشعار بعضهم بصورة أو أخرى كالبحترى وابن الرومى .

وكان من الكتاب والمفكرين من أهل الكلام والاعتزال أمثال بشر بن المعتمر ، والنظام وأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وابن أبى دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . كذلك كان من المتعصبين للسنة والعرب من الشعراء والكتاب أمثال البحترى وابن قتيبة .

وقد كان البحتري يكره المناطقة ، وادخال العلوم العقلية والفلسفية الى الشعر ، فقال :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه
ما كان ذو القروح يلهج بالمنطق ما أصله وما سببه

ولكن المنطق وعلوم الفلسفة والكلام أدت خدمات جليلة للادب عامة ، وفني الكتابة والشعر خاصة ، ذلك أن الخطب والرسائل اتخذت سمات معينة ، وصارت لها مقدمات ونتائج ، ويؤخذ فيها بنظام خاص تقدم فيه بين يدى الموضوعات استهلالات أو افتتاحيات مناسبة بها تنم عليها أو تمهد لها ، ثم بسطت الموضوعات بسطا وقسمت أقساما ، تسلست فيها معانيها بعضها تلو بعض ، ويأخذ احدهما بوثاق الآخر ويؤدى أولها الى تاليها ، ثم ختمت بخواتيم مجملة للقول كله،وموجزة لنقاطه وموضوعاته ٠

وبنى الشعر بناء الرسائل ، ولم يعد أبياتا مهملة ولا سطورا مفرقة تجمع بينها القافية ، بل ظهرت له وحدة موضوعية وبنائية متكاملة ، في المعاني والالفاظ ، يتولد بعضها من بعض ، ويؤدى بعضها الى بعض حتى نهاية القصيدة ٠

وقد نهج هذا النهج وأبدعه ، وكان علما فيه لا يبارى ابن الرومي ، وهو المبدع حقا في بناء القصيدة ونهجها ، وطريقة تناول معانيها ٠ واذا كان أبو تمام قد ابتدع طريقة التضاد والتقابل واستخدمها فنا تعبيريا في شعره حتى غلب عليه ،

وأغرق في تطويع البديع لافكاره ومعانيه ، فان ابن الرومي قد امتاز بالبناء والتصميم المتماسك لقصيدته ·

وهكذا ، أضفت الثقافات المنوعة على الادب في هذا القرن الثالث حيوية،وعمقت معانيه ووسعت جوانبه ، ولم يقتصر تناول الشعراء على المعانى التقليدية المتداولة فى الشعر القديم ، بل جدت معان أخرى مستمدة من تلك الثقافات المتنوعة ، واعتمد بعض الشعراء على المعانى العقلية العميقة المعتمدة على المعرفة ، ولم يكتفوا بالمعانى الظاهرية المطروقة ·

وغنيت اللغة بزاد من اللفظ الدخيل والمعرب من أصول غير عربية فارسية ويونانية وسريانية ، بعضه من مصطلح العلوم والحضارة ، وأسماء الاشياء من منجزات تلك الحضارات التى امتزجت بالعربية مادية كانت أو معنوية · وبعضه من اللفظ الجارى فى الحياة العادية لاختلاط تلك العناصر الفارسية واليونانية والتركية والنبطية بالعنصر العربى ، وتداخلهم فيهم، فغلب على لغة الكلام والتفاهم كثير منها ، ونقلها الكتاب فيما كتبوا من نوادر وحكايات ، وفيما صوروا من حياة المجتمع ، أو تسربت تلك الالفاظ عن طريق أصحابها ممن ألفوا باللغة العربية ·

الشعر والشعراء

الاتجاهات الفنيــة فــي الشعر

في القــرن الثالث الهجرى نمت الاتجاهات الفنية الجديدة التى عرفهـا الشعر العربي فــي القــرن الثاني وهــي من حيث الموضوعات شعر الزهد ، وشـعر الفلسـفة ، والحكمة ، وشعر القصص العلمي ، والشعر المتعلق بصور الحضارة والحياة المدنية ، والشعر الشعبى ٠

واستمرت الموضوعات التقليدية كالمديح والهجـاء والفخـر والغزل والوصف والاعتذار ، الى جانب الشعر السياسي ، الذى ظهرت بشائره منذ صدور الاسـلام ، وشـعر الفــرق والشعر الديني التعليمي ٠ والمثنوى في منظومات العلوم ٠

ومع الناحية الفنيــة فقد دخـل القصيدة تعديلات من حيث الشكل والبنـاء ، فلم تعد المقدمة التقليدية على صورتها المتوارثة على ما كان الحال عليه في شعر القــرن الثاني ، بل أخذت طابعا آخر فيه تغير ، وتشـكيل جديد مغايـر لمـا كانت عليه المقدمة الطللية أو الغزلية عند الشعراء المقلدين ٠ فصارت المقدمة صورة أو رمزا نمطيا ، لا يفصل فيــه الشاعر ، ولا يطـول نفسه بل أصبحـت كالحليــة الجميلة الغاليــة بعراقتهـا تعلق على رأس القصيدة ، وقــد رأى ابن قتيبــة أن تظل المقدمــة كما هى دون تعديل بالوقوف على الاطلال ، وان لم يكن ثمة أطلال في حيــاة

الحضر في بغـداد ، ولم يجز أن يستبدل بها الشعراء الوقوف على البساتين الناضرة والديار العامرة ، مجاراة للحياة الجديدة، لتظل سمة عزيزة ، هي رمز ، وحلية عريقة أكثر منها لازمة لموضوع الشاعر أو غرضه ٠

وقد أعرض عنها كثير من شعراء العصر بالدخول مباشرة الى موضوعاتهم أو البدء بالغزل والوصف ووصف الطبيعة خاصة أو ذكر مجالس الخمر والغناء ، أو ضمهما معا ، وربما مزج الشاعر العناصر الثلاثة : الطبيعة ، ووصف مجالس الخمـر والغنـاء ، والغـزل ٠ وقد أصبح هذا المزج سمة لكثير من مطالع القصائد من بعد في القرنين الرابع والخامس ومـا بعدهمـا ٠ وتمسك الاندلسيون بذلك وألحوا عليه في شعر القرن الرابع وما بعده ٠

ومن حيث البناء ، فقد حرص ابن الرومي على بناء قصيدته بناءا واحدا متكاملا ومتصلا لبناته ، فماد للقصيدة تلك الوحدة المتصلة في الشكل والمضمون ، ولم ينفرد ابن الرومي وحده بهذا العمل ، بل شاركه فيه غيره من معاصريه كأبي تمام والبحتري ، وان كانت هذه الظاهرة غير مطردة الا عند ابن الرومي ٠

ومال الشعراء الى الاكثـار من اسـتخدام البحـور السهلة الخفيفة ، ومجزوءات البحور ، كما نظـم بعضهـم المسمطات ، والمخمسات ، والمثنوى ، أو المزدوج ، ومن أشهر مزدوجات هـذا القرن الثالث مزدوجة ابن المعتز التاريخية التي يقول فيها :

وكل يوم ملك مقتول او خائف مروع ذليل

وقد تأثر أسلوب الشعر بحياة الترف والغناء ، فرق ، وسهلت الفاظه ، وكان موضوعا للسمر في مجالس الخلفاء والظرفاء ، ومادة للتسلية والمتعة ، يتناشده القوم في ساعات الصفو وفي مجالات اللهو . وكانت بعض المغنيات تصوغ الشعر على الالحان كعريب جارية المأمون والواثق وأنشدت فضل بن حميد معاتبة في مجلس من تلك المجالس شعرا رقيقا فيه تلك الصفات التي ذكرنا . قالت :

يا من أطلت تفرسي في وجهه وتنفسي
أفديك من متدلل يزهو بقتل الانفس
هبني اسأت وما أسأت ، بل أقول انا المسي
احلفتني أن لا أسارق نظرة في مجلس
فنظرت نظرة مخطيء اتبعتها بتفرس
ونسيت أني قد حلفت ، فما عقوبة من نسي ؟ !

فقام سيدها وقبل رأسها ، وغنت عريب في هذا الشعر .

وظهر في هذا القرن الثالث اتجاهان واضحان للشعر ، اتجاه أصحاب البديع ، أو الصنعة ، واتجاه طريقة العرب . ووصف أصحاب البديع بأنهم خارجون على عمود الشعر العربي وطريقة العرب في قول الشعر وذلك أنهم لم يتبعوا القدماء في التعبير عن معانيهم ، أو في صياغة تشبيهاتهم واستعاراتهم ، وفي بناء قصائدهم ، ومجاراتهم في الوقوف على الاطلال وذكر النؤى والاحجار .

وحمل لواء هذا الاتجاه البديعي في القرن الثالث أبو تمام حبيب بن أوس الطائي ، وقد تقدم خطوات فيه على ما تركه عليه مسلم بن الوليد في القـــرن الماضـــي ، كان مسلم قـــد وضع أسس مذهب البديع ومكن له وكان يبني شعره بناء محكما ، يعنى فيه بصياغة ألفاظه ، ورصانتها ، وجمالها بما يوفره من جناسات صوتية بين الكلمات والحـــروف ، أو الايقاعـــات الداخلية فـــي الابيات ، وما يحدثه من قواف جزئية متتابعة ، وما يسوقـــه من صور متعاقبة في تشبيهات أو استعارات . ومثاله قوله :

لا تدع بي الشوق اني غير معمود	نهى النهى عن هوى الهيف الرعابيب

وقولـــــه :

موف على مهج في يوم ذي رهج	كأنــه أمــل يسـعى الى اجــل

وكقولـــــه :

أحيى البكا ليلة حتى اذا تلفت	نفس الدجى واستنار الصبح كالوقد
غاديى الشمول فعاطته سمادرها	طيفا به ألفت روحا الى جسـد
كأنهـا وسـنان المـاء يقتلهـا	عقيقة ضحكت من عارض بـرد
حتى اذا الراح غامت عنه فترتها	ريع الكرى واقامت كسرة الخلد

وجاء أبو تمام فلم يتوقف عند احـكام الصنعة ، وملاحقة الجناس في الجرس اللفظي وتوفير الاستعارات والتشبيهات في البناء المعنوي ، بل أدخل الطبـــاق والمقابلة بصـــورة ملحوظة ، وحرص على تجاور الاضداد ، والاغراب في المعاني ، واقتناص الغريب البعيد معتمدا على التلميـــح والرمـــز أحيانا ، ومستعينا

بالاشارة أحيانا ، ومستخدما غرائب التشبيهات وبعيد الاستعارات مما لم يؤلف في أقوال العرب أو التراث الشعري القديم ، واستخدام مقلوب التشبيه والاستعارة ، واقامة أود المعاني بالحجاج العقلي ، ودعمه بالمثل · كل هذا كان من صنعة أبي تمام أو تصنيعه · ونشير الى أمثلة من مذهبه في أبيات لنفصل بعدها عند الحديث عنه مفردا · يقول :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد	وعاد قتادا عندها كل مرقد
وانقذها من غمرة الموت انه	صدود فراق لا صدود تعمد
فاجرى لها الاشفاق دمعا موردا	من الدم يجري فوق خد مورد
هي البدر يغنيها تودد وجهها	الى كل من لاقت وان لم تودد
ولكنني لم أحو وفرا مجمعا	ففزت به الا بشمل مبدد
ولم تعطني الايام نوما مسكنا	ألذ به الا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحي مخلق	لديباجتيه ، فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة	الى الناس اذ ليست عليهم بسرمد

ففي هذه الابيات معظم خصائص اتجاه أبي تمام وصنعته ، وقد قدمناها ، ففيها المقابلات والطباق ، وتجاور الاضداد ، والصور الغريبة ، والمعاني العقلية المدعمة بالدليل المادي ، والحسي كما في البيتين الاخيرين · وفي قوله :

لا تنكروا ضربي له من دونه	مثلا شرودا في الندى والبأس
فالله قد ضرب الاقل لنوره	مثلا من المشكاة والنبراس

وقد أدى هذا الاتجاه عند أبي تمام الى معارضته ، وكان على رأس معارضيه من لم يكن هواهم مع الثقافات الوافدة ، ممن كان حرصهم على التراث العربي وتقاليده مذهبا يدينون به ودينا ·

وأيده جماعات الكتاب ، والمحدثون من الادباء ، ومن يميلون الى فلسفى الكلام .

وفى مقابلة مذهب أبى تمـام فـى البديع ، والخروج على طريقة العرب أو عمود الشعر كما يقول معارضوه كان الاتجاه الآخر المحافظ التقليدى ، ويتسم بسمات اعتبروها عناصر لعمود الشعر ، منها البيان والوضوح وسهولة المطلب ، وقرب المأتى ، والبعـد عن الغامض والغريب وفلسفى القول ، والاعتدال فـى استخدام محسنات اللفظ ، ومراعـاة الالف ، والمناسبة فـى التشبيهات والاستعارات . وكان على رأس هذا الاتجاه أبو عبادة البحترى .

وقد غلبت على البحترى سهولة مخارج اللفظ وحسن الديباجة ، والرونق ، وكثرة المـاء على حد تعبير العلماء بالشعر . ومن ذلك قولـــه :

طربت بـذى الاراك وشوقتنى	طوالع مـن سـنا بـرق كليل
وذكرنيك ، والذكـرى عنـاء	مشابـه فيـك بينـة الشـكول
نسيم الروض فى ريح شمال	وصوب المـزن فى راح شـمول
عذيرى من عذول فيـك يلحى	علـى ، الا عذيـرى من عذول

وينظم المعنى واللفظ المتداول نظما حلوا ، ويعرضه عرضا جميلا فيقول متغزلا :

فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامتها	ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وجمال العرض حسنة البحترى ، وسيئة أبى تمام سوء عرضه أحيانا ، واعتماده الطباق ، وتعسف اللفظ ، ومحاولته التعبير عن معناه على حساب ألفاظه ، ومن هنا كان استواء شعر البحترى واختلاف شعر أبى تمام ٠

والى جانب أبى تمام والبحترى عرف جماعة من كبار الشعراء كانت لهم اتجاهاتهم الفنية لكنهم لم يختلفوا فى مناهجهم اختلاف هذين الشاعرين على تقارب ما بينهما فى الوطن والعلاقة الخاصة بين أستاذ وتلميذ ٠

وكان بين أولئك الشعراء من توسط بين القديم والجديد ، كعلى بن الجهم ، ودعبل بن على الخزاعى ومنهم من مال الى الجديد كابن الرومى وابن المعتز ، وان اختلفا فيما بينهما بعد ذلك اختلافا بينا فكان تجديد ابن الرومى مغايرا لتجديد ابن المعتز ، كان جديد ابن الرومى فى بناء القصيدة ، وصوره وتشبيهاته الحية الواقعية ، ومعانيه المولدة ، واستخداماته للفظ استخدامات بارعة تواكب معانيه المولدة ، وتتقلب معها ٠

أما جديد ابن المعتز فكان قائما على رشاقة التعبير ، وأناقة التشبيه ، واختياره للصور البراقة الزاهية ، وتأثر ابن المعتز لاشك ببيئته الملكية فى مزاجه ، وخيالاته ، فهو ينسج شعره نسج الحاذق بخيوط الذهب والفضة ، ويضفى عليها بهاء النعمة ، ورونق الحياة المترفة ٠

وقد حفلت أشعار ابن المعتز بصور القصور ، ومجالس الغناء ، وآلات الطرب ، وأدوات الذهب والفضة ، وفرش الحرير، وطنافس الوشي المرقوم .

ويلحق بشعر ابن المعتز شعر جماعات الوزراء الكتاب ومن في طبقتهم ممن يعايشون الملوك والخلفاء ، ويقلدونهم في العيش ، والسلوك . وقد شاع هذا اللون من الشعر أي شعر الكتاب ولحقت به سمات بعينها ، أشهرها أنه بلفظ سهل أنيق ، تتناول بعض المعاني الجارية ، على مثل قول أحمد بن يوسف متغزلا :

قلبي يحبك يا منى	قلبي ويبغض من يحبك
لأكون فردا في هواك	فليت شعرى كيف قلبك

وكقول سليمان بن وهب :

نوائب الدهر أدبتني	وانما يوعظ الاديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا	كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر بؤس ولا نعيم	الا ولي منهما نصيب

وأكثر شعر الكتاب مقطعات ، وقل ما يكون منه قصائد مطولات .

وعرض ابن المعتز في كتاب طبقات شعراء المحدثين لبعض الاتجاهات المعاصرة في الشعر وأشهر الشعراء . فذكر أصحاب البديع ، وذكر المطبوعين من الشعراء ، ومن بينهم ربيعة الرقي ،

واختاراً كثيراً من شعره • وقال عنه : « وما أجد أطبع ولا أصح غزلا من ربيعة وهو القائل :

أنا للرحمن عاص لجنوني برخاص

فهذا كما نرى أسلس من المـاء ، وأحلى من الشهد » • ويقول عن شعر آخر له : « وهذا أطبع ما يكون من الشعر ، وأسـهل ما يكون من الكلام » • ويذكر منهم أبا عيينة المهلبى •

وروى في كتب الادب مصطلحان يعبران عن شـعراء العصر هما مصطلحا المحدث والمولد ويخلط الناس بينهما الا أن بعض العلماء يفرقون بين ثلاثة مصطلحات في طبقات الشعراء ممن نجم بعد عصر بنى أمية المولى ، والمولد ، والمحدث •

ويجمع ابن رشيق فى العمـدة بين المولدين والمحدثين (١) ، وان كان ترتيبه يجعل المولدين طبقة سابقة على المحدثين أحيانا ، وأحيانا أخرى يجـعل المحدثين مقدمين على المولدين • فيجعل أبا نواس من المحدثين • ويعود ليرى أبا نواس وطبقته من المولدين ، ثم يرى من تلاهم من المحدثين •

ويذكر ابن جنى طبقة بشار وأبى نواس ومن جاء بعدهم فيصفهم بالمولدين • ويقول : « المولدون يستشهد بهم فى المعانى، كما يستشهد بالقدماء فى الالفاظ » •

وقد نص صاحب جوهـر الكنـز على الفرق بـين المولدين

---

(١) العمـدة ص ١٠٠ ـ ١٠١ •

والمحدثين ، وقدم المولدين وأخر المحدثين ، ولم يسبقه أحد الى هذا التحديد ، فقد اضطرب بينهما ابن رشيق ٠

قال ابن الاثير الحلبي في حديثه عن طبقـات الشعراء (١) بعد الامويين :

« ٠٠ ثم من بعدهم شعراء الدولة العباسية مثـل سديف ، ورؤبة بن العجاج ، ومن يجرى مجراهم ، ثم بعد هذه الطبقة طبقة المولدين من الشعراء ، وسمي الشاعر منهم مولدا لانه كان عربيا غير محض ، فكان شعرهم غير شعر العرب العاربة ، ولا يستشهد بأشعارهم في اللغة وخالطوا العجم ، فصاروا مولدين بهذا الاعتبار مثل بشار بن برد وأبي نواس ، ومسلم بن الوليد صريع الغواني وسلم الخاسر ٠

ثم بعد طبقة المولدين طبقة المحدثين ، وهم الذين حدثوا عن المولدين كابـي تمام والبحترى وعلى بن الجهـم وعلى بن العباس ومن يجرى مجراهم ٠

فكأن مصطلح الشعراء المحدثين قد استقر على شعراء القرن الثالث الهجرى - وربما أخذ المتأخرون هـذا المصطلح من كلام ابن قتيبة عن شعراء المحدثين في كتاب الشعر والشعراء ، وكتاب ابن المعتز عن كتاب طبقات شعراء المحدثين ٠

---

(١) جوهـر الكنز ص ٤٤٥ ٠ تحقيق د٠ محمد زغلول سلام طبع منشأة المعارف٠

وقد سمى صاحب الجوهر شعراء القرن الرابع بمصطلح آخر هو طبقة « الطراز المذهب » (١) ٠

وقد طغى أبو تمام والبحترى على شعراء العصر فأهملا ذكر كثير منهم ٠ يقول ابن رشيق : « ان حبيبا والبحترى قد أخملا خمسمائة شاعر كلهم مجيد ٠ ثم يتبعهما فى الاشتهار ابن الرومى ، وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كالحسن (ابن هانىء) فى المولدين ، وامرىء القيس فى القدماء » (٢) ٠

ويقول : « وأما حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومى فطبقة متداركة قد تلاحظوا ، وغطوا على من سواهم حتى نسى معهم بقية من أدرك أبا نواس كابن المعذل وهو من فحول المحدثين وصدورهم المعدودين ، غمره حبيب ذكرا واشتهارا ، وكأبى هفان أيضا ٠ أدرك أبا نواس ، ولحق البحترى فستره ، وكذلك الجماز » (٣) ٠

وديك الجن ٠ وهو شاعر الشام ، لم يذكر مع أبى تمام الا مجازا ، وهو أقدم منه، وقد كان أبو تمام أخذ عنه أمثلة من شعره يحتذى عليها فسرقها ٠ ودعبل ما أصاب مع أبى تمام طريقا ، على تقدمه فى السن والشهرة ٠ ولم يذكر من أصحاب ابن الرومى وابن المعتز الا من ذكر بسببهما فى مكاتبة أو مناقضة » ٠

---

(١) جوهر الكنز ص ٤٤٦ ٠

(٢) العمدة ١ : ١٠٠ ٠

(٣) العمدة ١ : ١٠١ ٠

وكان معظم هؤلاء الشعراء الكبار محترفين أو متكسبين ، شعرهم معظمه فى المديح وكان ممدوحوهم كبار رجال الدولة من خلفاء ووزراء وكتاب وقادة ، وسادة ،وولاة ٠وكانت تغدق عليهم العطايا على ما يقدمون من جيد الشعر ، ويقف على أبوابهم ممرسون بصفة الشعر يقومون الشعراء بما يتقدمون به لينال الجائزة ٠

وطرق الشعراء غير موضوع المديح صلب شعر العصر وشعر التكسب عامة موضوعات جديدة منها فى الاوصاف خاصة موضوعات لم تكن مطروقة من قبل ، أو كان التعرض لها سريعا عابرا مثل ما رواه المسعودى من وصف حمامة على غصن :

هتفت هاتفة أ ذنها الف ببين
ذات طوق مثل عطف النو ن آقنى الطرفين
وترى ناظرة نحوك من ياقوتتين
ترجع الانفاس من ثقبين كاللؤلؤتين
ولها ساقان حمرا وان مثل الوردتين
نسجت فوق جناحيها لها برنوستين

كما حظيت مظاهر اللهو ، والفن وآلاتها بحظ غير قليل من عناية الشعراء ، فوصفوا الكؤوس والقناني وصورها وهيأتها ، ووصفوا الاعواد والطنابير والجنك ، وما اليها من آلات الطرب ٠ ووصفوا أنواع اللباس وأدوات الزينة ، والفرش ، وحيوان اللهو وطيره كالطواويس والببغاوات ٠

وتأكد فى هذا القرن الثالث التيار الشعبى فى الشعر الذى

بدأه ، أبو دلامة وكثرت صور الحياة الشعبية الملتقطة من الاسواق ، ودكاكين الحرفيين ، فوصف ابن الرومى صانع الزلابية والرقاق وغيرهما • وصور من الشخوص تصاوير كاريكاتورية مما تختزنه مخيلته في مسيرته اليومية من هيآت البشر بين أحدب وملتح ، وقبيح وجميل •

وكان لشعر الكتاب مكانته بين الناس • وفي مجالس الادب ، ورجال الدولة خاصة وكان معظم هؤلاء الكتاب ممن يلون مناصب في الدولة ، ويملكون من السلطة والجاه والمال ما يمكنهم من حياة رغدة هانئة •

وعرف شعر الكتاب بالظرف والرقة ، وكان معظمه مقطعات تنظم فى مناسبات أو يتراسلون بها فيما بينهم ، أو يمدح بعضهم بعضا • ومن أشهرهم فى هذا القرن ابراهيم بن العباس (ت ٢٤٣ هـ)• يقول فى مديح الفضل بن سهل :

لفضل بن سهل يد ... تقاصر عنها الامل
فباطنها للندى ... وظاهرها للقبل
وبسطتها للغنى ... وسطوتها للأجل

ومن رقيق شعره الذى يظهر هذا اللون فى شعر الطبقة :

سعور محاجر الحدقه ... مليح ، والذى خلقه
سواء فى رعايته ... مجانبه ومن عشقه
فيا قمرا اضاء لنا ... يلالىء نوره افقه

ومنـــه قولـــــه :

وليلــة من الليــالى الزهــر	قابلت فيها بدرهــا ببــدرى
لم تك غــير شــفق وبــدر	حتى تولت وهى نصف الدهر

ومنهم أحمد بن أبى طاهر الذى روى له ابن طباطبا قوله :

اذا أبو احمد جادت لنــا يــده	لم يحمد الأجودان البحر والمطر
وان أضــاء لنــا نــور بغرتــه	تضاءل الانوران الشمس والقمر
وان مضى رأيــه أوحــد عزمته	تأخر الماضيان السيف والقــدر
من لم يكن حذرا من حد سطوته	لم يدر ماالمزعجان الخوف والحذر
حلو ، اذا أنت لم تبعث مرارته	فان أمــر فحلو عنــده الصبر
ســهل الخلائق الا أنــه خشن	لــين المهــزة الا انــه حجــر
لا حية ذكــر فــى مثل صولته	انصال يوماولا الصمصامةالذكر
اذا الرجالطغوا أو اذ هم وعدوا	بالامر رد عليــه الرأى والنظر
الجود منه عيان لا ارتياب بــه	اذ جود كل جواد عنــده خبر

وعلق عليه بقوله : « انه يجلو الهم ويشحذ الفهم ، وانه الشعر الصفو الذى لا كدر فيه » (١) ٠

وغلب على الشعر العربى فــى هــذه المرحلة ثقافــة العصر المتعددة الجوانب، والتي طبع عليها الفكر والفلسفة وعلومها ٠ ومن هنا كان الاتجاه الى الحكمة فى شعر بعض الشعراء ، وكان ميــل بعضهم الى العمق وفلسفى الكلام ، رغبه بعضهم الى اتخاذ أساليب الجدل وتشقيق القول فعل أصحاب الكلام ٠

---

(١) عيار الشعر طبع منشاة المعارف ص ٩٠ ٠

وشاعت في الشعر ألفاظ العلوم ومصطلحها ، ودخل البديع طرف منها كالمقابلة والطبـاق ، أو تقابل الصفات وتعارضهـا ، واستخدام أسلوب الحكيم والتعمية ، وما الى ذلك •

كما طال نفس الشاعر ، واستطال ، وعمد بعض الشعراء الى بسط المعاني وتوليدها ، ولم يعد الايجاز وحده طابع الشعر كما كان كذلك من قبل ، بل اقترب أسلوبه من أساليب الكتابة فـي الشرح ، وتنويع صور عرض المعاني على ما عرف عند الجاحظ من المزاوجة أو عرض المعنى بصورتين أو أكثر من اللفظ ويشير ابن طباطبا الى أن شعراء العصر أعـادوا عرض المعاني القديمة في معارض جديدة حتى تلبس على السامع •

يقول : « وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ولطفوا في تناول أصولها منهم ، وليسوها على من بعدهم، وتكثروا بابداعها ، فسلمت لهم عند ادعائها للطيف سحرهم فيها وزخرفتهم لمعانيها » (١) •

وربما أدى هذا الاتجاه الذى أشار اليه ابن طباطبا الى اتهام العلماء بعض الشعراء بالسرقة لاعتمادهم على معانـي السابقين حتى وان زخرفوها • والى تتبع بعضهم من أسرف من الشعراء في استخدام ذلك السحر اللطيف الذى عرف بمحسنات البديع لفظا ومعنى •

---

(١) عيار الشعر ص ٢٢ •

ومن شعراء السنة في هذا العصر :

على بن الجهـم :

وهو شاعر عربي الاصل ، مـن قريش ، وأحيانا ينفون عنه نسبه اليها ويلحق ببنى نجيـه وكان فصيحـا مطبوعـا - خص بالمتوكل .

وكان سيئا متعصبا ، يذم الشيعة ، ويهجـو احيانا آل أبي طالب أو العلوية ويذهب في ذلك مذهب مروان بن أبي حفصه - قال فيه البحترى معرضا بذلك :

اذا مـا حصلت عليـا قريش ... فلا في العـير أنت ولا النفير
ولو أعطـاك ربـك مـا تمنى ... لـزاد الخلق فـي عظم الامـور
عـلام هجـوت مجتهـدا عليـا ... بمـا لفقت مـن كـذب وزور

وقد وقع في بعض كبار المعتزلـة كذلك كابن أبي دؤاد . قال فيه عندما فلج في مضرى موتـه :

لم يبق منك سوى خيالك لامعا ... فـوق الفراش ممهـدا بوسـاد
فرحت بمصرعك البريـة كلها ... من كان منهـم موقنـا بمعـاد
كـم مجلس لله قـــد عطلتـه ... كي لا يحدث فيــه بالاسـناد
ولكـم مصابيـح لنـا أطفاتهـا ... حتي تزول عن الطريق الهـادى
ولكـم كريمـة معشر أرملتها ... ومحـدث اوثقت فـي الاقيـاد
ان الاسارى في السجون تفرجوا ... لمـا أتتـك مواكب العـواد
وغـدا لمصرعك الطبيب فلا تجد ... شـيئا لدائـك حيلـة المرتـاد

وقد كان شعره العقدى موجها الى هذين المذهبين « الشيعة و « المعتزلة » وشدد التكير على الطالبين خاصة • وتعصب الرافضة وسخر من أقوالهم من ذلك قوله :

ورافضة تقول بشعب رضوى	امام خاب ذلك من امام
امام من له عشرون الفا	من الاتراك مشرعة السهام

يشير الى دعوى الرافضة الغيبية الباطنية ، و نهج العباسيين العملى فى الاعداد والقوة • وقد أسف ، وقبح فى هجائه •

وكان ابن الجهم كثير الرحلة ، ولاقى فى حياته عناءا وعنتا ، وسجن، وصلب وقال فى الحالين شعرا ، ومدح من الخلفاء المتوكل ، كما مدح جماعة من القادة وكبار رجال الدولة كطاهر بن عبد الله والى خراسان • واستشهد فى كتب الادب بمعانيه الجديدة المبتكرة كقوله فى الحبس (١) :

قالوا حبست فقلت ليس بضائرى	حبس وأى مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيله	كبرا وأوباش السباع تردد
والبدر يدركه السرار فينجلى	أيامه وكأنه متجدد
والشمس لولا انها محجوبة	عن ناظريك لما أضاء الفرقد

وقال فى صلبه بمكان الشاذياخ (٢) :

لم ينصبوا بالشاذياخ عشية الـ	اثنين مسبوقا ولا مجهولا
نصبوا بحمد الله ملء قلوبهم	شرفا وملء صدورهم تبجيلا

---

(١) تجريد الاغانى ١١٩٦/٣ •

(٢) تجريد الاغانى ١١٩٧/٣ •

ما ازداد الا رفعة بنكو له	وازدادت الاعداء عنه نكولا
ما كان الا الليث فارق غيله	فرايته في محمل محمولا
لا يأمن الاعداء من شداته	شدا يفصل هامهم تفصيلا
ما عابه أن بز عنه ثيابه	والسيف أهول ما يرى مسلولا

وقال يصف الليل في غربته بحلب ، ذاكرا وطنه وبيته على نهر دجلة ببغداد (١) :

أسال بالليل سيل	أم زيد في الليل ليل
ذكرت أهل وجيل	وأين مني دجيل

وتوفي ابن الجهم وكان قد ربطت بينه وأبي تمام صداقة وثيقة قال فيها شعرا •

ومن شعراء العلوية :

دعبل بن علي الخزاعي

أبو علي محمد بن علي رازين الخزاعي ولد سنة ١٨٤ هـ وتوفي سنة ٢٣٦ هـ ، ومكان مولده غير معروف على وجه التاكيد، ولكنه قضى طفولته وجانبا من شبابه بالكوفة حيث التحق بصحبة مع الشطار ، ولحقته بعض اتهامات بارتكاب حوادث كالسرقة والقتل ، لكنها لم تثبت وتفتقر الى دليل • ومثل هذه الاتهامات لم يكن وحده المتهم بها من الشعراء الذين عاصروه ، فقد وجه مثلها الى حماد الراوية وبكر بن النطاح •

---

(١) المختار من شعر بشار ص ٦٧ •

وينتسب دعبل الى خزاعة ، القبيلة العربية اليمنية ، وبعض الناس ينفي عنه ذلك النسب ، ويرميه بالكذب في انتحاله ، ويقول بأنه غير عربي الاصول · ومثل هـذا الاتهـام بانتحـال النسب العربي ، أمر كثر القول به ، وتبادل السباب به جماعة من شعراء العصـر ·

وتضافرت الاخبار على أن دعبلا نشأ في عائلة كان رجالها من الشعراء ، ورأس عائلته الجد الاكبر ، بديل بن عبد الله الخزاعي، وكان يسكن مكة قبل الاسلام ، وله فيها مكانة ونفوذ · وعرف جـده وأبوه وابنه بقول الشعر ·

والتقى دعبل بمسلم بن الوليد وتتلمذ عليه ·

وانتقل بين مدينتي الكوفة وقرقيسية ثم ارتحل الى بغـداد حيث اتصل بجماعة من رجال الدولة كعبد الله بن طاهر الذي قدمه الى هارون الرشيد في آخر حكمه · ومكنه قربه من مركز السلطة من تولي بعض المناصب · فقد تولى بعض الاعمال فـي سـمنجان لعباس بن جعفر بن محمد بن الاشعث ، وتولى منصبا بمصر بمدينة أسوان للمطلب بن عبد الله بن مالك الخزاعي الذي ولي مصر من سنة ١٩٨ الى سنة ٢٠٠ هـ ·

ولكنه لم يستقر طويـلا في أسـوان لان المطلب سرعان مـا عزله عنه ، ويروي الاخباريون لهذا أمرا ثار بينهما ، ويروون

قصة عن تطور العلاقة بين الامير والشاعر تكون صحيحة أو باطلة، لكنها تصور عنف دعبل ، وانتهت العلاقة بينهما بهجاء مقذع من دعبل لعبد المطلب ، أثارت غضبه ، فحاول قتله ، وسخر منه دعبل سخرية لاذعة بالرد عليه بقوله : ان عليه أن يطعمه أولا حتى لا يموت جوعا ٠

ويبدو أن الرجلين اصطلحا ، واتصل بينهما الود مرة أخرى ، وظل دعبل يوالى عبد المطلب بمديحه ، ووعد بأن يظل كذلك حتى آخر حياته ٠

وعرف دعبل بتشيعه لآل البيت ، ولم ينتسب لاحد فروع العلويين ، وربما كان تشيعه حبا في آل البيت عامة ، وعلى وأبنائه خاصة ٠ وقوى الاتجاه عنده صلته بعلى الرضا امام الشيعة والذى عاصر المأمون ، وأوشك أن يتنازل لـه عن الخلافـة سنة ٢٠٢ هـ وأوصى بخلافته من بعده ٠ ولم يلبث الامـام الرضـا أن مـات بخراسـان ٠

وقد نظم دعبل قصيدته المشهورة فـي آل البيت مخلدا هذا الحدث الذى اجترأ عليه المأمون واغضب منه العباسية ٠

وأول علاقة دعبل بعلى الرضا كانت على يد الشاعر الكاتب

ابراهيم بن العباس الصولى (ت ٢٤٣ هـ) اذ صحبه الصولى الى خراسان لينشدا شعرهما عليا الرضا ·

وبعد وفاة الرضا (٢٠٣) هـ) فى ظروف غريبة ، وعودة دعبل الى بغداد ، شارك الشاعر بعض العلوية فى اتهام المأمون بالدس للرضا ، وقتله سما · ونظم قصائد فى هجائه ، وهجاء أبيه هارون الرشيد ، وخلفاء بنى العباس عامة من بعده المعتصم والواثق والمتوكل · وكان المتوكل قد آثار الشيعة لتدميره قبر على بن أبى طالب فى النجف والحسين بن على فى كربلاء ·

واتصل الهجاء بين دعبل وعلى بن الجهم وصاحبه أبى تمام ·

وقد عادى دعبل أبا تمام ، لاتصاله بعلى بن الجهم ، ولامور أخرى جرت بينهما ولم تقتصر عداوة دعبل للطائى على الهجاء ، بل تعدتها الى تعصبه لشعره وانكاره لكثير منه ، واتهامه بأنه أقرب الى النثر منه الى الشعر ، والى أنه أى أبو تمام لجأ الى معانى المتقدمين فادعاها لنفسه · وقال انه لا يصلح من شعر أبى تمام غير الثلث ·

وتجاهل دعبل ذكر أبى تمام فى كتابه عن الشعراء المحدثين ، فأثار حفيظة أبى تمام ، وانصاره · وهكذا كان مستهدفا منهم ، وتعرض لحملة كبيرة ضده ·

وكما استهدف دعبل فى شعره ، كذلك استهدف فى شخصه ،

واضطهد سياسيا من الدولة • وظل كذلك في تمرده وسخط الناس والدولة عليه حتى توفي سنة ٢٥٩ هـ •

شـــعره :

وتقوم شهرة دعبل في الشعر على الهجاء ، مثله في هذا كابن الرومي ولكنه مع ذلك كان شاعرا قديرا يعكس شعره كثيرا من جوانب شخصيته في أحاسيسه ومشاعره ، وفكره ، وعقيدته ، كما يعكس جوانب من أحوال عصره ، وبعض صوره للطبيعة ومظاهرها المختلفة •

ومن حيث بناء القصيدة ، فقد أخذ باتجاه القدماء من تقديم للنسيب على موضوعه ، وبنائه لاجزائها على النهج الموروث ، لكنه مع ذلك لم يتبع القدماء في الاسلوب وطريقـة عرض معانيـه ، بل مال الى التحرر من قيود التعبير القديـم والصيغ التقليدية ، وانطلق يعبر بأسلوب متحرر خال من التكلف ، قريب من أسلوب بعض معاصريه من شعراء المحدثين •

واذا ما نظرنا الى شعره بالمقارنة الى بعض المدعين أمثال أبي تمام والبحترى ، فقد نجده خاليا نسبيا من مظاهـر الابـداع ، وجمال العرض في اللفظ ، والخيال لكنه يملك المقدرة على التعبير عن معانيه دون حاجة الى التكلف في اصطناع الجمال الشعرى •

وقد جمع الصولي المتوفى سنة ٣٣٥ هـ ديوانه ، وأشـار الى

ذلك ابن النديم في الفهرست ، وقال انه كان في حوالى ثلاثمائة ورقة . وسبقه الى جمع شعره أحمد بن أبي طاهر (سنة ٢٨٠ هـ) في كتابه « مختارات من الشعر والشعراء » .

ويذكر صاحب كتاب « أعيان الشيعة » أن ديوان دعبل كان موجودا حتى القرن الثاني الهجرى ولكنه الان مفقود .

وأعجب كثير من العلماء ، ومؤرخي الادب قديما بشعر دعبل الخزاعي ، من أمثال أبي الفرج الاصبهاني وابن الانبارى وابن رشيق القيرواني .

ووصفه ابن رشيق في كتاب العمدة في آخر طبقة أبي نواس، وقدمه البحترى على مسلم بن الوليد قائلا : « ان أسلوبه وروح شعره أقرب الى طبيعة الشعر العربي ، أو طريقة العرب في الشعر » .

ولدعبل غير الديوان « كتاب الشعراء » وكتاب في مثالب العرب ومناقبها .واعتبر حجة في الشعر والشعراء وأخبارهم ، وعده ابن شرف القيرواني عالم الشعراء وشاعر العلماء .

وأشهر ما قال تائية في آل البيت ، وهي التي نظمها في مناسبة مبايعة المأمون على بن موسى الرضا . قال :

ذكرت محل الربع من عرفات ... فاجريت دمع العين بالعبرات
وفل عرى صبرى وهاجت صبابتي ... رسوم ديار اقفرت وعرات
مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين بن جعفر ... وحمزة والسجاد ذى الثفنات(١)
منازل كانت للصلاة وللتقى ... وللصوم والتطهير والحسنات
منازل جبريل الامين يزورها ... من الله بالتسليم والرحمات
منازل وحى الله ، معدن علمه ... سبيل رشاد واضح الطرقات
ديار عفاها جور كل منابذ ... ولم تعف بالايام والسنوات

ويذكر فيها مقاتل الطالبيين فيقول :

نفوس لدى النهرين من بطن كربلا ... معرسهم منها بشط فرات
اخاف بان ازدارهم ويشوقني ... معرسهم بالجزع من نخلات
تقسمهم ذئب المنون فما ترى ... لهم عقدة مغشية الجمرات

ويعبر عن ولائه لهم فيقول :

نبذت اليهم بالمودة جاهدا ... وسلمت نفسى طائعا لولاتى
فيارب زدنى فى يقينى بصيرة ... وزد حبهم يا رب فى حسناتى
أحب قصى الاهل من أجل حبكم ... واهجر فيكم زوجتى وبناتى
واكتم حبيكم مخافة كاشح ... عنيف باهل الحق ، غير مواتى

ويتحسر لان آل الرسول لا يلقون ما يليق بهم من المكانة ، بينما يعيش أعداؤهم ممن ينكلون بهم حياة رغدة هانئة :

ارى فيئهم فى غيرهم متقسما ... وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومهم ... وآل زياد غلظ القصرات(١)

---

(١) السجاد ذو الثفنات هو لقب زين العابدين على بن الحسين .

ديار رسـول الله اصبحن بلقعا   وآل زيـاد تسـكن الحجـرات
بنات زياد في القصور مصونـة   وآل رسـول الله فـي الفلوات
اذا وتروا مـدوا الى واتريهـم   أكفـا عن الاوتـار منقبضـات
سابكيهم ماذر في الارض شارق   ونادى منادى الخـير بالصلوات

وقيل ان المأمون بكي عند سماع هذا الشعر وأمر بصلته ٠

أبو تمـــام

حبيب بن أوس الطائى (١٩٢ هـ ـ ٢٣١ هـ)

ولد أبو تمام بقرية جاسم بالشام عام ١٩٢ هـ فى آخريات خلافة هارون الرشيد ، وعاش بمصر زمانا وهو صبى يسقى الماء في جامع عمرو بن العاص ، ويذكر له الكندى أبياتا قالها بين عامى ٢١١/٢١٤ هـ ـ ٨٢٦/٨٢٩م ، ويبدو أن الاقامة بمصر لم تطب له ،فلم يطل بها وقفل راجعا الى الشام وكانت قد ثبتت قدمه في قول الشعر •

وحاول بالشام أن يدخل الى المأمون عند وصوله اليها ، فلم يحظ بما أراد ، وتنقل فى بـلاد الشـام ، وتوجه الى الموصـل بالعراق ، فأقام عامين ، عاملا للحسن بن وهب على البريد واتجه الى أرمينيا ، واتصل بواليها خالد بن يزيـد الـذى عرف بقتاله للـروم ، فأجزل له خالد العطاء على مدائحه فيه •

وحل ببغـداد سنة ٢١٨ هـ بعد وفـاة المأمون ، وتقرب من المعتصم ، فنال الحظوة لديه ولدى كبار رجال دولته كمحمد بن يوسف ، رجل السيف والقائـد المشهور لهزيمته بابك الخرمى ، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد صاحب الصولـة ، والعلم ، في دولة الواثق •

وتنقل بين العاصمة وعواصم البـلاد والاقاليم الاسـلامية

يقصد الولاة والامراء فقصد آل طاهر ، ومنهم عبد الله بن طاهر بخراسان ، فأقام عنده زمنا ، وقصد همذان فأقام عند أبي الوفاء بن سلمة فأكرمه ٠

ولقي الشاعر كثيرا ، وجمع مالا وفيرا ٠

وكان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة ، فصيح اللهجة ، بلسانه تمتمة ، صوته أجش ٠ وكان ينوب عنه في القاء شعره راوية حسن الصوت ٠

وقد عرف بذكائه الحاد ، ومعرفته الواسعة ، واطلاعه على كثير من تراث العرب في الشعر وجمع الى معرفته الشعرية وثقافته العربية اهتماما بعلوم الاوائل من فلسفة اليونان وعلوم الفرس ٠ وتأثر شعره بهذه الثقافة فتنوعت معانيه ، وعمت أفكاره ٠ وظهرت عليه آثار الجدل وتفتيق القول ٠

وعاش ابو تمام حوالى أربعين عاما ، وتوفي بالموصل عام ٢٣١ هـ ٠

وعرف أبو تمام باتجاهه الخاص في الشعر ، وطريقته التى اشتهر بها بين النقاد والعلماء بالشعر وتتلخص في ميله للبديع والاكثار من الصنعة في اللفظ والمعنى ، وتعمد البحث وراء الطريف البعيد على حساب سلاسة العبارة ، ورونق اللفظ ، مع عدم مراعاة القيم التقليدية المتوارثة في عمل الشعر ٠

وكان اغراقه في محاولات التجديد في المعاني والخروج عن القيم التقليدية سببا الى غموض بعض شعره ، وسقوطه في المعيب • وكان يميل بطبعه الى التعقيد والالتواء بالعبارة فلغته تبدو للسامع لاول وهلة غير سهلة بناء ونحتا •

وكثيرا ما اعتمد على محفوظه الشعري في معانيه ، يعيد عرضها وصياغتها ، فهو يلجأ الى ما يعرف بالاهتدام ، أي هدم البناء القديم ليعيد منه ابنية جديدة في معارض غير مألوفة تلتبس على الناس ، لكن ذلك لم يفت العلماء ، وتنبهوا له ، فاتهموه بالسرقة من القدماء •

ويعد أبو تمام الحلقة الرابعة من سلسلة أصحاب البديع التي بدأها بشار وأبو نواس و العتابي ومسلم بن الوليد ثم أبو تمام •

ويصف أبو تمام شعره فيقول :

خذها مثقفة القوافي ربها	لسوابغ النعماء غير كنود
حذاء تملأ كل عين حكمة	وبلاغة ، وتدر كل وريد
كالطعنة النجلاء من يد ثائر	بأخيه ، أو كالضربة الاخدود
كالدر والمرجان ألف نظمه	بالشذر في عنق الكعاب الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشيه	في أرض مهرة أو بلاد تزيد
يعطى بهاالبشرى الكريم ويحتبي	بروائها في المحفل المشهود

واذا كان البديع عند بشار بداية لون جديد في الشعر المحدث ، أو شعر المولدين وفي نهجه الفني ، وعند أبي نواس

ضربا من الفن المبدع ، وأداة من أدوات الخلق الفني الجديد في الشعر، وعند مسلم بن الوليد حرفة وصنعة يدعمها الفكر، ويرندها العقل والصنعة المحكمة ، فالبديع عند أبي تمام قضية فنية وفكرية معا ، لم يعد صيغا فنية تكسب الشعر رونقا ظاهريا ، وحلاوة شكلية فحسب .

يقول شارحا مذهبه الشعرى :

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى   والليل اسود رقعة الجلباب

ويقـــول :

تلك القوافي قد أتينك نزعا   تتجشم التهجير والتغليسا
من كل شاردة تغادر بعدها   حظ الرجال من القريض خسيسا
تلهو بعاجل حسنها وتعدها   علقا لاعجاز الزمان نفيسا
وجديدة المعنى اذا معنى التي   تشقى بها الاسماع كان لبيسا

ويقــول لابي دلف :

اليك أرحنا عازب الشعر بعدما   تمهل في روض المعاني العجائب
غرائب لاقت في فنائك أنسها   من المجد فهى الان غير غرائب

وتغلب على شعر أبي تمام الموضوعية ، فهو سابق في المديح ، وصوره كلها صور ذهنية ، تتناول موضوعات عصرية ، ولذلك نفى عنه بعض العلماء الشاعرية ، فقالوا انه عالم أو خطيب أو حكيـم .

وقال دعبـل : لم يكن أبو تمام شاعرا ، انما كان خطيبا ، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر .

وروى الآمدى فى الموازنة ما قيل من أن أبا تمـام حكيـم وليس شاعرا وأما الشاعر فالبحترى .

ويصنع قصائده فى المديح صنعة محكمة يبدؤها أحيانا بداية تقليدية فى شكلها وان غـير فى صياغتهـا . كقوله من قصيدة مشهورة فى أبى دلف :

على مثلها من أربع وملاعب — اذيلت مصونات الدموع السواكب
اميدان لهوى من آتاح لك البلى — فاصبحت ميدان الصبا والجنائب

فيذكر الربع والطلل ويسكب الدمع عليه ، ويتأسى على دروسه ، بفعل الريح والرمال على عادة العرب القدماء .

وغالبا ما يتجه بهذا المطلع التقليدى للقادة العرب أو لمن هم من أصل عربى ، كأبى دلف العجلىأو خالد بن يزيـد بن مزيـد الشيبانى ، والذى يبدأ مديحه بقوله أيضا :

لقد اخذت من دار ماوية الحقب — أنحل المغانى للبلى هى أم نهب

أو يقـــول :

طلل الجميع لقد عفوت حميدا — وكفى على رزئى بذاك شـهيدا

أو مالك بن طوق التغلبى . يقول له :

لو أن دهـرا رد رجـع جـوابى — أو كف من شـاويه طول عتابى
لعذلتــه فــى دمنتــين تقدمــا — ممحوتـين لزينب ورباب

أو أحمد بن أبى دؤاد . اذ يقول :

ســقى عهد الحمى سبل العهاد — وروض حاضر منــه وبـادى

وحين يتجه بالمديح الى غير هؤلاء من الفرس ، أو ذوى الاصول غير

العربية فهو يختصر المقدمة الطللية ، ويبدأ متغزلا ، مقصرا فيه كقوله في عبد الله بن طاهر بخراسان :

من عـوادي يوسف وصواحبـه   فعزما فقدما أدرك السؤل طالبه

أو يقول في الحسن بن سهل :

ابدت أسى أن رأتني مخلس القصب   وآل ما كـان من عجب الى عجب

وقد يدخل الى مديحه مباشرة دون تمهيد كما يقول فـي الحسن وسليمان ابني وهب :

ساشـكر لابني وهب الهمـة التي   هـي الـود صانـاه بحسن صيانة

وقارن الآمدى بين مقدمات أبي تمام والبحترى ، ومقدمات الشعراء القدامى في معاني الوقوف ، وذكر بقايا الديار ، ومـا يحدث لها من آثار البلى ، وتعاور الرياح • ويشير الآمدى الى ما ذكرناه آنفا في صنعة أبي تمام عامـة مع الاهتـدام ، ومحاولة اعادة بناء قديم المعاني بصياغات جديدة •

ويخرج من هذه المقدمة الطللية في قصيدة المديح الى ذكر الرحلة ومماتاتها ، وما يقاسيه الشاعر وراحلته من ضني المسير • ولابي تمـام في هذا المعنـى محاولات جيـدة لقيت اسـتحسان معاصريه ومن بعدهم من النقاد من مثل قوله :

وقلقل نأي من خراسان جاشها   فقلت اطمئني أنضر الروض عازبه

وركب كاطراف الاسـنة عرسوا   على مثلهـا والليـل داج غياهبـه

لامر عليهـم أن تتـم صدوره   وليس عليهـم أن تتـم عواقبـه

على كل مـوار الملاط تهدمت   عريكتـه العليـاء وانضـم حالبـه

رعتـه الفيافي بعد ما كان حقبة   رعاها ، وماء الروض ينهل ساكبه

ويصل الى ممدوحه فيضفي عليه صفات عامة في معاني المديح التقليدية كالشجاعة والاقدام ، والبر ، والسخاء ، كما يضفي عليه صفات خاصة لائقة بالمقام ، ان كان الممدوح خليفة فهو العادل الامين على الامة الراعي لمصالحها -

وان كان من قادة العرب نسبه الى قبيلته ومفاخرها كقوله في أبي دلف العجلي :

اذا افتخرت يوما تميم بقوسها	وزادت على ما وطدت من مناقب
فانتم بذي قار امالت سيوفكم	عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

ويسجل في شعر المديح أحداث عصره الكبرى ، ومنها ثورة البابكيين ، ومعارك الثغور مع الروم البيزنطيين ، وأهمها معركة عمورية ، وانتصار المعتصم فيها على الروم ٠

ومن خلال قصائد المديح ينظم أبو تمام أبياتا في الغزل والوصف ، تبلغ حدا من الجودة والاتقان في الصياغة وتناسق اللفظ مع المعنى ٠ فمن غزله الرقيق في مطلع المديح قوله :

غدت تستجيرالدمع خوف نوىغد	وعاد قتادا عندها كل مرقد
وانقذها من غمرة الموت انه	صدود فراق ، لا صدود تعمد
فاجرى لها الاشفاق دمعا موردا	من الدم يجري فوق خد مورد
هي البدر يغنيها تودد وجهها	الى كل من لاقت وان لم تودد

ويبدو جمال هذه الابيات في جمال الصنعة لا رقة العاطفة ، ولا صدقها ، ونلحظ اهتمامه بالمقابلات والطباق ، والتوازن

والتناظر في المعنى واللفظ والتقابل بين الاضداد . ومثل هذا ينطبق على غزله في قصيدة أخرى مما أعجب به أنصاره . قوله :

أظن دموعها سنن الفريد	وهي سلكاه من نحر وجيد
لها من لوعة البين التدام	يعيد بنفسجا ورد الخدود
حمتنا الطيف من أم الوليد	خطوب شيبت رأس الوليد

ومن أوصافه وصف صلب الافشين وتحريقه بالنار ، وحريق عمورية ، ومنه قوله بمدح المعتصم :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر	وغدا الثرى في حليه يتكسر

ومنها في الربيع أبياته المشهورة .

يا صاحبي تقصيا نظريكما	تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه	زهر الربى فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى اذا	حل الربيع فانما هي منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها	نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى	فكأنها عين اليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها	عذراء تبدو تارة وتخفر

وصوره الوصفية ، لقطات جزئية ، تتراصف ، ويضع واحدة منها ازاء الاخرى لا تتصل اتصالا عضويا . ولا تنم عن خاصية بعينها في نظرة متميزة ، واحساس مفرد أو موقف شعوري ينبيء عن نفس واحدة لا نفس عامة هي نفس أبي تمام . وهذا لانه يصف بعقله لا بحسه وعاطفته .

وقد لاحظ عليه ذلك بروكلمان فقال : « وقلما وجدنا في شعر أبي تمام شيئا من الحنين والصبابة » .

وليس معنى هذا أن شعره كله خــال من العاطفــة ، اذ قد تبدو هذه أحيانا ، مجتازة سياج عقله ، وصرامــة صنعته ، ومن قصائده القليلة التي نلمس فيها حرارة العاطفة قوله في صديقه الشاعر على بن الجهم ، وقد أراد السفر :

هي فرقــة من صاحب لك ماجد   فغــدا اذابــة كل دمــع جــامد

يقــول فيهــــا :

ان يكد مطــرف الاخاء فاننــا   نغدو ونسرى فى اخــاء تالــد

او يختلف ماء الوصال فماؤنا   عذب تحــدر من غمــام واحــد

ومثل هذا نجده فى أبيات له يرثى ابنين لعبد الله بن طاهر يقول فيهــا :

نجمان شــاء الله أن لا يطلعــا   الا ارتداد الطــرف حتى يافــلا

ان الفجيعــة بالرياض نواضرا   لاجــل منهــا بالرياض ذوابــلا

ولكنه مع ذلك لا يبلغ في عاطفته تلك ما بلغ شعراء المراثى ، وهو لا يتخلى هنا عن صنعته التى أشرنا اليها ٠

ولابى تمام مقدرة على فن من الصنعــة الشعرية عرف عند المحدثين ، وتباروا فيه ، وهو التخلص ، وقــد يسمى فى بعض الاحيان بالاستطراد ٠ كقوله متنقلا من وصف الربيع والروض الى مديح المعتصم :

صنع الــذى لولا بدائع لطفــه   ما عاد أصفر بعدما هو أخضر

خــلق أطــل من الربيع كأنــه   خلــق الامــام وهديــة المتنشر

فى الارض من عدل الامام وجوده   ومن النبات الغض سرج تزهر

تنسى الرياض وما يروض فعله ... أبدا على مر الليالي يذكر
ان الخليفة حين يظلم حادث ... عين الهدى وله الخلافة محجر

وكانتقاله في موضع من وصف الفرس الى ذم واحد اسمه عثمان :

فلو تراه مشيحا والحصى زيم ... بين السنابك من مثنى ووحدان
أيقنت ان لم تثبت ان حافره ... من صخر تدمر او من وجه عثمان

مواقف الشعراء والنقاد منه :

روى الصولي في أخباره أن البحتري وعلي بن العباس الرومي كانوا اذا ذكروا أبا تمام عظموه ورفعوا من مقداره في الشعر حتى يقدموه على أكثر الشعراء ، وكل يقر باستاذيته وأنه منه تعلم • وهما أعلم أهل زمانهم بالشعر ، وأشعر من بقي »(١) •

وقال ابن المعتز : « جاءني محمد بن يزيد المبرد يوما فافضنا في ذكر أبي تمام ، وسألته عنه وعن البحتري فقال : لابي تمام استخراجات لطيفة ، ومعان طريفة ، لا يقول مثلها البحتري • وهو صحيح الخاطر ، حسن الانتزاع ، وشعر البحتري أحسن استواء ، وأبو تمام يقول النادر والبارد ••• وما أشبهه الا بالغائص يخرج الدر والمخشلبة (خرز أبيض) » •

ودافع أبو بكر الصولي عما اتهم به من مآخذ عن السابقين فقال : « ولو جاز أن يصرف عن أحد من الشعراء سرقة لوجب أن

---

(١) أخبار أبي تمام ص ٦٨ •

يصرف عن أبي تمام لكثـرة بديعـه واختراعـه ، واتكائه على نفسـه » (١) .

ويقول الصولي : « جيد أبي تمام لا يتعلق به أحد من أهـل زمانه ، وانما يختل في بعض قصائده لفظه لا معناه » .

وذكره ابن رشيق القيرواني في أكثر من موضع من كتاب العمدة وقال انه يميل الى الصنعـة والتدقيق فـي عمل الشعر ، ويقول انه عدل بين ألفاظه ومعانيه ، فهو كالقاضي يضع الالفاظ والمعاني مواضعها المناسبة ، وأنه صناع يظهر جيـده شـعره من سائره .

ويقف ابن الاثير في القرن السابع الى جانبه مدافعا عنه ضد اتهامه بعدم اجادته في الغزل فيقول : « ومن الناس من يزعم أنه ليس لابي تمـام غزل يحسن كمـا لغيره وكذلك يزعم أنه ليس للمتنبي أيضا من الغزل ما يروق ويحسن . وهذا القول لا يصدر الا عن تعصب أو جهل . وأي غزل أحلى وأعذب وأرق وأدمث من قول أبي تمـام :

انت فـي حـل فزدني سـقما	افن صبـري واجعل الدمع دمـا
وارض لي الموت بهجريك فـان	ألمت نفسـي فزدهـا ألمـا
محنـة العاشـق ذل فـي الهوى	واذا اسـتودع سـرا كتمـا
ليس منـا مـن شـكا علتـه	مـن شـكا ظلـم حبيب ظلمـا

---

(١) اخبار أبي تمـام ، ص ١٠٠ .

وهل لكثير من المتقدمين أو لابن الدمينة أرق من هذه الابيات ؟ !

وكذلك ورد قوله في طيف الخيـال :

استزارته فكرتـي فـي المنـام	فأتانـي فـي خيفـة واكتـام
فالليالى أخفى بقلبى اذا مـا	جرعتـه النـوى مـن الايـام
يـا لهـا لـذة تنـزهت الار	ـواح فيهـا سرا من الاجسـام
مجلس لم يكن لنـا فيـه عيب	غـير أنا فـي دعوة الاحـلام

وهذه الابيات في الطيف لم يؤت بأرق منها ولا أسلس » .

ووقف منه بعض العلماء والنقاد موقف المعارضة ، فعابوا عليه شعره ، وكان من بينهم من معاصريه الشاعر دعبل بن على الخزاعى الذى اتهمه بالسرقة والاخذ من سابقيه واخفـاء مـا يأخذ بصنعته ، كذلك أخذ عليه أبو العميثل الاعرابى، ميله الى التعقيد .

وحكى عن ابن الاعرابى أنـه قال وقـد أنشد شـعرا لابى تمام : ان كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل .

وروى الآمدى في الموازنة كثـيرا من عيوب أبى تمـام فى سرقاته القبيحة ، وتعمده البديع وعويص اللفظ كقوله :

يدى لمن شاء رهن ، لم يذق جرعا	من راحتيك درى ما الصاب والعسل

ومثل هذا يسمـى المعـاظلة أى ركوب الكـلام بعضه بعضـا . وتقديره : يدى رهن لمن شاء ان كان لم يذق جرعا من راحتيك ففرق بين ما تعطيه (وهو العسل) وما يعطيه غيرك وهو الصاب أى العلقم .

ومن أسباب غموض شعره لجوءه الى المعنى البعيد يصوغـه في ألفاظ تتوالى فيها أشكال البديع ، وبخاصة الطباق • ويلوى المعنى ليتم له الطباق ، فهو يؤثر صحته على صحة المعنى وتمامه • يقـــول :

ولهت فاظلـم كل شيء دونها　　　واضـاء منها كل شيء مظلـم

فلكي يتم له الطباق مع ما أراد من المعنى أجهد السامع أو قارىء شعره معه ، وجعله يظن بهذا الذى يبدو لغزا أول الامر ، فيتبين له بعد لأى أنه معنى بسيط ، عقده بطلب الطباق • وهو لا يريد لسامعيه أن يبلغوا ما أراد بلفظ يسير سهل ، بل لابد أن يركبهم الصعب ، وأبو تمام يريد أن يقول فـي بساطة ان هذه الفتاة ولهت فأظلم ما بيني وبينها بسبب ما نالتني من الجـزع لولهها ، ثم وضح لى منها ما كان مستترا عنـي من حبهـا اياى ، فأضاء ذلك ما التبس دوني •

ومن هـذا القبيل قولـه :

يتجنب الآثـام ثم يخافهـا　　　فكأنمـا حسناتـه آثـام

ويقع في حيرة من أمر الطباق والمعنى فـي البيت ، وكيف يستقيم اذا تجنب المـرء الآثـام وخافهـا فكيف تكون حسناته آثامـا ؟ ! •

ولكن يتضح بعد تفكير أن الشاعر انما يريد أن يقول انـه يتجنب الآثام فيكون بذلك قد جاء بحسنة ، ثم يخاف تلك الحسنة،

فكأنما حسناته آثام ! . دور عجيب أدى به اليه غرام بالطباق ، واعمال للعقل في الشعر ، وهو ابن العاطفة وسهولة التعبير ، وعذوبة الروح .

وولع أبي تمام بغرابة الاستعارة أوقعه في سيئات كثيرة ، لعدم الالف بين المستعار والمستعار له ، وافتقاد التناسب والقربى:

كقولـــه :

انزلته الايـام عن ظهرهـا من   بعـد اثبات رجلـه في الركاب

وكقولـــه :

رقيق حواشي الحلم حتى لو أنه   بكفيك ما ماريت في أنه بـرد

وقد وقع في هذا البيت فـي مخالفة للعـرف في التعبير عن ثقل الحلم ، وتحول ما أراد من مديح بالحلم الى ذم بخفة الاحلام ، ثم لم يصبر على هذا ، بل تمادى وأوغل فجعل الحلم بردا .. ومثله في الايغال في الاستعارة وعدم المناسبة :

فضربت الشـتاء في أخدعيـه   ضربـة خلفتـه عـودا ركوبـا

وأخذ عليه الآمدي مآخذ كثيرة في اللغـة والعروض .

وأشار بعض العلماء الى أنه كان يعد قوافيـه أولا ثم يبني عليها الشعر ، ولهذا ظهر التعسف أحيانا في بناء بعض الابيات . وربما كانت هذه الطريقة متبعة عند كثير من شعراء العصر ، فقد أشار اليها ابن طباطبا في عيار الشعر .

ومهما يكن من أمر أبي تمام ، فقد كثر حوله الكلام ، كثرة لم يحظ بها شاعر الا المتنبي من بعده ، واختلف الناس فيه ، لكنه بقي علماً من أعـلام الشعر العربي على مـدى العصور ، وعرف بطريقته الخاصة ، في عمل الشعر ، وقلـده فيـه من تبعه من الشعراء بدءا بالبحترى وتوالوا حتى القرون المتأخـرة ، وقيل ان المتنبي اعتمد عليه ، وكان يصحب ديوانه ، وقد ألف بعضهم في مآخذ المتنبي من أبي تمام (١) . وصارت بعض قصائده نماذج فنية يحتذيها الشعراء ، وبرزت من بينها بائيته فـي عمورية ، ورائيته في صلب الافشين . وسارت بعض أبياته مسرى الامثال لـما فيها من الحكمة وحقائق الكلم (٢) .

من مختارات شـعره :

قال يمدح أبا دلف بن عيسى العجلى :

عـلى مثلها من أربـع وملاعب	**اذيلت مصونات الدموع السواكب**
أقول لقرحان من البين لم يضف	**رسيس الهوى بين الحشى والترائب**

ومنه قوله يمدح أبا العباس عبد الله بن طاهر :

أهن عـوادى يوسف وصواحبـه	**فعزما فقدما أدرك السؤل طالبه**

---

(١) ابن الدهان في كتاب « المآخذ الكندية من المعاني الطائية » .

(٢) بروكلمان : ٧٤/٢ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار وطبع دار المعارف .

وقوله في صلب الافشين وحرقه :

الحق أبلـج والسيوف عـواري فحـذار من أسد العرين حـذار

وقصيدته الذائعة في فتح عمورية :

السيف أصدق أنبـاء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ومن الشعراء العلمـاء

أبو بكر محمد بن داود الاصفهانى (١)

يعتبر أبو بكر ابن داود الظاهرى فقيه الشعراء أو شـاعر الفقهاء فى هذا القرن الثالث الهجرى وكان من أدباء أصبهان فى هذا القر ن. جلس للفتوى والقضاء شـابا ، وأحب المناظـرة مع أترابه مع العلماء . واشتهرت مناظرته مع ابن سريج القاضى . « وكانا يتناظران ويترادان فى الكتب » . وكان شعره فى معظمه غزلا ، ولم يشتهر شاعرا كاشتهاره أديبـا كاتبـا بتأليفه كتاب « الزهـرة » وهو من أول ما ألف فى الحب أو الالفة والالاف . وقد وضعه فى شبابه وضمنه كثـيرا من شعره عـلى لسان بعض « أهل العصر » .

ومع رقيق شعره ما يمثل هذا الموقف المشحون بالضراعة أمام حبيبتـه . يقول :

يا منية القلب لو آماله انفسحت	وحظ نفسى من دينى ودنيائى
قل لى تناسيت أم انسيت ألفتنا	أيام رايك فينا غير ذا الرائى
كانت لقلبـى أهـواء مفرقـة	فاستجمعت مذرآتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده	وصرت مولى الورى مذصرت مولائى
حتى إذا استياس الحساد من دركى	وقل اعداى مـذ قللت اكفائى

---

(١) للدكتـور أحمد عبد الستار الجوارى ، دراسة عن ابن داوود الاصفهانى الظاهرى ولكتابه « الزهرة » كما كتب الدكتور نورى حمودى القيسى دراسة منه وعن شعره فى مقدمة « أوراق من ديوانه » . طبع بغداد سنة ١٩٧٢ .

حميت طعم الكرى عيني فاهتجرا   فصار طيب الكرى من بعض أعدائي
من خان هان ، وقلبي رائد أبدا   ميلا اليك على هجري واقصائي
لابد لي منك فاصنع مابدا لك بي   فقد قدرت على قتلي واحيائي

وقد صـور ابن داود الحب العف أجمل تصوير ، وعبر عن أحاسيسه ، وأشجانه أدق تعبير ، يقول :

لو كنت شاهدنا والدار جامعة   والشمل ملتئم والـود مقترب
مستأنسين بما تخفي ضمائرنا   على العفاف ورعي الود تصطحب
فان معا الشوق فرط الانس أوحشنا   أنس العواذل ان جلوا وان تعبوا
عاينت منزلة في الظرف عالية   ورتبة قصرت عن شأوها الرتب
في عفة نتحامى أن يلم بهـا   سوء الظنون وأن تغتالها الريب

وقد كانت معاني الوفاء ، والصدق ، والتفاني في الوجد ، والسمو بالعاطفة الى مرتبة صوفية ، رائقة ، كل هذه كانت دائـرة فـي شعره ، فمما قاله في معنى الوفاء حتى التزمت به جوارحـه من بصر ولسان وخاطر وجنان ·

كان رقيبا منك يرعى خواطري   وآخر يرعى ناظـري ولسـاني
فما عاينت عيناي بعدك منظرا   بسـوءك الا قلت قد رمقانـي
ولا بدرت من في بعدك فرحـة   لغـيرك الا قلت قـد سـمعاني
اذا ما تسلى الغابرون عن الهوى   بشرب مـدام او سـماع قيان
وجدت الذي يسلي سواي يشوقني   الى قربكم حتى أمـل مكانـي

ورغم تجاهل العلماء له ، وعدم ذكره بين شعراء عصره الا أن شعره في الحب قد انتشر في عصره ، وعرفه الناس في العراق ، وسار في بغـداد مـع الظرفـاء والعشاق · فقد روى الخطيب

البغدادى أن القاضى محمد بن يوسف ساير أبا بكر محمد بن داود الاصفهانى ببغداد فاذا جارية تغنى بشىء من شعره هو :

أشكو غليل فؤاد أنت متلفه	شكوى خليل الى الف يعلله
سقمى تزيد مع الايام كثرته	وأنت فى عظم ما ألقى تقلله
والله حرم قتلى فى الهوى سفها	وأنت يا قاتلى ظلما تحلله

وقد جرت بين أبيه وجماعة من أدباء العصر ومتكلميه مناظرات ومحاورات ، كما جرت بينه وبين هؤلاء مناظرات ومحاورات أتم بها مواقف والده ، ومن أشهر من ناظر فى بغداد الناشىء الاكبر ابن شرشير ومحمد بن جرير ، وأبو عيسى الضرير . ويجلس الى بعض العلماء من معاصريه فيروى عنهم ، كما ينشد مباشرة عن بعض شعرائهم كأحمد بن أبى طاهر والبحترى . ويلتقى بابن الرومى . وقد نعته بفقيه العراق . وقد جاء ابن الرومى يوما الى مجلسه ، وقدم اليه رقعة بها بيتان هما :

يا ابن داود يا فقيه العراق	أفتنا فى قواتل الاحداق
هل عليهن فى الجراح قصاص	أم مباح لها دم العشاق

فكتب له فى الجواب :

كيف يفنيكم قتيل صريع	بسهام الفراق والاشتياق
وقتيل التلاقى احسن حالا	عند داود من قتيل الفراق

ولابن داود الظاهرى مؤلفات أدبية أشهرها كتاب الزهرة فى

الادب ، ومختار الاشعار ومعظم ما روى عن مؤلفاته فى الفقـه والمسائل الجدلية .

ولا يحدد العلماء تاريخا لمولده ، كما يختلف فى تاريخ وفاته بين سنتي ست وتسعين ومائتين (٢٩٦ هـ) وسبع وتسعين ومائتين (٢٩٧ هـ) .

ومن الشعراء العلماء :

أبو العباس الناشيء الاكبر

كان أبو العباس الناشيء شاعرا مجيدا ، وعالما فاضلا ، لا نستطيع أن نحكم على ذوقه في النقد ، ولا أن نقدر جهده الا اذا عرضنا لبعض جوانب تكوينه الانساني وبنائه الفكرى والفني من خلال التعرف على شخصه وحياته ، وبعض شعره وعلمه .

والناشيء الاكبر هو أبو العباس عبد الله بن محمد الانبارى المعروف بابن شرشير . ولقبه الناشيء يطلق على رجلين من شعراء العصر العباسي ، أحدهما هو هذا أبو العباس وقد أطلق عليه الناشيء الاكبر ، والآخر أطلق عليه الناشيء الاصغر . وقد جاء بعده (٢) .

وكانت عادة العرب وعلماؤهم من قديم اذا اشترك اثنان في لقب فيميز السابق منهم باللقب متبوعا بكلمة الاكبر ، واللاحق متبوعا بكلمة الاصغر ، وكذلك كان الامر بالنسبة الى الاخفشين الاكبر والاصغر ، وهما من علماء النحو المرموقين .

ذلك بالنسبة الى لقبه الناشيء ، أما شرشير الذى لقب به أبوه ، ولاق به هو أحيانا فاسم لطائر معروف بالديار المصرية يعيش في شمال الدلتا ، يغشى المصارف والترع وموارد المياه ، ويفد الى مصر شتاء ، هو أكبر من الحمام ، وهو صيد طيب .

ولا نعلم مما ورد من أخباره شيئا عن سبب هذا اللقب الذي ألحق بأبيه أو به ، وكثيرا ما تلحق الكنى والالقـاب بالناس دون سبب ظاهر ، وكم عرف جماعة من أجلة العلماء والشعراء بألقاب من أسماء الحيوان والطير والجمـاد ، فثعلب وأبو ذؤيب وابن عصفور وابن حجر ..

قيل ان أصل أبي العباس من الانبار وينسب اليها كثير من علماء الدولة العباسية وكبار أدبائها ، وقـدم بغداد فأقـام بها زمنا ، نضج علمه وأدبه ، والتقى بكثـير من علماء دار السـلام وأدبائها وشعرائها في القرن الثالث ، وعقدت بينه وبين بعضهم أواصر الود والصداقة ، أو وشائج العلم والمناظرة .

وأولى اهتمامه دراسة الفلسفة والمنطق والجدل والخلاف ، وأعجب بعلم الكلام ، فانضم الى زمرة المتكلمين وقد كانت للكلام مكانة في بغداد في القرن الثالث أيده بعض الخلفاء ممن ناصر المتكلمين وقربهم . أمثال الخليفة المأمون ، والخليفة المعتصم ، وقد عاش في كنفهما جماعة من كبار المتكلمين وفلاسفة المسلمين .

وأولع أبو العباس بالفلسفة والجدل ، وغشي حلقات المتكلمين وغيرهم من علماء بغداد آنذاك وأحب المناظرة ، ومقارعة العلماء، وكثيرا ما أتهم بمشاغبتهم ، وممارضة المشهورين منهم حتى رمي بالهوس . وقال المرزباني : « وكان أبو العباس الناشيء متهوسا شديد الهوس » .

وتألب عليه علماء بغداد لهذا ، فضيقوا عليه المقام بـدار

السلام ، فلم يلق ما كان يصبو اليه من مكانة مرموقة ، فغادرها الى مصر (٤) ، وربما زاد في ضيقه بالمقام ببغداد آنذاك أنهـا نكأت على المتكلمين ، وقلبت لهم ظهر المجن بعد محنة خلق القران المشهورة ، وثورة الحنابلة على المعتزلة والمتكلمين عامة ، وانتصار المتوكل لمذهب أهل السنة وعدائه للمتكلمين والمعتزلة (٥) ٠

قال المرزباني انه أخذ نفسه بالخلاف عـلى أهـل المنطـق والشعراء والعروضيين وغيرهم ، ورغب في أنه يحدث لنفسـه أقوالا ينقض بها ما هم عليه فسقط ببغداد فلجأ الى مصر وأقام بها بقيـة عمـره ٠

ونقل أنه كان موجودا بمصر عام ثمانين ومائتين من الهجرة حيث أنشد أبياتا بدأها بقوله :

ليس شيء احر في مهجـة العا ... شـق من هـذه العيون المراض
والخدود المضرجـات اللـواتي ... شـيب جريالها بحسن البيـاض

وظل أبو العباس يقول الشعر ويؤلف في فروع العلم بمصر حتى توفي عام ثلاثة وتسعين ومائتين (٢٩٣ هـ) ٠

وألف الناشيء كثيرا من الكتب فيما أتقن من علوم العربية وعلوم الاوائل ، وكان متقنا للنحو وعلوم الدين والمنطق ٠ قال ابن خلكان : « من العلماء بالادب والدين والمنطق » ٠ وقال أيضا : « وله تصانيف جميلة » ٠

ونظم الشعر التعليمي ٠ قال ابن خلكان : « له قصيدة على

روى واحد وقافية واحدة فى أربعة آلاف بيت فى فنون من العلم»٠

ووقف منه العلماء والمؤرخون مواقف مختلفة بين مزر بـه متحامل عليه ، ومعترف بفضله مقدر لجهده وعلمه ، مثن على كتبه وشعره ٠

فمن تحامل عليه المرزبانى من علماء القرن الرابع وصاحب كتابى : « معجم الشعراء » و « الموشح » فقد نعتـه بالتهوس كما رأينا ، وقال : « أخذ نفسه على أهل المنطق والشعراء والعروضيين وغيرهم ، ورام أن يحدث لنفسه أقوالا ينقض ما هم عليه » ٠

ومن عرف فضله ابن خلكان فقد قال فيه : « وكان بقوة علم الكلام قد نقض علل النحاة وأدخل على قواعد العروض شبها ، ومثلها بغير أمثلة الخليل ، وكل ذلك بحذقه وقوة فطنته » (٦) ٠

وكلام كل من المرزبانى وابن خلكان يدور حـول موضوع واحد جعله الاول مأخذا والثانى محمدة ٠ ويبـدو أن الرجـل ارتأى رأيا فى علم النحو أو بعض قواعده ، وصل اليه واستنبطه من دراسته المتعمقة فى علم المنطق وعلوم الفلسفة ، وحاول فيه أن يخرج على اجماع علماء النحو فى عصره ، فرفضوه ، وقاوموه ، وكذلك فعل فى عروض الخليل ، الذى ارتـأى فيـه كذلك رأيا مخالفا للعلماء ، وبدت له فى أصول الخليل كما يقول ابن خلكان شبه أو مآخذ ، ومثل لبعض ما وفق اليه فى علم العروض بأمثلة

غير ما درج عليها الناس ، فرأوا فيها مروقا على علـم الخليل ، واتهموه بالهوس .

ولسنا على علم بهذه الاشياء جميعا حتى نحـكم عليه أو له فنكون مع المرزباني أو نكون مع ابن خلكان .. ومع ذلك فـان موقف المرزباني من الناشيء قد تعترضه بعض الشبه ، منها أنه كان قريب العصر من أبي العباس وأنه كان بغداديا ، ولابد أن أصداء الخلاف بين الناشيء وعلماء بغداد كانت لا تزال تدور في أوساط العلماء أيام المرزباني ، وهو بغـدادي عـلى كل حـال ، ومعاصر ، وهذا وحده كفيل بأن يلقي ظلالا من الهوى على حكمه .

أما ابن خلكان فبعيد عن معاصرة الناشيء لانه من رجال القرن السابع أي بعده بأربعة قرون كانت كفيلة بترجيح الرأي السديد وتصفية المعركة والحكم له أو عليه بروح الانصاف دون هوى . فضلا عن أن ابن خلكان لم يكن وحده الذي قرظ الناشيء وأثنى عليه ، بل سبقه الى ذلك أحد أدباء القرن الرابع الفضلاء ممن لا ينكر رأيه ، ويؤخذ قوله في الادب مأخذ الجد والاعتبار ، وأعني أبا حيان التوحيدي الذي نعت بالجاحظ الثاني .

وفي كتبه يقول المرزباني : « وقد رأيت بعض كتبه فدلتني على هوسه واختلاطه » . وفيهـا يقول ابن خـلكان : وله عـدة تصانيف جميلة .

ويقول ابن تغرى بردى : كان فاضلا بارعا ، وله تصانيف رد فيها على الشعراء ·

شـــعره :

ذلك مبلغ أمره في العلم ، وأما أمره في الشعر فلم يكن أقل من أمره في العلم اذ اختلف العلماء حوله اختلافهم حـول علمه · فالمرزباني يراه شاعرا مكثرا وهو مع كثرة شعره قليل الفائدة ، ويقول ابو حيان عن شاعريته : « وله مذهب حلو وشـعر بديع ، واحتفـال عجيب » (٧) · ويقول ابن الجـوزى : « وله شـعر حسن » (٨) ·

وقال ابن خلكان : « له أشـعار كثـيرة فـى جوارح الصيد وآلاته ، والصيود وما يتعلق بها ، كأنه كان صاحب صيد · وقد استشهد كشاجم في كتاب « المصايد والمطارد في مواضع » ، منها قصائد ، ومنها طرديات على أسلوب أبو نواس ، ومنها مقاطيع ، وقد أجاد في كل » ·

وقال في موضع آخر : « شاعر مجيـد يعد فـى طبقة ابن الرومي والبحترى » (٩) ·

ولم يبلغنا ديوان كامل للناشيء الاكبر حتى نحـكم عليه او نقومه ، وكل ما جاءنا منه مقطوعات وقصائد مفرقات في أسفار الادب ومجموعاته ، ومن بين تلك الاسفار مما جمع له كثيرا من

الشعر كتاب « البصائر والذخائر » لابى حيان التوحيدى ، و « زهر الآداب » للحصرى القيروانى ومحاضرات الراغب

ومن تلك الاشعار المفرقة ، وما أشار اليه ابن خلكان فى نصه السابق ، وفي مواضع أخرى نجد أن شعره يضم موضوعات الشعر التقليدية كالغزل والفخر والمديح والهجاء والوصف ، كما تروى عنه قصيدة مطولة في الشعر التعليمى فى فنون العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت (١٠) ٠ وله شعر كثير بين قصائد ومقطعات فى الطرد والصيد وآلاته على ما ذكر ابن خلكان فيما نقلنا عنه ٠

وقد وصف الناشيء شعره فى أبيات جيدة تقول :

يتحير الشعراء ان سمعوا به	فى حسن صنعته وفى تاليفه
فكانه فى قربه من فهمهم	ونكولهم فى العجز عن ترصيفه
شجر بدا للعين حسن نباته	ونأى عن الايدى جنى قطوفه
فاذا قرنت ابيه بمطيعه	وقرنته بغريبه وطريفه
ألفيت معناه يطابق لفظه	والنظم منه جليه بلطيفه
وأتاه متسقا على احسانه	قد نيط منه رزينه بخفيفه
هذبته فجعلته لك باقيا	ومنعت صرف الدهر عن تصريفه

يصف شعره بالسهل الممتنع المحكم الرصف الطيع الابى الذى يجمع بين الغرابة والطرافة فى تآلف من المعنى واللفظ والنظم ، دون خلل فى أيهما أو فى تآلفهما جميعا معا فى نسق واحد مهذب لا شذوذ فيه ولا شرود ، فعاد شعرا خالدا على الزمن ، باقيا على صرف الدهر لا يغير منه كر الزمان ٠

عاصر الناشيء جماعة من كبار شـعراء العباسـيين أمثـال البحترى وابن الرومي، ولم يشتهر شهرتهما، وان كان ابن خلكان قد وضعه في طبقتهما · وقصد بشعره كبار رجـال الدولة من وزراء وكتاب وقادة ، فمدحهم وكان من بينهـم من قصـده ابن الرومي كأبي الصقر ابن بلبل الوزير العباسي صاحب القصـة المشهورة مع ابن الرومي ، والذى كانت له معه مواقف سجلها في قصائد طويلة ذوات عدد · وقال فيه أبو العباس الناشيء :

تبلج بروح اليأس أو روحة الغنى ... أو الصدق لي في الوعد أو طلب العذر
فمالي تقى يحيى، ولا حلم يوسف ... ولا صبـر أيوب ولا مسند الخضر

ويجمع شعره سمات العالم والشاعر، ففيه الصياغة الرصينة، والكلمة الواقعة موقعها ، والمعنى البعيد ، والفكرة ، الى جانب حلاوة النفس ، وعذوبة الجرس ، وجمال الصورة ، وأعجب أبا حيان التوحيدى قوله متغزلا :

لها جيد ظبي واهتزاز براعة ... وعينا مهاة ، واعتدال قضيب
ولفظـة مناع ، ولحظـة بـاذل ... وعتب بـريء واغتيـاب مريب
وايماض ذي جد،واعراض هازل ... وسورة ذى طيش وعطف حبيب

وعلق عليه بقوله : فهذا فن لطيف المقام ، حلو جدا (١١) ·

وما جاءنا من شعره في الغزل رقيق فيه تلك الحلاوة التى أشاد بها التوحيدى · ومنه هذان البيتان في وصف الدمع فوق خد الحبيب سـاعة الفراق :

بكت للفـراق وقد راعنـى ... بكاء الحبيب لبعـد الديـار
كأن الدمـوع عـلى خدهـا ... بقيـة طـل على جلنـار

وحلاوة البيتين مستمدة من جمال التشبيه في البيت الثاني .
ومن جميل معانيه في الشكوى قوله :

لفظي ولفظك بالشكوى قد ائتلفا	يا ليت شعري فقلبانا لم اختلفا

ومن نسيبه حلو النفس قولـه (١٢) .

ولمـا رأينـا البين زمت ركابه	وأيقن منـا بانقطـاع المطالب
طلبن على الركب المجدين علـة	فعجن علينا من صدور الركائب
فلمـا تلاقينـا كتبن بأعين	لنا كتبا أعجمنها بالحواجب
فلمـا قرأناهن سرا طوينها	حذار الاعـادى بازورار المناكب

جمعت بين رقة النسيب ، ودقة المعاني ، ومبتكر التعبير ،
ونلاحظ ذلك كله في البيتين الثالث والرابع بخاصة .
ويرسم بالكلمات صورة شعرية جميلـة لعازفـة على العـود فيقول (١٣) .

واذا بصرت بكفها اليسرى حكت	يد حاسب تلقـى اليك صنوفـا
وكانما المضراب فـي أوتاره	قلم يمجمج في الكتاب حروفا
ويجيبـه ابهامهـا فكأنها	في النقر تلقي بهرجا وزيوفـا

ويفخـر بنفسه وقومـه فيقـول :

لم تبن في الدنيا سماء مكارم	الا ونحن بنورهـا ونجومهـا
واذا سمت يوما للمس أديمهـا	نجـوى أبالسهـا فنحـن رجومها
واذا سمعت بنعمـة محروفة	من كل حـادثة فنحن حريمهـا
واذا البحت للأنـام بـوارق	بنـدى فمنـا نستهل غيومها

ويشكو هجـر الصديق وتغيـره :

اني ليهجـرني الصديق تجنبـا	فاريـه أن لهجـره أسـبابا
واخـاف ان عاتبتـه أغريتـه	فارى لـه ترك العتـاب عتابـا

وشعره يجرى على هذا النمط من الشاعرية الممتزجة بالفكر والتأمل ، لا يطـرق المعنى السهل القريب ، ولكنه يجـرى وراء المعنى البعيد ، فيأتى به ليضعه أمامك فى لفظ سـهل لا تشعر بأثر الجهد فيه ، فهو غير متكلف اللفظ ، ولا متعنت العبارة كبعض الشعراء من أصحاب المعانـى ، وهو مع ذلك لا يرقـى الى رتبـة البحـترى فى طلاوة الشعر ولا الى درجة أبى نواس فى رشاقة التعبيـر ٠

ومع ذلك فهو لا ينحط عن درجة هؤلاء وأولئك كثيرا ، بل يعتبر شعره من جيد الوسط ٠

كتـاب الشـعر :

واذا ما تركنا شعره الى نقده ، والحديث عن كتابه فى الشعر وآرائه فيه فيتبقى أن نهتدى أولا بحديث أبى حيان فى البصائر ٠ يقول : « وما أصبت أحدا تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما أتى به الناشىء المتكلم ، وان كلامه ليزيد على كـلام قدامـة وغـيره » (١٤) ٠

وهذه العبارة تحتاج الى وقفة تأمل ، لان أبا حيان حكم على علو قدره فى النقد وقال انه لم يصب أحدا من النقاد الى عصره ـ أى أخريات القرن الرابع ـ تكلم فى نقد الشعر وترصيفه أحسن مما أتى به الناشىء ٠ وهو لا شك قد قرأ كتب النقـد السابقة أو عرفها ويشير بصفة خاصة الى كتاب قدامة بن جعفر « نقد الشعر » ويقدمه عليه وعلى غيره ممن عرض لهذا الموضوع ٠

وهو لا يعني من النقاد بالضرورة من تعرض للشعراء وطبقاتهم ، بل يعني بصفة خاصة من تعرض منهم لصنعة الشعر ، وقد سبقه الى القول في صنعة الشعر جماعة كابن المعتز صاحب البديع ، وابن طباطبا في عيار الشعر ، وكتاب ابن المعتز قليل الخطر ، وان كانت له أسبقية الحديث عن البديع وتبويبه ، وأخطر منه عيار الشعر لابن طباطبا ، وان لم يحظ بالشهرة التى حظى به البديع لابن المعتز ونقد الشعر لقدامة • ولا ندرى لم أهمل أبو حيان عيار الشعر عند حديثه عن كتاب الناشيء ، والكتابان فيما يبدو مما بقى من أجزاء كتاب الناشيء قريبان من بعضهما في الموضوع ، لانهما يعرضان لصنعة الشعر • ومؤلفا « الشعر » و « عيار الشعر » شاعران يعملان الذوق ويحكمان التجربة الذاتية ، ومعاناة النظم ، وليس أدرى بأسراره كمن دفع الى مضايقة كما يقول البحترى • وكلام قدامة فى صنعة الشعر كلام عالم مقنن لا شاعر مجرب ، وفرق بعيد بين الكلامين •

ومهما يكن من أمر فان كتاب « الشعر » للناشيء كتاب يتحدث فى صنعة الشعر وفنه ، ويشهد على ذلك ما وصلنا من مقتطفات من الكتاب فى بعض كتب الادب ، وفى كتابى «البصائر والذخائر» لابى حيان التوحيدى ، و « زهر الآداب » للحصرى القيروانى بخاصة •

ونورد هذه المقتطفات محاولين ترتيبها من عموم الى خصوص •

ونبدأ بتعريفه للشعر وحديثه عنه • يقول (١٥) :

« الشعر قيد الكلام ، وعقال الآداب ، وسور البلاغة ، ومعدن البراعة (١٦) ، ومجال الجنان ، ومسرح التبيان ، وذريعة المتوسل ، ووسيلة المتوصل ، وذمام الغريب ، وحرمة الاديب ، وعصمة الهارب ، وعدة الراهب (١٧) ، ورحلة الداني ودوحة المتمثل ، وروضة المتحمل ، وحاكم الاعراب ، وشاهد الصواب » •

وهو في هذه الفترة لم يعرف الشعر التعريف المألوف ، بل عرفه التعريف الجامع لخصائصه ، وطبيعته وغاياته ، وفوائده ، وكل من عباراته الموجزة تحتاج في الشرح الى صفحات تبسط مجملها ، وتنشر مطويها •

وأولها قوله ان « الشعر قيد الكلام » يعني أنه يقيد المعاني والافكار بأحكامه وموسيقاه ونظمه ، بتفاعيله ، وقوافيه ، ويعني أنه حافظة العلم ، وخزانة الادب ، وهو أيسر وسيلة لسهولة علوقه بالذهن ، وهو « عقال الآداب » أي قيدها ، ومجتمعها • فيه الحكمة ، والمعرفة • وهو أسمي فنون الادب ، وأشرف أنماط القول ، وكان العرب يتواصون بحفظه ، ويوصون مؤدبي أبنائهم بتعليمهم اياه • وهو « سور البلاغة ومحل البراعة ، ومجال الجنان ، ومسرح البيان » ويعني سمو منزلته في البلاغة والبيان، فهو في المقدمة من فنون القول جميعا ، لا يسبقه منها أحد ، ويكاد

يقتصر علم الادب عند العرب على الشعر ، فقد غلب على ما عداه ، والبليغ الحق هو الشاعر الفحل ، والمقول الفذ . وفـي الشعر تبدو البراعة ، وتتكشف المقدرة ، اذ تحكمه الاوزان والقوافي والقوافي واللغـة الخاصة ، اللغـة الشعرية ، والشاعر الفذ هو الذى يستطيع أن يؤلف بين معانيه وألفاظه وأوزانه وقوافيه ، فلا يضطره الوزن الى اصطناع الضرورة في بناء العبارة ، أو التكلف في القافية فتبدو ملحقة بالقول أو خارجة أو فضلة زائدة ينتهى الكلام قبلها ، لهـذا أعجبوا بالشعر الذى تلتصق قوافيه ببقيـة الفاظه ، أو تؤدى أوائله الى قوافيه دون تكلف أو عناء . ونسمع كثيرا من العبارات فى كتب النقد تصف تلاؤم القوافى مع الوزن ، أو تلاؤمها مع المعانى ، أو تلاؤمها مع بقية لفظ البيت .

وتلك العبارات التى سلفت كلها متصلة بصنعة الشعر ، وما جاء بعدها في الفقرة من عبارات يتصل بغايات الشعر وفوائده ، فهـو : « ذريعة المتوسل » و « وسيلة المتوصل » ، ورغم المزاوجة الظاهرة بين العبارتين فهما تعبران عن موضوعين مختلفين .

فذريعة المتوسل يعنى أنه يتخذ ذريعة الى أمر فيتوسل به ، أو يتشفع فيه . وهنا يمكن أن يدخـل العتـاب ، والاعتذار ، والتحبب ، والقربى الى المحبين وفيه معنى كون الشعر سببا فى العفو عن جرم ، أو الصفح عن اثم .. وتحدث عن هذا الـدور للشعر تفصيلا ابن رشيق فى كتاب العمدة .

وفى الفقرات التالية « وذمام الغريب ، وحرمـة الاديب ، وعصمة الهارب وعذر الراهب » يواصل الناشىء ذكر فوائد الشعر وبيان فضائله ·

ثم يختم بفقرات تتصل باستخدامات الشعر فى الادب واللغة، ودوره في ايضاح المعاني ، وضبط القواعد والاعراب ، وضبط ألفاظ اللغـة فى استخدام أبيات الشعر وشواهده على هذا كله ·

فهو بحق كما قال : « دوحة المتمثل ، وروضة المتحمل، وحاكم الاعراب ، وشـاهد الصواب) ·

وقد أشرنا الى أن العلماء بالشعر فصلوا ما أجمله الناشىء ، ونخـص منهـم عبـد الكريـم النهشـلى (١٨) ، وابن رشـيق القيرواني (١٩) ·

خصائص الشـعر الجيد :

ويعرض في فقرة أخرى ــ نقلها الحصرى في زهر الآداب ــ لاسلوب الشعر ، وموضوعاته فيقـول : « الشعر مـا كان سـهل المطالع ، فصل المقاطع ، فحل المديح ، جزل الافتخـار ، شـجى النسيب ، فكه الغزل ، سائر المثل ، سليم الزلل ، عديـم الخلل ، رائع الهجاء ، موجب المعذرة حسن المعتبة ، مطمع السالك ، فائت المدارك ، قريب البيان ، بعيد المعانى ، نائى الاغـوار ، ضاحى القرار ، نقى المستشف ، قد هريق فيه ماء الفصاحة ، وأضاء له

نور الزجاجة ، فأنهل فى صادى الفهم ، وأبهل فى بهــم الرأى ، لمتأمله تشوق ، ولمستشفه تألق ، يروق المتوسم ، ويسر المتبسم •

قد أبدت صدوره متونه ، وزهت فى وجهه عيونه ، وانقادت كواهله لهواديه ، وتطالعت آثاره لمستوضحه • وأشبه الروض فى وشى ألوانه ، وتمم أفنانه ، اشراق انواره ، وابتهــاج أنجــاده وأغواره • وأشبه الوشى فى اتفاق رقومه ، واتســاق رسـومه ، وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه • وحكى العقد فى التئام فصوله، وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدره ، وفريده بشزره •

قد كشف الايجاز موارده ، وجلت مداوس الدربــة متاصله ، وشحذت مدارس الادب فواصله ، فجاء سليما من المعايب ، مهذبا من الادناس ، تتحاشاه الابن ، وتتحاماه الهجن ، مهديا الى الاسماع بهجة ، والى العقول حكمة » (٢٠) •

ومرة أخرى أوجز الناشىء فى هذا الفصل ما فصله غيره من العلماء من خصائص الشعر الجيد ، لفظا ومعنى ، فجمع خصائص اللفظ الشعرى ، والمعانى الشعرية ومناسبة الاســلوب واللفظ والمعنى لموضوع الشعر وأغراضه •

ويهتم بسهولة المطالع ، وبوضوح مقاطعه وفصولــه ، وهو بذلك يستوحى أصول الشعر الجاهلى وتقاليده ، فقد كان الشعراء يتحرون سهولة المطالع ، لاجتذاب السمع ، وقبول الذهن لمــا يرد عليه • وفى النقد العربى مواقف كثيرة للنقاد مع هذه الخاصية

ولعل أشهرها موقف ابن الاعرابي من غموض مطلع أبي تمام :

من عــوادي يوسف وصواحبــه فعزما فقد ماأدرك السؤل صاحبه

وقوله للشاعر : لم لا تقول ما يفهم ؟

وموقف نقاد المتنبي مـن غموض مطلع المتنبي وتعقيده في قولــه :

أحــاد ، أم سـداس في أحاد لييلتنــا المنوطــة بالتنــادي

وينتقل الى مناسبة الكلام للموضوع من حيث القوة والضعف، والجزالة والرقة ، فيرى ضرورة الفحولة والقوة عند المديح ، وهذا أمر طبيعي لان المديح يقتضي من الشاعر وصف الممدوح بصفات الرجولة والشجاعة والاقدام ، وهذه المعاني لا يناسبها سوى قوى اللفظ ورصينه • وقد أورد النقاد أمثلة كثـيرة لمناسـبة معاني المديح لالفاظه ، وهي غالبة على الشعر الجيد ، ولكن مخالفة ذلك تبدو في شواهد قليلة يتناقلها النقاد • مثل ما نقله ابن طباطبا في عيار الشعر من عدم مناسبة قول كثير لمديح الخليفة الاموى في قولــه (٢١) :

وما زالت رقــاك تسل ضغــني وتخــرج من مكامنهــا ضبابي
ويرقيني لك الراقــون حتــي أجابت حيــة تحت الثيــاب

فهذا كلام أليق بأن تخاطب به امرأة ، لا أن يخاطب به خليفة المسلمين وأمير المؤمنين •

وحال الفخر كحال المديح ، فلابــد أن تكون ألفاظــه جزلة كذلك •

وقد فرق الناقد وهو في القرن الثالث بين موضوعي النسيب والغـزل • وكثير من النقاد لم يعتادوا هذه التفرقة ، بل جمعوا بينهما ، وقليل منهم من التزم هذه التفرقة بين الفنين وان كانا جميعا متعلقين بالعلاقة بين الرجل والمرأة والاحوال التي تجرى بينهما من العشق والمحبة ، وأحوال الهوى وتصرفه معهما ، من لقاء وفراق ، وبعد وقرب ، ووصل وهجران ، وسهر ، وأحوال العذال •• وما الى ذلك ، وبوصف جمال المرأة ومحاسنها الجسدية أو القولية ، والسلوكية •

ومن قول الناشيء ندرك أنه يـرى النسيب هو الـذى يصف أحوال الهوى والمحبـة وتصرفهما بين المحبين ، بينما الغزل هو ما يتصل بمحاسن المرأة وجمالها جسدا ولفظا وسلوكا •••

فهو يتطلب في النسيب الشجي ، أى المطرب ، وأن يطـرب لسماعه الناس ، وما يطربون الا لانه يقع في قلوبهم موقعها ، وقد علل ابن قتيبة تمسك الشعراء بمقدمات النسيب في بناء القصيدة التقليدية بقوله بعد ذكر الاطلال والوقوف عليها ومـا يتصـل بذلك •• « ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق ، وفرط الصبابة ليميل نحوه القلـوب ، ويصرف اليه الوجوه ويستدعي الاسماع اليه ، لان النسيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لـمـا قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغـزل والف النساء » (٢٢) •

ووصف الغزل بالفكه ، ولا يعني هذا النعت ما اتصل باللفظ

في لغتنا المعاصرة من معاني الاضحاك ، بل لعله أقرب في مدلوله المقصود الى معني المسرة وهو الشعور الذى يحدثه وصف الجمال في صوره المختلفة . فجمال المرأة باعث على المتعة والمسرة ، وهذا ما يقصده الناشيء من ضرورة أن يكون الشاعر الجيد فكه الغزل- وقد خلط صاحب جوهر الكنز بين مدلولى النسيب والغزل (٢٣) ، مع أنه جاء متأخرا في القرن السابع ، وكان حقه أن يفرق بينهما بوضوح بعد أن سبقه الى التفريق بينهما علماء أفاضل لعل أقربهم اليه صاحب العمدة .

ويتصل بموضوعات الشعر ما جاء منه في المثل والحكمة ، وان لم يفرد الشعراء قصائدهم للمثل والحكمة ، اللهم الا القليل منهم مثل أمثال صالح بن عبد القدوس وأبى العتاهية في قصيدته المعروفة بذات الامثال . وقد يختم بعض الشعراء بأبيات من المثل والحكمة كما فعل زهير بن أبى سلمى فى معلقته ، ولكن معظم الشعراء ينثرون أبيـات المثل والحكمة فى أثناء القصيدة فتسير دون غيرها ويستشهد بها الناس ، ويحب الناشيء كما هو واضح من قوله أن تنطوى القصيدة على « سائر المثل » . وقديما سمى الشعر الخالى من المثل السائر أو عيون الشعر « بالمسيح » .

ويعرض للهجاء فيرى أن يكون رائعا ، أى يروع الناس ، لا أن يكون باهتا عاديا فالهجاء الرائع هو الهجاء الحار اللاذع يروع بلفظه أو معانيه الساخرة ، أو صوره الفكهة التى تصم وتدمغ المهجـو .

وقد اتفق النقاد على مثل قول الناشيء أو قريب منـــه .

وقوله أن يكون الشعر سليم الزلل ، عديم الخلل فهما صفتان عامتان فالزلل والخلل في الشعر يعرض له من جوانب كثـيرة ، وينسحب هذا الكلام على ما تحدثنا عنه من قبل فيما يتصل بأسلوب الشعر وألفاظه ومعانيه وموضوعاته ، وقريب من هذا ما ساقه من نعوت بعد ذلك ينبه فيها على حقائق الفن الشعرى، والخصائص التي تكشفها الممارسة والمتعلقة بمواطن الحسن ، فقد نبــه الى ضرورة أن يجمع أسلوب الشعر الجيد بين جمال التعبير وعذوبة اللفظ ، وسداد القصد والغاية وسلامة المعنى وصحة الفكرة .

ويفصل بعض الخصائص التركيبية فــي أسلوب القصيدة ، وبنائها الفنى مما يفى بشرطــى الحسن والسلامة أو الصحــة ، الامر الذى يثير في المتلقى أو السامع الاحساس بالمتعة والمسرة ، والفهم السليم من مثل قوله : « ثم أبدت صدوره متونه ، وزهت في وجوهه عيونه، وانقادت كواهله لهواديــه ، وتطالعت آثــاره لمستوضحه » . وفي هذه العبارات يؤكد خاصة كثر حديث النقاد فيها ، وخصها علماء البلاغــة بأنــواع من البديع ، كقولهم في التوشيح ودلالة الصدور على الاعجاز ، وما الى ذلك .

ويجرى الناشيء مع القائلين بــأن الشعر صنعة كغــيره من الصناعات ، ينبغي لمن يتصــدى لعمله أن يتقن أسرار صنعتــه ، وهو يرى كذلك في الصنعة ضروبا من التحسين والتجميل ، وهو

كالصناعات الجميلة ، كالنقش فـي الثياب ، أو صياغـة الحـلى الذهبية ، أو العقود وما شابهها مما أكثر القدماء تشبيه الشعر به من تلك الفنون والصناعات •

فقولـــه :

« وما اشبه الروض في وشي الوانه ،وتعمم أفنانه ، واشراق أنواره وابتهاج أنجاده وأغواره ، وأشبه الوشى فى اتفاق رقومه ، واتساق رسومه وتسطير كفوفه ، وتحبير حروفه ، وحكي العقد فى التئام فصوله ، وانتظام وصوله ، وازديان ياقوته بدره، وفريده بشذره » •

وينهى هذه الكلمة بحديث عن طبيعة الاسلوب والصياغة ، مهتما بضرورة الايجاز ، وهو ما يتمشى مع طبيعة الشعر ، وطبيعة تركيبه ، فهو من فنون القـول أولى بالايجـاز ، تحـكمه موازين عروضه وقوافيه وينبه الى ضرورة تثقيفه وتهذيبه ، ويعين على ذلك طول الدربة والممارسة وطول المراجعة والمدارسة حتي ينفي عنه خبثه • ويخلو مما يشينه من عيب اللفظ ، أو هجنة التركيب•

ويرى أن ما كانت تلك صفته من الشعر الصقيل المهذب يهدى الى الاسماع بهجة ، والى العقول حكمة ،ونلاحظ أنه يؤكد هذين الجانبين كلما عنت له فرصة ، أو واتته مناسبة • وكأنه كما قلنا يرى ضرورة توفـر المتعـة واللـذة ، والفكـرة أو المعرفة فى الشعر • وهما عنصران يتمان جماله ، ويتقاسمان جودته •

وقد وقف النقاد من هذين العنصرين في الشعر مواقف تتفق وتختلف عن موقف الناشيء ، فالبحتري مثلا ، يؤكد ضرورة توفر عنصر الجمال والمتعة في الشعر ، وتأتي الفكرة لاحقة لهذا العنصر ، واتجه الآمدي هذا الاتجاه الذي ذهب اليه البحتري ، فحاول الفصل بين الشعر والحكمة • ورأى الشعر في جمال التعبير وطلاوة اللفظ وقرب المعاني وبدو الرونق ، فغلب الصنعة على الفكرة • وذهب أنصار أبي تمام والمتنبي مذهبا مخالفا ، ورأوا الشعر في عميق المعنى ، والحكمة المفيدة عقلا وأدبا •

ويورد أبو حيان فصلا من كتاب الشعر يتناول موضوعات القصيدة الشعرية وما يشتمل عليه كل موضوع من المعاني ، مبتدئا بالنسيب :

يقول (٢٤) :

« أول الشعر انما يكون بكاء على دمن ، أو تأسفا على زمن ، أو نزوعا لفراق أو تلوعا لاشتياق ، أو تطلعا لتلاق ، أو اعتذارا الى سفيه ، أو تغمدا لهفوة ، أو تنصلا من زلة ، أو تحضيضا على أخذ بثار ، أو تحريضا على طلب أوتار ، أو تعديدا للمكارم ، أو تعظيما لشريف مقام ، أو عتابا على طوية قلب ، أو عتابا من مقارفة ذنب ، أو تعهدا لمعاهد أحباب ، أو تحسرا على مشاهد أطراب ، أو ضربا لامثال سائرة ، أو قرعا لقوارع غائرة ، أو نظما لحكم بالغة ، أو تزهيدا في حقير عاجل ، أو ترغيبا في جليل آجل ، أو حفظا لقديم نسب ، أو تدوينا لبارع أدب » •

وينقل التوحيدى فصــلا آخـر يتصل من موضوعات الشعر بالغزل والنسيب بخاصة فيقول (٢٥) :

« ومخاطبات النساء تحلو فى الشعر ، وتعذب فى القريض ، لاسيما لغانية قد أطر الفتاء شـاربها ، وزوى الابــاء حاجبها ، وأشطـ الجمال قوامها ، وأفرد الحسن تمامها ، وانجـل الهـوى عينيها ، وأمرض الزهو جفنيها ، وأذابت الصبابة ألفاظها ، وفتر الرنو ألحاظها ، وأرهف الظرف أعطافها ، وألانت النعمة أطرافها ، ولذ للراشف مبسمها ، وأطرد مـاء النعيم بين رياض وجناتها ، وترقرق جريال الشباب على سحناتها ، وجدل للضم قدها ، ومالت للجذب ضفائرها ، ودالت للغاصب غدائرها ، وشخصت للوثوب مآكمها ، وظمئت فضولهـا ، وسهلت للعيون حجولهـا ، وطـاب للمتنسم ملاغمهـا ، وأرخت للمتنعم فواغمهـا ، فكيف اذا هـى برزت من حجابها ، وسفرت من نقابها ، وتهادت بين أترابها ، وقد هز الريح أردافها ، وأسعر المراح أكتافها ، بل كيف هى اذا أملها سائلها ، أو اكلها مقاولها ، وأعرضت عنــه صدوفا ، وتأوهت منه عزوفا ، وقد قطب التيــه جبينها ، واستنهض الانف عرنينها ، واستخفها الطرب ، واستهواها العجب فافترت مبتسمة عن شنب أنيابها ومعسول رضابهـا • وكيف تقــر نفس عاشــقها اذا هى لسنته بعتابهـا ، ولحنته بسبابها ، وقد لاثت ذوايل أثوابهـا ، وحسرت فواضل أسلابها ، وطفقت تمد ذنوبه بمحاجرها ، وتأبى معاذيره بمكاسرها •

وهل تطوح لهـا أمنيـة اذا اعتبته بعد صدها ، وبذلت له مصون ودها ، ثم أسعفته بزورة وسنت لها عين راقبها ، وغيلت لها نفس عاقبها ، وقد التفعت له ملاء ليل ، او وطئت اليـه عقبات قيل ، فقد خذل الاين أباطلها ، ويل البحر غلائلها ، وحصدت له أعاليها وأسافلها ، وأوجـل الوجـل فرائصها ، وأوجـأ العجـن أخامصها ، ثم طفقت تستعتب نفسها وتستكفها ، حتى اذا أسمحت بها قريحتها ، وأسجحت لهـا سجيتها ، وسكن الى الايناس قلقها ، وأسرع الى الابساس علقها ، قاسمته من حديثها بما هو أقر لعينه، وأشهى الى نفسه من طول بقائها ، ودوام نعمائها . ولنا في هذا الباب ما لم يخرج من مذهب القوم منـه :

فديتك لـو انهـم يعقلون ... لردوا النواظر عـن ناظريك
ألم يقرأوا ، ويحهم ما يرون ... من وحـى قلبك فـى مقلتيك
وقد جعلوك رقيبـا علينـا ... فمن ذا يكون رقيبـا عليك

ونقل الحصرى فى زهر الآداب : « قال الناشىء : وقـد قلت في الشعر قولا جعلته مثلا لقائليه ، وأسلوبا لسالكيه ، وهو (٢٦) :

الشعر ما قومت زيـغ صدوره ... وشددت بالتهذيب أسر متونه
ولاءمت بالاطناب شعب صدوعـه ... وفتحت بالايجاز عـور عيونـه
وجمعت بين قريبـه وبعيـده ... ووصلت بـين مجمـه ومعينه
وعهدت منه لكل أمـر يقتضى ... شـبها بـه فقرنتـه بقرينه
فاذا بكيت به الديار وأهلها ... أجريت للمحزون مـاء شؤونه
ووكلته بهمومـه وغمومـه ... دهرا ولم يسر الكـرى بجفونه
واذا مدحت بـه جـواد ماجدا ... وقضيتـه بالشكر حـق ديونه

أحفيته بصفيه ورضيه	ومنحته بخطيره وثمينه
فيكون جزلا باتفاق صنوفه	ويكون سهلا فى اتساق فنونه
واذا اردت كناية عن ريبة	باينت بين ظهوره وبطونه
فجعلت سامعه تسوء شكوكه	ببيانه وظنونه بيقينه
واذا عتبت على اخ في زلة	ادمجت شدته له في لينه
فتركته مستانسا لرياضة	متستما لرعونه وحزونه
واذا كتبت الى التي علقتها	ان صار منك بغاشيات شؤونه
نمقتها بلطيفة ودقيقة	وشغفتها بخبيئه ودفينه
واذا اعتذرت الى اخ في زلة	واشكت بين محيله وستينه
فيحور ذنبك عند من أعتبته	عتبا عليك مطالعا بيمينه
والقول يحسن منه في منثوره	ما ليس يحسن منه في موزونه

ونقل الراغب الاصبهانى قوله كذلك فى الشعر (٢٧) :

انما الشعر ما تحصل من قبل	ظهور الاقوال والاشعار
فاتى لفظه يطابق معنا	ه بحسن الايراد والاصدار
مطمع مويس قريب الى الفهم	بعيد الاغوار ، صافي القرار

قد يكون هذان النصان من قصيدته المطولة التى نظمها فى أربعة آلاف بيت ، وجعلها فى العلوم ، أى جعلها متنا فى أصول العلوم ، ومن بينها علم الشعر . واذا صح قول ابن خلكان انها على روى واحد فانا نفترض على الاقل قطعة منها ، ولعلها الاولى النونيــة .

التعليقـــات

١ ـ نشر دراسته في كتاب بعنوان:
The Life and Writings of Dibil. B. ALi

طبع بمطبعة جامعة كنتكي بالولايات المتحدة الامريكية ١٩٦١ م ٠

٢ ـ يروى بعض المؤرخين أن وفاته كانت ٢٠٣ هـ ٠

٣ ـ الناشيء الاصغر هو علي بن عبد الله بن وصيف البغدادى توفي ٣٦٦ هـ ، راجع معجم المؤلفين ٧/١٤٢ ٠

٤ ـ راجع تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١/٢٣٠ ـ ٢٣١ ٠

٥ ـ يشير ابن كثير في البداية والنهاية الى أنه كان معتزليا جـ ١٠ ص ١٠١ ٠

٦ ـ وفيات الاعيان تحقيق احسان عباس ـ طبع دار الثقافة بيروت ٣/٩١ ٠

٧ ـ البصائر والذخائر ٢/٦٧١ ٠

٨ ـ المنتظم ٦/٥٧ ٠

٩ ـ وفيات الاعيان ٣/٩١ ٠

١٠ ـ ربما كان منها ما جاء بالشعر على ما بيناه في آخر هذا البحث ٠

١١ ـ البصائر والذخائر ٢/٦٧١ ٠

١٢ ـ زهر الآداب تحقيق الدكتور زكي مبارك ٣/١٥ ٠

١٣ ـ المصدر نفســه ٠

١٤ ـ البصائر والذخائر ٢/٦٧١ ٠

١٥ ـ هذا النص ورد في البصائر والذخائر وزهر الآداب على خلاف في بعض الفاظـــه ٠

١٦ ـ هكذا في زهر الآداب ٣/٣٩ وفي البصائر ٢/٢٧٣ (ومحل البراعة) ٠

١٧ ـ في البصائر (وعذر الراهب) ٠

١٨ ـ راجع تاريخ النقد العربي للدكتور محمد زغلول سلام الجزء الثاني طبع دار المعارف بمصر ص ١١١ ٠

١٩ ـ في كتابه العمدة في نقد الشعر ، وراجع المصدر السابق ص ١٢٨ ٠

٢٠ ـ زهر الآداب ٤٩/٣ ٠

٢١ ـ راجع عيار الشعر تحقيق د٠ محمد زغلول سلام طبع التجارية بمصر ص ٩٢ ٠

٢٢ ـ راجع مقدمة الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق الشيخ أحمد شاكر طبع دار المعارف بمصر ص ٧٥ ٠

٢٣ ـ راجع جوهر الكنز لابن الاثير بتحقيق الدكتور محمد زغلول سلام طبع منشأة المعارف ص ٤٥١ ٠

٢٤ ـ البصائر والذخائر ٢٦٠/٢ ٠

٢٥ ـ المصدر نفسه ٢١٩/٢ ٠

٢٦ ـ زهر الآداب ٩/٣ ٠

٢٧ ـ محاضرات الراغب الاصبهاني ٣٨/١ ٠

ومن الشعراء العلمـاء

العتـــابي

كلثـوم بن عمـرو

شاعر من شعراء الدولة العباسية الكبار وعالم كاتب خطيب من أدبائها المرموقين ، كانت حياته حافلة ، وله آثـار باقيـة في كثير من الكتب بين أخبار وآراء حكيمة عليمة ، ونوادر تدل على خبرة بالحياة والناس ، وفكر متفتح غني ، ونشاط متعدد تـردد بين العراق والشام متنقلا في البلاد وبين الامصار الكبرى قنسرين والري والبصرة وبغداد وغيرها ٠

والعتابي شاعر عربي خالص العروبة ينتسب الى عمرو بن كلثوم جده الاعلى وهو تغلبي من أبناء الجزيرة الفراتية ، وكانت لتغلب كثير من البطـون تسكنها ٠ ويبـدو أن حياته الاولى كانت بدوية الطابع ولذلك تركت آثارها على حياته ، وبعض تصرفاته مما كا نمدعاة الى السخرية والتفكه أحيانا ٠

ومهما يكن من أمر في حياته ، فثقافته الاولى ومعرفتنا بها قليلة ، بل نادرة ، لقلة اهتمام المصادر بها ، فاننا نعلم أنه كان طلعة منذ شبابه الاول وأنه رحل عن بلده قاصدا بغداد أو البصرة ليلقى أدباءهـا وشـعراءها الكبار ٠ ويبـدو أنه أعجب ببشار وشعره ، وكانت شهرته قد طبقت الآفـاق كما قـال عن نفسه :

فدفعه هذا الاعجاب الى أن يشد الرحال الى البصرة • ويذكر أبو الفرج أن العتابي جاء وهو حدث الى بشار فأنشده :

أيصدق عـن أمامـة أم يقيـم	وعهدك بالصبا عهـد قديـم
أتول لمستفاد القلب عفى	على عزماته السير العنيم
أما يكفيك ان دموع عينى	شابيب يفيض بهـا الهموم
أشيم فـلا أرد الطرف الا	على أرجائـه مـاء سـجوم

قال فمد بشار يده اليه ثم قال له : أنت بصير ؟ قال : نعم • قال: عجيب لبصير ابن زانية أن يقول هـذا الشعر • فخجـل العتابى وقام عنه ، وما زال يروض الشعر ، حتى اشتد عوده فيه ، وطرق به أبواب الاعيان وكبار الرجال فأجازوه ، وتقـدم الى بـلاط الخلفاء ، فصار شاعرا يتردد على مجالس هارون الرشيد ويمدحه بالشعر الجيد ، كما طرق باب المأمون وكان رجلا كهلا • وأجازه المأمون وأكرمه •

ويبدو أن العتابى كان قصير القامة من قوله فى بعض شعره :

نهى طراق الغوانى عنمواصلتى	ما يفجأ العين من شيبى ومن قصرى

وقضى حياته زاهدا يلبس خشن الثياب حتى عيب عليه ذاك ، وسخر منه أصدقاؤه ورفقاؤه لتعمده الخشونة فىالملبس ، وعدم رعاية الهندام فى المظهـر • روى الحصرى أن يحيـى بن خـالد البرمكي عابه على لباسه ، وكان لا يبالى أى ثوبيه أبتذل ، فقال أبعد الله رجلا مهمه أن يكون جماله فى لباسه وعطره ، انما ذلك

حظ النساء وأهل الاهواء حتى يرفعه أكبراه : همته ولبه ، ويعلو به معظماه لسانه وقلبه .

ويروى أبو الفرج أن صديقه وتلميذه منصورا النمرى اتخذ من ابتذاله فى لباسه مادة ليمزح معه وليغرى الرشيد به .

ولم يتزوج فقيل له : لو تزوجت ؟ فقال : انى وجدت مكابدة العفة خيرا من الاحتيال لمصلحة العيال .

ويبدو أنه كان قليل الاقبال على المدح واتخاذه وسيلة للتكسب اللهم الا اذا اضطره العيش كى يقصد الاعيان وكبار الرجال . ومما يرويه الحصرى فى زهر الآداب أنه قيل له : أمدحت أحدا ؟ قال : لا ، وليس لى على ذلك قدرة فقيل له : فقد مدحت الربيع ، فقال ذلك ليوم يستحق فيه المدح فقلت :

ومعضلة قام الربيع ازاءها ليعمد ركن الدين لما تهدما
بمكة والمنصور رهن كما أتى أخا الوحى داعى ربه فتقدما
غداة عداة الدين شاحذة المدى اليه وغول الحرب فاغرة فما

وله مع ذلك شعر يسأل فيه العطاء ، ولكنه يعزو ذلك الى الفقر ، وهو يهدم المكارم والآلاء :

انى امرؤ هدم الاقتار مأثرتى واجتاح ما بنت الايام من خطرى
أنا ابن عمرو بن كلثوم يسوده حيا ربيعة والاحياء من مضر
أرومة عطلتنى من مكارمها كالقوس عطلها الرامى من الوتر

ونذكر من ممدوحيه المشهورين ، عبد الله بن هشام بن عمرو التغلبي من أمـراء قبيلته ، وقد ذكره كثيرا فى شعره ورسائله كما يقول أبو الفرج ، وكان ابن هشام هذا جـوادا سـمحا وولى السند (١) ٠

واتصل بالربيع كما في الخبر السابق ، وبالبرامكة ، وكان له معهم شأن منقطعا اليهم ، وقد وصفوه للرشيد ووصلوه به ٠ ذكر ابن المعتز انه كان ممن يختص به جعفر بن يحيى البرمكى ويقربه ويباشره (٢) ٠

وذكر ابن عفان ان الرشيد لقيـه بعد قتـل جعفر بن يحيى وزوال نعمته فقـال ما أحدثت يا عتابى ؟ فأنشده ارتجالا :

تلوم عـلى تـرك الغنى باهلية	طوى الدهـر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الكسا	منظمـة أجيادهـا بالقلائـد
أسرك انى نلت ما نـال جعفر	من الملك أو مانال يحيى بن خالد
وأن أمير المؤمنـين أغصنـى	مغصهما بالمرهفـات البـوارد
ذرينى تجئنـى ميتتـى مطمئنة	ولم اتجشـم هول تلك المـوارد

وكانت لجعفر عليه أياد بيضاء ، فقد ذكر أبو الفرج أنه كان بلغ الرشيد عنه ما أهدر به دمه فخلصه جعفر فقال فيه :

ما زلت في غمرات الموت مطرحا	يضيق عنى فسيح الراى من جبلى
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لى	حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

---

(١) الاغانى طبع دار الكتب ١١/١٨٨ ٠

(٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ٢٤٣ ٠

كذلك روى أنـه جاء يحيي بن خالد فكلمه في حاجـة لـه كلمات قليلة فقال له يحيى : لقد ندر كلامك اليوم وقل ، فقال له : وكيف لا يقل ، وقد تكنفنى ذل المسألة وحيرة الطلب وخوف الرد • فقال له يحب : لئن قل كلامك لقد كثرت فوائده •

ولكن صاحب زهر الآداب ذكر أن صلته بهم قد اعترتها فترة، وأورد الحصرى بيتين يدلان على ذلك وهما قوله :

ان البرامـك لاتتعـك انجيـة   بصفحة اللين من نجواهـم تدب
تصرمت حجج منهـم ومنصلهم   مضرج بـدم الاسـلام مختصب

ولا تدرى مدى صحة نسبة هذين البيتين اليـه ، وان كانت الاخبار تفيد بوفائه لهم بعد   حتـى ان الرشـيد أراد أن يختبره في الخبر السابق فوجده على عهـده •

واتصل بهارون الرشيد ، ومهد البرامكة لهذه الصلة ، فبلغ عنده كل مبلغ وقد حدثت بينه وبين الرشيد أحداث ، حتى قيل انه أهدر دمه ، فاستنجد بيحيي بن خالد فعفا عنه الرشيد • وقال ابن المعتز انه تمكن من الرشيد بعلمه وغزارة أدبه فانه كان بحرا لا ينزف •

وله فيه كثير من قصائد المديح ، ولعل أشهرها الرائية التى يختار ابن المعتز منها أبياتا ، وهى التى يقول فيها :

يا لليلة لى في حوران ساهرة   حتى تكلم فى الصبح العصافير

وفيها يقـــول :

ماذا عسى قائل يثني عليك وقد ... ناداك في الوحي تقديس وتطهير
فت المدائـــح الا أن ألسنتا ... مستنطقات بما تخفي الضمائر

ويقــول فيــــه :

امــام لــه كف يضــم بنانهــا ... عصا الدين ممنوعا من البرى عودها
وعين محيط بالبريــة طرفها ... ســواء عليه قريبهــا وبعيدهــا
وارجع يقظــان يبيت مناجيــا ... له في العشــا مستودعات يكبدها
وسمع اذا ناداه من ثغــر كربة ... منــاد كفته دعــوة لا يعيــدها

وقال فيـــه :

رعى أمة الاســلام فهو امامها ... وادى اليها الحــق فهو منيهــا
مقيم بمستن الفلا حيث تلتقى ... طوارق أبكار الخطوب وعونها

وقد كان منصور النمرى فيما يبدو سببا فيما حدث بينه وبين الرشيد من جفوة ويــروى أبو الفرج قصــة دخولــه على الرشيد واستهزائه به ، كما يروى الحصرى قصة أخرى جرت بينه وبين منصور النمرى عرض فيها بالرشيد ، وربما كانت هى السبب فى تعقبه اياه واهدار دمــه ٠

فيروى أن النمرى مر بالعتابى وكان مغموما فقال له العتابى: مالك أعزك الله ؟فقال امرأتي بطلق منــذ ثلاث ونحن على يأس منها ٠ فقال له العتابى : وان دواءها منك أقرب من وجهها ، قل هارون الرشيد فان المولد يخرج ! ! ، فقال : شكوت اليك ما بى فأجبتنى بهذا ؟ فقال : ما أخذت هذا الا من قولك :

ان اخلف الغيث لم تخلف أنامله ... أو ضاق أمــر ذكرنــاه فيتسع

---

(١) زهــر الآداب ، ص ٦٤٩ ٠

ويذكر الحصرى غضبة الرشيد عليه فيقول : « وكان منصور النمرى سعي به الى الرشيد فخافه ، فهرب الى بلد الروم • وله قصائد فيها جيدة مختارة ، وهو يشبه في حسن الاعتذار بالنابغة الذبياني • ومن جيد اعتذاره :

جعلت رجاء العفو عذرا وشبته   بهيبة اما غافر او معاقب
وكنت اذا ما خفت حادث نبوة   جعلتك حصنا من حذار النوائب
فانزل بى هجرانك الياس بعدما   حللت بواد منك رحب المشارب
أظل ومرعاى الجديب مكانه   وآوى الى حافات آكلىٔ ناضب
ولم يثن عن نفسي الردى غير أنها   تنوء بباق من رجائب ثائب
هى النفس محبوس عليك رجاؤنا   مقيلة الآمال دون المطالب
وتحت ثياب الصبر من أن لوعة   يقلل يمسي مستلين الجوانب
فتى ظفرت منه الليالى بزلة   فاقلعن عنه داميات المخالب
حنانيك اني لم أكن بعت عزة   بذل واحرزت المنى بالمواهب
فقد سمتني الهجران حتى اذقتني   عقوبة ذلاتى وسوء مناقبي
فها أنا مقصى فى رضاك وقابض   على حد مصقول الذبابين قاضب
ومنتزع عما كرهت وجاعل   هواك مثالا بين عيني وحاجبي

وفيها ما نرى من الندم على ما قدم ، أو بدر منه من خطأ في حقه أو مساس من بعيد أو قريب بمقامه ، واظهار لمدى ما مسه لهذا الخطأ من الهجران والبعد عن جنابه ، وقد كان يجد فيه كل اطمئنان وهناء ، فهو اليوم فى خوف البطش والهلكة فى أنحائها - فيشعر وكان الليالى تطارده فى صورة وحش كاسر تعود الفتك بالفرائس •

---

(١) زهر الآداب ٦٤٩ •

ويعود في آخر القول للتوبة معاهدا النفس على أن ينزع عن كل ما يكره ويجعل ذلك نصب عينيه · ويظل العتابي في تودده واعتذاره ولعله لم يجد من الرشيد استجابة أول الامر ، ولما ضاقت عليه الحيل رأى أن يقدم على أن يقف بين يدى الرشـيد بنفسه ويتوسل للعفو عنه ، وعلى ما في هذا من الاقدام والمخاطرة الا أنه آثر أن يفعله · وتحايل للدخول على الرشيد ، فيقال انه دخل عليه سرا مع المتظلمين بغير اذن ، فمثل بين يدى الرشيد وقال له : يا أمير المؤمنين قد آذتني الناس لك ولنفسي فيك، وردني ابتلاؤهم الى شكرك ، وما مع تذكرك قناعة بغيرك ، ولنعم الصائن لنفسي كنت ، لو أعانني عليك الصبر · وفي ذلك أقول :

اخضى المقام الغمر ان كان غرتي	سـناخلب أو زلت القدمان
اتتركني جـدب المعيشة مقتـرا	وكفاك من مـاء النـدى تلفان
وتجعلني سـهم المطامع مغلـقـا	بلك يميني بالنـدى ولساني

فأعجب الرشيد قوله ، وخـرج وعليه الخلع ، وقد أمـر له بجائزة ، قال الراوى : « فمـا رأيت العتـابي قط أبسط منـه يومئذ » (١) ·

واتصل حبل ما انقطع ، وعاود التردد على مجالسه ، وعاود الرشيد سماع علمه ومأثور حكمه وأقواله عمـا خبر وجرب من أمور الحياة ، وما قرأ ومارس من ضروب المعرفة ·

وذكر الحصرى أنه دخل على الرشيد فقال له : تكلم يا عتابي،

---

(١) الاغاني ١٢٣/١٢ ·

فقال : الايناس قبل الابساس ، لا يمدح المرء بأول صوابه ، ولا يذم بأول خطئه ، لانه بين كلام زوره ، أوعى حصره ٠

وبعد موت الرشيد اتصل حبله بالمأمــون ، ولم يذكــر في أخباره اتصاله بالامين ولا يعرف موقفه من النــزاع بين الاثنين اثناءه ٠ لكنه فيما يبدو قد ساءه قتل المأمون لاخيه ، وان كان قد التقى به أثناء خلافة أخيه ، ووجوده بخراسان ٠

وذكر الحصري أنه عاتب المأمون بعد أن لها عنه ولم يأذن له ، وكان قد سأله زيارته ان صار له من الامر شيء بهذه الابيات التي يعرض فيها بقتل أخيه وغدره بــه أو نكثــه لمـا عقد الرشيد ٠ قـــال :

ما عــلى ذلك افترقنــا بسندا ... ق ولا هكــذا عهدنــا الاخــاء
لم أكن أحسب الخلافــة يــزدا ... د بها ذو الصفــاء الا صفــاء
تضــرب النــاس بالمثقفــة الســـــمر على غدرهم وتنسى الوفــاء

فلما قرأ المأمون هذه الابيات أمر أن يدخل عليه ، فلما سلم قال : يا عتابي بلغتني وفــادتك فسرتني ،وقــد كانت بلغتني وفاتك فساءتني ، واني لحرى بالغم لبعدك والسرور بقربك ، فقال : يا أمير المؤمنين : لو قسم هذا الكلام على أهل الارض لوسعهم عدلا وأعجزهم شكرا ، وان لرضاك غاية المنى ، لانه لا دين الا بك ولا دنيــا الا معــك ٠٠٠

وقال : « وقفت مرة بباب المأمون انتظر من يستأذن لى عليه فاذا أنا بيحيى بن أكثم ، فقلت استأذن لى على أمير المؤمنين ٠ قال

لست بحاجب • قلت : صدقت ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل معوان • قال : سلكت بي غير سبيلي • قلت : ان الله قد أتحفك بجاه وهو عليك مقبل بالزيادة ان شكرت ، وبالتقصير ان كفرت • وأنا لنفسك خير منك لها • أدعـوك الى زيـادة النعمة وبقائها عليك فتأباها •

فدخل على المأمون وحكى له ما جرى بينى وبينه فاستحسنه وأذن لى » •

وقيل انه بلغ به من التقديم والاكرام أعلا محل •

واتصلت أسبابه بالمأمـون وكانت تـدور بينهما مساجلات كلامية ، يدلى فيها كل بقدرته البيانية وخبرته ومدى علمه ، وكان العتابي قد اكتهل ، واتصل برجال دولته الكبار أمثال طاهر بن الحسين ، وعبد الله بن طاهر •

وقد علا قدره ، واعتزل الحياة في بغداد فيما يبدو بعد أن هرم ، وقعدت به السن عن السعي ، فالتزم منزله بالرقة •

قال الحصري واجتاز عبد الله بن طاهر بالرقة بمنزل العتابي فقال : « أليس هذا منزل كلثوم بن عمرو قيل : نعم ، فثنى رحله ، ودخل عليه ، فالقاه جالسا في بيت كتبه ، فحادثه ، وذاكره ثـم انصرف • فتحدث الناس فى ذلك وقالوا : ان الامير لم يقصد ، وانما اجتاز به فاضطر الى ذلك الزيارة • فكتب اليه :

يا من أفادتني زيارته ... بعد الخمول نباهة الذكر
قالوا الزيارة خطرة ... ومجاز خطرك ليس بالخطر
فادفع مقالتهم بثالثة ... تستنقذ المجهود من شكرى
لا تجعلن الوتر واحدة ... ان الثلاث تتمة الوتر

فبعثه الابيات الى أن زاره ثلاثا ٠

صلاته بشعراء عصره :

وكان للعتابى صلاته المتعددة بكبار شعراء عصره ، ومنهم بشار بن برد الذى تأثر به فى اتجاهه الفنى ، وأبو نواس ، ومنصور النمرى ، والعباس بن الاحنف ٠

وتروى كتب الادب بعض ما دار بينه وبينهم من مطارحات شعرية أو مناظرات ومحاورات ٠ ومما يروى من ذلك قولهم انه لقى أبا نواس مرة فقال له : أما تستحى من الله بقولك :

واخفت اهل الشرك حتى انه ... لتخافك النطف التى لم تخلق

فقال له أبو نواس : وأنت أيضا أما استحيت من الله بقولك :

ما زلت فى غمرات الموت مطرحا ... يضيق عنى وسيع الراى من حيل
فلم تزل دائبا تسعى بلطفك لى ... حتى اختلست حياتى من يدى أجلى

فقال العتابى : قد علم الله وعلمت أن هذا ليس مثل قولك ، ولكنك أعددت لكل سؤال جوابا (١) ٠

---

(١) خزانة الادب ص ٢٣٠ ٠

وكان الرشيد أمر بحبس أبي نواس حتى يدع الخمر فقال في الحبس :

قل للخليفة انني حتى أراك بكل باس
من ذا يكون أبا نوا سك أن حبست أبا نواسك
ان انت لم ترفع به راسا هديت فنصف راسك

فقال العتابي : ما أحسن نصف رأس الخليفة يرفع ! فقال له : « جعلني الله فداءك يا أبا عمرو لا تنبههم لهذا فتهلكني » (٢) .

ومر العتابي بأبي نواس وهو ينشد :

ذكر كرخ نازح الاوطان فبكى صبوة ولات اوان

فلما رآه قام اليه ، وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك ، وأنت القائل وقد أنصفك الزمان :

قد علقنا من الخصيب حبالا أمنتنا طوارق الحدثان

وأنا القائل وقد جار علي وأساء الي :

لفظتني البلاد وانطوت الالفـ ـاء دوني وملني جيراني
والتقت حلقة علي من الدهـ ـر فعاجت بكلكل وجران
نازعتني أحداثها مبتية النفـ ـس وهدت أحداثها أركاني
خاشع للهموم مفترق القلـ ـب كئيب لنائبات الزمان

وقد توفي أبو نواس قبله ، وعاش بعده العتابي حتى .

وكان ممن عاشره من الشعراء منصور النمري ، وهو شاعر

---

(٢) الموشح ٢٧٨ .

مشهور من شعراء العباسيين ، من الجزيرة الفراتية ، التقى بالعتابي فلازمه وتتلمذ عليه وكان راويته . وذكر أبو الفرج انه أخذ عليه وبمذهبه تشبه في الشعر .

وقد فسدت الحال بينهما وتباعدت لامور لا تعرف تفصيلها ولكن نقف على آثارها بعضها من نقده شعره من ذلك ما يرويه الزجاجي في مجالس العلماء قال : قال أحمد بن الحارث الخزاز : أنشد العتابي كلثوم بن عمرو :

يا ليلة لى بحوارين ساحرة حتى تكلم في الصبح العصافير

فقال له منصور النمرى : العصافير تتكلم ؟ فقال العتابى : نعم تتكلم وتنطق ، ويقال ذلك لما أعرب عن نفسه بحال ترى فيه فيقال : أخبرت الدار بكذا ، وتكلمت بكذا فكيف ما له نطق ، اما سمعت قول كثير :

سوى ذكرة منها اذا الركب عرسوا وهبت عصافير الصريم النواطق

وقول الكميت :

كالناطقات الصادقا ت الواسقات من النخائر

قال فسكت المنصور منقطعا (١) .

وسعى منصور النمرى بالعتابى الى الرشيد ، فغضب عليه وأحل دمه ، وطلبه فستره جعفر بن يحيى . ومازال يتحايل للرشيد حتى استل ما في نفسه وأمنه وعاد اليه (٢) .

---

(١) مجالس العلماء للزجاجى ٢٣ .

(٢) الاغانى ١١٩/١٢ .

وروى أبو الفرج أن منصورا النمرى شكا العتابى الى طاهر ابن الحسين فوجه طاهر الى العتابى فأحضره ، وأبقى منصورا في بيت قريب منهما ، وسأل طاهر العتابى أن يصالحه ، فشكا سوء فعله به ، فسأله أن يصفح عنه فقال لا يستحق ذلك • فأمر المنصور بالخروج فخرج وقال للعتابى لـم لا أستحق هـذا منك • فأنشأ العتابى يقــول :

اصحبتك الفضل اذلا أنت تعرفه	حقا ، ولاتك في استصحابه ارب
لم ترتبطك على وصلى محافظة	ولا أعاذك مما أغتا لك الادب
ما من جميل ولا عرف نطقت به	الا الى وان انكــرت بتنسب

قال فأصلح بينهما طاهر (١) :

بلاغتــه وأدبــه :

واجتمع للعتابى الثقافة والاطلاع فـى الكتب ، ويبدو مما وصلنا من أخباره أنه كان طلعة محبا للكتب والدفاتر ، فقد مر عليه بعض جيرانه ذات يوم وهو ينظر في كتاب فقال : ايش ينفع العلم والادب من لا مال له ؟ فأنشد العتابى يقول :

يا قاتل الله أقوامــا اذا ثقفوا	ذا اللب ينظر في الآداب والحكم
قالوا وليس بهــم الا نفاســته	أنافع ذا من الاقتــار والعــدم
وليس يدرون أن الحظ ما حرموا	لعاهم الله من علم ومن فهم (٢)

---

(١) الاغانى ١١٨/١٣ •

(٢) الاغانى ١١٨/١٣ •

كذلك يروى أنه كانت لـه بمنزلـه بالسرقة « بيت كتب » اجتاز به مرة عبد الله بن طاهر فوجده جالسا فيه (١) ٠

وكان كاتبا عالمـا بطرق الكتابة والاقلام وما اليها حتى ان الاصمعي سأله مرة فقال له : أى الانابيب أصلح للكتابة ؟ وعليها أصبر فقال - ما نشفي بالهجير ماءه ، وستره عن تلويحه غشاؤه ، من البرية القشور الدرية الظهور ٠ القضية الكسور ٠ قال : فأى نـوع من البـرى أكتب وأصوب ٠ قـال لـه : البريـة المستوية القط ٠٠٠ الخ (٢) ٠

وتروى في بلاغته وقوة بديهته ، وقدرته على الترسل والنظم أخبار كثيرة متعددة ٠ فالجاحظ يقول : « ومن الخطباء الشعراء من كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابي ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فـي البديع يقـول جميع من يتكلف مثل ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الانصارى وأشباههما (٣) ٠

وقال الجاحظ : «وكان العتابي يحتذى حذو بشار في البديع، ولم يكن في المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة والعتابي» ٠

---

(٣) زهر الآداب ٦٢١ ٠

(٤) زهر الآداب ٦١٩ ٠

(١) البيان والتبيين طبع هارون ١/٥٠ ٠

وقال الجاحظ : « والبديع مقصور على العرب ، ومن أجلهم فاقت لغتهم كل لغـة وأربت على كل لسان · والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتـابى يذهب شعره فى البديع » (٢) ·

كذلك ذكره ابن المعتز فى طبقاته وقال : « وكان العتابى مصورا على الشعر ، عذب الكلام كاتبا جيد الرسائل حاذقا · وقلما يجتمع هذا لاحد (٣) ·

وقال ابن المعتز : « ما سمعت كلاما قط لاحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابى وما رأيت كاتبا تعلو الشعر مع الكتابة الا وجدته ضعيف الشعر غـيره ، فانـه كان فحـل الشعر · جـيد الكلام » (٤) ·

وقال فيه أبو الفرج : « شاعر مترسل بليغ مطبوع ، متصرف فى فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية » (٥) ·

وقال عنه الحصرى فى زهر الآداب : « وكان صاحب بديهـة فى المنظوم والمنثور حسن العقل والتميز ، والعـرب تقول : من تمنى رجلا حسن العقل ، حسن البيان ، حسن العلـم تمنى شيئا عسيرا · وقد أصبغ ذلك كله للعتابى (٦) ·

---

(٢) البيان والتبيين طبع هارون ٤/٥٥ ·
(٣) طبقا الشعراء المحدثين ٢٦٢ ·
(٤) طبقات ابن المعتز ٢٦٢ ·
(٥) الاغـانى ١٣/١٠٩ ·
(٦) زهر الآداب ٦٢٠ ·

ومما يروى من كلامه المنثور ، مقتطفات متفرقة يدور معظمها حول تجارب الدهر والحياة ، مسوقة فى قالب حكمة ، فى أسلوب موجز ، فيه كثير من القدرة البلاغية والالمام بمواطن الكلام حتى انه قد يعمق أو يغمض أحيانا على السامعين .

فمن ذلك قوله : « حظ الطالبين من الدرك يجب ما استصبحوا مع الصبر » .

وكتب يقول : « أما بعد فانه ليس بمستخلص غضارة عيش الا من خلال مكروهيه ومن انتظر بمعالجة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الايام فرصته » .

وكتب الى بعض اخوانه (١) : « لو اعتصم شوقى اليك بمثل سلوك عنى لم أبذل وجه الرغبة اليك ، ولم اتجشم مرارة تماديك، ولكن استخصتنا حبابتنا فاحتملنا قسوتك العظيم قد مودتك ، وأنت أحق من اقتص لصلتنا من جفائه ، ولشوقنا من ابطائه » .

وله : « كتبت اليك ونفسى رهينة بشرك ، ولسانى علق بالثناء عليك والغالب على ضميرى لائمة لنفسى ، واستقلال لجهدى فى مكافأتك وأنت أصلحك الله فى عز الغنى غنى ، وأنا تحت ذل الفاقة الى عفوك وليس مع اخلاقك أن تولى جانب النبوة منك من هو عان فى الضراعة اليك » .

وقال : أما بعد . فانه ما بين مستخلص غضارة عيش الا من

---

(١) زهر الآداب ، ص ٩٨٦ .

خلال مكروه ومن انتظر بمماجلة الدرك مؤاجلة الاستقصاء سلبته الايام فرصتها » .

وكتب الى آخر : « من اجتمع فيه من خلال الفضل ما اجتمع فيك ، وانحاز الى مؤاخيك لم يخش المطنب في الثنـاء عليك أن يكون مفرطا لمـا لا يأمن من أن يكون مفرطا فالاعتراف بالعجز عن بلوغ استحقاقك من التفريط أولى من الاطناب الذى غايتـه التقصير ومآله الى الحشو » (١) .

وقال يصف رجلا بليغا : « كان يظهر ما غمض من الحجـة ، ويصور الباطل في صورة الحق ، ويفهمك الحاجة من غير اعادة ولا استعانة . قيل له : وما الاستعانة ؟ قال : يقول عند مقاطعة كلامه : يا هناه ، واسمع ، وفهمت وما أشبه ذلك وهذا من امارات العجز ، ودلائل الحصر ، فانما ينقطع كلامه فيحاول وصله بهذا فيكون أشد لانقطاعه » (٢) .

وقال في البلاغة : البلاغة هو الكلام بمبانيه اذا قصر ، وحسن التأليف اذ طال (٣) .

وذكر له الجاحظ أقوالا في البلاغة قال : « حدثني صديق لي قال : قلت للعتابي : ما البلاغة قال كل من أفهمك ما فيه من غير اعادة ولا حبسه ولا استعانة فهو بليغ ، فـان أردت اللسان الذى

(١) معجم الادباء ص ٢١٥ ج ٦ .

(٢) زهـر الآداب ١٠٦/١ .

(٣) زهـر الآداب ١٢٧/١ .

يروقه الالسنة ، ويفوق كل خطيب ، فاظهار ما غمض من الحق وتصوير الباطل صورة الحق » (١) ٠

وقال في البلاغة : رسائل المـرء في كتبه أول على مقـدار عقله ، وأصدق شاهدا على غيبة لك ، ومعناه فيك ، من اضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة » (٢) ٠

وقال يخطب : « أما بعد فانه لا يخبر عن فضل المـرء أصدق من تركه تزكية نفسه ولا يعبر عنه في تزكية أصحابه أصدق من اعتماده برعيته ، وائتمانه اياهم على حرماته » (٣) ٠

وقال العتابي : « الشيب تاريخ الكتاب » لان تاريخ الكتاب يكون في آخره ٠

وكان لهذه البلاغة والحكمة ، تعتبر أقواله من المأثورات التي تحفظ ويرويها العلماء والادباء ٠ وقد روى أن يحيى بن خالد قال لولده : « ان قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو العتابي فضلا عن رسائله وشعره فلن تزدا أبدا مثله » (٤) ٠

شـــعره :

وأما شعر العتابي فقد اختلف الناس فيه ، فمن قائل أنـه

---

(١) البيان والتبيين ١/١١٣ ٠

(٢) البيان والتبيين ١/٢٢١ ٠

(٣) البيـــان ٢/١٤١ -

(٤) الاغـــاني ١٣/ ٠

فيه كزازة وروى المرزباني ذلك فقال : ذكروا العتابي فقال رجل : هو كز لا رقة له ويروى أبو الفرج مثل ذلك ، وقد مدح ابن المعتز شعره فقال : « واشعار العتابي كلها عيون ليس فيها بيت ساقط (١) ، وروى له بعض مختار شعره ومنه قصيدته :

رمى القلب بأس من سليمى فاقصدا — وكان بها هيامة القلب مهندا

وقال ومن شعره :

ردت اليك ندامتي أملي — وثنى اليك عنانه شكري
وجعلت عتبك عتب موعظة — ورجاء عفوك منتهى عذري

واستحسن له أيضا :

تجنب دار العامرية انها — تكلفه مهد الصبا والكواعب
منازل لم تنظر بها العين نظرة — فتقلع الا عن دموع سواكب
ولا وصل الا أن تعاج مطية — على دارس الاعلام عافى الملاعب

وقال دعبل : ما حسدت أحدا قط على شعر كما حسدت العتابي على قوله (٢) :

هيبة الاخوان قاطعة — لاخي الحاجات عن طلبه
فاذا ما هبت ذا أمل — مات ما أملت من سببه

وذكر أبو الفرج أن جماعة تناشدوا شعر العتابي فقال بعضهم : فيه تكلفة ، ونصره بعضهم فقال شيخ حاضر : ويحكم أن يقال أن في شعره تكلفا وهو القائل :

---

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ، ص ٢٦٤ .

(٢) الاغاني ١٣/١١٦ .

رســـل الضمـير اليـك تتـرى ... بالشـوق ظالعـــة وحسـرى
مـــا جـف للعينـــين بعـــــدك يا قرير العـين مجـرى
فاســلم ســـلمت مبـــرءا ... من صبـوتى أبـدا معـرى
ان الصبابـــة لـم تـــدع ... منـى سـوى عظـم مبـرى
ومدامـــع عـــبرى عـــلى ... كبـد عليك الدهـــر حـــرى

أو يقال أنه متكلف وهو الذى يقول :

فلو كان للشـكر شـخص يبين ... اذا مـــا تامـلـه الناظـــــر
كمقالته لك حتـى تـــراه ... لتعلـم انى آمـرؤ شـــاكر

ووازنوا بينه وبين بعض شعراء عصره فروى المرزبانى والحصرى مناظرة أبى أحمد على بن يحيى بن المنجـم رجـلا يعرف بالمثقفة الموصلى فـــى العباس بن الاحنف والمختابى • فعمل على فـى ذلك رسالة أنقدها اليه •

البحـــترى

(٢٠٦ هـ – ٢٨٥ هـ)

هو الوليد بن عبيد الله البحترى الطائى ، ونسبته البحترى الى أحد أجداده بحتر • ولد بمنبج سنة ٢٠٦ هـ بالشام ، وتقع بين الفرات وحلب على مفترق الطرق التجارية القديمة الواصلة بين المشرق والمغرب عبر الجزيرة الفراتية وشمالى الشام •

ونسبته الطائى الى قبيلة طىء فقد كان منها والــده ، أمــا أمه فكانت شيبانية ،وأتيحت له نشأة عربية خالصة فــى بلدتــه منبج ، وفى باديتها وكان أهل منبج على عهــده عربــا خلصا ، ويضرب فى باديتها بطون من طىء تصل مــا بينهــا وشواطىء الفــرات •

وعاش البحترى معظم صباه فــى بلده ، وتنقــل فى مطلع شبابه فى بعض مدن الشام والتقى بأبى تمام فى حمص فسمع منه الشعر وشجعه ، وكتب الى بعض معارفه وممدوحيه بمعرة النعمان وغيرها يقرظه ويقدمه شاعرا •

ويبدو أن البحترى لازم أبا تمام زمنا ، وتخرج عليه فى قول الشعر ، فهو يقر بأستاذيته ، واقتدائه بــه ، وربمــا اعتمد على شعره فى كثير من لفظه ومعانيه على ما بين بعض النقاد •

وظل تنقل البحترى فى البــلاد حتى بلغت به قدمه بغــداد

عاصمة الخلافة ، وهناك التقى ببعض العلماء والشعراء ، وحظى في مجالس السادة من القـادة وكبـار الكتاب والوزراء ، وتقدم بمدائحه اليهم فنال ما تمنى من القربى والمـال والشهرة ·

وقدمه أحد ممدوحيه الوزير الفتح بن خاقـان الى الخليفة المتوكل فلقى لديه قبولا وقربه ، وصار شـاعره الاثـير · يكثر حضور مجالسه ومنادمته ، وشهد فـي النهاية مقتله هو ووزيره على يدى أحد جند الاتراك ·

وغادر البحترى بغداد في رحلات ينتجع بلاد المسلمين طالبا العطاء وقاصدا بشعراء الامراء والولاة ·ولقى بمصر خمارويه الطولونى فمدحـه ، وبقى بجواره زمنـا ·

واتصاله بالخليفة العباسى وكبار رجال دولته فهد له السبيل كى يكون شاعر الدولة الرسمى ، وداعيـة عباسيا · وقد ذكـر العلماء أنه كان عباسيا في اتجاهه الرسمى اذا تحدث عن حقهم في الخلافة والامامة وأشاد بهم ، ونافح عنهم ضد من ينكـرون حقهم ذاك · وفى مدائحه المتوكل تعلـو هذه النغمـة ، فهو عنده الذى أحيى السنة بعد أن أصبح الناس حـيرى بعد أن ضلوا فـى رأيه بغلبة الاعتزال وعلم الكلام · فقد نصر المتوكل أهل السنة على المعتزلة بعد أن غلبوا على بلاط الخلافة منذ زمن المـأمون ·

يقـــول :

اسلم امـير المؤمنـين لسنة   احييتها والناس حـيرى ضـلل

واذا كانت العباسية هي لونه الرسمي فان لاقوال العلماء في حقيقته اتجاها آخر ، ذلك أنهم رموه بالتقلب والتحـول ، يكون معتزليا ثم يتخلى عن ذلك ليصبح سنيا • يروى المرزباني أنـه قيل له : ويحك ! أتقـول :

ويجرفون كلامـه المخلوقـا

أصرت قدريا ــ يعني معتزليا ؟ ــ فقـال : كان هذا ديني أيـام الواثق ، ثم نزعت عنه أيام المتوكل •

البحتري الرجـل :

كان البحترى لا يحسن اختيار بزتـه ، طويل اللحيـة ، رث الهيئـة • وقد تواترت الاخبار في ذلك ، واتخذها بعض أعدائه من الشعراء سبة له ، يهاجمونه بها • وقالوا عنه : كان من أوسخ خلق الله ثوبا وآلة ، وأبخلهم على كل شيء ، وكان له أخ وغلام معه في داره ، فكان يقتلهما جوعا ، فاذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان فيرمي اليهما بثمن أقواتهما مضيقا مقصرا •

وكان يلازمه غلام له اسمه نسيم لا يطيق فراقه ، أكثر من ذكره في شعره ومنـه قوله :

دعا عبرتي تجري على الجود والقصد ... أظن نسيما قارف الهم من بعـدي

خلا ناظري من طيفه بعد شخصه ... فيا عجبا للدهـر فقد عـلى فقد

وكان نسيم غلاما روميا ليس بحسن الوجه ، وكان قد جعله بابا من أبواب الحيل على الناس فكان يبيعه ويعتمد أن يصيره الى

ملك بعض أنامل المروءات ، ومن ينفق عنده الادب فاذا حصل فى ملكه شبب به وتشوقه ومدح مولاه . حتى يهبه له ، فلم ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره .

وكانت هيئة البحترى عند انشاده الشعر تدعو الى السخرية منه . اذ كان من أقبح الناس انشادا . يتشادق ، ويتزاور فى مشيه مرة جانبا ومرة القهقرى ، ويهز رأسه مرة ، وفكيه أخرى ، ويشير بكمه ، ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله . ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون : أحسنت ؟! . هذا والله ولا يحسن أن يقوله أحد .

شـاعريته :

وقال البحترى شابا ، وكان يحب غلاما من أهل منبج يقال له شقران لقيه وقد نبتت لحيته فقال :

نبتت لحيـــة شـــقرا ن شقيق البقــى بعسلى
حلقت ! كيف اتتـــه قبـل أن ينجـز وعـدى

ويروى أن هذا أول شعر له قاله . ومن أوائل شعره كما يروى عن ابنه قوله يفتخر :

انما الغى أن تكون رشيدا

وقوله يصف الذئب : سلام عليكم لا وفاء ، ولا عهد

وقد التقى البحترى بعد أن نضج بأبى تمام فعرض عليه

وكان يقدمه ويحترمه ، ويجل شعره ، وقدمه الى ممدوحيه أستاذيته ٠

ولما نضج فى فنه واشتهر ارتحل الى بغداد يطلب المجد ٠ فى مديح عالية القدم ويمنى النفس ببلاط الخليفة ٠ وقد التقى ببغداد بكثير من رجال العلم ، والادب وكان يتردد عليه منهم المبرد ٠ كان يقدم عليه فى مسجده الذى يجلس فيه لالقاء دروسه ٠
وكانت صلته ببعض أدباء عصره كعبد الله بن الحسين القطربلى وطيدة ٠ وقد مدحه بقصائد منها :

خان عهدى معاوداخون عهدى

وقوله :

اهلا بذ لكم الخيال المقبل

وقوله :

الت وهل المامها لك نافع

ويتصل بالفتح بن خاقان ، ويقترب منه وتطول ملازمته له ، ، فيغدق عليه من ماله الكثير ويستغنى مما يخلع عليه ، وله فيه القصائد ذوات العدد ، والتى تعدو درر شعره مع قصائده فى المتوكل ٠

ويشير النقاد الى اعتذاراته لابن خاقان فيرونها من أجمل شعر الاعتذارات بعد النابغة ويقول فى الفتح :

وانت الذى اعززتنى بعد ذلتى	فلاالقول مخفوض ولاالطرف خاشع
واغنيتنى عن معشر كنت برهة	اكافحهم عن نيلهم واقارع
ملت ابالى جاد بالدفق باذل	على راغب او ضن بالخير مانع

مكانة البحترى الشعرية :

كان ابن المعتز يقول : « لو لم يكن للبحترى من الشعر الا قصيدته السينية فى وصف ايوان كسرى فليس للعرب سنية مثلها. وقصيدته فى وصف البركة :

ميلو الى الدار من ليلى نحييها

واعتذاراته فى قصائده الى الفتح بن خاقان ، ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة الى النعمان مثلها . وقصيدته فى ابن دنيار التى وصف فيها ما لم يصفه أحد قبله التى أولها :

الم تـر تفليس الربيع المبكر

ووصفه حرب المراكب فى البحر . لكان أشعر الناس ، فكيف اذا أضيف هذا الى صفاء مدحه ورقة نسيبه فى قصائده ؟! .

وكان ابن المعتز كثيرا ما ينشد له ، ويتعجب من جودته .

وكان أبو تمام يرى فيه مخايل شاعرة مبكرة حين التقى بـه فى بدء قوله الشعر ، وقدمه الى أهل المعرة ، ويقال ان أول لقاء بينهما كان فى حمص .

وكان البحترى كثيرا ما يذكر أبا تمـام وفضله عليه كلما سئل عمن أشعر فيهما أهو أم أبو تمام . وروى أنه قيل للبحترى:

الناس يزعمون أنك أشعر من أبي تمام • فقال : والله ما ينفعني هذا القول ، ولا يضر أبا تمــام • والله ما أكلت الخبــز الا به ، ولوددت أن الامر كما قالوا، ولكني والله تابع له ، لائذ به آخــذ منه • نسيمي تركد عند هوائه ، وأرضي تخفض عند سمائه •

قال الصولي معقبا على هذا : « وهذا من فضل البحــترى أن يعرف الحق ويقر بــه ، ويــذعن له وانــي لاراه ينبع أبا تمام ومعانيه حتى يستعير مع ذلك بعض ألفاظه فلا يقع الا دونه » •

وسئل البحترى : أيكما أشعر أنت أم أبو تمــام ؟ • فقال : جيده خير من جيدى ، ورديني خير من رديئه قال الصولي : وقــد صدق • جيد أبي تمام لا يتعلق به أحد من أهل زمانه •

ويروى أنه اجتمع في دار عبد الله بن الحســين القطربلي ، وكان معهما المبرد وجماعة من الفضلاء فسأله المبرد (وكان ذلك سنة ٢٧٦ هـ) وقد أنشد شعرا : أنت في هذا أشد من أبي تمام • فقال : كلا والله • ذاك الاستاذ الرئيس • والله مــا أكلت الخبز الا بــه • فقال له المبرد : تأبى الا شرفا من جميع جوانبك •

وقيل أن من فضائله في الشعر سبقه الى التغرية عن النبات•

أغراضــه الشعرية :

وموضوعات شعر البحترى أو أغراضه عامة هــي الاغراض الطالبة على الشعر العربي وشعر التكسب أو الاحتراف اذا جاز لنا

هذا التعبير في مجال الشعر · ومعظمه في المديح قصد به الخليفة العباسي وكبار معاونيه من الوزراء والكتاب والقادة والرؤساء ·

مديحـــه :

وفي مديحه يعرف للمعاني العامة التي اعتادها شعراء العرب من اضافة صفات المثال الكامل للرجل ، وأولها بطبيعة الحال صفة الكرم ، والهيبة ، وكريم الشيم ، وتتردد فـي شـعره بصورهـا التقليدية مع تلوين في العرض بما يناسب المقام ·

فيقـول :

ملك له في كل يـوم كريهـة — اقـدام ليث واعتـزام مجـرب
وتراه في ظلم الوغـى فتخاله — قمـرا يشد على الرجال بكوكب

ويقـول :

أعطيتني حتى حسبت جزيل ما — أعطيتينـه وديعـة لـم توهب
فنبعت من بسر لديك ونائـل — ورويت من أهل لديك ومرحب

ويمـدح محمد بن بدر من ممدوحيه فيقول :

بات ابن بدر لنا بدرا تهذبـه — سـد الظلام اذا امتـدت غياهبه
مناكـر لدنيئات الامـور تقى — يزور عن جانب الفحشاء ، جانبه

وقد يذكر البحترى عشيرة الممدوح أو قبيلة ، وهو اذا تناول الخليفة فانما يعرض لبني العباس وشمائلهم وفضلهم على الخلافة وذ بهم عنها كل معتد أو ضال وخارج · ويذكر حمايتهم للاسلام ، واقامتهم لا علامة وبسطهم لفته وعدلهم بين الناس - مع ما يضفيه الله عليهم من جلالة الامامة وبهاء الخلافة ·

يقول في المتوكل وهو في مقدمة ممدوحيه :

يعلو بقدر في القلوب معظم	أبدا وعز في النفوس جديد
في هضبة الاسلام حيث تكاملت	أنصاره من عدة وعديد
احيا الخليفة جعفر بفعاله	افعال آباء له وجدود
تنكشف الايام من اخلاقه	من هدى مهدى ورشيد رشيد
فاسلم امير المؤمنين ولا تزل	مستغليا بالنصر والتاييد
نعتد عزك عز دين محمد	ونرى بقاءك من بقاء الجود

ويقول فيه :

خلق الله جعفرا قيم الدنيـ	ـا سدادا وقيم الدين رشدا
وشبيه النبي خلقا وخلقا	ونسيب النبي جدا فجدا

ويليه من ممدوحه من رجال الدولة الكبار الفتح بن خاقان ، وكان مقربا من المتوكل • ويشير البحترى في مديحه الى مكانته تلك من الخليفة ، والى أياديه في حفظ الدولة والذب عنها •

يقول :

سللت دون بني العباس سيف وغى	يدمى وعزما اذا ضرمته وقدا
آثار باسك في أعداء دولتهم	اضحت طرائق شتى بينهم قددا
اما قتيلا يخوف السيف مهجته	أو نازعا ليس ينوى عودة أبدا
حتى تركت قناة الملك قيمة	بالنصح لا عوجا تشكو ولا أودا

وهكذا تجد البحترى يكيل الصفات العامة لممدوحيه ، مثنيا بما قد يناسب المقام من صفات خاصة تتصل بشخصه ومكانته في الدولة أو في قومه ، وما يتولى من الاعمال • وهو نهج سلوك تعاوده الشعراء •

ولا جديد في هذه المعانـي ، وجـميل من البحـترى حسن ديباجته ، وورنق عرضه لمعانيه القديمة الجارية · ونضرب مثالا على هذا الجديد في حسن العرض بوصفه لمهابته الخليفة ·

في المديـح (الخليفة المتوكل) :

وللبحترى صياغة سلسة تجرى مجرى المـاء رقـة وعذوبة ، يعبر بها عن معناه في وضوح لا يقدر عليه غيره · فيتناول معنى من معاني المديح ، مهابة الخليفة ، فيعبر عنه تعبيرا جميلا رائقا فيقول دون كلفة :

ولما حضونا سدة الاذن أخـرت	رجال عن الباب الذى انا داخله
فافضيت من قرب الى ذى مهابة	اقابل بدر الافق حـين اقابلـه
الى مسرف في الجود لو أن حاتما	لديه لامسى حاتما وهو عاذلـه
بـدا لى محمود السجية شـمرت	سرابيله عنـــه وطالت حمائله
كما انتصب الرمح الرديني ثقفت	أنابيبه للطعن ، واهتـز عامله
وكالبـدر وافتـه لتـم سـعوده	وتم سـناه واسـتهلت منازلـه
فسلمت واعتاقت جناني هيبـة	تنازلني القول الذى انا قائله
فلمـا تأملت الطلاقـة وانثنى	الى ببشر آنستني مخائلـه
دنوت فقبلت الندى في يد امرىء	جميـل محياه سـباط انامله
صفت مثل ما تصفو المدام خلاله	ورقت كما رق النسيم شمائله

وقد أعجب النقاد هذا العرض فقالوا لم يقل أحد في مثل ما قال ·

وتتسم قصائد البحترى في المديح بسمات هذا الموضوع في الشعر العربي عامـة ، وهو موضوع غايته التكسب أى أن يحصل الشاعر من ورائه على المـال ، وتركت هذه الغاية أثرهـا فيمـا

يقول ، كالتعريض بالطلب ، أو الشكر الذليل رغبة في زيـادة العطاء ، أو الشكوى من الحاجة والفقر ، واللهفـة على أن يكون للشاعر بفضل الممدوح ما يكفيه ، ويروى غلته ويسد حاجته ٠

وللبحترى فى هذا كثير من الشعر لا يدخل مداخـل الفن ، بل هو أقرب الى السؤال والاستجداء ٠

يقول للحسن بن سـهل :

أثنى عليك ثنـاء مـن الفتيـه	غفـلا فعـاد بنعمـة موسـوما

ويقول للخليفة المتوكل :

امنت به الدهر الذى كنت أتقى	ونلت به القدر الذى كنت آمله

ولكن قصائد المديح بعد ذلك تكون مجالا ــ أحيانا ــ لان يكشف الشاعر عن شاعريته وفنـه بعد أن يفرغ من غايتـه تلك ٠

بناء القصيدة عند البحترى :

يبدأ فى القصيدة التقليد بمطلعة التقليدى فى النسيب أو الغـزل ، وفى النسيب قد يذكر الديار والنـزوح ٠ والفراق ، ويذكر الشيب والشباب المولى ٠

يقـول مثـلا :

هب الدار ردت رجع ما أنت قائله	وأبدى الجواب الربـع عما تسائله
افى ذاك برء من جوى ألهب الحشا	توقده واستغزر الوضع جائله
هو الدمع موقوف عـلى كل دمنـة	تمـرج فيهـا او خـليط تزايلـه

وهو مفتن في تنويع هذا المطلع ، يعرضه في صور متعددة • كأن يقـول مثـلا :

عهدى بربعـك مأنوسا ملاعبـه	أشـباه آرامـه حسنا كواعبـه
يشبن للصب في صفو الهوى كدرا	ان وخط شيب أعدتـه ذوائبه

أو يقــــول :

لدارك يا ليلى سـماء تجـودها	وأنفاس ريح كل يـوم تعودها
وان خف من تلك الرسوم انيسها	واخلق من بعد الانيس جديدها
منازل لا الايام تعدى على البلى	رباها ولا أدب الخليط بعيدها
وعهدى بهامن قبل أن يحكم النوى	على عينها أن لا تدوم عهودها

والى جانب عرض البحترى للمعانى التقليدية في النسيب والغزل من ذكر للديار ، والدعاء لها بالسقيا وذكر معتادها من الوحش من العين والظباء ، وذكر الرحيل والفــراق وآلامــه ، والذكــرى ، واستعذابها واستعادة الايام الخوالى • الى جانب هذا كله نجـد البحترى يهتـم بالخيال ، أو طيف محبوبتـه ، فيسترجع به تلك الذكرى الماضية ، ولعل هذا الجديد الذى أدخله على هذا المطلع •

يقــــول :

أرجم في ليلى الظنون وأرتجى	أواخــر حب خلفتنى أوائلـــه
وليلة هو منا على العيس أرسلت	بطيف خيال يشبه الحق باطله
فلولا بياض الصبح طال تشبثى	بعطفى غزال بت وهنــا أغازله
وكم من يـد لليـل عندى حميدة	وللصبح من خطب تذم غوائله

وقد يبدأ مباشرة بذكر الطيف فيقول :

قد كان طيفك مرة يغرى بى — يعتاد ركنى طارقا وركابى
فالان ما يزداد غير مغبة — ومن الصدود زيادة الاغباب

ثم يبدأ بعدها بذكر الديار فيقول :

جئنا تحيى من اثيلة منزلا — جددا معالمه بنى الانصاب
ادنى الى العهد من عرفانه — حتى يكاد يرد رجع جوابى

وقد يبدأ بداية تقليدية دون تجديد ـ كأن يقول :

ارسوم دار ام سطور كتاب — درست بشاشتها مع الاحقاب

على أن للبحترى صورا عذبة الوقع رقيقة الخطوط على تقليديته يقول :

ترنو فتنقلب القلوب للحظها — مرضى السلو صحائح الاوصاب
رفعت من السجف المنيف وسلمت — بأنامل منهن درس خضاب
وتعجبت من لوعتى فتبسمت — عن واضحات لو لثمن عذاب

واذا خلص البحترى من هذا المطلع لم يحسن الانتقال ، وقد أخذ عليه هذا ، فقال النقاد لم يكن يحسن التخلص الى غرضه ـ

ومن جديد شعره :

وصف معركة بحرية بين المسلمين والروم ـ يقول يصف قائدا مسلما بحريا :

ولما تولى البحر والجود صنوه — غدا البحر من أخلاقه بين أبحر
اضاف الى التدبير فضل شجاعة — ولا عزم الا للشجاع المدبر

اذا شجروه بالرماح تكسرت ... عواملها في صدر ليث غضنفر

غدون على الميمون صبحا وانما ... غدا المركب الميمون تحت المظفر

أطل بعطفيه ومر كأنما ... تشوف من هادي حصان مشهر

اذا زمجر النوتي فوق علاته ... رأيت خطيبا في ذؤابة منبر

يغضون دون الاشتيام عيونهم ... وفوق السماط للعظيم المؤمر

اذا عصفت فيه الجنوب اعتلى له ... جناحا عقاب في السماء مهجر

اذا ما اتكفا في هبوة الماء خلته ... تلفع في اثناء برد محبر

وحولك ركابون للهول عاقروا ... كؤوس الردى من دارعين وحسر

تميل المنايا حيث مالت أكفهم ... اذا أصلتوا حد الحديد المذكر

اذا رشقوا بالنار لم يك رشقهم ... ليقلع الا عن شواء مقتر

صدمت بهم صهب العثانين دونهم ... ضراب كإيقاد اللظى المتسعر

يسوقون أسطولا كأن سفينه ... سحائب صيف من جهام وممطر

كأن ضجيج البحرين رماحهم ... اذا اختلفت ترجيع عود مجرجر

تقارب من زحطيهم فكأنما ... تؤلف من اعناق وحش منفر

فمارست حتى أجلت الحرب عن طلى ... مقطعة فيهم وهام مطير

على حين لا نقع تطوحه الصبا ... ولا أرض تلقى للصريع المقطر

وكدت ابن كسرى قبل ذاك وبعده ... مليا بأن توهي صفاة ابن قيصر

جدحت له الموت الذعاف فعافه ... وطار على ألواح شطب مسمر

مضى وهو مولى الريح يشكر فضلها ... عليه ومن يول الصنيعة يشكر

اذا الموج لم يبلغه ادراك عينه ... ثنى في انحدار الموج لحظة أفزر

تعلق بالارض الكبيرة بعدما ... تنقصه جرى الردى المتمطر

ابن الرومـي

(٢٢١ هـ ـ ٢٨٣ هـ)

هو الشاعر الكبـير الفنـان عـلى بن العباس بن جريج أو جرجيس ، أو جرجس وكان وفق نظام المجتمع آنذاك مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر ، أحد بنى العباس • وينتمى فى أصوله الى العنصر اليونانى ، فجـده كما هو ظاهر من اسمه منه •

ولد سنة ٢٢١ هـ ببغداد بجوار قصر مولاه عيسى بن جعفر بن المنصور • فى بيت كان صاحبه مولى لامير عباسى كبير • وقد اكتسب جانبا من الجاه والمال من مولاه • وكان العباس بن جريج على ما يبدو مثقفا ، حرص على تثقيف أبنائـه وتربيتهم تربيـة لائقـة •

وقد عاصر ابن الرومى فى بغداد تغيرات سياسية واجتماعية كبرى فى الدولة العباسية • شهد فى صباه سيطرة الفكر الاعتزالى، والفلسفة ، واتجاه العلماء الى الكلام ، وتغـير الخلفاء على أهـل السنة والحديث • ثم رأى فى شبابه التحول الكبير فى عصر المتوكل الى جانب أهل السنة ، وتعقب المعتزلـة والمتوكلين ، وتشريدهم وتعذيبهم •

وشاهد كذلك بعض الثورات الشعبية من شطار بغداد وعامتها على القادة والجند الاتراك تارة ، وعلى بعض الخلفاء والوزراء تـارة أخـرى •

ونضج الشاب ابن الرومي ، فارتاد قصور السادة والامراء والوزراء من رجال الدولة الكبار وقد عاصر من هؤلاء جماعة من بينهم سليمان بن وهب ، وعبيد الله بن خاقان من وزراء المعتمد ، وأبو الصقر سليمان بن بلبل الذى نسب نفسه الى شيبان وكانت صلة الشاعر به قوية، بين قرب وبعد ، مدحه فيها وهجاه ، ثم تقرب الى آل وهب وعلى الاخص عبيد الله والقاسم ونسب اليه موت ابن الرومي ، فيما قيل أنه دس عليه السم فى طعام لاقذاعه فى هجائه ٠

هذا وقد عاش ابن الرومي حياة بغداد فى القرن الثالث الهجرى بفرحه وترحه ، مباهجه ومنغصاته ، فكان ترجمانا صادقا له ، لما رزقه الشاعر من حس صادق ٠ وملكة مصورة ومقدرة على استخدام اللفظ ٠ مما مكنه من التقاط مشاهد الحياة وتسجيلها بالكلمة ٠

ومعظم ما صوره من بيئة بغداد الشعبية ، وقد عيب عليه فى بلاطات الكبراء هذه الصور الشعبية ، بالمقارنة مع صور ابن المعتز المشرقة بالنعمة والثراء ٠ روى ابن رشيق قال : ان لائما لامه فقال : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز ، وأنت أشعر منه ؟ ٠ قال : أنشدني من قوله الذى استعجزتنى فى مثله ٠ فأنشده فى صفة الهلال ٠

فانظر اليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

فقــال زدني . فأنشده :

كـــان آذريونهـــا	والشمس فيـه كاليـة
مـــداهن مـــن ذهب	فيهـا بقايـــا غاليـه

فصاح : واغوثاه ! . بالله لا يكلف الله نفسا الا وسعها . ذلك انما يصف ما عون بيته لانه ابن الخلفاء ، وأنــا أى شــيء أصف ؟ . ولكن أنظروا اذا وصفت ما أعرف ، أين يقع الناس كلهم منى ؟، هل قال أحد قط أملح من قولى في قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى السحاب مطارفا	على الارض دكنا وهي خضر على الارض
يطرزهـا قـوس الغمـام باصفـر	على احمـر فى اخضر وسـط مبيض
كاذيال خـود اقبلت فـى غلائل	مصبغة والبعض أقصــر مـن بعض

وقولى من قصيدة فى وصف الرقاقة :

ما انس لا انس خبازا مررت به	يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كـرة	وبين رؤيتهـا قـوراء كالقمـر
الا بمقـدار ما تنداح دائـرة	فى لجة المـاء يلقى فيه بالحجر

وتقلبت الحياة بأبي الرومي بين حــلو ومــر ، وكانت له من شخصيته ، وقلة حظه بين الناس وتوتره ، وتخوفـه ، وتشاؤمه وطيرته ما مكن لهذا الاحساس فى نفسه ، فأحس بتعاسة واقعة فى حياة مليئة بالبهجة والسرور ، ينهل الناس فيها ويعلون ، وكانت تعاوده بين الحين والحين ساعات الطرب ، والنشوة حين تزهو له الدنيا ، وتوطىء له كنفها ولكنها كانت ساعات قليلة يغنى فيها فتحس باللــذة والمتعة فى كلماته .

ويصور ابن الرومي حياته تلك الضيقة، التي ألحت فيها عليه ضروب المعاناة والمنغصات فيشكو متوجعا ، يحسد الهانئين قائلا :

حرمت في سني وفي ميعتي فرأى من دنيا تضيفتها
كم آهة لي قد تأوهتها فيها ، ومن اف تأففتها
أغدو ، ولا حال تسنمتها فيها ، ولا حال تردفتها
اوسعتها صبرا على لؤمها اذا تقصته تلطفتها

وهكذا كانت حال الشاعر في دنياه البغدادية ، بين أمل كبير في الشهرة وبلوغ المكانة في الشعر وهو جدير بها ، ويأس من الحياة ، وقنوط من بلوغ ما يريد • وقد لازمته شهرة أذاعها مليع فطن عليه ، شؤمه وطيرته • ورويت في هذا نوادر تناقلها معاصروه ، فكانت مادة للمداعبة أو المشاكسة •

قالوا انه يتطير من قطة سوداء تعترضه اذا هم بالخروج من بيته ، فيرتد ليقبع طوال يومه لا يغادره • وقالوا ان صحبته تكسب نحسا فتحاشاه الناس وأقربهم اليه • وأثار هذا فيه غضبا ، وزاده توترا ، فلزمته سوداوية نظر من خلالها الى العصر وأهله ، فبادرهم بهجاء لاذع مرير ، يصب فيه مرارة نفسه ، وينفس عن كربته • واتخذ الكلمة سلاحا لنقمته •

وزاد هجاؤه من وحشته وانصراف الناس من حوله ، وابتعادهم عنه للسانه •••

وكانت في طبع ابن الرومي حدة وتطرف ، كان اذا أحب

أحب بنهم ، وأقبل على من يحب أو ما يحبه بكل جوارحه ، واذا كره كره في عنف ، وأحس فيما يكره وفيمن يكره كل خصائص الشر والقبح .

وقد أهل ابن الرومي طبع فيه لنقد حال المجتمع ، فأبرز هذا جليا على غير المعهد من شعراء العصر ممن مجدوا الحكام والقادة ، وتقربوا اليهم بكيل المديح ، والصفات التي لا يملكون منها سوى القليل ، بل لعلهم يصفونهم على عكس ما يكونون تملقا وطلبا للمال .

وظهرت امام عين ابن الرومي الناقدة عيوب مجتمعه وناسه في مرحلة اضطربت فيها الاحوال ، واختلطت القيم ، فتقدم الحقير ، وتأخر الكبير ، وملك من لا يستحق ، وأهمل كل صاحب حق . قال ابن الرومي :

أتراني دون الاولى بلغوا الآما ... ل من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا ... بالمنى في النفوس والاحباب
فيهم لكنة النبيط ولكن ... تحتها جاهلية الاعراب
غير مغنين بالسيوف ولا الاقـ ... ـلام في موطن ، غناء ذباب
ويظلون في المناعم واللذا ... ت بين الكواعب الاتراب
لهم المسمعات ما يطرب السا ... مع والطائفات بالاكواب
وجوار كأنهن جوار ... يتسللن من مياه عذاب
لابسات من الشفوف لبوسا ... كالهواء الرقيق أو السراب
لو ترى القوم بينهن لاجبرت ... صراحا ، ولم تقل باكتساب
من اناس لا يرتضون عبيدا ... وهم في مراتب الارباب

وكان طبيعيا بعد أن يرى هذا الانقلاب الغريب في الاوضاع، وسيادة قانون الغاب ، وتمكن من ينتهز الفرص ، أو يملك القدرة على القربى الرائفة من ذوى السلطان ، كان طبيعيا بعد هذا أن تزداد أحوال الناس اضطرابا ، لانشغال من يصرفون أمورهم بأحوالهم وملاذهم ويجمع الاموال ، ولا قدرة لديهم على تصريف شئون الامة وصلاح حال المجتمع . يقول :

أصبحوا ذاهلين عن شجن النا	س، وان كان حبلهم ذا اضطراب
في أمور ، وفي خمور ، وسمور	وفي قاقم ، وفي سنجاب
وتهاويل غير ذاك من الرقم	ومن سندس ومن زرياب
عندهم كل ما اشتهوه من الا	كال ، والاشربات والاثواب

وكانت هذه صرخة شاعر يحس بآلام مواطنيه ، ويترجم عن صيحات الغضب التي تصدر هنا وهناك وتترجم أحيانا الى انتفاضات في شوارع بغداد ، ثورات للعامة ، أو العبيد ، أو في صورة أعم كثورة الزنج في جنوب العراق أيام المعتمد والمقتدر والمعتضد . وفي هذا القرن الثالث نفسه في نصفه الثاني ، وقد عاصر هذا كله ابن الرومي ، وراقبه ، ونم شعره عنه .

وقيل أن في ابن الرومي وشعره روحا علوية ، وتصدى بعض الباحثين لعلاقته بالعلويين فخرج بعضهم بعلويته عقيدة ، ومال آخرون الى علوية بالهوى ، ولعل الرأى الاخير أصوب ولان الاتجاه العلوى في ذلك العصر كان يحتوى كل الغاضبين والساخطين على الدولة ، ولما كان هو غاضبا ساخطا فلم يكن غريبا اتجاهه

الى العلوية وانجذابه نحوهم . وقد لاقى ذلك الاتجاه ترحيبا عند بعض ممدوحيه ممن كانت ميولهم شيعية أو علوية كآل نوبخت، وبعض البيوتات الفارسية الاصل من كبار رجال الدولة .

ويمكن ان يقال ان ابن الرومي عاش معظم حياته في بغداد لم يغادرها الى ما جاورها من البلاد الا فـي القليل النـادر مثل خروجه الى سامرا أو واسط في العراق قاصـدا بعض ممدوحيه وكان غالبا ما يبعث بقصائده فيهم الى مواطن اقامتهم .

ويسلك في طريقه الى سامرا طريق النهر فيصعد في دجلة، وكان يخشى الماء وركوب البحر وقد سجل احدى رحـلاته هذه النهرية كاشفا عن مخاوفه . يقول :

وأما بـلاء البحر عنـدي فانه	طواني على روع من الروح واقب
فايسر اشفاقي من الماء انني	أمر به في الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب	فكيف بأمنيـه عـلى ظهر راكب
اظـل اذا هزتـه ريـح وولألأت	له الشمس امواجا طوال الغوارب
كأني أرى فيهن فرسـان بهمة	يليحون نحوي بالسيوف القواضب

شـعره :

وشعر ابن الرومي يدور معظمه من حيث الشكل في موضوعات المديح والهجاء والغزل والوصف ويستغرق المديح جـزءا كبيرا، لانه شاعر محترف يتكسب بالشعر، ويقصد به الرجال ليثيبوه عليه . وهو يسأل في شعره، ويلح كثيرا في السؤال . فاذا أعطي رضي وواصل المديح، وأضفى الثناء، واذا منع عاتب، ثم هجا .

ويكشف شعره عن معرفة بالشعر العربي القديم ، كما يبوح بثقافته • وقد جمع أطراف الثقافات في عصره على عمق معرفته بالعربية وآدابها •

وأشار الى بعض صحبته في الدرس فقال :

أيام نسرح في مراد واحد   للعلم تنتجع القلوب غريبه

كما ورد في شعره بعض المعارف والاسماء المتداولة في الشعر العربي القديم والعباسي • وفيه اشارات الى الشعراء من أمثال امرىء القيس والنابغة ولبيد ، وربما استشهد ببيت او بيتين لواحد منهم ، ومن شعراء المحدثين اشار الى أبي نواس ودعبل والحسين بن الضحاك •

واطلاعه على الشعر العربي ، وأخذه بأسباب الثقافة العربية لم يحرماه من التجديد في شكل الشعر ، وأساليبه ، وبنائه -

وربما قال الشعر في سن مبكرة ، وراض القول فيه في العشرين أو الحادية والعشرين أي حوالي سنة ٢٤١ هـ •

وأهم ما في شعر ابن الرومي أنه تسجيل لحياته ، وحياة بغداد في عصره ، فشعره صورة حية للحياتين معا • وقارئه يقف أمام صور متتابعة لا يستطيع التاريخ أن يوحي بها واذا تشفها أبيات ابن الرومي وتلقي بها في وجدان القارىء •

ونري ملامح هذه الشخصية ظاهرا وباطنا ، فشعره به قدر

كبير من الذاتية ، والبوح بمكنونه ٠وقد كان الشاعر فيما يروى دقيق الجسد جميل الصورة فى شبابه الاول ٠

يقـــول :

أنـا مـن خف واسـتدق فمـا   يثقـل أرضـا ولا يسـد فضـاء

ويكشف عن مكنونه ونوازعه ، وتناقضات رغائبه ورهائبه فيقول بين أمال الهوى ونوازع الحياة ، وخوف السعي ، ورهبة المستقبل :

فاصبحت فى الاثراء ازهد زاهد   وان كنت فى الاثراء أرغب راغب
حريصا جبانا ، أشتهي ثم انتهى   بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فانه   فقير أتـاه الفقر من كل جانب

ويكشف عن تردده وتخوفه الذي وسم شخصه فى قوله :

فقدمت رجـلا رغبة فى رغيبـة   وأخرت رجـلا رهبـة للمعاطب

وخوفه المستقبل فى قوله :

الا من يريني غايتي قبل مذهبي   ومن أين؟٠والغايات بعد المذاهب

وفى نفسه سماحة الفنان ، يعفو ، ويقبل المعذر ، ويحب ويقبل على من أحب كذلك هو فى كرهه لا يخف ٠

يقـــول :

شكرى عتيـد وكذاك حقـــدى   للخـير والشر بقاء عنـدى

وله فى الاخاء تلك القصيدة الجارية السائـرة على الالسن كلما ذكرت الصداقة ٠

يا اخي اين عهد ذاك الاخاء

ونفسه نهمة ، ونوازعه النفسية كنوازعه الجسدية عارمة ، فهو في شهوة الطعام والشراب مضرب المثل تتكشف أبياته عنها ، فاذا هو يلتهم ما يحبه بكل جوارحه ، ويتذوقه بكل أحاسيسه ألا تراه يقول في الموز وكان مفتونه بين الفاكهة :

للمــرء احسـان بـلا ذنـوب ... ليس بمعدود ولا محسوب
يكـاد من موقعـه المحبوب ... يدفعـه البلع الى القلـوب

وحين يصف لك أطايب الطعام والمآكل تشعر وكأن ريقه يتحلب في نظمه شهوة ونهما · يقول في قطائف :

قطـائـف قـد حشـيت باللوز ... والسكر الماذي حشـو الموز
تسبح في آذي دهـن الجـوز ... سررت لما وقعت فـي حـوزي
سرور عبـاس بقـرب فـوز

وهو شاعر في نهمه وطعامه ، لا يأكل ما بين يديه أكل البهيمة لا يدرى ما يقضم ، بل يتأمل ، ويعجب ، ويقوم الجمال ، ويشبع أحاسيسه به قبل أن يملأ بطنه · يقول وهو يرسم صورة العنب ، وكأنه يخط لوحة تعجب ، قبل أن تفتح الشهية للالتهام :

ورازقـي مخطـف الخصـور ... كأنـه مخـازن البلـور
قـد ضمنت مسـكا الى السطور ... وفي الاعالي ماء ورد جوري
لم يبـق منـه وهـج الحـرور ... الا ضيـاء فـي ظروف نـور
لو انـه يبقـى على الدهـور ... قـرط آذان الحسـان الحـور

وابن الرومي فنان يتبع الجمال في الحياة أنى كان ببصره

وحسه وعاطفته ، يراه في شـاهد الطبيعة ، ويـراه في المرآة ، ويراه في الصوت الجميل •

ويرسم صورة لروضة تغرد طيورها على فننها المتراقص على هبات النسيم فيقول :

حيتك عنا شمال طاف طائفها بجنـة فجرت روحـا وريحانـا
هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه موسوسا ، وتنادى الطير اعلانا
ورق تغنـي عـلى خضر مهدلة تسمو بها وتمس الارض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه نشوانا

أو يقول في الربيع وقد تزينت له الدنيا بأنواع الزهر ، وتغنت طيره ، وامتلأت بالحياة فاقتتلت ، وتصاوحت :

أصبحت الدنيا تروق من نظـر بمنظـر فيـه جـلاء للبصـر
أثنت عـلى الله بـآلاء المطـر فالارض في روض كافواب الحبر
نـيرة النـوار ، زهـرة الزهر تبرجـت بعـد حيـاء وخفـر
تبرج الانثى تصدت للذكـر

صور جمال الصورة والشكل ، ونبض الحياة، وتدفقها عبـر الكائنات بين الذكورة والانوثة وتلاقيها ليستمر الوجود ، وتتوالد الاجيال فترى موجات الخلق ، موجة بعد موجـة ، واحـدة تفني لتتولد منها واحدة من جديد، وهكذا ••• والربيع زهرة الحيـاة والخلق تتبرج فيه الدنيا لتتلقـى نبض الحيـاة ، كتبرج الانثى تتلقى نبض الحياة ••• مشابهةليست فـي الشكل ولكنها فـي المعنى وعمق الاحساس ، وهكذا يخط الشاعر لوحاتـه ، تنطـق خطوطه وألوانه بعمق أحاسيسه ، وصادق شاعريته •

ويجتمع جمال الحياة بمشاهدها الطبيعية بجمال الانثى دائما في وجدان الشاعر وخياله ويصرح بهذا في قصيدة نونية مشهورة يقول فيها :

أجنت لك الوصل اغصان وكثبان	فيهن نوعان تفاح ورمان
فصون بان عليها الدهر فاكهة	وما الفواكه مما يحمل البان
تجاوزت في غصون لسن من شجر	لكن غصون لها صد وهجران

ويسجل شعر ابن الرومى وقائع حياته كذلك في بيته وبين أبنائه وعلاقاته بالناس ، كبيرهم وصغيرهم بمن أحب منهم ومن كره ٠

وكانت علاقاته بكثير من رجالات عصره ، بين وزراء وكتاب، وشعراء وعلماء ، وفي مقدمة من شغل شعره بهم مديحا وهجاء من الوزراء والكتاب آل صاعد بن مخلد ، واسماعيل بن بلبل الشيباني ، وبيت نوبخت ، وآل المنجم ، وآل وهب ٠ وابن المدبر ٠ وقد لعب هؤلاء أدوارا في أحداث العصر ، يشير اليها ابن الرومى في مديحه أو هجائه ٠

واتصلت الاسباب بينه وجماعة من شعراء العصر المشهورين كابي طاهر ، والبحترى ٠ وبعض من لم يشتهر شهرة هذين الشاعرين ٠ وقد استمرت علاقة ابن الرومى بالبحترى زمنا شابها كثيرا من التوتر ٠

وتناول شعره هجاء بعض هؤلاء مثل خالد القحبي

الذى هجاه بأكثر من ستين قصيدة وأبي حفص الوراق الذى سخر منه كثيرا ، وكانت أهاجيه تصف أهاجيه في خالد ٠

وذكر في شعره بعض نساء العصر ممن كن من المشهورات في وسطه ، أو نساءا لمن التقى بهم من الرجال زوجات أو جوارى مغنيات أو عازفات ٠

ومن أسمائهن عجائب ، وهي جارية تركية ، وجلنار راقصة على الطبل والصنج وبدعة محظية القاسم بن عبيد الله بن سليمان ابن وهب ، وبستان جارية زوجة القاسم ، ودريرة ، جارية عازفة، وشاجي جارية عبيد الله بن عبد الله ، وكانت موسيقية بارعة ، ومغنية ، وفيها ينظم قصيدة بديعة

ووحيد التي خلدها بالقصيدة الفريدة ، من الجوارى المغنيات ٠

أولئك من استهوين الشاعر بظرفهن أو غنائهن أو رقصهن وجمالهن وحسن ايقاعهن على الآلات ، وهناك من أثرن سخطه فهجاهن بلسان حديد ٠ وأفحش فيهن ٠ كشنطف القارئة ، وكانت مغنية قبيحة الصوت ، وشاغل جارية سلامة بن صاعد ، ومحب زوجة أحمد بن صاعد ٠

ويسجل شعره كذلك وقائع الحياة البغدادية بين لهوها وجدها ، سرورها وشقائها ٠ غناها وفقرها ٠ وينتقل بك في

مشاهدها ، في سلسلة من الصور عبر الديوان • وللاحداث مكان في ديوانه ، ومن أشهرها أحداث الزنج وما فعلوه بالبصرة ، وقد صنع فيها قصيدة فريدة •

ولا يقف ابن الرومي مع أحد من شعراء عصره في اتجاهه الفني ، فهو لا يذهب مذهب أبي تمام في اتخاذ البديع طريقة فنية للتعبير عن معانيه ، ولا يوغل ايغاله في اقتناص المعاني وكد الذهن ورائها ، ولا تحس في شعره مدى الجهد في البناء والصياغة •

كذلك هو لا يذهب مذهب البحتري في طريقة العرب ، والميل الى الصياغة السهلة والبناء العربي الديباجة ، دون حاجة الى اسراف في استخدام البديع •

فشعر ابن الرومي نسيج وحده ، ويقدر ما وصلنا من شعره في مخطوطه القاهرة وأتم تحقيقها الدكتور حسين نصار بضعف شعر البحتري ، وأكثر من ضعفي ما وصلنا من شعر أبي تمام وربما كانت هذه النسخة شاملة لكل شعره • فقد عرف عنه كثرة الشعر ، واقتداره على نظمه • يروي أحد رفاقه أنه كان قادرا على نظم القصيدة الطويلة في الساعات القليلة دون أن يعيد النظر فيها لتنقيحها •

ويقدر ريفون مست ما ضاع من شعره بثلاثة أرباعه ، وأن ما وصلنا منه لا يتعدى الربع على ضخامته •

ويصنف ابن الرومي بين الشعراء المطبوعين ، من امثال السيد الحميري وابي العتاهية وأبان بن عبد الحيد اللاحقي من شعراء المرحلة السابقة في عصر العباسيين • وكما جاء في أخباره أنه كان لا يجهد نفسه في عمل القصائد الطوال ، وكانت قصائـده تطول فتبلغ الثلاثمائة بيت تقريبا وتبدأ قصيدة المديح بمقدمـة تطول فتبلغ مائة بيت ، وقد تقصر ، ويتنوع موضوعها بين غزل يذكر فيه مفاتن المرأة على ما درج في الشعر التقليدى ، وان كانت روحه أقرب الى غزل العصرين من محدثي العباسيين • وقد يمتزج الغزل بوصف الخمر أو الغناء ، أو وصف الطبيعة ومفاتنها • وقد يخرج في هذه المقدمـة عن الطابع العـام الى موضوعات أخـرى كالحديث عن انقضاء الشباب ، وكبـر السن ، أو تقلب الزمن ، أو وصف مهرجان الى غير ذلك من الموضوعات •

وقد يستغني عن المقدمة تماما ، ويبـدأ في موضوعـه دون تمهيد • وتنتهي قصائد المديح غالبا بشكوى الحال ، والتعريض بالسؤال •

ويلي قصائد المديح في العدد والطول قصائد الهجاء ، وقديما قال بشار بن برد : ان الهجاء آخذ بضبع الشاعر ، وهو كذلك ، وسيلة للكسب عند من لا يهزهم المديح ، فيخيفهم الهجاء • ولعله آخذ كذلك بنصيحة بشار حين قال : اذا أردت أن تكرم في زمن اللئام فعليك بالهجاء •

وينقسم هجاؤه الى معتدل ومقذع، والمعتدل، يجرى فيه على نسق غيره من الهجائيين فى كيل صفات القبح ، وسلب المهجو كل فضيلة • والهجاء المقذع يتناول المثالب الشخصية ، ويعرض العيوب الجسدية فيجسمها فى سخرية مرة ، كطول اللحية ، وجحوظ العينين ، والحدب ، وقد يفحش القول فيتناول العورات ، والعمل الفاضح بصورة تخرج بالشعر الى السباب والتجريح •

ويدور غزل ابن الرومى فى المرأة وبعضه فى القلمان ، يعرض فيه لمحاسن المحبوب ، وأحوال حبه معه ، وآثاره فى نفسه، وما يلقاه من الهجر ، والدل ، وقد يدور الحوار بين الحبيب والمحبوب ، أو مع بعض صحابته •

واشهر من تغزل بهن من المغنيات وحيد وشادى •

ولابن الرومى مقدرة خاصة في الوصف ، وهو يبنى صوره الشعرية الوصفية بناءا واحدا مسلسلا ، يخرج فيه من الاطار العام الى الخاص ، وما يزال يمعن فى ذكر جزئيات الصورة ويتنقل من واحد الى آخر حتى يشفى منها غليله ، ويشبع فنه •

وقد عرف مقدرته على رسم الصور بخطوط بارعة أحسن التعبير عنها لفظا وايقاعا ومن أشهر لوحاته يصف خوفه من المغنيات الموسيقيات يحملن آلاتهن الموسيقية أو يحتضنها ، من عود وجنك ويربط :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوان
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان

ملقمات اطفالهن ثديا	ناهدات كأحسن الرمان
كل طفل يدعى بأسماء شتى	بين سود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه	وهو بادى الغنى عن الترجمان
غير أن ليس ينطق الدهر الا	بالتزام من أمه واحتضان
أوتى الحكم والبيان صبيا	مثل عيسى بن مريم ذى الحنان

وقد تأخذ اللوحة أبياتا طوالا كلوحته لوحيد ، والتى يبدؤها بقوله :

يا خليلى تيمتنى وحيد	ففؤادى بها معنى عميد

أو فى البحر والسفين :

ذكرتك حين القت بى عصاها النـ ـوى يوما بنهر أبى خصيب
وقد ارست بنا فى ضفتيه الـ ـجوارى المنشآت مع المغيب

وقد تكون الصورة سريعة يرسمها فى خطوط قليلة لماحة ، كخط الكاريكاتير يبرز أوضح ملامحها • وهاهى صورة الاحدب :

قصرت أخادعه ، وغار قذاله	فكأنه متربص أن يصفعا
وكانما صفعت قفاه مرة	واحس ثانية لها فتجمعا

وفى وصف مغنية تجهد نفسها فى الغناء فتبرز عروق رقبتها ويكاد صوتها لا يغادر شفتيها :

تضغط الصوت الذى تشدو به	غصة فى حلقها معترضة
فاذا غنت بدا فى جيدها	كل عرق مثل بيت الارضة

ويقول فى صاحب لحية كبيرة :

ولحية يحملها مائق	شبه الشراعين اذا اشرعا

لو قابـل الريح بها مـرة   لم تنبعث من خطـوه اصبعا
أو غاص في البحر بها غوصة   صار بهـا حيتانـه أجمعـا

وفضيلة ابن الرومى التعبيرية غير الخيال المحـكم والمقـدرة الفائقة على التقاط الصورة وتسجيلها بألفاظ مناسبة سهلة قريبة مقدرة لغوية ، فضيله بعد هذا لغة قريبة لا وعورة فيها ولا تكلف ، يشعر القارىء بأنها طبيعية بين يديه لا تعصاه تنساب مع فكره وخيالاته ومعانيه انسيابا، ويشقق منها ويلونها صوتا وبناء كما يريد ٠

وقاموسه اللغوى من جارى كلام عصره ، مع فصاحة ونقاء ، أقرب الى لغـة الكتاب ولهذا قالوا انه يبنى قصائده بناء الرسائل ٠ وتختلط ببعض الالفاظ الفارسية والرومية من مستعمل اللغـة الذى انتقل مع ألوان الحضارتين ، والثقافتين الى الحياة والفكر الاسلامى والعربى فى هذه المرحلة ٠ وهى بعد لغة بغدادية نقية من شوائب الغريب البدوى الذى نلحظه فـى شعر الوافدين على بغداد من الشام أو أطراف الجزيرة وأواسطها ٠

يقول ريفون جست :

« ولغة ابن الرومى موجزة محكمة ، وألفاظه كثيرة ، ولكن أسلوبه عامة سهل ، وعربيته كثيرة الشبه بالعربية الادبية فى هذه الايام ، ولذلك يستطيع المثقفون من الناطقين بالعربية الآن فهم قدر كبير من شعره دون مشقة ، كما يتضح مـن المقتطفات الكثيرة

التي نشرها من شعره كامل كيلاني والعقاد اللذان قلما شعرا بحاجتهما الى اضافة كلمة لشرحها للقارئ ... وهو وان لم تستعبده التعبيرات غير المألوفة تحتوى قصائده على قدر كبير منها تضم ألفاظا غير مذكورة في المعاجم أسماء وأفعالا . ويستعمل قليلا من الالفاظ الفارسية التى ربما كانت قد صارت جزءا من العربية في بغداد آنذاك » (١) .

وقد لاحظ بعض العلماء عليه أخطاء في النحو ، لتساهله في التعبير ، وقد تعقبه في ذلك الاخفش النحوى ، ولهذا أثار حفيظته فهجاه .

موقف النقاد من ابن الرومي :

تفاوتت مواقف النقاد منه بين مقرظ ومعترض ، ومادح وقادح . وكان قدح القادحين للسانه وكثرة هجائه ، مع بعض مآخذ في لغته وتعبيراته .

ولكن كثرة النقاد من الواعين يقدمونه ويرون فيه شاعرا كبيرا . وفنانا أصيلا .

يقول المرزباني (٢) : « أشعر أهل زمانه بعد البحترى ، وأكثرهم شعرا ، وأحسنهم أوصافا وأبلغهم هجاء ، وأوسعهم

---

(١) ابن الرومي لرينوى حيث ترجمه حسين نصار ، ص ٨٧ .

(٢) معجم الشعراء ص ٢٨٩ ، والموشح ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ .

في سائر أجناس الشعر وضروبه وقوافيه ، يركب من ذلك ما هو صعب فتناوله على غيره ، ويلزم نفسه مالا يلزمه ، ويخلط كلامه بألفاظ منطقية يجعل لها المعـانى ثم يفصلهـا بأحسن وصف ، وأعذب لفظ • وهو في الهجاء مقدم ، لا يلحقه فيه أحد من أهل عصره ، غزارة قول ، وخبث منطق •

ولا أعلم أنه مدح أحدا من رئيس ومرءوس الا وعـاد عليه فهجاه ، ممن أحسن اليه أم قصر في ثوابه ، فلذلك قلت فائدته من قول الشعر ، وتحاماه الرؤساء ، وكان سببا لوفاته • وكانت به علة سوداوية ربما تحركت عليه ففرت منه » •

ويقول ابن رشيق (١) : « وأما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن افتتانه • وقد غلب عليه الهجاء حتى شهر به فصار يقال : « أهجى من ابن الرومي » • ومن أكثر من شيء عرف به • وليس هجاء ابن الرومي بأجـود من مدحـه ، ولا أكثر ، ولكن قليل الشر كثير » •

ويقول (٢) : « وكان ابن الرومي ضنينا بالمعاني ، حريصا عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يتركه حتى يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه في كل وجه ، والى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم

---

(١) العمـدة ١/١٩٤ •

(٢) العمـدة ٢/٢٨٣ •

أن لا مطمع فيه لاحد » • ويقول : « وأنا أقول ان أكثر الشعراء اختراعا ابن الرومي » (١) •

ويقول الصفدى ان ابن الرومي كان شاعرا فحلا بعيد الغوص على المعانى • فاذا تناول معنى استقصاه حتى لا يترك منه شيئا مما أدى به الى حالة أحيانا • وقال ان تشبيهاته غير عادية وجيدة فاذا ما راقه أحدها تتبعه وكرره في كثير من قصائده • وذكر رأى الخالديين (توفيا سنة ٣٥٠ هـ ـ ٣٨٠ هـ) فى أنهما لم يريا مثله حين ينفرد بمعنى ما ، ولكنه حين يأخذ معنى شاعر آخر يسقط فيه » •

ويقول بروكلمان : « وشعر ابن الرومي أقل طنطنة ودويا من شعر المتنبي ، ولكنه أبين وأذلق • وفن ابن الرومي يعتمد بالمرتبة الاولى على العيان والمشاهدة ، فهو يلمح بالنظرة الحادة النقائض والعيوب الجثمانية على الخصوص عند خصومه فيصوغها في هجاء مرير لاذع ، بيد أنه يصور بهذه النظرة اللماحة نفسها صور البهجة والحياة السعيدة كذلك ، لا سيما أعياد رجال الدولة ولذائذ المجتمع فى القصور » •

ومما يشهد لابن الرومي أيضا بالقدرة على صياغة الاحاسيس والعواطف الصادقة رثاؤه لابنه محمد الذى يعده العقاد بحق من درر الشعر العربي •

---

(١) العمدة ٢/٢٤٤ •

وينسج ابن الرومي على منوال الخريمي ، فيجترىء أيضا على وصف المواقف التاريخية ، كما فـي شكايته من غلبة الزنج عـلى البصرة ٠

ويسير على غرار أبي على الحمدوني شاعر العامة ، فيجاريه في شعره الذي يصف فيـه الطيلسان القاشي ويقتفـي النماذج الفارسية ، فيروض نفسه في نظم المناظرات الشعرية ، كما في مناظرته بين النرجس والورد وبين السيف والقلم ٠

ولكن قد يبعثه أيضا على قول الشعر منظر يراه في الطريق ، كمنظر الخباز يدحو الرقاق ، بل هو ينظم كذلك أوصافا ووصايا للطباخين ليحتذوها في مهنتهم ، فيجعل من نفسه رائدا في هذا اللون الادبي للمأموني البخاري (٣٨٢ هـ ـ ٨٧٢ م) وأبي اسحاق الشيرازي المتاخر عنه ٠

وابن الرومي على حق حـين يأبـى لنفسـه أن يفضل عليه البحتري القليل التنوع ، والذي قصر شعره عـلى فن واحد وهـو المديـح ٠

وقال حسيب ان نقـاد العرب القدمـاء اتفقوا على تفضيل البحتري على ابن الرومي ، أما الغربيون فالمرجح أنهم يفضلون ابن الرومي ٠ وربما كان البحتري أجمل لغـة ، وأكثـر صقـلا لالفاظه ، ولكن ابن الرومي أكثر اخلاصا لنفسـه ، وأقل ميـلا للمواصفات التقليدية في الشعر ٠

وفي مرثيته لابنه حـرارة شـعور وعمق احسـاس لا يمكن التفوق عليها ، وفي هجائه قدر من الاحتقار والازدراء الحقيقيين يعوضان قدرا من اقذاعه المفحش ٠

ويظهر في وصفه قوة ملاحظة بارعة ، ويعطي بعض اوصافه تأثيرات حية بواسطة لمسات سريعة ٠

ويقول جست : « ولا يمكن انكار أدبه ، وقد يعجب المرء من براعته في العثور على أشياء طريفة يقولها حتى في مدائحه التي كثيرا ما يطيلها طولا كثيرا ٠

ومن خصائص شعره اللافتة للنظر اتصال الجدل فيه وتماسكه في مقابل جدل بعض شـعراء العرب الآخرين فـي عصره والذين يقدمون أشياء واضحة ، ولكنها غير متصلة بعضها ببعض الا اتصالا طفيفـا ٠

والخاصة الاخرى التي نلاحظها جرأته في صوغ تجاربه في صورة موضوعات وألوان من الحوار يدخلها في المقيدة وفي طرق التعبير التي قلما ترد في شعر غيره من شعراء عصره ٠

ومن مختارات شعره :

جنــة المحــبين

أجنت لك الوصل أغصان وكثبان — فيهن نوعـان تفـاح ورمـــان
وفوق ذينك أعناب مهدلــة — ســود لهن من الظلماء الـــوان
وتحت هاتيك عنــاب تلوح به — أطرافهن قلوب القـدم قنــوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة — وما الفواكه مما يحمل البـــان
ونرجس بات ساري الطل يضربه — وأقحــوان منير النــور ريـــان
ألفن من كل شــيء طيب حسن — فهن فاكهـــة شــتى وريحـــان
ثمار صدق اذا عاينت ظاهرها — لكنها حين تبلو الطعم خطبـان
بل حلوة مرة ، طورا يقال لها — شــهد وطورا يقول الناس ذيفان

* * *

ياليت شعرى وليت غير مجدية — الا استراحة قلب وهو أســوان
لاى أمر مــراد بالفتــى جمعت — تلك الفنــون وضمتهن أفنـان
تجاورت في غصون لسن من شجر — لكن غصون لها وصل وهجران
تلك الغصون اللواتي في أكمتها — نعم وبؤس وافــراح وأحــزان
يبلو بها الله قوما كي يبين له — ذو الطاعة البر ممن فيه عصيان
وما ابتلاهم لا عنات ولا عبث — ولا لجهل بمــا تطويه أبطــان
لكن ليثبت في الاعنــاق حجته — ويحسن العفو والرحمن رحمن

* * *

ومن عجائب ما يعنى الرجال به — مستضعفات لنــا منهن أقــران
مناضلات بنبــل لا تقــوم لــه — كتائب الشرك يزجيهن خاقــان
من كــل قاتلــه قتــلى وأسرة — اسري وليس لها في الارض اثمان

يولين مـا فيه اغـرام وآونـة ... يولين ما فيـه للمشغوف سـلوان
ولا تدمن عـلى عهـد لمعتقـد ... انى وهن كما شـبهن بستان
يميل طورا بحمل ثم يعدمه ... ويكتسي ثم يلفى وهو عريان
حالا فحالا ، كذا النسوان قاطبة ... نـواكث دينهن الدهـر اديـان

* * *

تغدو الفتاة لها خل وان غدرت ... راحت يناقس فيها الخل خـلان
ما للحسان مسيئات بنـا ولنـا ... الى المسيئات طول الدهر تحنان
فـان يكن بعهد فلـن منـدرد؟ ... انا نسينا وفي ، النسوان نسيان
يكفي مطالبنـا بالذكـر ناهية ... أن اسمنا الغالب المشهور نسوان
لا تكرم الذكر انا لم نسم به ... ولا منحناه بل للذكـر ذكـران
فضل الرجال علينا أن شيمتهم ... جـود وبأس وأحـلام وأذهان
وأن فيهم وفاء لا نقـوم بـه ... ومن يكون مع النقصان رجحـان
صدقن ما شئن لكنـا تقصنا ... منهن عـين تلاقينا وادمـان
انكي وأذكي حريقا في جوانحنا ... خلق من المـاء ، والالوان نيران
ماء ونار فقد غادرن كل فتى ... لابسن وهو غزير الدمع حران
تغضل منهـن عـين فهي باكية ... ويسعر فـؤاد وهـو هيمـان

* * *

يا رب حسانة فيهن قد فعلت ... سـوءا وقد تفعل الاسواء حسان
تصمي المحب وتكفي وهي شاكية ... كالقوس تصمي الرمايا وهي مرنان
واصلت منها فتاة فـي خلائقها ... غدر وفي خلقها روض وغدران
هيفاء تكسى فتبدو وهي مرهفة ... خود تعرى فتبدو وهي ميـدان
ترتج أردافهـا والمتـن مندمج ... والكشح مضطمر والبطن طيـان
ألوف عطر تذكى وهـى ذاكية ... اذا أسامت جداو العطر أبدان

نمامة المسك تلقى وهي نائية ... فتابها بنعيم المسك لقيان
نعيم كل نهار من مجامرها ... ويشمس الليل منها وهو ضحيان
كأنها وعثار الغد يشملها ... شمس عليها ضبابات وأدجان
شمس أطلت بليل لا نجوم له ... الا نجوم لها في البحر أثمان
وتلبس الحلي مجعولا لها عوذا ... لا زينة ، بل بها عن ذاك غنيان
لله يوم أرانيها وقد لبست ... فيه شبابا عليها منه ريعان
وقد ترددت على سربال بهجتها ... فرعا غذته الغوادي فهو فينان
جاءت تثنى وقد راح المراح بها ... سكرى تغنى لها حسن واحسان
كأنها غصن لدن بمروحة ... فيه صمائم هاجتهن أشجان
اذا تمايل في ريح تلاعبه ... ظلت طرابا لها سجع وارنان

* * *

يا عاذلي أفيقا انها أبدا ... عندي جديد وان الخلق خلقان
لا تلحياني واياها على ضرعي ... وزهوها ، فكلا الامرين ديدان
اني ملكت قلي بالحق مسكنة ... وملكت قلبها بالملك طغيان
اذلاما كان أصفى نعيم العيش اذ حميت ... نعم تجاورنا والدار نعمان
اذ لا المنازل أطلال نسائلها ... ولا القواطن آرام وظعران
ظلنا تقول وأشباه الحسان بها ... « سقيا لعهدك » والاشباه أعيان
بانوا فبان جميل الصبر بعدهمو ... فللدمع من العينين عينان
لي مذ نأدا وجنة ربا بمشربها ... من عبرتي وقسم ما عشت ظمآن

الشكوى من الزمان والفقر وسوء الحظ في الدنيا :

يقول من أبيات كتب بها الى القاسم بن عبيد الله : (ديوانه ٣٢٢/١) :

ثم أشكو اليك جدبي والمر ... عى مريع ، والماء صاف شروب

الك الامر والسياسة ، واسم المعتفيـــك الصعلوك ، والقرضوب
ثوبي الرث ، والثياب طـــراء   وطعامي برغمي المجشوب
وخواني ملكك وقصاعي   وبرامي ، فكلهـا مشعوب
وجفاني مصدوعة ، وجراري   وقلالي ، فكلهـا مثقوب
ومحلي عارية وجدارا   ت بيتي ، فكلها منقوب
ومقيلي في الصيف سخن بلا خيـــش فعظمي يكاد منه يذوب
ومبيتي بلا ضجيع لدى القصـــر ، وللوغد شادن رعبوب
ولي الخف ذو الرقاع أو النعـــل ، وللعبد سابح يعبوب
وهمومي محدثاتي ، وبستاني شوك ثماره الخروب
عكست أمري النحوس فعنزي   أبدا حائل ، وتيسي حلوب

ويشكو امتهان كرامته وانسانيته لوقوفه طويلا أمام أبواب أصحاب الجاه والسلطان ، ويسوءه أن يضطر الى الوقوف يحجبه عن صاحبه حاجب ثقيل ، يعامله معاملة غير كريمة ، فيحقر نفسه ، ويتولى غاضبا يلعن الحياة والناس ، ويلعن الزمن الذى اضطره الى هذا الموقف :

كم نسام الاذى كانا كلاب   كم الى كم يكون هذا العتاب
كلما جئت قاصدا لسلام   ردني من لقائك الحجاب
ما كذا يفعل الكرام ولا ترضى   بهذا في مثلي الاواب
أنا حر ، وانت من سادة الا   حرار أهل الحجا المصاحي اللباب
وقبيح بعد الطلاقة والبشر   بذي المجد نبوة واحتجاب
كل ملك يفنى وتبقى على الدهـــر لاهل المكارم الاحساب

شكواه مرور العمر : (عند بلوغه الخمسين)

فكرت في خمسين عاما خلت   كانت أمامي ثم خلفتها
تبينت لي اذ تذنبتها   ولم تبين اذ تانفتها

أجهلتها اذ هي موفورة … ثم قضت عني فعرفتها

ففرحة الموهوب أعدمتها … ونزهة المسلوب أردفتها

لو أن عمري مائة هدني … تذكري أني نصفتها

فكيف والآثار قد أصبحت … ترجف بالعمر اذ قفتها

كد حياة كان أنفقته … على تصاريف تصرفتها

لا عذر لي في أسفي بعدها … على العطايا ، عقتها ، عقتها

وقال يشكو حاله : (ديوانه ص ٢١٣)

دع اللوم ان اللوم عون النوائب … ولا تتجاوز فيه حد المعاتب

فما كل من حط الرحال بمخفق … ولا كل من شد الرحال بكاسب

وفي السعي كيس والنفوس نفائس … وليس بكيس بيعها بالرغائب

وما زال مأمول البقاء مفضلا … على الملك والارباح دون الحرائب

حضضت على حطبي لناري فلا تدع … لك الخير تحذيري شرور المحاطب

وأنكرت اشفاقي وليس بمانعي … طلابي أن أبغي طلاب المكاسب

ومن يلق مالاقيت في كل مجتنى … من الشوك يزهد في الثمار الاطايب

اذ أقتني الاسفار ماكره الغني … الي وأغراني برفض المطالب

فأصبحت في الاثراء أزهد زاهد … وان كنت في الاثراء أرغب راغب

حريصا، جبانا، أشتهي ثم انتهي … بلحظي جناب الرزق لحظ المراقب

ومن راح ذا حرص وجبن فانه … فقير أتاه الفقر من كل جانب

ولما دعاني للمثوبة سيد … يرى المدح عارا قبل بذل المثاوب

تنازعني رغب ورهب كلاهما … قوي، وأعياني اطلاع المغايب

فقدمت رجلا رغبة في رغيبة … وأخرت رجلا رهبة للمعاطب

أخاف على نفسي وأرجو مفازها … وأستار غيب الله دون العواقب

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي؟ … ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب

ومن نكبة لاقيتها بعد نكبة … رهبت اعتساف الارض ذات المناكب

وصبري على الاقتار أيسر محملا … علي من التغرير بعد التجارب

لقيت من البر التباريح بعدما … لقيت من البحر ابيضاض الذوائب

سقيت على ري به ألف مطرة … شغفت لبغضيها بحب المجادب

ولم أسقها بل ساقها لمكيدتي … تحايل دهر جد بي كالملاعب

الى الله أشكو سخف دهري فانه … يعابثني مذ كنت غير مطايب

أبى أن يغيث الارض حتى اذا ارتمت … برحلي أتاها بالغيوث السواكب

سقى الارض من أجلي فاضحت مزلة … تمايل صاحيها تمايل شارب

لتعويق سيري أو دحوض مطيتي … واخصاب مزور عن المجد ناكب

فملت الى خان مرث بناؤه … مميل غريق الثوب لهفان لاعب

فلم ألق فيه مستراحا لمتعب … ولا نزلا · أبان ذاك لساغب

فما زلت في خوف وجوع ووحشة … وفي سهر يستغرق الليل واصب

يؤرقني سقف كأنى تحته … من الوكف تحت المدجنات الهواضب

تراه اذا ما الطين أثقل متنه … تصر نواحيه صرير الجنادب

وكم خان سفر خان فانقض فوقهم … كما انقض صقر الدجن فوق الارانب

ولم أنس مالاقيت أيام صحوة … من القر فيه والثلوج الاشاهب

ومازال ضاحي البر يضرب أهله … بسوطي عذاب جامد بعد ذائب

فان فاته قطر وثلج فانه … رهين بساف تارة أو بحاصب

فذاك بلاء البر عندي شاتيا … وكم لي من صيف به ذي مثالب

ألا رب نار بالفضاء اصطليتها … من الضح يودي لفحها بالحواجب

اذا أظلت البيداء تطفو آكامها … وترسب في غمر من الآل ناصب

فدع عنك ذكر البر أني رأيته … لمن خاف هول البحر شر المهارب

كلا نزليه ، صيفه وشتاؤه خلاف لما أهواه ، غير مصاقب
لهاث مميت تحت بيضاء سخنة وري مميت ، تحت أسحم صائب
يجف اذا ما أصبح الريق عاصبا ويغدق لي، والريق ليس بعاصب
ويمنع مني الماء واللوح جاهد ويغرقني والري رطب المحالب
وما زال يبغيني الحتوف مواربا يحوم على قتلي ، وغير موارب
فطورا يغاديني بلص مصلت وطورا يمسيني بورد الشوارب
الى أن وقاني الله محذور شره بعزته ، والله أغلب غالب
فأفلت من ذؤباته وأسوده وحرابه أفلات أتوب تائب
وأما بلاء البحر عندي فانه طواني علىروع منالروح واقب
ولو ثاب عقلي لم أدع ذكر بعضه ولكنه من هوله غير ثائب
ولم لا ولو ألقيت فيه وصخرة لو افيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذي سباحة سوى الغوص،والمضعوف غيرمغالب
فأيسر اشفاقي من الماء أنني أمر به في الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بامنيه على نفس راكب
أظل اذا هزته ريح ولألأت له الشمس أمواجاطوال الغوارب
كأني أرى فيهن فرسان بهمة يليحون نحوي بالسيوف القواضب

وابن الرومي أمام هموم دهره وصروفه مرغم على الصبر ، ولا يملك غيره :

أرى الصبر محمودا وعنه مذاهب فكيف اذا لم يكن عنه مذهب؟
هناك يحق الصبر والصبر واجب وما كان منه كالضرورة أوجب
فشد أمرؤ بالصبر كفا فانه له عصمة أسبابها لا تقضب
هو المهرب المنجي لمن أحدقت به مكاره دهر ليس منهن مهرب
وقد يتظنى الناس أن أساهم وصبرهم فيهم طباع مركب
وأنهما ليسا كشيء مصرف يصرفه ذو نكبة حين ينكب

فان شاء أن يأسى أطاع له الأسى ... وان شاء صبراجاءه الصبر يطلب
يصرقه المختار منها مختارة ... يراد فيأتي او يذاد فيذهب
اذا احتج محتج على النفس لم تكد ... على قدر يمضي لها تتعتب
وساعدها الصبر الجميل فاقبلت ... اليها له طوعا جنائب تجنب
وان هو مناها الاباطيل لم تزل ... تقابل بالعتب القضاء وتغلب
فتضحي جزوعا ان أصابت مصيبة ... وتمسي هلوعا ان تعذر مطلب
فلا يعذرن التارك الصبر نفسه ... بأن قيل ان الصبر لا يتكسب

وربما اتخذ ابن الرومي من الشكوى مطلعا لقصائده تحل منها محل ذكر الاطلال ، أو النسيب في القصائد التقليدية • وقد يربط بين الموضوعين رباط نفسي واحد • وقد نهج المتنبي من بعده منهجه • ويمزج أحيانا بين الشكوى والنسيب • قال في الحسن ابن عبيد الله بن سليمان :

ما أنس لا أنس هندا آخر الحقب ... على اختلاف صروف الدهر والعقب
يوم انتحتني بسهميها مسالمة ... تأتي جديداتها من أوجه اللعب
وعيرتني بشيب الرأس ضاحكة ... من ضاحك فيه أبكاني واضحكني
قد كنت تسقين خدي مرة وفمي ... يا هذه من وشل طورا ومن ثغب
يغل ريقك أنيابي وآونة ... يستن دمعك في خدي كالسرب
فالآن أهزأ بي شيبي وأوبقني ... عيبي وان كنت لم أوبق ولم أعب
بالجلد أنداب دهر لست أنكرها ... وما بعرضي لعمر الله من ندب
يا ظبية من ظباء كان مكنسها ... في ظل ذي ثمر مني وذي هدب
فيئي اليك فقد هبت مصوحة ... أضحى لها مجتنى لهو كمحتطب
سقت نبتتي ثم عادت بعد تهلعني ... حتى رزحت وزوح العود ذي الجلب

واعلت الرأس لونى دهره فغدا	قد حال عن دهمة كانت الى شهب
والدهر يبلى الفتى منحيث ينشئه	حتى تكـر عليه ليلـة القـرب
في هدنة الدهر كاف من وقائعه	والعمر اقدح مبراة من الوصب
قضيت ذلك من قـولى الى فنق	تلهو بمكتحل طـورا ومختضب
حوراء في وطف ، قنواء في ذلف	لفاء في هيف ، عجزاء في قبب
كالشمس ماسفرت،والبدر ماانتقبت	تاهيك من مسفر حسنا ومنتقب
جاءت تدافع في وشي لها حسن	تدافع المـاء في وشي من الحبب

شـؤمه وهجـاؤه :

وقد ترامى الناس اتهامه بالشؤم لعزوفه عنهم وانكبابه داخل بيتـه لا يخرج الا لمـاما ، ويتردد في عزمه كلما فجأة أمر أو وقعت عينه على ما يثير الطيرة في نفسه · ودافع عن نفسه الشؤم الذى أراد أعداؤه وكائدوه الصاقه به فقـال :

كـذب الزاعمـون انى مشئو	م وماتوا ، والثالب المثلـوب
كـذب الزاعمـون انى مشئو	م فـل زعـم مكـذب مكـذوب
بل لى اليمن لا محالـة كالصبـ	ـح اذا لاح ضـوؤه المشبوب

وقد أوغر هذا الاتهام صدره ، فأضاف سببا جديدا الى أسباب كثيرة دفعته دفعا الى الهجاء والى أن يقذع فيه ، وهو فى نفسه ليس شريرا لكنه خير يحب الناس، ويألفهم انما الناس يدفعونه الى الشر والى هجر القـوم ·

من أناس قـد أوسعونى سبا	بعـد عرفانهـم مـن المسبوب
وأرانى مسعرا لهم الحـر	ب ، وحربى اذا اعتزمت حروب

ولما ذاك أنني الرجل الشر ير مني الغنا ومني الوثوب
بل لذي الانصاف يشفعه الاحسـ ـسان ما قارب الالد الشغوب
عندي العدل كله لصديقي وعلى ظالمي يثور العكوب

وهكذا عاش ابن الرومي معذبا بحاسيته ، ورهافة روحه ، وتضيق الحياة عليه ، وعدم فهم الناس ، وهو الشاعر المبدع المصور ، يستخدم اللفظ في يسر ، ويسلسل له القول دون تصنع ، ويرسم فيجري في ملامح الصورة ماء الحياة ، ويعمد الى الامتناع ، فيشيع في صوره صنوفا من المتعة ، ويطيع الجمال فينجذ باليه ويتعقبه في كل جميل الصورة أو الطعم ، وهو يستمتع بحواسه جميعا لا يعطل واحدة منها • وعجيب لهذا الشاعر المفزع من الحياة ، المحب لها الراغب في المتعة بها أشد الرغب ، الراهب للمخوف أشد الرهب •

أبو الطيب المتنبي أحمد بن الحسين الكندي

(ولد سنة ٣٠٣ هـ - وقتل سنة ٣٥٤)

ولد بالكوفة عام ثلاث وثلاثمائة قرب محلة تدعى بمحلة كندة ، وينسب أحيانا اليها . قال أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصبهاني : حدثني ابن النجار ببغداد أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف بكندة بها ثلاثة آلاف بيت بين رواء ونساج » .

وروى الخطيب البغدادي عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي قوله : « كان المتنبي وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة ، وكان يعرف أبوه بعبدان السقاء .. يسقي لنا .. ولاهل المحلة . وكان عبدان والد المتنبي يذكر أنه من جعفي ، وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات (٢) » . ونقل هذا الخبر نفسه صاحب الصبح المنبي (٣) .

وقال الثعالبي : « ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلثمائة (٤) » .

---

(١) الواضح في مشكلات شعر المتنبي ص ٦ - للاصبهاني بتحقيق ابن عاشور طبع تونس .

(٢) ذكرى أبي الطيب ص ٣١ نقلا عن الخطيب البغدادي .

(٣) الصبح المنبي ص

(٤) أبو الطيب وما له وما عليه ص ٢١ طبع مكتبة الحسين التجارية .

ولم يذكر الاصبهاني شيئا عن والده ، وكان أقرب الرواة والعلماء اليه ، لانه عاصره وأخذ عن بعض رفاقه كابن جني ، بل وعاش في بلاط عضد الدولة في شيراز . وربما قيل أنه تغاضى عن ذكر والده لحقارته . لكن ذلك لا يمكن أن يفهم من سياق القول ، فانه يستطرد بعد ذلك ذكر مولده في محلة كندة التي كانت سكنا للسقائين والنساجين (٥) .

« واختلف الى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة ، فكان يتعلم دروس العلوية شعرا ولغة وأعرابا ، فنشأ في خير حاضره ، وقال الشعر صبيا » .

ولم يكن ليلحق بكتاب فيه أولاد أشراف الكوفة وهو وضيع النسب وابن سقاء . وحكاية نسبته الى كندة القبيلة اليمنية ، أو كندة المحلة المعروفة التي تنزلها كندة بالكوفة وسكنها كثير من الحشوة ، والعمال الصناع من السقائين والنساج يشوبها شيء من اللبس .

وقد ذكر البديعي أن ابن لنكك البصري هجاه لما عرف بتألب شعراء بغداد على المتنبي ولم يولهم اهتماما ولا عبأ بهم . قال : ولما بلغ الحسن بن لنكك بالبصرة ما جرى على المتنبي من وقيعة شعراء العراق فيه واستخفافهم به كقولهم فيه :

---

(٥) الواضح ص ٦ .

أى فضل لشاعر يطلب الفضـ ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حينا يبيع بالكوفة المـ ـاء وحينا يبيع ماء المحيا

وكان ابن لنكك حاسدا له ، طاعنا عليه ، هاجيا اياه ، زاعما أن آباه كان يسقى الماء بالكوفة · فشمت به وقال (١) :

قولوا لاهل زمان لا خلاق لهم ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
أعطيتموا المتنبى فوق منيته فزوجوه برغم أمهاتكم
لكن بغداد جاد الغيث ساكنها نعالهم فى قفا السقاء تزدحم

وهاجمه شعراء كثيرون فى نسبه ، سواء من ناحية أبيه ، أو من ناحية قبيلته ، وروى عن أبى فراس قوله له فى مجلس سيف الدولة : ومن أنت يا دعى كندة ؟ ·

ولا أخرج هذا كله عن حد السباب الذى لا يرقى الى حقيقة ، انما هو عن حفيظة وحسد لمكانته واقتداره على الكلام · وأحس هو بما يكيده الشعراء ويرمونه به من هذا الجانب ، فرد عليهم بقولـه :

انا ابن من بعضه يفوق أبا البا حث والنجل بعض من نجله
وانما يذكر الجدود لهم من نفروه وأنفدوا حيله

ولم يكن المتنبى ليذكر آباءه وأجداده لو لم يثره الحاقدون والحاسدون ، وما كان لشاعر أن يذكر أباه وأمه اللهم الا القليل ممن كان ذكر الآباء والامهات ضروريا عندهم فى الفخر أو المهاجاة ·

---

(١) الصبح المنبى ص ١٤٥ ·

ولم يكن أبو نواس ليذكر أباه وأمه ، ولا كان أبو تمام أو البحترى ممن ذكروا آباءهم وأمهاتهم ، وليس لنا أن نقول كما قال الدكتور طه حسين (٢) بأن اهمال أبي نواس ذكر أبيه وأمه من هوان ، وأن هذا الهوان قد عقد الشاعر أو أضر بـه ، ومـا كان أبو نواس ليهتم بقلة شأن أبيه ولا يضعه مكانة أمه جلبان رغم أن الشعراء هاجموه بها وعيروه ٠

وما كان أبو تمام ذاكرا لابيه وأمه في الشعر رغم انه أوخذ في هذا واتهم بنسبه كذلك من أعدائه والكائدين له ٠

وكذلك كان البحترى ٠ وقليل من الشعراء كما قلت ذكروا الآباء والامهات وليسوا حجـة عـلى الكثيرين ممن لـم يذكـروا آباءهم وأجدادهم ٠

ونخرج من هذا البيت الذى نشـأ فيه الشاعر ، سواء أكان بيتا أصيل النسب في كندة من ذوائبها أو كان من عامتها ٠ وليس شرطا أن يكون النابهون من ذوى الانساب ، انما هي دعوى عربية وفخفخة تشادق بها الناس ، ولم تكن لتعنى عندنا أمرا ذا خطـر ، والاسلام سوى بين الناس ، والنظرة الانسانية لا ترى فضلا لزيد على عمرو ذي الدم فلم تعد في نظر العقل للدماء زرقتها أو حمرتها شأن في الفضل انما الفضل بالعمل والكسب ٠ كما قال شاعرنا :

---

(٢) راجع : مع المتنبى ص ١٤ ٠

وليفخر الفخر اذ غدوت به مرتديا خيره ومنتعله
أنا الذي بين الاله به الـ أقدار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها وغصة لا تسيغها السفله

لقد ولد أبو الطيب اذا طفلا ذكيا موهوبا ، وعرف فيه والده هذه الموهبة ، فلم يرد أن تظل مدفونة ، بل أراد أن يمهد لها الطريق كي تنمو ، ولم يدخر وسعا في أن يوفر لابنه العلم والمعرفة ، وأن يمهد له الصقل والفصاحة ، فبعث به الى البادية وفي البادية تخرج فصيحا لسنا ·

وأضاف الى هذا التلقين ، وتلك التربية البدوية ، علما ، في كتاتيب الكوفة أولا ، ولدى مجالس علمائها ثانيا ·

يقول الثعالبي : « وأن أباه سافر الى بلاد الشام ، فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه في المكاتب ، ويردده في القبائل ، ومخايله نواطق بالحسنى عنه ، وضوامن النجاح فيه ، حتى توفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع (١) » ·

وكانت الكوفة آنذاك تقع تحت سيطرة العلوية أو الفكر الشيعي عامة ، ولا شك أنه تأثر في صباه ببعض معلمي الشيعة وشيوخهم ، والاصبهاني يقول : « ·· فكان يتعلم دروس العلوية

---

(١) أبو الطيب ما له وما عليه ، ص ٣٢ ·

شعرا ولغـة واعرابـا ، فنشـأ في خـير حاضره ، وقـال الشعر صبيـا (١) » ٠

ولا ندري سببا لخروجه من الكوفة وهـو صبي ، والثعالبي يقول أنه غادرها مع أبيه الى بلاد الشام طلبا للعلم ٠ وهناك من يقول أنه غادرها فـرارا من الثـورة القرمطية ، ولكني أشك في هذا الخبر الاخير (٢) ٠

وقد كان الشاعر في صباه طلعة حافظا ، تروى عن ذكائه ، وقدرته على حفظ الاخبار والنوادر ٠

وقد كان لنبوغـه أولا ، وكبريائه ثانيـة ، واعتقاده بعض الآراء العلوية أو القرمطية ، ثالثا أثر في تحامل كثير من الناس عليـه ٠

قال الاصبهاني : « وهو في الجملة خبيث الاعتقاد ، وكان في صغره وقع الى واحـد يكنى أبـا الفضل بالكوفـة من المتفلسفة ، فهوسه ، وأضله كما ضل (٣) » ٠

وأبو الفضل هذا شـيخ قرمطـي ، قـال بعض الباحثين أن المتنبي تأثر بآرائه وأفكاره وأنه ربما عناه في قوله :

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة ويستحل دم الحجاج في الحرم

(١) الواضـح ، ص ٦ ٠

(٢) راجع : ذكرى أبي الطيب لعبد الوهاب عزام ٠

(٣) الواضـح ، ص ٧ ٠

وتتبع الباحثون هذه الاتجاهـات العلوية فى شـعره ، وفى صباه خاصة • وفى قصائده التى مـدح بهـا بعض العلوية فـى الشـام •

وللمتنبى الى الشام سفرتان سفرة فى الصبا الاول ، وهو لم يبلغ الحلم أو كاد ، وقد صحبه فيها والده ، وسفرة فى شبابه فى العشرين من عمره أو بعدها بقليل حـوالى سنة ٣٢٢ ، وقد قـدم اللاذقية فى سنة نيف وعشرين وثلاثمائة كما يقول البديعى (٢)، وكان قد نبت شعر عذاره ، وأرسل شعر رأسه الى ما بعد شحمتى أذنيـــه •

ولسفرته هذه الثانية بالشام أثر خطـير فى حياته وشعره ، فقد ذكر الرواة أنه كان شديد الاعتداد بنفسه وأدبه ، وأنه لهذا الاعتداد اتهم بادعاء النبوة ، ولهذا الاتهام أسباب كثيرة فى حياته وخلقه وشعره ، منها أنه كان منذ صباه فتى ثائرا ، تعلق ببعض الافكار القرمطية أو العلوية التى ترى الخروج المسلح على الدولة ، وأنه كان يرى تغلب عناصر غير عربية على الخلافـة ، وأن هـذه الدولة لابد وأن تعود الى العرب ، وأن الخدم أو عبيد القصر ممن نزلوا الامـارة أو ولايـة بعض أقاليم الدولـة أمثـال كافـور ، والاخشيد أو الخـدم الذين سيطروا على الخلافة فى بغداد أمثال

---

(٢) الصبح المنبى ، ص ٥٢ •

مؤنس أو البويهيين من الفرس ممن كان لهم السلطان الحقيقي ٠ كل هؤلاء ينبغي أن يجلوا بالسيف وأن تعود الدولة عربية ، وأن يعود العرب للسيطرة عليها وتولي زمامها ٠

ولا شك أن اندفاع الصبا ، وهوس الشباب قد خيلا له أشياء كثيرة ، خاصة وأنه امتلك ناصية البيان ، فليته ارتأى أن يتخذ من مقدرته الشعرية وسيلة الى أن يجمع من حوله الجمع ، ليصل الى غايته ، فيثور بمن يتجمع حوله من مؤيديه ثورة قد يقتنص بها أرضا بالشام تكون ركيزة له ، وموطنا يتحصن به ليثب مرة أخرى ٠٠ وقد لا يستبعد أن يتخذ من ذكائه وسيلة للعب بعقول البسطاء من عامة الاعراب ، فيدعي النبوة أو شيئا قريبا منها ٠

والاخبار تطرد في نبوءته ، منها ما يؤكدها ، ويؤكد ادعاءه بعض المعجزات ٠ وقد روى المعري في رسالة الغفران بعض أخباره تلك ، ورواها البديعي ، بينما أعرض عن ذكرها كثيرون كالاصبهاني والثعالبي ٠ واكتفى الاخير بأن صور الامر وكأنه محاولة للخروج على الخلافة أو الثورة لا ادعاء للنبوة ، فقال :

« وبلغ من كبر نفسه وبعد همته أن دعا الى بيعته قوما من رائشي نبلة ، على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته تأدى خبره الى والي البلدة ٠ ورفع اليه ما هم به من الخروج ، فأمر بحبسه وتقييده » (١) ٠

---

(١) أبو الطيب المتنبي ما له وما عليه ، ص ٣٢ وراجع الصبح المنبي ص ٥٩ ٠

وتتبع أخباره يؤكد محاولته الخروج مرتين ، وقيده وحبسه مرتين ، فأما المرة الاولى فهي فـي زمن متقدم من مبكـر شبابه ، وقبل أن يذهب الى اللاذقية ، ولعل ذلك كان في باديـة الحمر أو قريب منها ، وقد قال فيها قصيدته الدالية المشهورة :

ابا خـلـد الله ورد الخـدود	وقد قـدود الحسان القـدود

وفيها يستعطف الوالي الذي قيده وحبسه فيقول :

اسـالك رقمي ، ومـن شـأنه	هبات اللجـين وعتق العبيـد
دعوتك عنـد انقطاع الرجـا	ء ، والموت مني كحبـل الوريد
دعوتك لمـا برانى البـلى	وأوهن رجلى ثقـل الحديـد

يقـول :

وقد كان مشيهما فـي النعـال	فقد صار مشيهما في القيـود
وكنت من الناس فـي محفـل	فها أنا في محفـل مـن قـرود
تعجل فـي وجـوب الحـدود	وحـدى قبـل وجوب السجود

ويشير في البيت الاخير الى صغر سنه مبالغا حتى أنه لا يقع عليه الحـد ، اذ لا يقع عليه التكليف بعد بـأداة الصلاة . قـال الثعالبي : « أي انما تجب الحدود على البالغ وأنا صبي لم تجب على الصلاة بعد . ويجوز أن يكون قد صغر سنه وأصـر نفسه عند الوالي ، لان من كان صبيا لم يظن به اجتماع الناس اليه للشقاق والخلاف . وكان خروجه هذه المرة في بني عـدي ، وقبض عليه

---

(٢) المصدر نفسـه .

ابن على الهاشمى فى قرية كوتكين (١) . وله أبيات أخرى ذكر فيها السجن ، وخاطب من اسمه أبو دلف بقوله :

اهون بطول الثواء والتلف	والسجن والقيد يا أبا دلف
غير اختيار قبلت برك بى	والجوع يرضى الاسود بالجيف
كن أيها السجن كيف شئت فقد	وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناى فيك منقصة	لم يكن الدر ساكن الصدف

ولا ندرى متى خرج مرة أخرى وسجن ثانية ، لكن أخبارا تقول أنه خرج فى بادية الشام ، وانه كان هذه المرة الثانية فى بنى كلب وادعى أنه علوى ، وربما ادعى الامامة كذلك أو أنه المهدى أو شيئا من هذا القبيل فتبعه منهم خلق كثير . وقيل أن لؤلؤة أمير حمص من قبل الاخشيد فى مصر قبض عليه وسجنه عامين ، ثم أطلق سراحه بعد أن تعهد بألا يعود الى دعوته .

ولا ندرى ماذا قال فى هذا السجن الثانى ، فلم يهتم بذكره ، ولم تفصل الاخبار فى ذلك ولكنا قد نلتمس بعض الضوء فيما يروى عن تنبئه مرة ثانية فيما فسر به أنصاره هذا الخبر حكى أبو الفتح عثمان بن جنى قال : سمعت أبا الطيب يقول : انما لقبت بالمتنبى لقولى :

أنا ترب الندى ورب القوافى	وسهام العدى وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها اللـ	ـه غريب كصالح فى ثمود

---

(١) الصبح المنبى ، ص ٥٩ .

وفي هذه القصيدة يقول :

مـا مقامـي بأرض نخـلة الا   كمقـام المسيح بين اليهـود

ولا شك أن مرحلة حياته بالشام قبل لقائه بدر بن عمار ، ثم سيف الدولة كانت مرحلة قلق واضطراب ، وأن أخباره فيهـا نادرة غير بينة ، مختلطة أحيانا ، وزادهـا هو غموضا بالسكوت عنها • وربما كان سكوته عنها ندما ، أو رغبة في أن تمحى من عمره مرحلة لا يريد ذكرها ، لالمهـا في نفسه ، أو لمـا لاقاه فيها من عنت ، أو تشرد ومعاناة •

واذا كان المتنبي قد عانى فـي هـذه المرحلة آلام السجن ، واضطهاده الولاة ، وتهددهم اياه وتأكيدهم عليه بعدم اللجوء الى ما أدعى من نبوة أو ما لجأ اليه من جمع الناس من حولـه للثورة ، فان آثارها باقية في شعره ، صادقة التعبـير عن ثورته ورفضه ، صادقة التعبير عن ميله الى القتل والحـرب والضرب • وقد ذكر الثعالبي أن حب الولاية ما زال يدور في رأسه ، فيظهر ما يضمر من كامن وسواسـه فـي الخـروج على السلطان ، والاستظهار بالشجعان ، والاسـتيلاء على بعض الاطـراف • ويسـتكثر مـن التصريح بذلك في مثل قوله :

لقد تصبرت حتـى لات مصطبر	فالآن أقحـم حتى لات مقتحـم
لاتركن وجـوه الخـيل سـاهمة	والحرب أقوم من ساق على قـدم
والطعن يحرقها والزجر يقلقها	حتى كأن بها ضربا على اللمـم
قد كلمتها العوالى فهي كالحـة	كأنما الصاب مذرور على اللجـم
بكل منصلت مـا زال منتظرى	حتى أدلت له من دولة الخـدم

والى جانب هذا الهوس بالولاية ، والرغبة المتحرقة الى القتل والاستيلاء بالقوة على البلاد فانه كان يشعر بالمرارة لانه يضطر الى التكسب بالشعر ، والى أن يقصد من لا يستحق منه ليبيع الشعر في سوق الكساد ٠

قال الاصبهاني : « أنه في تطوافه في أطراف الشام ، واستقرائه بلاد العرب ، قاسى الضر وسوء الحال ونزارة الكسب ، وحقارة ما وصل اليه بشعره حتى أنه « أخبرني أبو الحسن الطرائفي ببغداد ، وكان لقي المتنبي دفعات في حال عسره ويسره – ان المتنبي مدح بدون العشرة والخمسة دنانير (١) » ٠

وكان كثير الرحلة ، أما فاتكا ، أو قاصدا ممدوحا ، يعود منه بالنذر اليسير ٠ قال الثعالبي (٢) : « وكان كثيرا ما يتجشم أسفارا بعيدة ، أبعد من آماله ، ويمشي في مناكب الارض ويطوي المناهل والمراحل ، ولا زاد الا من ضرب الحراب على صفحة المحراب (٣) ، ولا مطية الا الخف أو النعل كما قال :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا	بالسوط يوم الرهان اجهدها
شراكها كورها ومشفرها	زمامها والشسوع مقودها

وكما قال في الاعتداد بالسفر ، والقدرة على الرحلة :

---

(١) الواضح ، ص ٩ ٠
(٢) أبو الطيب ، ص ٣٥ ٠
(٣) المحراب : العنق ٠

ومهمــة جبتــه على قلمــي تعجــز منه العرامس الذلل

قال الثعالبي : « وكان قبــل سيف الدولــة يمــدح القريب والغريب ، ويصطاد ما بين الكركي والعندليب » • ويحكى أن عليا ابن منصور الحاجب لم يعطه على قصيدته فيه التي اولهــا :

بابي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيبــا

ومنهـــا :

حال متى علم ابن منصور بها جــاء الزمان الى منها تائبــا

الا دينارا واحدا ، فسميت الدينارية •

وقال الاصبهاني : « وأخبرني الحسن الطرائفي قال : سمعت المتنبي يقول : أول شعر قلته وابيضت أيامي بعده قولي :

انا لائمي ان كنت وقت اللوائم علمت بما بــي بين تلك المعالم

فاني أعطيت بها بدمشق مائة دينار (٦) • »

وذكر في الديوا نأن القصيدة في الامير أبي محمد الحسن ابن عبد الله بن طغج الاخشيد •

وقد حق لابي الطيب بعد هذا أن يضجر وأن يذم هذه الحال التي اضطرته الى أن يبيع الشعر في سوق الكساد • يقول :

---

(٤) العرامس : النوق الشديدة ، والذلل جمع ذلول وهي السلسة القياد •

(٥) ابو الطيب ، ص ٣٦ •

(٦) الواضــــح ، ص ٩ •

الى كم ذا التخلف والتواني   وكم هذا التمادى فى التمادى
وشغل النفس فى طلب المعالى   ببيع الشعر فى سوق الكساد

وامتدت هذه المرحلة بالشام خمسة عشر عاما يذرع فيها البلاد شمالا وجنوبا ، شرقا وغربا ، تراه فى بادية الشام وحمص حينا ، ثم فى اللاذقية أحيانا ، ويعود الى طبرية فدمشق فالرملة ، فطرابلس ، فانطاكية • يلقى من الناس ألوانا ، من القادة ، والولاة والكتاب ، وأمراء الجيوش ، وزعماء القبائل ، وشيوخ العشائر ، وكلا يمدح ، وكل يعطى على قدر مروءته أو ثرائه أو مكانته •

وخلفت هذه المرحلة فى شعر المتنبى كثيرا من مظاهر حياته وحركاته ، ومن مكامن أحاسيسه وانطباعاته ، ومن آرائه فى الحياة والناس •

لقد كان فى أول هذه المرحلة ثائرا ، مزبدا ، مرعدا ، يقوده هوس الشباب وخيلاؤه وتحفزه أوهام الصبى ، ويدفعه تياره الصاخب الجارف ، فشعره يهدر ، ويتوعد • فيه القتال ، والقتل، ووقع الرماح ، وصليل السيوف ، وغبار الكر والفر ، ووقع الخيل ، ورؤى الدم المراق ••• وفيها الهواجس ، وسوء الظن والشعور بالعداء ، والرغبة فى الاعتداء •

ثم تتغير هذه النغمة بعد السجن ، وتتلون بتلك الالوان القاتمة ، ويكثر من الحديث عن الاعداء والحساد ، والكيد ،

ويتخوف الطريق ، وهو المقدام ، ولكنه يشعر بأن العيون ترصده، والكائدين يدبرون له في كل خطوة أمرا . وهو ينظر اليهم نظرة تعالي وازدراء ، يقول :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن	يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وانما نحن فـي جيـل سواسية	أخنى على الحر من سقم على بدن
حولي بـكل مـكان منهـم خلق	تخطي اذاجئت في استفهامها بمن
لا اقتـري بلدا الا عـلى غـرر	ولا أمر بخـلق غـير مضطغـن
ولا أعاشر من أملاكهـم أحـدا	الا أحق بضرب الرأس من وثن
انـي لاعذرهـم مما أعنفهـم	حتى أعنف نفسي فيهـم وأنـي

ويقول فيهـا :

قد هون الصبر عندي كل نازلة	ولين العزم حـد المركب الخشن

وقال عن نفسه :

تغرب لا مستعظما غـير نفسه	ولا قابلا الا لخالقـه حكمـا
ولا سـالكا الا فـؤاد عجاجـه	ولا واجـدا الا لمكرمـة طعمـا
يقولون لي ما أنت ؟ في كل بلدة	وما تبتغي؟ ما ابتغي جل ان يسمى
كـأن بنيهـم عالمـون بأننـي	جلوب اليهـم من معادنه اليتما

ويقول في هذه المرحلة ميميته الشهيرة التي يأسى فيهـا لانه صاحب همـة ، وعبقرية ، ولكن همتـه لا تبلغ بـه مـا يريد ، وعبقريته مهانة ، لا يقدرها أحد ، ويحز هذا في نفسه ، ولا أشد من أن يشعر العبقري بأنه مهدر في قومه وبين عشيرته ، يقول :

فـؤاد مـا تسليه المـدام	وعمر مثل مـا يهب اللئـام
ودهـر ناسـه نـاس صغـار	وان كانت لهـم جثث ضخـام

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

أهو شعور بالغربة اذن ؟ لان الشاعر لم يوفق بين آماله وواقعه ، ولانه فشل فيما حاول من ثورة ، ولانه يشعر بالامتياز ولا يجد من يقدره حق قدره . بل لقد انقلب الامر عليه ، فصار ينظر اليه في كل مكان يذهب اليه نظرتين نظرة العداء ، والريب والحسد من جانب الكثرة . والشعراء من حوله مقرون به يذمونه ويسلقونه بألسنة حداد :

اني وان لمت حاسدي فما أنكر أني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علم له على كل هامة قدم

ويقول :

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

وقالوا ان المتنبي كان يقول ولا يفعل . ولو لم يفعل ففيم هذه الاخبار ، وفيم سجنه ، لعله لم يبلغ من الفعل النجح ، أو لعل فعله كان على قدر ضئيل من الاثر ، لكنه هم على أية حال ، ودعا الناس اليه وصدقه الناس . وانه ارتحل وضاق بالبقاء والاستقرار ، وقطع الفيافي والقفاز بحثا وراء غايته لعله أن يجد فرصة ، أو تسنح له بادرة يستغلها أو يعثر على من يقدر فيه نبوغه .

كذلك فان في هذه المرحلة اختمرت فلسفة المتنبي ، ونضج فكره ، وبدت آثار علمه الذى اكتسب من قبل ، وفي هذه المرحلة

قصائد فيها آثار فكر تشاؤمي رواقي ، وفيها ميل الى الغموض ، مع بعض آراء شيعية ، وفكر علوي ، مختلط بصوفية أو غيبية (ميتافيزيقية) ونقف عند قصيدته الهمزية :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء اذ حيث كنت من الظلام ضياء

فنراه يصطنع هذا المنهج الصوفي من حيث الغموض والالتواء ، وعدم القصد الى معانيه مباشرة كما كان يفعل في شعره السابق عليها ·

واتصل بعد بأبي العشائر الحسن بن علي بن حمدان · قال ياقوت (١) : « ولم يزل المتنبي بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال في بلاد الشام حتى اتصل بأبي العشائر ومدحه بعدة قصائد أولها :

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

وقد أكرمه أبو العشائر ، وعرف منزلته ، وكان والي أنطاكية من قبل سيف الدولة ، ولما قدم سيف الدولة الى انطاكية قدم المتنبي اليه ، وأثنى عنده عليه ، وعرفه منزلته من الشعر والادب (٢) · وقال الاصبهاني : « ثم اتصل بأبي العشائر ، فاقام ما أقام ، ثم أهداه الى سيف الدولة ·

وعندما التقى بسيف الدولة لم يرد أن يعامل معاملة غيره من

---

(١) ارشاد الاريب ، وراجع الصبح المنبي ، ص ٦٨ ·

(٢) الصبح المنبي ، ص ٧١ ·

الشعراء ، بل من عليه القوم ممن يفدون على الامير . قال البديعي: « واشترط المتنبي على سيف الدولة أول اتصاله به أنه اذا أنشده مديحه لا ينشد الا وهو قاعد ، وأنـه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه ، فنسب الى الجنون . ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، وتطلع الى ما يرد منه وذلك في سنة ٣٣٧ سبع وثلاثين وثلاثمائه ، وعمره أربع وثلاثون سنة » .

وكان أول ما أنشده قوله :

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسـمه   بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

قال الاصبهاني : « ثم أقـام المتنبي عند سيف الدولـة على التكرمة البليغـة في أسناء الجائزة ورفيع المنزلة . ودخـل مع سيف الدولة بلاد الروم في غزوتي المصيبة والفناء » .

وقال البديعي : « وحسن موقعـه عنده ، وقربه ، وأجـازه الجوائز السنية ، ومالت نفسه اليه وأحبه ، فسلمه الى الرواض ، فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة ، وصحب سيف الدولة في عده غزوات الى بلاد الروم ، ومنها غزوة الفناء التى لم ينج منها الا سيف الدولة بنفسه وستة أنفار منهم المتنبي . وأخـذت الطرق عليهم الروم ، فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر وخرق الصفوف ، وبدد الالوف » .

وقد لبس المتنبي لامة الحرب ، وتعلم الفروسية اذا ، وخاض معارك سيف الدولة مع الروم . ووصف هذه المعارك وصفا رائعا .

وتروى رواية عن لبسه الدروع فارسا ، حكى ابن جنى قال: حدثني الصنوبرى قال : خرجت من حلب أريد سيف الدولة ، فلما برزت من السور اذا أنا بفارس متلثم قد هوى نحوى برمح طويل وسدده الى صدرى فكدت أطرح نفسي عن الدابة فرقا • فلما قرب مني ثني العنان وحسر لثامه فاذا المتنبي وأنشدني :

نثرنا رءوسا بالاحيدب منهم كما نثرت فوق العروس الدراهم

ثم قال ، كيف ترى هذا القول ؟ أحسن هو ؟ فقلت له : ويحك قد قتلتني يا رجل • قال ابن جني : فحكيت هذه الحكاية بمدينة السلام لابى الطيب فعرفها وضحك لها (١) •

والتقى في بلاط سيف الدولة بجماعة من العلماء والشعراء ، وكانت تعقد مجالس الشعر والنقد ، وكان سيف الدولة يشارك فيها بذوقه وعلمه • وممن اجتمع في بلاطه غير المتنبي : السرى الرفاء ، والصنوبرى ، والنامى ، وأبو فراس الحمدانى ، والرقى • ومن العلماء ابن خالويه •

وبارى الشعراء المتنبي فغلبهم • حكى أن السرى الرفاء حين قصد سيف الدولة أنشده بديها :

اني رأيتك جالسا في مجلس قعد الملوك به لديك وقاموا
فكأنك الدهر المحيط عليهم وكأنهم من حولك الايام

ثم أنشده بعد ذلك ما كان قاله فيه من الشعر ، وبعد ثلاثة

---

(١) أبو الطيب ، ص ٣٨ •

أيام أنشده المتنبي قصيدة قافية ، فأمر له بفرس وجارية وأول القصيدة :

أيدري الربع أى دم أراقا ... وأى قلوب هذا الحى شاقا (٢)

وحكى أن سيف الدولة كان يميل الى أبى العباس النامى الشاعر ميلا شديدا الى أن جاءه المتنبي فغاظ ذلك أبا العباس ، فلما كان ذات يوم خلا به وعاتبه وقال : آيها الامير لم تفضل على ابن عبدان السقا ؟ فأمسك سيف الدولة عن جوابه ، فلج وألح وطالبه بالجواب ، فقال : لانك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعود من كل فتح غير مفتخر ... وقد أغذ اليه غير محتفل

فنهض من بين يديه مغضبا .

وقرر الامير سيف الدولة للشاعر جائزة سنوية ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد كل عام حتى أن أبا فراس الشاعر وابن عم الامير حسده ، ولامه على ذلك . قال : ان هذا المتشدق كثير الادلال عليك ، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره .

ولم يسلم المتنبي من كيد الكائدين وحسد الحاسدين ، وانما فتحت لهم بعض تصرفاته سبيل ذلك ، كاعتداده بنفسه ، واقلاله من الشعر مع رغبة سيف الدولة فيه ، وتعمده السخرية من غيره وخاصة من أبي فراس ابن عم الامير وبعض خواصه كابن خالويه .

---

(٢) الصبح المنبى ، ص ٧٩ .

ومما يروى من أحداث بينه وبينهم : حضر المتنبي مجلس أبي أحمد بن نصر البازيار وزير سيف الدولة ، وهناك أبو عبد الله بن خالويه النحوى ، فتباريا فى أشجع السلمى وأبي نواس البصرى فقال ابن خالويه أشجع أشعر اذ قال فى هارون الرشيد :

وعلى عـدوك يابن عـم محمد	رصدان ضوء الصبح والاظلام
فاذا تنبـه رعتـه واذا غفـا	سلت عليه سـيوفك الاحـلام

فقال المتنبي : لابى نواس ما هو أحسن فى بنى برمك :

لـم يظلـم الدهـر اذ تـوالت	فيهـم مصيباتــه دراكـا
كانـوا يجيـرون مـن يعـادى	منــه فعاداهــم لذاكـا

وقد جرت بحضرة سيف الدولة مسألة لغوية بين أبي الطيب اللغوى والمتنبي ساكت ،فقال له سيف الدولـة : ألا تتكلم يـا أبا الطيب ، فتكلم فيها بما قوى حجة أبي الطيب اللغـوى ، وضعف قول ابن خالويه فأخرج هـذا من كمه مفتاحـا حديـدا ليلكم به المتنبي ، فقال له المتنبي : اسكت ويحك ، فانك أعجمي وأصلك حوذى ، فمالك وللعربية ؟ فضرب وجـه المتنبـي بذلك المفتاح ، فأسال دمـه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبي من ذلك اذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولا ولا فعلا . فكان ذلك أحد أسباب فراقـه سيف الدولـة (١) » .

وحضر مـرة أبو فراس وجماعة من الشعراء فبالغـوا فـى

---

(١) الصبـح المنبى ، ص ٨٧ .

الوقيعة في حق المتنبى ، وانقطع يعمل القصيدة التى أولها :

واحر قلبــاه ممن قلبه شبــم ومن بجسمي وحالي عنده سـقم

وجاء وأنشدها ، وجعل يتظلم فيها من التقصير في حقه كقوله :

مالي اكتم حبا قد برى جسـدي وتدعي حب سيف الدولة الامـم
ان كان يجمعنـا حب لغرتـــه فليت أنا بقـدر الحب نقتسـم
قد زرته وسيوف الهند مغمـدة وقـد نظرت اليه والسيوف دم

فهم جماعة بقتله في حضرة سيف الدولة لشدة ادلالــه واعراض سيف الدولة عنه ، فلما وصل في انشاده الى قوله :

أعيذهـا نظـرات منـك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال : ومن أنت يادعي كندة حتى تأخذ أعراض أهل الامير في مجلسه • واستمر المتنبي في انشاده ولم يرد ، وأبو فراس يتعقبه ، ويحرض سيف الدولة عليه حتى غضب سيف الدولة ، وضربه بالدواة التي بين يديه •

ولم تطب الحياة بعده للمتنبي في حلب ، وعزم على الرحيل وقد عرض به في ذلك القصيدة حين قال :

لئن تركن ضميرا عن ميامننا ليحدثن لمن فارقتهم نـــدم

وفارقه متجها جنوبا قاصدا مصر ، وراغبا الى كافور ، لعله أن يجد في رحابه ما عز عليه في جناب سيف الدولة بحلب •

ولقد كانت هذه المرحلة في حلب من أغنــى مراحــل حياته وشعره ، وقال فيها عيون قصائده ولم يكن سيف الدولة بالنسبة

اليه مجرد ممدوح أمير أو ملك ، بل أنه أحب فيه شخصه وخلاله ، وتمثل فيه فتوة عربية ، وشهامة ومروءة ، وكفاحا في سبيل الدولة ، وحفاظا على الارض ضد غزو الروم • فلم يكن غريبا اذا أن صدق في شعره معه ، وأن جاء فيه بكل رائع فريد • وقد اغتنى وكثر ماله ، كما ارتفع شعره اذ قيل أنه حصل في مدة أربع سنوات ٣٥ خمسة وثلاثين ألف دينار (١) •

ومن درره المذكورة فيه قوله :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم ... أكل فصيح قال شعرا متيم

وقوله :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ... انقاتلوا جبنوا او حدثوا شجعوا

وقوله :

فديناك من ربع وان زدتنا كربا ... فانك كنت الشرق للشمس والغربا

وقوله :

ليالي بعد الظاعنين شكول ... طوال وليل العاشقين طويل

وقوله :

لكل امرىء من دهره ما تعودا ... وعادات سيف الدولة الضرب في العدا

وقوله :

على قدر أهل العزم تاتي العزائم ... وتاتي على قدر الكرام المكارم

وقد بلغت مدائحه فيه ٣٨ قصيدة و ١٥١٢ بيتا في تسع سنوات من سنة ٣٣٧ هـ الى ٣٤٦ هـ ، منها أربع عشرة قصيدة في

---

(١) الواضح ، ص ١٢ •

حروبه مع الروم ، وأربع في وقائعه مع القبائل العربية ، وخمس عشرة في المدح دون وصف الوقائـع ، وخمس في الرثـاء ، ومن القطع اثنتان في حوادث الروم ، والاخريات في مقاصد شتى(٢)٠

واتصل المتنبي بكافور ، وقد بعث الى والي الرملة محمد بن طفج ليبعث به اليـه ، وكانت دولـة الاخشيد في مصر منافسـة للحمدانيين في شمالي الشام ٠ وكانت تبسط نفوذها على جزء كبير من بلاد الشام ٠ وربما كان مقصد المتنبـي الى كافور رغبـة في الانتقام لكرامته مما لقيه في بلاط سيف الدولة عـلى كره منه ٠ وشتان بين سيف الدولة وكافور ، فهو قاصد لكافـور ، مغيظـا ، محنقا ، لا مقتنعا بسجاياه ، ولا باستحقاقه للمديح ٠ ولهذا بدأه بمديح فيه هذا الجفاء ، وفيه هذا الاحساس بالالم لفراق سيف الدولة ٠ وان حاول المداراة واصطناع المديح ، لكنه جاء متكلفا ثقيلا ، أو مصنوعا بين الصنعة ، مبالغا واضح المبالغة ٠

قال الاصبهاني : « فلما انتهت مدته عند سيف الدولة استأذنه في المسير الى الطاعـة (١) ، فاذن لـه ، وامتد باسـطا عنانه الى دمشق ، الى أن قصد مصر ملما بكافور فانزله وأقام ما أقام الا أن أول شعره فيه ، فيه دليل على ندمه لفراق سيف الدولة وهو قوله :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا   وحسب المنايا ان يكن امانيـــا

---

(٢) مقدمة الديوان لعبد الوهاب عزام ٠

(١) الواضـح ، ص ١٣ ٠

حتى انتهى الى قولـه :

قواصد كافـور تـوارك غـيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

ومكث بمصر أربع سنوات ، كانت لـه مدائح فـى كافـور وأهاج ، ومدائح فى فاتك ومرثيته العينية التى قالها عند خروجه من مصـر ٠

ووقع فاتك من نفسه موقعـا حميدا فأعجب بـه ، ولم يبخل عليه فاتك بالمـال ٠ قال الاصبهانى : لقيه المتنبى فى الميدان على رقبة من كافور فقال :

لا خيـل عندك تهديهـا ولا مـال فليسعد النطق ما لم يسعد الحال

فوصل اليه من أنواع صلاته وأصناف جوائزه ما تبلغ قيمته عشرين ألف دينار ٠ ثـم مضـى فاتك لسبيله فرثـاه المتنبى وذم كافورا حيث قـال :

أيموت مثل ابى شجاع فاتك ويعيش حاسـده الخصى الاوكع

على أن أحسن ما نظمه أبو الطيب فى هذه المرحلة بائيته :

من الجـآذر فـى زى الاعاريب حمـر الحلى والمطايا والجلابيب

وميميته فى وصف الحمى :

ملومكمـا يجـل عن المـلام ووقـع فعالـه فـوق الكـلام

وقولـــه :

بم التعـلل لا اهـل ولا وطن ولا نديـم ولا كاس ولا سـكن

وداليته فى هجاء كافور فى ذكرى العيد :

عيد بأية حـال عدت يا عيد بما مضى أم لامر فيك تجديد

ويذكر النقاد أن شعره في هذه المرحلة كان أقل جودة من شعره مع سيف الدولة · قال البديعي : « وأحسن قصائد أبي الطيب في سيف الدولة ، وتراجع شعره بعد مفارقته وسئل عن سبب ذلك فقال : قد تجوزت في قولي ،وأعفيت طبعي ، واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان » (١) ·

وشعره في مصر عليه سمة الحزن ، والتفكير العميق في حاله وما جرى عليه من الاحداث طوال السنوات التي قضاها في حياة قلقة عاصفة أيام شبابه الاول بالشام وفي عنفوانه مع سيف الدولة ورجاله وشعرائه بحلب · ولاشك أن أبا الطيب قد أضاف الى خبرته في الحياة ، وتمرسه بها وتعامله مع أصناف متغايرة ، ومتنوعة من البشر قد أتاحت له تجارب واسعة يستمد منها معاني غزيرة لشعره ، كما أضاف الى تلك التجارب قراءات واسعة منوعة أيضا ، فالرجل كان طلعة يحفظ الشعر ويعرف بغريب اللغة ، ويحمل في رحله دائما كتب الادب والمعرفة ·

ولقد كان طالبا لكثرة المال حتى يمكن أن يبلغ به الدرجة التي يطلبها لنفسه ، ولعله بلغ من كثرة المال ما اراد أو أكثر مما أراد ، ولكنه لم يسكن ، فطلب المنصب والجاه ، أن يحصل على ولاية ، ورأى أنه جدير بهذا ، وأن أدبه سيبلغه المنصب ، وقد حصل مع سيف الدولة على المال ولم يحصل على الولاية ، فأراد أن

---

(١) الصبح المنبي ، ص ٩٨ ·

يجرب حظه مع كافور لعله أن يبلغ بـه الولايـة · وهكذا طلبها صراحـة · فقال :

اذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية   فجودك يكسونى وشغلك يسلب

يلتمس ولاية صيـداء · فأجابـه كافـور : لست أجسر على توليتك صيدا ، لانك على ما أنت عليه تحـدث نفسك بما تحدث ، فان وليتك صيدا فمن يطيقك ؟ (٢) ·

وهذا التمريض نفسه بما أراد فى قولـه :

فارم بى حيث ما أردت فانى   أسد القلب ، آدمى الـرواء
وفـؤادى من الملـوك وان كا   ن لسانى يـرى من الشعراء

ولم يظفر المتنبى مما قصد اليه ، ولا مما أملـه على شىء ، وضاق بالمقام فى مصر ، وزاد ضيقه حين أحس بأن كافورا بـدأ يضيق الخناق عليـه ، وينشر من حولـه العيـون ليقيدوا عليـه حركاته ·

وبدأ هجاءه كافورا ، تنفيسا عن ضيق نفسه ، وعقابا لهـا على ما ارتكبت من قصده ، وليس جديرا بقوله ، انما هى عنجهية بسببها خيرا الى شر ، وأهلا لشعره الى غير أهل · يقول من قصيدة مطلعها :

اقيقاء، خمار الهم نغصنى الخمرا   وسكرى من الايام جنبنى السكرا

---

(٢) الواضـح ، ص ١٠ ·

ومنهـــا :

صحبت ملوك الارض مغتبطا بهم   وفارقتهم ملآن من حنق صـدرا
ولما رأيت العبـد للحـر مالكا   أبيت اباء الحـر مسترزقا حـرا
ومصر لعمرى أهـل كل عجيبة   ولا مثل ذا المخصى أعجوبة نكرا
يعـد اذا عـد العجـائب اولا   كمايبتدا في العد بالاصبع الصغرى
فيا هرم الدنيا ويا عبرة الورى   ويا أيها المخصى من أمك البظرى

* * *

ويقــول فيهـا :

قضـاء مـن الله العـلى أراده   ألا ربمـا كانت ارادتـه شرا
ولله آيـــات وليس كهـــذه   أظنك يا كافور آياته الكبرى

* * *

عثرت بسيرى نحـو مصر فلالعا   بها ولعا بالسير عنها ولا عثرا
وفارقت خير الناس قاصد شرهم   وأكرمهم طـرا لألامهـم طـرا
فعاقبنى المخصـى بالغـدر جازيا   لان رحيلى كان عن حلب غـدرا
وما كنت الا فائل الراى لم اعن   بحزم ولا استصحبت في وجهتي حجرا

نرانـى والفـلاة بـلا دليـل   ووجهـى والهجـير بـلا لثـام
فانـى استريح بـذى وهـذا   واتعب بالاناخـة والمقـام

* * *

أقمت بأرض مصر فـلا ورائى   تخب بى الركـاب ولا أمامـى
وملنـى الفـراش وكان جنبـى   يمـل لقـاءه فـى كـل عـام
قليل عائـدى ، سـقم فـؤادى   كثير حاسـدى ، صعب مرامـى

---

(١) الواضـح ، ص ١٣ .

ألا ياليت شعر يدى أتمسى   تصرف فى عنان أو زمام
وهل أرمى هواى براقصات   محلاة المقاود باللغام

* * *

يقول لى الطبيب أكلت شيئا   وداؤك فى شرابك والطعام
وما فى طبه أنى جواد   أضر بجسمه طول الجمام
تعود أن يغبر فى السرايا   ويدخل من قتام فى قتام

وأمكنه بعد هذا الضيق أن يحتال ويدبر الامر ليخرج خفية من مصر ٠

قال الاصبهاني : « فاحتال بمده في الخلاص من كافور ، فانتهز الفرصة في العيد ، وكان رسم السلطان أن يستقبل العيد بيوم تعد فيه الخلع والحملانات ، وأنواع المبار لرابطة جنده ، وراتبة جيشه ٠ وصبيحة العيد يفرق ، وثانى اليوم يذكر له من قبل ومن رد واستزاد ٠ فاهتبل المتنبى غفلة كافور ، ودفن رماحه برا وسار ليلته ، وحمل بغاله وجماله ، وهو لا يألو سيرا ، وسرى هذه الثلاثة الايام » ٠

ومضى المتنبى فى طريقه هروبا من مصر ومن كافور ، ومن ضيقه بطول المقام ، وشيع مصر وكافورا بقصيدة دالية فى ذلك العيد ، وكان رحيله فى يوم عرفة سنة خمسين وثلاثمائة قال :

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم لامر فيك تجديد
أما الاحبة فالبيداء دونهم   فليت دونك بيدا دونها بيد

وفيها يشكوهم نفسه ، وأنه خرج من مصر ورحلته اليها صفر اليدين ، ولا مال سوى المواعيد المطولة :

ماذا لقيت من الدنيا؟، وأعجبها	أني بما أنا باك منه محسود
امسيت أروح مثر خازنا ويدا	أنا الغني وأموالي المواعيد
انى نزلت بكذابين ضيفهم	عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدى وجودهم	من اللسان ، فلا كانوا ولا الجود

وتنتهي مرحلة من حياة المتنبي وشعره ، غريبة فيما جرى بها ، غريبة فيما دار حولها ، وما قيل فيها من الشعر ، فكثير من شعر المتنبي فيها جيد ، صقلته التجربة ، وبدت شخصيته فذة قوية غلابة ، لم تتضاءل ولم تنطو ، لكنها شخصية جديدة ، لم يكن يطبعها الكبرياء وحده ولا الثورة ، ولا القول في الحساد الكائدين ، فلم يكن بمصر من الشعراء من نافسه كما كان الحال في بلاط سيف الدولة ، ولم تكن مجالس يطول فيها القول بين العلماء ، ويكثر الجدل ، ويطرح شعر الشاعر على بساط النظر ، فيوجه اليه النقد حينا في رفق ، وحينا في عنف وتحامل ٠

كانت حياة المتنبي ساكنة من جميع جوانبها ، لهذا مل هذا السكون ، ولغة شعره تلفها هذه الوحشة الساكنة ، لم يعد يتدفق، فيرعد ويبرق ، بل هو يجتر آلامه وآماله في نغم هادىء حزين ، وا نكان نفاذا مريرا ٠

---

(١) ديوانه ، طبع عزام ، ص ٤٨٨ ٠

وتبدأ هذه الرحلة الطويلة من مصر الى الكوفة في بيداء العرب ، يعبر فيها صحراء سيناء وتيه بني اسرائيل ، ثم صحراء النقب ، فشرقا الى الكوفة ٠

وقد دبر الشاعر خطته في دهاء وحيطة ، واتصل ببعض رؤساء الاعراب في الشرقية بمصر ٠ وكان منهم واحد يذكره في أبيات له اسمه عبد العزيز بن يوسف الخزاعي في بلبيس باقليم الشرقية (١) ٠ قالوا : وأخفى طريقه فلم يأخذوا له أثرا ، حتى قال بعض أهل البادية هبه سار ، فهل محا أثره ؟ وقال بعض المصريين : انما أقام حتى عمل طريقا تحت الارض ٠

وتبعته البادية والحاضرة ، ومن وثقوا به من الجند ، وكتبوا الى عمالهم بالحوفية والجفار وغزة والشام وجميع البوادي ٠ وعبر أبو الطيب في الطرق الوعرة حتى خرج الى ماء على حدود سيناء يعرف بـ « نخل » فلقي عنده في الليل ركبا وخيلا صادرة عنه فقاتلوه ، فأخذهم وتركهم ، وسار حتى قرب من النقب ، فرأى رائدين لبني سليم على قلوصين فركب وطردهما حتى أخذهما ، فذكرا له أن أهلهما أرسلوهما رائدين ، وأوعدوه النزول ذلك اليوم بين يديه ، فاستبقاهما ورد عليهما القلوصين وسلاحهما ، وسار وهما معه حتى توسط بيوت بني سليم آخر الليل ، فضرب له ملاعب بن أبي النجم خيمة بيضاء ، وذبح له ٠

---

(١) ديوانه ، طبع عزام ، ص ٤٨٨ ٠

وغدا فسار الى النقع فنزل ببادية من معن وسنبس ، فذبح له عفيف المعنى غنما وأكرمه وغدا من عنده وبين يديه لصان من جذلم يدلاته في الطريق • فصعد في النقب المعروف بتربان ، وفيه ما يعرف بعرندل (وهي قرية من أرض السراة بالشام ، فسار يومه وبعض ليلته • ونزل •

وأصبح فدخل حسمى • وحسمى هذه أرض طيبة ، تنبت سائر النبات ، مملوءة جبالا في كبد السماء متناوحة ، ملس الجوانب ، اذا أراد الناظر الى قلة أحدها فتل عنقه حتى يراها بشدة ومنها مالا يقدر أحد أن يصعده ، ولا يكاد القتام يفارقها •

ومن جبالها جبل يعرف بأرم ، عظيم العلو ، تزعم البادية أن به كروما وصنوبرا ، فوجد بني فزارة به شاتين ، فنزل بقوم من عدى فزاره •

وبقي في ضيافة فزارة بعض الوقت ، وكانت بينه وبين أمير بني فزارة حسان بن حكمة مودة وصداقة فنزل بجار للقوم اسمه وردان من طي أفسد على المتنبي غلمانه ، قيل أنه كان يجلسهم مع امرأته ، فيسرقون له من رحل المتنبي الشيء بعد الشيء •

وطاب المقام في حسمى للمتنبي فبقي بها شهرا لم يعكرها سوى وردان وغلمانه الذين خانوه وسرقوا متاعه • وحاول أحد عبيده سرقة سيف ثمين له والهرب به ، ولكنه عاجله وقتله ، وحمل متاعه وعبيده وغادر حسمي متمما رحلته الى الكوفة ، وكانت رسل

كافور دائبة البحث عنه لاقتناصه قبل أن يبلغ غايته (٢) » .

بدأ هذه الرحلة في العاشر من ذى الحجة سنة خمسين ، واستمر طوال ما يقرب من أربعة أشهر حتى بلغ الكوفة في شهر ربيع الآخر سنة احدى وخمسين وثلاثمائة . ونظم في هذه الاثناء بعض قصائده المشهورة ، وأولها الميمية التي يذكر فيها بدء الرحلة ورثاء فاتك ، وهمومه ، ومستقبله الغامض الذى يحاول أن يشق عنه حجبه . يقول : (يقال أنشدها بالكوفة سنة ٣٥٣ هـ) .

حتام نحن نساري النجم في الظلم ... وما سراه على ساق ولا قدم

وفيها يذكر شيبه ، وقد داهمه الشيب مبكرا في أخريات الثلاثينات من عمره وأوائل العقد الرابع ويبدو أن هذا الشيب تكاثر في رأسه بعد أن قاربت سنه الخمسين ، وشعر بالحاح الزمن والايام عليه وقد تعاقب عليه هجير الرحلة ولازمته الشمس ، وتعاقب الايام ، فسودت هذه وجهه وبيض ذاك شعره . يقول :

تسود الشمس منا بيض أوجهنا ... ولا تسود بيض العذر واللمم
وكان حالهما في الحكم واحدة ... لو احتكمنا من الدنيا الى حكم
ونترك الماء لا ينفك من سفر ... ما سار في الغيم منه سار في الادم

ونقف عند هذا البيت العجيب وهذه المقابلة بين ماء الغمام ، وماء الحياة ، أو الدم والرونق ، ومن ماء الغمام الحياة للنبات والانسان ، ومن ماء الحياة كذلك ، ولكن هذا يسير في الغمام

---

(٢) في رحلته هذه ، راجع ديوانه ص ٤٨٨ ـ ٤٩٣ طبع عزام ، والصبح المنبي ، ص ١٢٤ ـ ١٢٦ .

يجود على بلد ويبخل على أخرى وهو ما ينفك سائرا ، وماء الحياة يسير كذلك ، في رحلة الانسـان على الارض ، والادم ، أو الجلد يبلى ، وينتهي ٠٠ قسيره مع الزمن الى البـلى والفساد ، الى الموت والفساد ، الى الموت وهو ماء الحياة ٠٠٠

ويقـــول :

لا ابغض العيس لكني وقيت بها ... قلبي من الحزن أو جسمي من السقم

طردت من مصر أيديها بأرجلها ... حتى مرقن بنا من جوش والعلم

وجوش والعلم موضعان قرب حسمي التي آناخ بها بعد أن اطمأن به المسير ، وابتعد عن منطقة نفوذ كافـور ورجالـه في الشام ٠ ويذكر ركبه بين غلمانه وعبيده في عدة الفتك :

في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا ... بما لقين رضا الايسار بالزلم

بيض العوارض طعانون من لحقوا ... من الفـوارس شلالون للنعـم

* * *

مازلت أضحك ابلي كلما نظرت ... الى من اختضبت أخفافها بـدم

أسـيرها بـين أصنام أشـاهدها ... ولا أشـاهد فيهـا عفـة الصنم

حتى رجعت وأقلامـي قوائل لي ... المجد للسيف ليس المجـد للقلم

أكتب بنا أبدا بعد الكتاب بـه ... فانمـا نحن للاسـياف كالخـدم

اسمعتني ودوائي ما أشرت بـه ... فان غفلت فدائي قلـة الفهـم

من اقتضى بسوى الهندي حاجته ... أجاب كل سـؤال عن هل بلـم

أهي ردة جديدة من المتنبي وعود الى موقفه الاول قبل لقـاء سيف الدولة ، وايمانه بالسيف والحرب والضرب والقتال ، وجحد للشعر قوله ، وقدرته في أن يبلغ الانسان مطلبه في الحياة ؟ ٠٠

أم هي ضجرة جديدة ، وعبثية متشائمة ، جناها ، أو أثارتها من مكامنها في نفسه رحلة الصحراء ، وما لقي فيهـا من لقـاء مع الاحداث والاخطار وجها لوجه ، وسيفه بيـده ، يقتحـم المهالك والاخطار ، ويطرد اللصوص ، والفتـاك ، ويغضب ما يريـد ، ويحوزه ولا رقيب ولا سلطان عليه ٠٠ أهي شريعة القوة والفتك، والحق لمن غلب ؟ ! ٠

لقد صب المتنبي تجاربه ثانية فـي هـذه الرحلـة (١) في قصيدته المقصورة القافية :

ألا كـل ماشـية الخيـزلى	فـدى كـل ماشية الهيـدبى

* * *

ضربت بها التيـه ضرب القمار	فامـــا لهــذا وامـــا لـــذا
اذا فزعت قدمتهـا الجيـــاد	وبيض السيوف وسمر القنـا
فمـرت بنخـــل وفـي ركبهـا	عن العالمـين وعنـه غـنى
وأمست تخبرنــا بالنقـــاب	ووادى المياه ووادى القـــرى
وقلنا لها اين أرض العـراق ؟	فقالت ونحن بتربـان : هـــا
وهبت بجسمي هبـوب الدبـور	مســتقبلات مهب الصبـــا

* * *

فلما أنخنـــا ركزنـا الرمـاح	فـوق مكارمنـــا والعـلى
وبتنـــا نقبـــل أسيافنـــا	ونمسحها مــن دمـاء العــدى
لتعلـم مصر ومــن بالعـــراق	ومن بالعواصم أني الفتـى
وأنـــي وفيت وأنـــي أبيت	وأنـي عتـوت عـلى مـن عتـا
وما كل من قـال قـولا وفـى	ومـا كل من سيم خسفا أبـى

واستقبل بالعراق مرحلة جديدة من حياته ، وهو في الخمسين من عمره ، غلب البياض على لحيته ، وحنكتـه التجارب ، وصقلت شعره الايام والسنون ، وفي عودته الى العراق عـودة الى الدرس والمناظرة ، وعودة الى الحضر والاستقرار ، وكان صيته قد تردد في الخافقين وسبقه الى العراق ، وجاءه وهو مـدرك لهذا ، وبين يديه حصيلة كبيرة من الشهرة والمقدرة ، وبين يديه قدر وافر من المـال ، وكان طبيعيا أن يلقى الناس بين مرحب به متمن للقائه والانتفاع بعلمه والافادة من شعره ، وبين طالب مدح ، ليذكـره الناس كذكرهم ممدوحيه الكبار أمثال سيف الدولة وابن عمـار وفاتك وغيرهم ، أو طالب شعره ليتأدب به ويزود نفسه ان كان من أصحاب الادب أو علماء اللغـة ، وفريق آخر ممن لقيه لم يكونوا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء انما هم من المتشاعرين ، أو الحاقدين الذين ساءهم أن يبلغ هذا الرجل ما بلغ مـن المكانـة حتى تهافت عليه الملوك يرجون مديحه ، وهو يدل عليهم باقتداره واغرابـه فضلا عن براعتـه واعجازه ٠

وهكذا بلغ الكوفة ، وبقى بها بعض الوقت ، وغادرهـا الى بغداد ، فأقام زمنا ، التقى فيها بجماعة من مشاهير الادباء والنقاد والعلماء من أمثال الحاتمي ، الذى لقيه لقـاء عاصفا سـجله في رسـالة اعترض فيها عـلى بعض عيوبـه فـى شـعره وسـماها الموضحة (١) ٠ وكان الحاتمى في أول لقائـه بالمتنبى غاضبـا

---

(١) نشرت الرسالة مرتين ، مرة باسم « الحاتمية » ومرة ثانية باسم الموضحة ٠

عتيفا ، ولكن اللقـاء هدهد من غضبه وهدأ من ثورته ، فقلل من حملته على الشاعر واعترف بفضله ، وألف فيه رسالة ثانية تبين معارضته لارسطو في بعض حكمه (١) وفلسفته • وكان قد ترفع في بغداد عن مدح وزيرهـا المهلبـي ، فحـرض عليه كما قيـل الحاتمي (٢) •

قال الحاتمي :

« كان أبو الطيب عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة ، يخيل له أن العلم مقصور عليـه ، وأن الشعر لا يغترف عذبه غيره ، ولا يقتطف نواره سواه ، ولا يرى أحـدا الا ويرى نفسه مزية عليه ، حتى اذا تخيل أنه نسيج وحده ، وأنـه مالك رق العلم دون غيره ، وثقلت وطأته على أهـل الادب بمدينة السلام ، وطأطأ كثير منهم رأسه ، وخفض جناحـه ، واطمأن عـلى التسليم جأشه ، وتخيل أبو محمد المهلبي انه لا يتمكن أحـد مـن مساجلته ومضارعته ، ولا يقوم لمجادلته والتعلق بشيء من مطاعنه، وساء معز الدولة أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ولم يكن بمملكته أحـد يماثله فيما هـو فيه ، ولا يساويـه في منزلته ، يبدى لهم عواره ، ويكفى آثاره ، ويهتك أستاره ، ويمزق جلابيب مساويه • فتوخيت أن يجمعنا مجلس أجرى أنا واياه في مضماره ليعرف السابق من المسبوق ، فلما لم يتفق ذلك قصدت

---

(١) الحاتمية الثانية سبق نشرها •

(٢) راجع الثعالبي في أبو الطيب ما له وما عليه •

مجلسه ، فوافق مصيرى اليه حضور جماعة يقرءون عليه شيئا من شعره ، فحين استؤذن لى نهض من مجلسه ودخل بيتا الى جانبه ونزلت عن بغلتي وهو يراني ، ودخلت الى مكانه ، فلما خرج الى نهضت اليه فوفيته حق السلام غير مشاح له فى ذلك ٠

وكان سبب قيامه من مجلسه لئلا يقوم لى عند الدخول اليه ٠

ولبس سبعة أقبية ملونة ٠ وكان الوقت أحر ما يكون من الصيف ، وأحق بتخفيف اللبس ، فجلس ، وأعرض عنى ساعة لا يميرنى طرفا ، ولا يكلمنى حرفا ، فكدت أتميز غيظا وأقبلت أستخف رأيى فى قصده ، وأعاتب نفسى فى التوجه الى مثله ، وهو مقبل على تكبيره ملتفت الى الجماعة الذين بين يديه ، وكل واحد منهم يومىء اليه ، ويوحي بطرفه ، ويشير الى مكانى ، ويوقظه من سنة جهله ، ويأبى الا أزورارا ونفارا ، جريا على شاكلة خلقه ، ثم توجه الى ، فوالله ما زادنى على قوله :

ــ أى شيء خبرك ؟

فقلت ــ ما جنيته على نفسى من قصدك ، وكلفت قدمى من السعى الى مثلك ٠ ثم انحدرت عليه انحدار السيل ٠

وقلت ــ ابن لى عافاك الله ما الذى يوجب ما أنت عليه من العظمة والبكرياء ؟ ٠ هل هنا نسب يورثك الفخر ، أو شرف توجت به دون أبناء الدهر ، أو علم أصبت فيه علما يقع

الايماء اليه ، أو مورد تقف الهمم عليه ؟ • وهل أنت الا
وتد بقاع في شر البقاع ؟ واني لاسمع جعجعة ولا طحن •

فامتنع لونه ، وجعل يعتذر عن جنايته •

وأقول له - يا هذا اذا أتاك شريف في نسبه تجاهلت عليه ، أو
عظيم في أدبه صغرت قدره أو مقدم عند سلطانه لم
تعرف موضعه • هل العز تراث لك دون غيرك ؟ •• كلا
والله ، ولكنك مددت الكبر سترا ، وضربته رواقا دون
جهلك •

فعاد الى الاعتذار • وأخذت الجماعة في تليين جانبي ، والرغبة
في قبول عذره ، واعمال مياسرته ومسامحته • ويحلف بالله أنه لم
يعرفني • فأقول : يا هذا ألم يستأذن عليك باسمي ونسبي ؟ ••
أما كان في الجماعة من يعرفك بي ان كنت تجهلني ؟ • وهب كان
ذلك ، ألم ترتحتي بغلة رائعة ، يعلوها مركب ثقيل ، وبين يدي
عدة غلمان ، أما شاهدت لباسي ؟ أما شممت نشري ؟ •• أما راعك
شيء من أمري أتميز به عن غيري ؟ - وهو خافض جناح الذل •
وقد زال عنه ما كان فيه ، وأقبل علي ، وأقبلت عليه » •

ويروي الاصبهاني مجلسا آخر له في بغداد بحضرة المهلبي :
قال : « فلما حصل المتنبي ببغداد نزل ربض حميد ، فركب الى
المهلبي ، فأذن له فدخل وجلس الى جنبه وصاعد خليفته دونه ،

وأبو الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الاغانـي • فأنشـدوا هذا البيت :

سقى الله امواهـا عرفت مكانها　　جراما وبلكوما ، ويذبر فالغمرا

وقال المتنبى : هو « جرابا » • وهذه أمكنه قتلتهـا علما ، وانما الخطأ وقع من النقله ، فأنكره أبو الفرج الاصبهانى • قال الشيخ: هـذا البيت أنشـده أبو الحسن الاخفش صاحب سـيبويه فـى كتابه جراما بالميم ، وهو الصحيح • وعليه علماء اللغـة •

وتفرق المجلس على هذه الجملة ، ثم عاوده اليـوم الثانـى ، وانتظر المهلبى انشاده فلم يفعل وانما صده ما سمعه من تماديه في السخف ، واستهتاره بالهزل ، واستيلاء أهل الخلاعة والسخافة عليه • فلما كان اليوم الثالث أغروا به ابن الحجاج حتى علق لجام دابتـه فى صينية الكرخ ، وقد تكابس الناس عليه من الجوانب ، وابتدأ ينشده :

يا شيخ أهـل العلم فينـا ومن　　يلزم أهـل العلـم توفـيره

فصبر عليه المتنبى ، ساكتا، ساكتا ، الى أن أنجزها ، ثم خلى عنان دابتـه • وانصرف المتنبى الى منزلـه وقد تيقن اسـتقرار أبى الفضل ابن العميد بأرجان وانتظاره له ، فاستعد للمسير (١) •

وهجاء شعراء العراق • قال الثعالبى :

« ولمـا قدم أبو الطيب من مصر بغداد وترفع عن مدح المهلبى

---

(١) الاصبهاني • الواضـح ، ص ١٥ •

الوزير بنفسه عن مدح غير الملوك شق ذلك على المهلبى ، فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه ، وتباروا فى هجائه وفيهم ابن الحجاج وابن سكرة ، والحاتمى ، وأسموه ما يكره ، وتماجنوا ، وتمادوا عليه ، فلم يجبهم ، وقيل له فى ذلك فقال : انى فرغت من اجابتهم بقولى لمن هم أرفع منهم طبقة :

أرى المتشاعرين غروا بذمى	ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض	يجد مرا به الماء الزلالا

وقولى :

أفى كل يوم تحت ضبنى شويعر	ضعيف يقاوينى ، قصير يطاول
لسانى بنطقى صامت عنه عادل	وقلبى بصمتى ضاحك منه هازل

وبلغ أبا الحسين بن لنكك البصرى الشاعر ما جرى على المتنبى من وقيعة شعراء بغداد فيه ، واستحقارهم له . وكان حاسدا له ، طاعنا عليه ، هاجيا اياه ، فشارك فى الهجاء والذم ٠

وقد كان ما ناله المتنبى من الثراء ، وما عاش فيه من بحبوحة العيش مما زاد حسد الناس له ، وحقد الشعراء عليه ٠ وذكر ذلك ابن لنكك حين قال :

ما أوقح المتنبى	فيما حكى وادعاه
ابيح مالا عظيما	حتى أباح قفاه
يا سائلى عن غناه	من ذاك كان غناه

يريد أن يتهمه بالتذلل لمن يقصده بشعره فى سبيل الحصول على المال ٠٠

ومهما يكن من أمر فان وجود المتنبي بالعـراق قـد أكسب النقد حركة ، كما أثار في الشعر ثـورة ان تكن كلهـا مستهدفة الشاعر وشعره ، فانها قد أفادت الادب ، وخلفت لنا تراثا طيبا حول الشاعر وشعره ، وحصيلة هذا كله قصائد كثيرة وان تكن في الهجاء ، وكتب ومحاورات في جيد شعره وقبيحه ، وفـي معانيه ومراميه ، وسرقاته ، وما حاكى فيه الحكماء أمثال أرسطو ، وما انفرد به من وحشي اللغـة وغريبها لفظا وتركيبا ٠

وتقترب آثاره في هذا المجال من آثاره في حلب مع شعرائها وعلمائها في بلاط سيف الدولة ٠

وان يكن النقد قد أفاد فان الشعر لم يظفـر من أبي الطيب بقصائد من فرائده ٠ ولم تطل اقامته ببغداد ، فسرعان ما حث الركاب الى الشرق ٠

ولا نذكر له في العراق سوى قصيدة لامية يمدح بها قائدا جاء الى الكوفة يعين أهلها على بعض الخـوارج الذين ألمـوا بهـا وأصابوا مقاتل من أهلها ، وشـارك المتنبي في الدفاع عنهـا ، وقابل القائد أبا الفوارس دلير بن لشكروز وأنشـده اياهـا في الميدان ٠ قال :

كدعواك كل يدعي صحة العقل ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل

« وحمله دلير على فرس بمركب ذهب » (١) ٠

---

(١) الواضـح ، ص ١٣ ٠

وقصد أبو الطيب أبا الفضل ابن العميد في أرجان . قـال الاصبهاني :

« وكان السبب في قصده أبا الفضـل ابن العميد على ما أخبرني علي بن شبيب القاساني ، _ وكان أحـد تلامذتـي ، ودرس عـلي بقاسان سنة ٣٧٠ ثلاثمائة وسبعين _ أن المعروف بالمطوق الشاشي كان بمصر وقت المتنبي ، فعمد الى قصيدته في كافور :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وجعل مكان أبا المسك « أبا الفضل » . وسار به الى خراسان . وحمل القصيدة عن المتنبي الى أبي الفضل ، وزعم أنه رسـوله ، فوصله أبو الفضل بألفي درهـم . واتصل هـذا الخبـر بالمتنبي ببغداد فقال : رجل يعطي لحامل شـعري هـذا ، فما تكون صلته لـي ؟ ... »

وكان أبو الفضـل ابن العميد يخرج فـي السنة من الـري خرجتين الى أرجان يجبي بها أربع عشرة مرة ألف ألف درهم فنـا حديثه الى المتنبي بحصوله بأرجان .

قال الثعالبي : « ثم ان أبا الطيب اتخذ الليل جملا ، وفارق بغداد متوجها الى حضرة أبي الفضل ابن العميد مراغما للمهلبي الوزير ، فورد أرجان ، وأحمد مورده (٢) .

---

(٢) أبو الطيب ، ص ٤٢ .

قال ابن جني (٣) عن علي بن حمزة البصري قـال : كنت مع المتنبي لمـا ورد أرجان ، فلما أشرف عليها وجدها ضيقة البقعـة والدر والمساكن ، فضرب بيده على صـدره وقـال : تركت ملوك الارض وهم يتعبدون لي ، وقصدت رب هذه المـدرة ، فمـا يكون منـه ؟ .. ثم وقف بظاهر المدينة . وأرسل غلاما على راحلته الى أبي الفضل ابن العميد ، فدخل عليه وقـال : مولاي أبـو الطيب خارج البلاد . وكان وقت القيلولة وهو مضطجع في دسته ، فثار من مضجعه أبو الفضل ، واستثبته ، ثم أمـر حاجبـه باستقباله ، فركب ، واستركب من لقيه في الطريق ، ففصل عن البلـد بجمع كثير ، فتلقوه وقضوا حقـه ، وأدخلوه البلد ، فدخـل على أبـي الفضل فقام له من الدست قياما مستويا ، وطرح له كرسي عليه مخدة ديباج . وقال أبو الفضل : مشتاق اليك يا أبا الطيب ، ثم أفاض المتنبي في حديث سفره ، وأن غلاما له احتمل سيفا وشـذ عنـه .

وأخرج من كمـه عقيب هذه المفاوضة درجا فيه قصيدته :

باد هـواك صبرت ام لم تصبرا وبكاك ان لم يجر دمعك او جرى

وقيل أنه ورده بارجان فـي ربيع الاول سـنة أربـع وخمسـين وثلاثمائة .

فوحى أبو الفضل الى حاجبه بقرطاس فيـه مائتـا دينـار ،

---

(٣) الواضح ، ص ١٦ .

وسيف غشاؤه فضـــة وقال : هذا عوض عن السيف المأخوذ · وأفرد له دارا نزل بها ، فلما استراح من تعب السفر كان يغشى أبـا الفضل كل يوم ويقول : ما أزورك أكيابا الا لشهوة النظر اليك ، ويؤاكله · وكان أبو الفضل يقرأ عليه ديوان اللغة الذى جمعه ، ويتعجب من حفظه وغزارة علمه ·

وأظلهم النيروز ، فأرسل أبو الفضل بعض ندمائه الى المتنبى ليقول : كان يبلغنى شعرك بالشام والمغرب وما سمعته دونه · فلم يحر جوابا الى حضرة النيروز وأنشده مهنئا ومعتذرا :

هل لعذرى الى الهمام ابي الفضل	قبـول سـواد عينـى مـــداده
ما كفانى تقصير ما قلت فيـه	من عـلاه حتى ثناه انتقـاده
انـنـى أصيـــد البـزاة ولكن	أجـل النجـــوم لا أصطـــاده
ما تعودت أن أرى كابي الفضل	وهــذا الـذى أتـاه اعتيـاده

ومطلع هذه القصيدة :

جـاء نوروزنـا وأنت مـــراده	وورت بالـذى أراد زنــــاده

قال الاصبهانى : فأخبرنى البديهى سنة ثلاثمائة وسبعين أن المتنبى قال بأرجان : الملوك قرود يشبه بعضهـم بعضـا ، لا على الجودة يمطون ·

وكان حمل اليه أبو الفضل خمسين ألف دينار توابعها · وهو من أجاد زمان الديلم ·

وأثار المتنبى فى حضرة ابن العميد نقاشا حول شـــعره بين

المعجبين والمعترضيين • قيل أنه بعد ما أنشد رائيته فيه • تنازع ندماء ابن العميد في البيت الاخير وهو قوله :

فتـرى الفضيلة لا تـرد فضيلة   الشمس تشرق والسحاب كنهورا

فقال أثبتـوه حتى أتأملـه فأثبت البيت ووضع بين يديه ، فأطرق مليا يفكر فيه ، ثم قال : هذا يعطلنا عن المهم ، وما كان الرجل يدرى ما يقول •

وهكذا أتيح للمتنبي ناقد من ممدوحيه مـرة أخـرى يسمع الشعر ويجرى فيه البحث والنظر وأشـار الى تعقب ابن العميـد لشعره ونقـده في قوله :

هل لعذري الى الهمام أبي الفضل   قبـول سـواد عينـي مـداده

انـا من شـدة الحيـاء عليـل   مكرمـات المعـلى عـواده

* * *

رب مـالا يعبـر اللفظ عنـه   والذى يضمر الفـؤاد اعتقاده

وقصيدة في النيروز من أربعين بيتا بعث بها اليه ، هدية في هذا العيد ، كما اعتاد الناس الهدايا • وكان من عادة الفرس في ذلك اليوم حمل الهدايا الى ملوكهم فقال أبو الطيب :

كثر الفكر كيف نهدى كما اهد   ت الى ربهـا الرئيس عبـاده

والذى عندنا من المـال والخيـ   ـل فمنـه هباتـه وقيـاده

فبعثنـا باربعـين مهـار   كل مهـر ميدانـه انشـاده

عدد عشته يـرى الجسم فيـه   أربـا لا يـراه فيمـا يـزاده

فارتبطهـا فـان قلبـا نماهـا   مربـط تسبق الجيـاد جيـاده

قال البديعى (١) : « وهذا من احسان أبى الطيب ، واحتج عن تخصيص أبياته الاربعين دون غيرها من العدد بحجة غريبة ، وهى أنه جعلها كعدد السنين التى يرى الانسان فيهـا من القـوة والشباب ، وقضاء الاوطار مالا يراه فى الزيادة عليها ، فاعتذر بألطف اعتذار فى أنه لم يزد القصيدة على هذه العدة » ٠

وكان بين مؤيديه والمنتصرين له أبو الفتـح ابن العميد ابن أبى الفضل ، وكان بالسرى ، ونسخت القصيدتان اللتـان مدح بهما الشاعر والده ، فعاد الجواب يذكر شـوقه الى أبـى الطيب ، وسروره به ٠ وانفذ أبياتا طعن فيها على المعترضين لقول الشعر ٠ فقال أبو الطيب والكتاب بيده ارتجالا :

بكتب الانـام كتـاب ورد	فدت يـد كاتبـه كل يـد
يعبـر عمـا لنـا عنـده	ويذكر من شوقـه ما نجـد
فافرق رائيـه ما قد رأى	وأبرق ناقـده ما انتقـد
اذا سمع النـاس الفاظـه	خلقـن له فـى القلوب الحسـد
فقلت وقـد فرس الناطقين	كذا يفعـل الاسـد بن الاسـد

وقد أتيح للمتنبى فى هذه المرحلة المشرقية من حياته جماعة من العلماء والادباء والرؤساء نقدوا شـعره ، وتعقبوا سقوطه ، وهولوا ، وملأوا الجو ضجيجا ٠ وعيبا ٠

وأولهم الاديب الوزير الناقد الصاحب بن عباد ٠ وقصته مع

---

(١) الصبح المنبى ، ص ١٥٥ ٠

أبي الطيب ، قصة كل حاقد رأى أمامه الفضل فتمناه لنفسه فلما عــزه ، حمل عليه ، وأزرى بــه ٠

قال الثعالبي (٢) : « يحكى أن الصاحب أبا القاسم طمع في زيارة المتنبي اياه بأصبهان ، واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان ، وهو اذ ذاك شاب ، وحالة حويلة ، ولم يكن استوزر بعد ، وكتب اليه يلاطفه فــي استدعائه ، وتضمن لــه مشاطرته جميع ماله ، فلم يقم له المتنبي وزنا ، ولم يجبه عن كتابه ولا الى مراده » ٠

ولم يهتم أبو الطيب بأمــر هــذا الفتى ، بــل كان رده عليه تعاليا واحتقارا لشأنه ٠ وروى البديعي أن المتنبي قال لاصحابه : ان غليما معطاه بالرى يريد أن ازوره وامدحه ، ولا سبيل الى ذلك ٠

وغادر حضرة ابن العميد الى شيراز حيث الامير البويهي عضد الدولة ٠ قال الاصبهاني (٣) : « ثم ان أبا الطيب المتنبي لمــا ودع أبا الفضل بن العميد ، ورد كتاب عضد ليستدعيه ، فعرفــه أبو الفضل ، فقال المتنبي : مالي وللديلم ، فقال أبو الفضل : عضد الدولة أفضل مني ، ويصلك بأضعــاف مــا كنت وصلتك بــه ٠ فأجاب بأني ملقى من هؤلاء الملوك ، أقصد الواحد بعد الواحد ، وأملكهم شيئا يبقى ببقاء النيرين ويعطونني عرضــا فانيــا ، ولي ضجرات واختيارات فيعوقونني عن مرادي ، فأحتاج الى مفارقتهم

---

(٢) أبو الطيب ، ص ٤٢ ٠

(٣) الواضــح ، ص ٣٠ ٠

فكاتب أبو الفضل عضد الدولة بهذا الحديث ، فأجاب بأنه مملك مراده في المقام والطعن ·

فسار المتنبي من أرجان ، فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز استقبله عضد الدولة بأبي عمر الصباغ · (أحد علماء اللغة عنده) فلما تلاقيا وتسايرا استنشده ، فقال : الناس يتناشدون فاسمعه فقال أبو عمر أنه رسم له ذلك عن المجلس العالي ، فبدأ بقصيدته التي فارق مصر بها :

الا كل ماشية الخيزلى فدا كل ماشية الهيدبى

ثم دخل البلد فأنزل دارا مفروشة ·

ورجع أبو عمر الصباغ الى عضد الدولة وأخبره بما جرى ، وأنشده أبياتا من كلمته وهي :

فلما أنخنا ركزنا الرماح حول مكارمنا والعلا
وبتنا نقبل اسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت واني ابيت واني عتوت على من عتى

فقال عضد الدولة : هو ذا يتهددنا المتنبي ·

ثم لما نفض غبار السفر واستراح ، ركب الى عضد الدولة، فلما توسط الدار انتهى الى قرب السرير مصادمه فقبل الارض واستوى قائما ، وقال : شكرت مطية حملتني اليك ، وأملا وقف بي عليك ·

ثم سأله عضد الدولة عن مسيره من مصر وعن علي بن حمدان-

فذكره • وانصرف وما أنشد • وروى عن القاضي عبد العزيز بن يوسف الجرجاني ، وكان كاتب الانشاء في بلاط عضد الدولة عظيث المنزلة منه (١) أنه قال : لما دخل أبو الطيب المتنبي مجلس عضد الدولة وانصرف عنه ، أتبعه بعض جلسائه ، وقال له : سله كيف شاهد مجلسنا ؟ وأين الامراء الذين لقيهم منا ؟ قال : فامتثلت أمره ، وجاريت المتنبي في هذا الميدان ، وأطلت معه عنان القول ، فكان جوابه عن جميع ما سمعه مني أن قال : ما خدمت عيناى قلبى كاليوم •

ولقد اختصر اللفظ ، وأطال المعنى ، وأجاد فيه • وكان ذلك منه أوكد الاسباب التى حظى بها عند عضد الدولة » •

ويقال أن أول قصيدة أنشده اياها قوله (٢) :

اوه بديل من قولتى واها   لمن نات والبديل ذكراها

أنشدها سنة أربع وخمسين وثلاثمائة •

ولكن الاصبهاني يذكر أن قصيدة الشعب النونية هي أول ما أنشده (٣) • قال الاصبهاني أنه بعد أيام من وصوله شيراز حضر سماط عضد الدولة ، وقام بيده درج فأجلسه عضد الدولة وأنشد :

---

(١) الصبح المنبى ، ص ١٦١ •

(٢) هكذا في الصبح المنبي وديوانه ، طبع عزام ، ص ٥٥٢ •

(٣) أبو الطيب ص ٤٠ •

مغاني الشعب طيبا فـي المغاني بمنزلة الربيع مـن الزمان

فلما أنشدها وفرغوا من السماط حمل اليه عضد الدولة من أنواع الطيب في الاردية والامنان من بين الكافور والعنبر والمسك والعود ، وقلد فرسه الملقب بالمجروح ــ وكان اشترى له بخمسين ألف شاة (عملة فارسية) ، وبدرة دراهما عدلية ، ورداء حسوه ديباج رومي مفصل ، وعمامــة قومت خمسمائة دينـار ، ونصلا هنديا مرصع النجاد والجفن بالذهب » ·

ويحكي الثعالبي (٢) : أنه لمــا أنشــد المتنبي عضد الدولـة قصيدته هذه ، وانتهى الى قوله :

وألقى الشرق منها فـي ثيابي دنانـيرا تفـر مـن البنـان

قال عضد الدولة : لاقرنها في يديك · ثم فعل ·

القريب الى المنطق رواية الاصبهاني ، لان المتنبي حين بـدأ القصيدة بوصف شعب بـوان وكان في طريقــه الى شيراز كان يجري على عادة شعراء العرب فــي وصف الرحلــة الى الممدوح ، والمعقول أن يصف رحلته اليه بعد زمن يقضيه في جنابه ثــم أن روح القصيدة ، وما فيها من جو التفاؤل ينبيء بهذا ·

قال الاصبهاني : « وبعد ذلك كان ينشده في كل حدث يحدث قصيدة الى أن حدث يوم نثرا لورد ، فدخل عليه والملك على السرير في قبة يحسر البصر فـي ملاحظتها بأبـواب ، والاتراك ينثرون

---

(٢) الواضــح ، ص ٢١ ·

الورد ، فمثل المتنبي بين يديه وقال : ما خدمت عيني قلبي قبل اليوم وأنشد يقول :

قد صدق الورد في الذي زعما　　أنك صيرت نثره ديما
كأنما مائج الهواء به　　بحر حوى مثل مائه عنما

فحمل على فرس ومركب ، وألبس خلعة ملكية ، وبدرة بين يديه محمولة .

وكان هذا اليوم من أعيادهم ، وكان عضد الدولة جلس للشراب ، وطاف به غلمانه من الاتراك ينثرون عليه الورد .

وطابت له الاقامة بشيراز ، ولقى الترحيب والاكرام ، والتف حوله العلماء والنقاد فمنهم المعجب المخلص له كابن جنى ، وعلى بن حمزة الاصبهاني ، والقاضي على بن عبد العزيز صاحب الوساطة ، ومنهم الناقد العائب مثل أبي على الفارسي ، ومحمد بن أبي الثياب البغدادي .

وكان شعره في بلاط شيراز أجود من غيره من الشعر الذي قاله قبل في أرجان ، وان لم يبلغ درجة شعره عند سيف الدولة ولا في مصر ، ولا في رحلته منها الى الكوفة . ولعل عضد الدولة لاحظ هذا أو لعل أحدا من مجالسيه من العلماء لفت نظره اليه .

قال الاصبهاني :وقال عضد بشيراز : المتنبي قال جيد شعره بالغرب . فأخبر المتنبي به فقال : الشعر على قدر البقاع .

وفي هذا القول نغمة تعصب للعرب ومحبة لاهله ووطنه ،

وقد لازمه هذا الشعور طوال بقائه في فارس سواء في أرجان أو شيراز . ونم عنه شعره في عضد الدولة خاصة حين يقول :

أوه ممن لا أرى محاسنها ... وأصل واهاً وأوه مرآها

شامية طالما خلوت بها ... تبصر في ناظري محياها

الى أن يقول :

أحب حمصاً الى خناصرة ... وكل نفس تحب محياها

ويقول في قصيدة الشعب :

مغاني الشعب طيبا في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان

ويقول :

ولو كانت دمشق ثنى عناني ... لبيق الثرد ، صيني الجفان

وكان قد كره الذهاب الى هؤلاء الملوك بالمشرق ، وقال لابن العميد وهو يغريه بالذهاب الى شيراز مالي والديلم ؟ . لكنهم ألحوا عليه وأغدقوا المال والعطايا ، فلم يجد مندوحة من الذهاب ، طمعاً في المال ، ورغبة في الشهرة . ولعله اتخذ موضوع المديح داعياً للقول ، وسبباً الى الثراء ، لكن طبعه كان يفيض بالشعر لانه شاعر ، ولانه يريد أن يرضي الادباء والعلماء ممن ينتظرون كل جديد منه ، ويتلهفون على سماعه .

حدث ابن جني عن علي بن حمزة الاصبهاني قال : كنت حاضراً بشيراز وقت عرضه لهذه القصيدة : (يعني شعب بوان) وقد سئل عن معنى هذا البيت :

وكـان ابنـا عـدو كاثـراه ... لـه يـاءا حـروف انيسيان

قال فالتفت الى (المتنبى) وقال : لو كان صديقنا ابن جنى حاضرا لفسره · قال ابن جنى وقـال لى يومـا : أتظن أن عنايتى بهذا الشعر مصروفة الى من أمدحه بـه ؟ ليس الامـر كذلك · لو كان لهم لكفاهـم منـه البيت ، قلت : فلمن هو ؟ قـال : هو لك ولاشباهك ·

وكانت زورته لعضد الدولة ناجحـة بمـا جنـى من الثروة والشهرة ، ولقاء أفاضل الادبـاء والعلمـاء ممن اهتموا بشعره وقدروه حق قدره ، أو من حسدوه وحقدوا عليه ، وكان حسدهم مدعاة للحديث عن شعره ، ذموه ، فزادوه شهرة ، وتحدثـوا عنـه فنشروا محاسنه كما قال أبو تمام :

واذا أراد الله نشـر فضيلـة	طويت أتاح لهـا لسان حسـود
لولا اشتعال النار فيما جـاورت	ما كان يعرف طيب عرف العـود

قال البديعى (١) :

« ولما أنجحت سفرته ، وربحت تجارته بحضرة عضد الدولة ، ووصل اليه من صلاته أكثر من مائتى ألف درهم أستأذن فى المسير عنها ، ليقضى حوائج فى نفسه ، ثم يعود اليها ، فأذن له ، وأمر بأن يخلع عليه الخلع الخاصـة ، وتعـاد صلته بالمـال الكثـير ، فامتثل لذلك ، وأنشده هذه القصيدة :

(١) الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ، ص ١٦٧ ، وراجع أبو الطيب للثعالبى ، ص ١٤٢ ·

فلو أني استطعت خفضت طرفي　　فلم أبصر بـه حتـى أراكـا

وقال الاصبهاني (٢) :

« فلما أقام مدة مقامه ، وسمع ديوان شعره ارتحل وسـار بمراكبـه ، وظهـوره ، وأثقالـه وأحمالـه الى أن نـزل الجسر بالاهواز » ·

وكان أبو الفتح ابن أبي الفضل ابن العميـد قد بعث اليـه بكتاب من الرى ، ومضمونه الشوق الى لقـاء المتنبي وتشوقه الى تطرقه عليه ، فأجابه المتنبي :

بكـتب الانـام كتـاب ورد　　فـدت يـد كاتبـه كـل يـد
اذا سـمع النـاس ألفاظـه　　خلقن له في القلوب الحسـد
فقلت وقـد فـرس الناظريـ　　ـن كذا يفعل الاسـد بن الاسد

فلما أعاد الجواب الى أبي الفتح جعل الابيات سورة يدرسها ويحكم للمتنبي بالفضل على أهل زمانه (٣) ·

وكان أبو الفتح يتعصب للمتنبي ، لكن الشاعر لم يجد فرصة للقائه ، وكان في عجلة من أمـره حنينا الى بـلاده ، وربما ساقه حنينه ، واستعجله أجلـه ·

وكان خروجه من شيراز الى الاهواز رحلته الاخيرة في الحياة·

---

(٢) الواضـح ، ص ٢٤

(٣) الواضـح ، ص ٢٣ ·

قال البديعي : « فلما فارق أعمال فارس حسب أن السلامة تستمر به كاستمرارها في مملكة عضد الدولة فقتل » .

وترك المتنبي شيراز في رمضان سنة ٣٥٤ هـ وبلغ مدينة واسط بالاهواز ، وعند ضيعة هناك قرب مكان يقال له دير العاقول خرج عليه فاتك الاسدى ، وكان من الفتاك المشهورين وكان موتورا منه لان الشاعر هجا من يقال له (ضبة) في أثناء مقامه بالكوفة ، وتعرض فيها لامه . وكانت أخت فاتك هذا ، فاقسم لئن اكتحلت عينه به أو جمعته واياه بقعة ليسفكن دمه .

وما زال يترصد له حتى علم بخروجه من عند عضد الدولة متجها الى الاهواز . وبلغ أبو الطيب المكان ليلا ، ومعه رحله وولده وعبيده ، فخرج عليه فاتك ومعه سبعون رجلا من الاعراب الفتاك ومن أبناء عمومته ممن كانوا يضمرون للشاعر ما يضمره لتشهيره بابنة عمهم وقتلوا كل من كان في صحبته ، وحمل فاتك على المتنبي وطعنه ، فوقع من فوق فرسه . ونهبوا ماله وكل ما معه حتى دفاتره .

وكان لمقتله أثره المروع في نفوس محبي شعره ورثاه الشعراء والعلماء مراثي فيها فجيعة الفقد .

والمتنبي في الشعر العربي يمثل شخصية جبارة ، لها خصائصها المميزة التي تكشف عن نفسها وقلما تجد في الشعر العربي من ظهرت شخصيته في شعره ظهور شخصية أبي الطيب .

وأول ما يلقانا من هذه الشخصية قوة الذات ، وارتفاع نبرة الانا . فيقول :

أنا الذي بين الاله به الاقـ ـدار والمرء حيثما جعله
جوهرة تفرح الشراف بها وغصة لا تسيغها السفله

هذا الاعتداد بالنفس كان فيما يبدو خلقة فيه وعززه موهبته الشعرية ، وذكاء مفرط الى دهاء ربما صرفه الى غير الخير ، أو للعبث بعقول الناس والسخرية منهم .

قال ابن فورجة : « كان المتنبي داهية ، مر النفس ، وخيل اليه منذ حداثته أنه مخلوق ممتاز ، يفوق الناس جميعا ، ولا يروق له أحد منهم ، ولا يسمو اليه وأنه انما بلغ ما بلغ خلقة وطبعا لم يأته التفوق وراثة عن آبائه وأجداده :

لا بقومي شرفت ، بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجاني وغوث الطريد
ان اكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد
أنا رب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها اللـ ـه غريب كصالح في ثمود

وهذا العجب ، وتلك الكبرياء ليس عجيبا منه ، لانه هو نفسه عجيب ، وظاهرة فريدة في وسط قومه وعصره ، ولهذا فهو غريب بين قوم لا يدركون فضله ، ولا يحسنون فهمه ولا يقدرونه قدره .

ويحمل بين جنبيه همة عالية ، جاءته من طبعه ، وحساسيته ،

وشعوره بالتفوق ويبالغ في التعبير عن تلك الهمة في شبابه ، وعن غايته ما هـي ؟ ··· ويجيب عن تساؤل الناس من هو ؟ ومـاذا يبغـي ؟ :

ومن جاهل بي وهو يجهل جهله   ويجـهل علمـي أنـه بي جاهل
ويجهل أني مالك الارض معسر   وأني على ظهر السماكين راحل
تحقـر عندي همتي كل مطلب   ويقصر في عيني المدى المتطاول

ويقـول :

أمط عنك تشبيهي بمـا وكأنه   فما أحد فوقي ولا أحد مثـلي

ويقـول :

تغرب لا مستعظما غير نفسه   ولا قابـلا الا لخالقـه حـكما
يقولون لي من أنت في كل بلدة   وما تبتغي،ما ابتغي جل‌أن‌يسمى

غربة في الزمان ، غربة بين الناس ، تعال وشعور عارم بالتفوق ، يدفعه الى التعالي ، والتعالي حتى على نفسه :

واقفا عند أخمصي قدر نفسي   واقفـا عنـد اخمصي الانـام

لاشك أن هذه النفس الكبيرة المرة ، فقدت تكيفها مع المجتمع من حولها ، وبدت آثار غربتها فـي مظاهر عـدة يحكمها الملـل والقلق ، وعدم الرضا بانسان ، ولا مكان ، زمان تحكمها الثورة ارادة التغيير ، والعنف فتبدو الرغبة في الهدم والقتل ، ويبدو التعطش الى الدم · ويحكمها الغضب ، والمرارة ، وعـدم الرضا بانسان ، ولا مكان ، ولا زمان تحكمها الثـورة ارادة التغيير ، والعنف فتبدو الرغبة في الهـدم والقتل ، ويبـدو التعطش الى

الدم . ويحكمها الغضب والمرارة ، وعدم الرضا بنعيم العيش ، ولا الركون الى الدعة ، والتنعم بالملاذ ومطايب الحياة من نساء وخمر ولعب ، يحكمها النظرة الى كل شيء من عل ، فيرى كل شيء صغيرا ، حقيرا ، الناس ، والدنيا ، والزمن والحياة .

اذا نبعت عن هذه النفس المتعالية ، والاحساس بالغربة صفات غلبت على شعره منذ صباه الى وفاته .

فأما احساسه بالغربة ، وبأنه منفرد في هذا الزمان ، وبأنه وحيد ، فنجده فيما عرضنا من شعره في احساسه بالامتياز ، وبأنه عجيب فلهذا يشعر الناس بعجبه ، وهو يعجب لانه يرى في نفسه ظاهرة غريبة ، وهو غريب كغربة صالح في ثمود ، وكغربة التبر في التراب .

وهو لا يهتم بأن يتجاهله الناس أو يجهلونه ، فذلك لا يغير من جوهره ، والدر در برغم من جهله :

ويظهر الجهل بي وأعرفه   والدر در برغم من جهله

وظاهرة القلق ، ظاهرة طبيعية لهذه النفس التى لا تطمئن الى الحياة ، ولا تجد من يقدرها ولا تجد في الارض مثوى ، فكل أرض تضمها تنفضها ، وكل منزل تنزله تلفظه .

ارق على أرق ومثلى يارق   وجوى يزيد وعبرة تترقرق
جهد الصبابة أن تكون كما أرى   عين مسهدة وقلب يخفق
مالاح برق أو ترنم طائر   الا انثنيت ولى فؤاد شيق

أبيات في الغزل والنسيب ، وشكوى الحب في ظاهرها ، لكن حبه ذاك ، هو همه ، أو ما تنطوي عليه نفسه ، ولا يجد السبيل اليه .

عذيري من عذارى من أمور ... سكن جوانحي بدل الخدور
ومبتسمات هيجاوات عصر ... عن الاسياف لسن من الثغور
ركبت مشمرا قدمي اليها ... وكل عذافر قلق الضفور

وهكذا القلق يدفعه الى الرحلة دائما ، وعدم الاستقرار في مكان :

أوانا في بيوت البدو رحلي ... وآونة على قتب البعير
أعرض للرماح الصم نحري ... وأنصب حر وجهي للهجير
وأسرى في ظلام الليل وحدي ... كأني منه في قمر منير

ويقول في رغبته في الرحلة وقلقه :

ألفت ترحلي وجعلت أرضي ... قتودي والغريري الجلالا
فما حاولت في أرض مقاما ... ولا أزمعت عن أرض زوالا
على قلق كأن الريح تحتي ... أوجهها جنوبا أو شمالا

وهذا الهم ، أو الامل الذي يأخذ عليه مجامع نفسه يتخايل له دائما ،فيصوره في صور مختلفة ، فهو في مطلع قصائده حبيبة بعيدة المنال ، ويوسوس له هاجسه بأنه لن ينالها حتى الموت ، ولعله يموت دون لقياها :

يا حادبي غيرها واحسبني ... أوجد ميتا قبيل أفقدها
قفا قليلا بها على فلا ... أقل من نظرة أزودها
ففي فؤاد المحب نار جوى ... أحر نار الجحيم أبردها
شاب من الهجر فرق لمته ... فصار مثل الدمقس أسودها

ويقـــول :

أبعد نـأى المليحــة البخـل | فى البعـد مـالا تكلف الإبـل
ملولة مـا تـدوم ، ليس لهـا | مـن ملـل دائـم بهـا ملـل

ويقـــول :

بقائى شاء ، ليس هم ارتحـالا | وحسن الصبر زمـوا لا الجمالا

ويقـــول :

فى الخد أن عزم الخليط رحيلا | مطر تزيد به الخـدود محـولا

فى مطلع قصيدة يمدح بها بـدر بن عمـار . ويقول فـى مطلع قصيدة يمدح سيف الدولة ، ويذكر غزوة له فى أرض الروم :

ليـالى بعد الظاعنـين شـكول | طوال ، وليل العاشقين طويل
يبن لى البـدر الذى لا أريـده | ويخفين بدرا مـا اليـه سـبيل
وما عشت من بعد الاحبة سلوة | ولكننى للنائبـات حمـول
وان رحيلا واحـدا حـال بيننا | وفى الموت من بعد الرحيل رحيل
اذا كان شم الروح أدنى اليكم | فلا برحتنـى روضـة وقبـول
وما شرقى بالماء الا تذكـرا | لماء به أهـل الحبيب نـزول
يحرمـه لمـع الاسنة فوقـه | فليس لظمـآن اليـه وصـول
أما فى النجوم الساريات وغيرها | لعينى عـلى ضـوء الصباح دليل
ألم ير هذا الليل عينيك رؤيتى | فتظهـر فيـه رقـة ونحـول

ففى هذه المقدمة يضمن المتنبى أحـاسيسه ومشاعره ، هـو يحب حبيبا ، وينطوى صدره على هوى كبير عظيم ، يعرى جسـده ويضنيه ، ضنى من الشوق ، وضنى من الرحلة هـواه مرتحـل لا يقيم ، وشوقه وجسده وراءه فى رحيل غـير مقيم ، هـواه كذلك

بعيد بعيد ، عزيز ، منيع ٠٠ وهو مع ذلك لا يمله ، وانما يسعى اليه رغم ما يلقى من متاعب وآلام ٠

وقد يتراءى له هذا الهوى ، أو الهم بعيدا بعيـــدا ٠ تحوطه الظلال ، والمتاهات ولا يتبين طريقه اليه ، ويبدو وكأنه يساير النجم فى الظلم ، ويتساءل :

حتام نحن نسارى النجم فى الظلم   وما سراه على ســاق ولا قــدم

فهو دائب الرحلة يرافقه النجم فى الظلم ، والنجم يلقى اليه بنوره الامل ، بصيصا منه ، لكن الظلام من حوله داكن ، وهو فى رحلة الدهر ، ومسيرة الايام لا يلقى غير ضنى وحرب لا تهدأ ٠٠ هو الخاسر فيها :

تسود الشمس منا بيض أوجهنا   ولا تسود بيض العذر واللمــم

فالايام تمضى ، وهى تأخذ منه شبابه ، وتحيل لون أديمـــه ، وكم فى الدنيا من متناقضات :

أطاعن خيــلا من فوارسها الدهر   وحيداوما قولىكذا ومعى الصبر

ويجعل الايام عدوه ، والدهر متربصا بـــه ، والحـــرب بينهما على ســاق :

ومن لم يعشق الدنيا قديمــا ؟   ولكن لا ســبيل الى الوصـــال
نصيبك فــى حياتــك من حبيب   نصيبك فــى منامــك من خيــال
رمانــى الدهــر بالارزاء حتــى   فؤادى فــى غشـاء مــن نبـال
فصــرت اذا أصابتنــى ســـهام   تكســرت النصــال على النصــال
وهــان فمــا أبــالى بالرزايـــا   لانــى ما انتفعت بــأن أبالــى

فهو يستهين بالدهر لانه لم يعد يخشاه فقد لقى كل مـا يمكن أن يلقى من مصائبه ، وبـلاه بكل ما يمكن أن يبتـلى الناس ، وهو يناضله ، ولا يستسلم ، ولكنه مـع ذلك يعترف فيما بينـه وبين نفسه أن غاية كل هذا الفناء والعدم ، فلا بقاء مع الايام . وقد تبدو في بعض لحظاته مشاعر تشاؤمية أو كما قيل آثار فلسفة رواقية سوداء كقوله في هذه الابيات :

أبني أبينا نحـن أهـل منـازل　　　أبدا غراب البين فيهـا ينعـق
نبكي على الدنيا ومـا من معشر　　　جمعتهم الدنيا ولم يتفرقوا
أين الاكاسرة الجبابرة الالى　　　كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه　　　حتى ثـوى فحـواه لحـد ضيق

والناس أبناء هذا الدهر ، أمثاله :

ودهـر نـاسـه نـاس لئـام　　　وان كانت لهـم جثث ضخـام

ويتمنى أن يتمثل له الدهر انسانا ، أو هو يقول أنه لو تمثل له انسانا لقتله ، وتمنى أن يقتل من الناس من يكره :

ولو برز الزمـان الى شـخصا　　　لخضب شـعر مفرقـه حسـامى

فهو ثائر عليه وعلى الناس لا يرضى بأن ينقاد له ، ولا لاحد ممن يملكهم الزمام ، فهو لا يلقى زمامه لاحد :

ومـا بلغت مشيئتهـا الليـالى　　　ولا سـارت وفي يدهـا زمامى

ويسلك الناس مع الزمان ، فهو غاضب عليهم وعليه :

أذم الى هـذا الزمـان أهيلـه　　　فاعلمهم فـدم وأحزمهم وغـد
وأكرمهـم كلب وأبصرهـم عـم　　　وأسهدهم فهـد وأشجعهم قـرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى　　　عدوا له ما من صداقتـه بـد

فقلبه ملىء بالحقد على الناس ، لانهم خاسرون ، مخطئون ، كاذبون ، خادعون ، منافقون ، جبناء ، ويدعمون الشجاعة ، وبخلاء ، يدعون الكرم :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن	يخلو من الهم أخلاهم من الفطن
وانما نحن فى جيل سواسية	أخنى على الحر من سقم على بدن
حولى بكل مكان منهم خلق	تخطى اذا جئت فى استفهامها بمن
لا أقترى بلدا الا على غرر	ولا أمر بخلق غير مضطغن
ولا أعاشر من أملاكهم أحدا	الا أحق بضرب الرأس من وثن

والدنيا ، أو الزمن والدهر لا يقيم مقاييس عادلة ، بل الحال فيها حائل ، والاوضاع متقلبة لا تعطى بمقدار ما يستحق الانسان من طبع أو خلق ، أو قدرة ، أو علم ، أو ذكاء :

ولو لم يعل الا ذو محل	تعالى الجيش وانحط القتام

ويقول :

ودهر ناسه ناس صغار	وان كانت لهم جثث ضخام
أرانب غير انهم ملوك	مفتحة عيونهم نيام

ويقول :

وشبه الشيء منجذب اليه	وأشبهنا بدنيانا الطغام

فأبو الطيب ثائر على الدهر اذا وعلى الناس ، ولا دواء لثورته ، ولا شفاء لنفسه الا القوة • ففلسفته القوة ، هى عقيدته فى الحياة ، فالدنيا لمن غلب :

الموت أعذر لى والصبر اجمل بى	والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

والموت فى سبيل الحق أمر محبب لدى الرجال ، ولا يخافه سوى

الرعديد الجبان ، وان حياة الدعة تورث الخذلان ، والاستسلام :

ولعله بذلك يستثير همم العرب ، وقد رأى فيهم التخاذل أمام الشعوبية العارمة ، وتسلط العناصر غير العربية على الدولة ، فارتفعت مقاديرهم على حساب أصحاب الامر ، وملك العبيد أمور السادة ، وغلب الخدم على الارباب والملوك • وتراه يخاطب العربي في نفسه أو يخاطب نفسه ويريد العربي الابي لا المغلوب على أمـــره :

الى أى حين أنت فى زى محرم	وحتى متى فى شقوة والى كم
والا تمت تحت السيوف مكرما	تمت وتقاسى الذل غير مكرم
فثب واثقا بالله وثبة ماجد	يرى الموت فى الهيجا جنى النحل فى الفم

وازاء هذه النفس العارمة المتعالية ، فان الاشياء والشخوص تتضاءل وتتصاغر وهو يشمخ ويسمو ، فلا يجد ما يدانيه مكانة أو يساويه قدرا :

أى محل ارتقى	أى عظيم اتقى
وكل ما خلق الله	وما لم يخلق
محتقر فى همتى	كشعرة فى مفرقى

لقد أوردته هذه النفس موارد التهلكة ، فى الفعل والعقيدة ، وان جرأته فى الجهر بما يعتقد وتسرع لسانه الى ما يجرى ، ويثور فى خلده جر عليه كثيرا من الشرور والآثام • وأثار حفائظ الناس عليه ، فكادوا له وأوغروا الصدور من حوله ، وكثر أعداؤه وكائدوه ، وكثر حساده وغائظوه ، فتمثل فى كل خطوة

عدوا ، بل لقد تمثل في كل أكمــة متربصا ، وخلف كل ربـوة رصدا أو عينا . يخاطب الدهر :

عدوى كل شيء فيـك حتـى لخلت الاكم موغـرة الصدور
فلو أنى حسدت على نفيس لجدت به لـذى الجـد العثـور
ولكنـى حسـدت عـلى حياتـى وما خير الحيـاة بـلا سـرور

أحب المتنبى المجد ، وافتخر بالقوة ، واعتز بالشجاعة والاقـدام والكرم ، وكره ما ضد هذا كله كره الضعة ، والذل ، والضعف ، والجبن والبخل .

فماذا حقق المتنبى في نفسه من هذا كله ، لقد عشق المجد وحاول تحقيق شيء ما لنفسه في صورة اغتصاب للامر بالقوة ، أو بالنبوة ، اذا صح هذا . ولقد تـروى الروايات عن ادعائـه النبوة ، ولئن لم تصدق كلها فقد يصدق بعضها ، ولعله لم يدع نبــوة كاملة ، بل لعل شبابه خيل له أمرا مـا ، قد يكون ادعــاء الامامة ، أو المهدية أو شيئا من هذا القبيل ولقد رأى فى نفسه قدرة ، وذكاء ، وعبقرية فــى البيان . قالـوا انه ادعى تقليد القرآن .. ولم ينف أبو العلاء بعض أخبار تنبؤه .

ولقد بلغ من المجد ما مكنه من أن ينشد الملوك والامراء وهو جالس اليهم ، بل أن بعض ممدوحيه كابن طاهر العلوى أجلسه مجلس الممدوح وجلس اليه بين يديه ينشده ولقد راسله الملوك يطلبون مديحه ، بعد أن سار شعره في الآفــاق ، وخشى بعضهم أن يمر بهم متجاهلا اياهم ، فلا يخلدون فى التاريخ ، ولا تتناقل

الالسنة أسماءهم - وكان منهم من لم يعبأ بهم أبو الطيب استصغارا لشأنهم كالصاحب بن عباد ومنهم من جاملهم كأبـي الفضل بن العميد • ولقد كان ابن العميد يخشى أن يعير بـه ولا يزوره فيبقى ذلك عارا يلصق به أبد الدهـر •

لقد بلغ اذا من الشهرة مبلغا ، وأحب القوة ، واستخدام السيف ، لقد عشق الفروسية منذ شبابه الاول ، ولم يرض حياة الدعـة والترف في الدور والقصور ، لقد كره كل مظاهر الخنوع والضعف حتى هذه الضفيرة الصغيرة من الشعر التى ترسل للصبى كرهها لمـا فيها من مظاهر التدليل •• وقال :

لا تحسن الوفـرة حتى تـرى　　　منشورة الضفرين يوم القتال

ويفتخر بأنه لا يدع صهوة فرسه ، ولا يخلع لامـة الحرب :

مفرشي صهـوة الحصـان ولكن　　　قميصي مسـرورة من حديـد

وعندما ذهب الى سيف الدولة تعلم الفروسية ، وفنـون القتال ، وشارك سيف الدولة في بعض حملاته ، وصمد في بعض غزواته بأرض الروم • وقابل في رحلاته بعض المتاعب من الاعراب أو رجال الصحراء فلقيهم بالقتال ، وكان فاتكا ، داهيـة ، ولا يطعن في فروسيته تغلب فاتك الاسدى عليه وقتله اياه • وانه لم يجبن عن لقائه ، بل تقول الروايات أنه حذر من اتخـاذ الليـل رداء لرحلته الى الاهواز ، وخوف من ترصد عدوه لكنه لم يعبأ ، وغامر بالخروج ، لكن فاتكا تغلب عليه بكثرة عدده ومفاجأته في كمين لم يستعد له •

لم يكن أبو الطيب اذا جريء اللسان متخاذل الجنان كما حاول أن يصوره بعض ناقديه أو الحاقدين عليه • وقد يختلف الناس معه في عقيدته أو طباعه ، ولكن هذا الخلاف لا ينبغي أن يؤدي الى قلب الحقائق أو تصويرها في صور مغرضة ، تحيل فضائله رذائل أو رذائله فضائل •

ربما كان في بعض تصرفه غريبا أو متناقضا مع نفسه أو مع ما شاع من خلقه ، ولعلنا نلمس بعض صور الضعف في مواقف بعينها في حياته كذلك الموقف في سجنه حين تصاغر أو ادعى صغر السن اعتذارا والتماسا للعفو • وكلجوئه الى كافور وهو عبد محتقر عنده وقد ارتضى لنفسه سؤاله وتمريضه به ، وربما رأى بعض الناس في هذا مذلة أو مهانة • ولكنه كان يدرك في أعماقه أنه قصد من لا يليق قصده ، وأن يدل شرا بخير ، وأراد أن يعاقب نفسه ونطق شعره بهذا العقاب ، خاصة وأنه لم يبلغ منه مراده •

غرض بالطلب في قوله :

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله	فاني أغني منذ حين وتشرب
وهبت على مقدار كف زماننا	ونفسي على مقدار كفيك تطلب
اذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية	فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وعاتب نفسه في قوله :

عثرت بسيري نحو مصر فلا لها	بها ولعا بالسير عنها ولا عثرا
وفارقت خير الناس قاصد شرهم	وأكرمهم طرا لألأمهم طرا

فعاقبني المخصي بالغـدر جازيا ... لان رحيلي كان من حلب غـدرا
وما كنت الا فاتل الرأى لم اعن ... بحزم ولا استصحبت في وجهتي حجرا

وأحب المتنبي الغنى وسعى فى سبيل جمع المـال ورأى أنه لا مجد في الدنيا لمن قل مالـه :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قل مجده
وفي الناس من يرضى بميسور عيشه ... ومركوبه رجلاه ، والثـوب جلده
ولكن قلبـا بين جنبـي مالـه ... مدى ينتهي بي في مراد أحـده

وقالوا أنه جعل همه جمع المـال ، ولم يقنع بما أتيح من الثروة ، والغنى ، وقد حصل كثيرا من المـال ·

قال البديعي : قال ابن فورجـه : كان المتنبي داهية ، مـر النفس ، شجاعا حافظا للادب عارفا بأخلاق الملوك ، ولم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الا بخله وشرهه بالمـال ·

وقال أبو البركات بن أبي الفرج المعروف بابن زيد التكريتي الشاعر قال : بلغني أنه قيل للمتنبي : قد شاع عنك من البخل في الآفاق ما قد صار سـمرا بين الرفاق ، وأنت تمدح فـي شعرك الكرم وأهله ، وتذم البخـل وأهله · ألست أنت القائل :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافـة فقر فالذي فعل الفقـر

ومعلوم أن البخل قبيح ، ومنك أقبح ، لانك تتعاطى كبر الفضـل ، وعلو الهمة ، وطلب المـال · والبخل ينافي سائر ذلك · فقال : ان لبخلي سببا ، وذلك أني أذكر وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد ، فأخذت خمسة دراهم فـي جانب منديـلي ، وخرجت

أمشي في أسواق بغداد ، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة ، فرأيت عنده خمســة من البطيخ باكــورة • فاستحسنتها ونويت أشتريها بالدراهم التي معي ، فتقدمت اليه وقلت : بكم تبيع هذه الخمسة البطاطيخ ؟ ، فقال بغير اكتراث : اذهب ، فليس هذا من أكلك ، فتماسكت معه : أيها الرجل دع ما يغيظ واقصد الثمن • فقال : ثمنها عشرة دراهم • فلشدة ما جبهني به ما استطعت أن أخاطبه في المساومة • فوقفت حائرا ، ودفعت له خمسة دراهم ، فلم يقبل • واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ، ذاهبا الى داره ، فوثب اليه صاحب البطيخ من دكانه ، ودعا له وقال : يا مولاى ، هذا بطيخ باكور ، بأجازتك أحملــه الى منزلك ، فقال الشيخ : ويحك بكم هذا ؟ • قال : بخمسة دراهــم • فقال : بل بدرهمين • فباعه الخمسة بدرهمين ، وحملها الى داره ، ودعا له ، وعاد الى دكانه مسرورا بما فعل • فقلت له : يا هذا ، ما رأيت أعجب من جهلك ، استمت على في هذا البطيخ ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، وكنت قد أعطيتك في ثمنه خمسة دراهم ، فبعتــه بدرهمين محمولا • فقال : اسكت • هذا يملك مائة ألف دينار • فعلمت أن الناس لا يكرمون أحدا اكرامهم ممن يعتقدون أنه لا يملك مائة ألف دينار • وأنا لا أزال على مــا تــراه حتى أسمع الناس يقولون : ان أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار (١) •

ولا ندرى مدى صحة هذه القصة ، ولكن أخبار بخله كثيرة •

---

(١) الصبح المنبي ، ص ٩٦ •

وقد يكون حريصا ، ولكنه لم يبلغ هذه الصورة الذميمة للبخل ودناءة النفس التى صورها بعض ناقلى أخباره (١) ٠

وكان أبو الطيب جادا ، حرا ، لا يميل الى اللهو ، عزوفا عن النساء وشرب الخمر والسماع ٠ حكى على بن حمزة البصرى قال : بلوت من أبى الطيب ثلاث خلال محمودة ، وتلك أنه ما كذب ولا زنى ، ولا لاط (٢) ٠

ويقول (٣) :

في الناس أمثلة تدور ، حياتها   كمماتها ، ومماتها كحياتها
هبت النكاح حذار نسل مثلها   حتى وفرت على النساء بناتها

ويقول :

ولا تحسبن المجد زقا وقينة   فما المجد الا السيف والفتكة البكر

ويرى أن خلقه بما يجمع من المروءة والفتوة والاباء كمنعه من أن يتدنى الى اللهو الرخيص أو التشاغل باللذات عن الخمر والنساء :

وترى المروءة والفتوة والابو   ة فى كل مليحة ضراتها
هن الثلاث المانعاتى لذتى   فى خلوتى لا الخوف من تبعاتها
ومطالب فيها الهلاك اتيتها   ثبت الجنان كأننى لم آتها

---

(١) راجع الصبح المنبى ، ص ٩٢ وما بعدها ٠ وأبو الطيب ما له وما عليه للثعالبى ، ص ٣٩ ٠

(٢) الصبح المنبى ، ص ٩٤ ٠

(٣) ديوانه ، ص ١٧٤ ٠

ورأيه في المرأة لم يكن بالرأى فهى عنده مثال للخلف بالوعـد ، والتقلب ، وجمال المظهر مع سوء المخبر :

ومن خبـر الغـوانى فالغـوانى ضيـاء فـى بواطنـه ظـلام

وأكره ما يكـره من النساء الحضريـات ، وقد علل كراهيته بأن حسنهن حسن مصنوع ، ولكن البدويات ذوات حسن طبيعي ، وهو يحب البداوة ، ويكره الحضر ففى الحضر تتمثـل الاخلاق التى ينفر منها : التملق ، والمداهنة ، والكذب :

من الجـاذر فـى زى الاعاريب حمر الحـلى والمطايا والجلابيب

يقــول :

ما أوجه الحضر المستحسنات به كأوجـه البدويـات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطريـة وفى البداوة حسن غـير مجلوب
أين المعيـز من الآرام ناظـرة وغير ناظرة،فى الحسن والطيب
أفدى ظباء فلاة مـا عرفن بها مضغ الكلام، ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن مـن الحمـام مائلـة أوراكهن ، صقيـلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبى غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولى وعادته رغبت عن شعر في الوجه مكذوب

ـ ٣ ـ

لقد ظهر الشاعر المتنبى ، فحجبت شهرته الشعراء في عصره، وتلقف الناس قصائده ، وتركوا قصائد غيره • وأتيح لـه من الحظ ما لم يتـح لغـيره ، ولقد بلغ من أمـره ما أراد من قوله :

وتركك فى الدنيا دويـا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

وعرف قدر أدبه في النفوس ، فقال :

أنا الذى نظر الاعمى الى أدبي	واسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها	ويسهر الخلق جراها ويختصم

ويقول مرة أخرى معتدا :

ولقد خبأت من الكلام سلافة	وسقيت من نادمت من جريالـه
واذا تعثرت الجياد بسهلـه	برزت غير معثر بجبالـه

فهو مالك ناصية البيان ، لا يصعب عليه الشعر مهما حزن أو عزب ، وانه ليأتي بكل عجيب فيه ، ويترك الناس حياله حائرين .

قال عنه الثعالبي : « نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر في صناعة الشعر ، ثم هو شاعر سيف الدولة المنسوب اليه ، المشهور به ، اذ هو الذى جذب بضبعيه ، ورفع من قدره ، ونفق سعر شعره ، وألقى عليه شعاع سعادته ، حتى سار ذكره مسير الشمس والقمر ، وسافر كلامه ، في البدو والحضر ، وكادت الليالي تنشده ، والايام تحفظه ، كما قال وأحسن ما شاء :

وما الدهر الا من رواة قصائدي	اذاقلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار بـه من لا يسير مشمرا	وغنى به من لا يغني مغردا »

وكما قال :

ولى فيك ما لم يقل قائل	وما لم يسر قمر حيث سارا
وعندي لك الشرد السائرا	ت لا يختصصن من الارض دارا
اذا سرن من مقول مرة	وثبن الجبال وخضن البحارا

قال الثعالبي : فليس اليوم مجالس الدرس أعمر بشعر أبي الطيب

من مجالس الانس ، ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين . وقد ألفت الكتب في تفسيره وحل مشكلة عويصة ، وقصرت الدفاتر على ذكر جيده ورديئه . وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه ، والافصاح عن أبكار كلامه وعونه . وتفرقوا فرقا في مدحه والقدح فيه والنضح عنه ، والتعصب له وعليه - وذاك أول دليل دل على وفور فضله ، وتقدم قدمه وتفرده عن أهل زمانه ، يملك رقاب القوافي ، ورق المعاني - فالكامل من عدت سقطاته والسعيد من حسبت هفواته (١) .

وقد كان أبو الطيب من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجرى (٢) . يقول الاصبهاني (٣) : جملة القول في المتنبي أنه من حفاظ اللغة ، ورواة الشعر ، وكل ما في كلامه من الغريب مستقي من الغريب المصنف ، سوى حرف واحد هو في كتاب الجمهرة ، وهو قوله :

وانطوى كما يطوى المجلدة العقد

وأما الحكم عليه وعلى شعره ، فهو سريع الهجوم على المعاني ، ونعت الخيل والحرب من خصائصه وما كان يراد طبعه في شيء مما يسمع به ، يقبل الساقط الرذل ، كما يقبل النادر البدع ، وفي متن شعره وهي ، وفي ألفاظه تعقيد ، وتعويض .

---

(١) أبو الطيب ، ما له وما عليه ، ص ٣١ .
(٢) مقدمة ديوانه ، ص (لا) .
(٣) الواضح ، ص ٢٩ .

وكـان المتنبي يحفظ كثـيرا من الشعر الحديث ، وأعجب بشاعرين كبيرين من المحدثين هما أبو تمام والبحتري ، وأضاف اليهما بعض العلماء ابن الرومي (١) • قال الاصبهاني : « وكان المتنبي يحفظ ديواني الطائيين ، ويستصحبهما فـي أسفاره ، ويمجدهما ، فلما قتل توزعت دفاتره فوقع ديـوان البحتري الى بعض الدارسين وعليه خط المتنبي ، وتصحيحه فيه (٢) » •

ومن هنـا اتهم أبـو الطيب بأخـذ بعض معانيـه منهما ـ الطائيين ـ وروى أنه قيل له : معنى بيتك هذا أخذته من الطائي ـ أبي تمام ـ فأجاب : الشعر جادة ، وربما وقع حافر على حافر •

وذكر العلماء مآخـذه من أبي تمـام ، وعدوهـا سرقات ، واتهموه بأنه اعتمد عليه كثيرا وانكر ذلك الاعتماد • وألف ابن الدهمان في القرن الخامس كتاب « المآخذ الكندية من المعانـي الطائيـة » (٣) •

قال ابن رشيق (٤) : « وقال بعض من نظـر بين أبي تمام وأبي الطيب : انما حبيب كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ، ويعطي المعنى حقه بعد طول النظـر ، والبحث عن البيئة ، أو

---

(١) الصبح المنبي ، ص ١٨٦ •

(٢) الواضـح ، ص ١٠ •

(٣) استدرك عليه ضياء الدين بن الاثير في كتاب سماه « الاستدراك في الاخذ على المآخذ الكندية من المعاني الطائية » •

(٤) العمـدة ١/٩٣٢ •

كالفقيه الورع يتحرى فى كلامه ، ويتحرج خوفا على دينه • وأبو الطيب كالملك الجبار ، يأخذ ما حوله قهرا ، وعنوة أو كالشجاع الجرىء يهجم على ما يريده لا يبالى ما لقى ، ولا حيث وقع » •

واهتم العلماء بشعر المتنبى بين شارحى الديوان ، أو مفسرى مشكله ، أو متتبعى حسناته وسقطاته ، ومقيدى سرقاته ، وبدأ الحديث فيه بالحاتمى فى رسالتيه • الموضحة فى المآخذ ، وما شابه فيه أرسطو ، والصاحب بن عباد فى كشف مساوئه ، وابن وكيع التنيسى فى سرقاته ، والقاضى عبد العزيز الجرجانى فى الوساطة بينه وبين خصومه ، وابن الدهان فى مآخذه من أبى تمام ، وابن الاثير فى الاستدراك عليه ومعارضته ، والاصبهانى أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن فى توضيح مشكلاته والرد على ابن جنى ، والواحدى النحوى فى بيان مشكل أبياته •

ومن شراح ديوانه : ابن جنى ، وأبو العلاء المعرى فى كتابى : « اللامع العزيزى » ، ومعجز أحمد ، والواحـد ، والتبريزى فى الموضح ، وعبد القاهر الجرجانى ، وأبو منصور السمعانى ، وأبو القاسم ابراهيم بن محمد الاقليلى الاندلسى (توفى سنة ٤٤١ هـ)، والاعلم الشنتمرى ، وابن الانبارى ، والعكبـرى ، وأبو اليمن الكندى (توفى سنة ٦١٣ هـ) ، وعبد الواحد بن زكريا ، وابن فورجه فى كتاب « التجنى على ابن جنى ، والفتح على أبى الفتح له أيضا •• وكثيرون غير هؤلاء •

قال البديعي (١) : « ولم يسمع بديوان شعر فى الجاهلية ولا الاسلام شرح هكذا مثل هذه الشروح الكثيرة سوى هذا الديوان ، ولا تداول على ألسنة الادباء فى نظم ونثر أكثر من شعر المتنبى » .

ولابى الطيب المعانى البديعة ، والمحاسن البارعة التى فاق بها السابقين ، ومنها حسن مطلع القصائد ، كقوله :

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول ، وهى المحل الثانى
فاذا هما اجتمعا لنفس حرة ... بلغت من العلياء كل مكان

وكقولــــه :

أعلا الممالك ما يبنى على الاسل ... والطعن عند محبيهن كالقبل

وكقولــــه :

فؤاد ما تسليه المدام ... وعمر مثل ما تهب اللئام

وكقولــــه :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن ... يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

ومما يتصل بحسن المطالع براعة التسيب ـ على قلة اهتمامه به ، وتطلعه الى المرأة ـ مثل مطلعه الغزلى :

من الجآذر فى زى الاعاريب ... حمر الحلى والمطايا والجلابيب

وكمطلعه الغزلى :

أيدرى الركب أى دم اراقا ... وأى قلوب هذا الحى شاقا
لنا ولاهله أبدا قلوب ... تلاقى فى جسوم ما تلاقى

---

(١) الصبح المنبى ، ص ٢٧ .

وفي هذا الغزل يقع بيته الجميل الرقيق في معناه :

فليت هوى الاحبة كان عدلا　　فحمل كل قلب ما أطاقا

ومنها معانيه الرائعة يسوقها في صور من التشبيه أو الاستعارة فتقع مواقعها في النفوس كقوله :

ترنو الى بعين الظبي مجهشة　　وتمسح الطل فوق الورد بالعنم

وقولــه :

واستعار الحديد لونا وألقى　　لونه في ذوائب الاطفال

وقولــه في الحمى :

وزائرتي كأن بها حياء　　فليس تزور الا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا　　فعافتها وباتت في عظامي

وكقولــه :

وانما نحن في جيل سواسية　　شر على الحر من سقم على البدن

حولي بكل مكان منهم خلق　　تخطي اذا جئت في استفهامها بمن

وقد أحسن التصرف في معاني الشعر ، كمعاني المديح ، وخاصة في سيف الدولة ، فقد اتخذ من لقبه واسمه مادة لصوغ معاني مديحه كقولــه :

تهاب سيوف الهند وهي حدائد　　فكيف اذا كانت نزارية عربا

وكقولــه :

أتحسب بيض الهند أصلك أصلها　　وانك منها ، ساء ما تتوهم

اذا نحن سميناك خلنا سيوفنا　　من التيه في أغمادها تتبسم

وكقوله في معنى المديح بالكرم وعلو الشأن :

تمشي الكرام على آثار غيرهم   وأنت تخلق ما تأتي وتبتدع
من كان فوق محل الشمس موضعه   فليس يرفعه شيء ولا يضع

وامتاز المتنبي بقدرته على أن يسوق المعاني الفلسفية ، سوق الحكمة والمثل ، في صياغة رائعة رصينة ، فتصبح جارية على كل لسان ، كقوله :

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش أخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميت ايلام

وكقولـــه :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وكقولـــه :

اذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وان أنت أكرمت اللئيم تمردا

وقال يمدح سيف الدولة سنة ٣٤٢ هـ :

ليالى بعد الظاعنين شكول   طوال وليل العاشقين طويل
يبن لى البدر الذى لا أريده   ويخفين بدرا ما اليه سبيل
وما عشت من بعد الاحبة سلوة   ولكنني للنائبات حمول
وان رحيلا واحدا حال بيننا   وفي الموت من بعد الرحيل رحيل

* * *

اذا كان شم الروح يدني اليكم   فلا برحتني روضة وقبول
وما شرقي بالماء الا تذكرا   لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الاسنة فوقه   فليس لظمآن اليه وصول
أما في النجوم السائرات وغيرها   لعيني على ضوء الصباح دليل

الم ير هذا الليل عينيك رؤيتي ... فتظهر فيـه رقـة ونحـول
لقيت بدرب القلـة الفجر لقية ... شفت كمدي والليل فيه قتيـل
ويوما كان الحسن فيه علامـة ... بعثت بها والشمس منك رسول
وما قبل سيف الدولة اثار عاشق ... ولا طلبت عند الظلام ذحول

* * *

ولكنه ياتي بكـل غريبـه ... تروق على استغرابها وتهـول
رمى الدرب بالجرد الجياد الى العدا ... وما علمـوا ان السهام خيـول
شوائل تشوال العقارب بالقنـا ... لهـا مرح من تحتـه وصهيـل
وما هي الا خطرة عرضت لـه ... « بحـران » لبتها قنـا ونصول

* * *

همام اذا ما هم أمضى همومـه ... بارعن وطء المـوت فيـه ثقيل
وخيل براها الركض في كل بلدة ... اذا عرست فيهـا فليس تقيـل
فلما تجلى من دلـوك وصنجـة ... علت كل طـود رايـة ورعيـل
على طرق فيها على الطرق رفعـة ... وفي ذكرها عند الانيس خمـول

* * *

فما شعروا حتى راوهـا مغيرة ... قباحـا ، وامـا خلقهـا فجميل
سحائب يمطرن الحديـد عليهم ... فـكل مكـان بالسيوف غسيـل

وقال يمدح سيف الدولة :

لا الحلم جـاد بـه ولا بمثالـه ... لولا ادكـار وداعـه وزيالـه
ان المعيد لنا المنـام خيالـه ... كانت اعادتـه خيـال خيالـه
بتنـا يناولنـا المـدام بكفـه ... من ليس يخطر ان نـراه ببالـه
نجني الكواكب من قلائد جيـده ... وننـال عين الشمس من خلخاله
بنتم عن العين القريحة فيكـم ... وسـكنتم ظن الفـؤاد الوالـه
فدنوتم ، ودنوكم مـن عنـده ... وسـمحتم وسـماحكم من مالـه
اني لابغض طيف من أحببتـه ... اذ كان يهجرنا زمـان وصالـه

مثل الصبابة والكآبة والاسى | فارقته فحدثن من ترحاله
وقد استقدت من الهوى وأذقته | من عفتي ما ذقت من بلباله

* * *

ولقد ذخرت لكل أرض ساعة | تستجفل الضرغام عن أشباله
تلقى الوجوه من الكلام سلاقه | وسقيت من نادمت من جرياله
واذا تعثرت الجياد بسهله | برزت غير معثر بجباله
وحكمت في البلد العراء بناعج(١) | معتاده ، مجتابه ، مغتاله
يمشي كما عدت المطي وراءه | ويزيد وقت جمامها ، وكلاله
وتراع غير معقلات حوله | فيفوتها متجفلا بعقاله
فغدا النجاح وراح في أخفاقه | وغدا المراح وراح في أرقاله
وشركت دولة هاشم في سيفها | وشققت خيس الملك عن رئباله
عن ذا الذي حرم الليوث كماله | ينسى الفريسة خوفه بجماله
وتواضع الامراء حول سريره | وترى المحبة وهي من آكاله (٢)

وقال في عتاب سيف الدولة :

أنشدها اياه في محفل من العرب والعجم :

واحر قلباه ممن قلبه شبم | ومن بجسمي وحالي عنده سقم
مالي أكتم حبا قد برى جسدي | وتدعي حب سيف الدولة الامم
ان كان يجمعنا حب لغرته | فليت أنا بقدر الحب نقتسم
قد زرته وسيوف الهند مغمدة | وقد نظرت اليه والسيوف دم
فكان أحسن خلق الله كلهم | وكان أحسن ما في الاحسن الشيم

* * *

يا أعدل الناس الا في معاملتي | فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

---

(١) الناعج الناقة الخفيفة السريعة ، أو الفحل من الابل السريع .
(٢) الأكال : القطائع ، واحدتها أكل .

اعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... اذا استوت عنده الانوار والظلم
أنا الذي نظر الاعمى الى أدبي ... وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها ... ويسهر الخلق جراها ويختصم

* * *

وجاهل مده في جهله ضحكي ... حتى أتته يد فراسة وفم
اذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم
ومهجة مهجتي من هم صاحبها ... أدركتها بجواد ظهره حرم
رجلاه في الركض رجل واليدان يد ... وفعله ما تريد الكف والقدم

* * *

ومرهف سرت بين الجحفلين به ... حتى ضربت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني ... والحرب والضرب والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا ... حتى تعجب مني القور والاكم
يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم
ما كان أخلقنا منكم بتكرمة ... لو أن أمركم من أمرنا أمم
ان كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح اذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ... ان المعارف في أهل النهى ذمم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم

* * *

ما أبعد العيب والنقصان من شرفي ... أنا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغمام الذي عندي صواعقه ... يزيلهن الى من عنده الديم
أرى النوى تقتضيني كل مرحلة ... لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ... ليحدثن لمن ودعتهم ندم

---

(١) القور جمع قاره وهي المرتفع من الارض .

اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا　　أن لا تفارقهم فالراحلون هـم
شر البلاد بلاد لا صديق بها　　وشر ما يكسب الانسان ما يصم
وشر ما قنصته راحتى قنص　　شهب البزاة سواء فيه والرخم
باى لفظ تقول الشعر زعنفة　　تجوز عندك ، لا عرب ولا عجم
هذا عتابك الا انه مقة　　قد ضمن الدر الا انه كلم

وقال في كافور :

من الجآذر في زى الاعاريب　　حمر الحلى والمطايا والجلابيب
ان كنت تسأل شكا في معارفها　　فمن بلاك بتسهيد وتعذيب
سوائر ربما سارت هوادجها　　منيعة بين مطعون ومضروب
وربما وخدت أيدى المطى بها　　على نجيع من الفرسان مصبوب
كم زورة لك في الاعراب خافية　　أدهى،وقد رقدوا،من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لى　　وانثنى وبياض الصبح يغرى بى

* * *

قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها　　وخالفوها بتقويض وتطنيب
جيرانها وهم شر الجوار لها　　وصحبها وهم شر الاصاحيب

* * *

فؤاد كل محب في بيوتهم　　ومال كل أخيذ المال محروب
ما أوجه الحضر المستحسنات به　　كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية　　وفى البداوة حسن غير مجلوب
اين المعيز من الآرام ناظرة　　وغير ناظرة ، في الحسن والطيب

* * *

أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها　　مضغ الكلام، ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة　　أوراكهن صقيلات العراقيب
ومن هوى كل من ليست مموهة　　تركت لون مشيبى غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولى وعادته　　رغبت عن شعر في الوجه مكذوب

ليت الحوادث باعتني التي اخذت ... منى بعلمي الذى أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلم بمانعة ... قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب
ترعرع الملك الاستاذ مكتهلا ... قبل اكتهال ، أديبا قبل تاديب
مجربا فهما من قبل تجربة ... مهذبا كرما من قبل تهذيب
حتى أصاب من الدنيا نهايتها ... وهمه فى ابتداءات وتشبيب
يدبر الملك من مصر الى عدن ... الى العراق فارض الروم فالنوب

وقال فى مصر يشكو طول الاقامة بلا طائل ، وقد أصابته الحمى :

ملومكما يجل عن الملام ... ووقع فعاله فوق الكلام
ذرانى والفلاة بلا دليل ... ووجهى والهجير بلا لثام
فانى استريح بذى وهذا ... واتعب بالاناخة والمقام
عيون رواحلى ان حرت عينى ... وكل بغام رازحة بغامى

* * *

فقد أرد المياه بغير هاد ... سوى عدى لها برق الغمام
يذم لمهجتى ربى وسيفى ... اذا احتاج الوحيد الى الذمام
ولا أمسى لاهل البخل ضيفا ... وليس قرى سوى مخ النعام
ولما صار ود الناس خبا ... جزيت على ابتسام بابتسام

* * *

وصرت أشك فيمن أصطفيه ... لعلمى أنه بعض الانام
يحب العاقلون على التصافى ... وحب الجاهلين على الوسام
وآنف من أخى لابى وأمى ... اذا ما لم أجده من الكرام
أرى الاجداد تغلبها كثيرا ... على الاولاد أخلاق اللئام
ولست بقانع من كل فضل ... بان أعزى الى جد همام

* * *

أقمت بارض مصر فلا ورائى ... تخب بى الركاب ولا أمامى
وملنى الفراش وكان جنبى ... يمل لقاءه فى كل عام
قليل عائدى ، سقم فؤادى ... كثير حاسدى ، صعب مرامى

عليل الجسم ممتنع القيام   شديد السكر من غير المدام

* * *

وزائرتي كأن بها حياء   فليس تزور الا في الظلام

بذلت لها المطارف والحشايا   فعافتها وباتت في عظامي

يضيق الجسم عن نفسي وعنها   فتوسعه بأنواع السقام

اذا ما فارقتني غسلتني   كأنا عاكفان على حرام

* * *

كأن الصبح يطردها فتجري   مدامعها بأربعة سجام

أراقب وقتها من غير شوق   مراقبة المشوق المستهام

ويصدق وعدها والصدق شر   اذا ألقاك في الكرب العظام

أبنت الدهر عندي كل بنت   فكيف وصلت أنت من الزحام

* * *

جرحت مجرحا لم يبق فيه   مكان للسيوف ولا السهام

ألا ليت شعر يدي أتمسي   تصرف في عنان أو زمام

وهل أرمي هواي براقصات   محلاة المقاود باللغام

فربتما شفيت غليل صدري   بسير أو قناة أو حسام

* * *

وضاقت خطة فخلصت منها   خلاص الخمر من نسج الفدام

وفارقت الحبيب بلا وداع   وودعت البلاد بلا سلام

يقول لي الطبيب أكلت شيئا   وداؤك في شرابك والطعام

وما في طبه أني جواد   أضر بجسمه طول الجمام

* * *

تعود أن يغبر في السرايا   ويدخل من قتام في قتام

فامسك لا يطال له فيرعى   ولا هو في العليق ولا اللجام

فان امرض فما مرض اصطباري   وان احمم فما حم اعتزامي

وان أسلم فما أبقى ولكن ... سلمت من الحمام الى الحمام
تمتع من سهاد أو رقاد ... ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى ... سوى معنى انتباهك والمنام

ويقول :

متى كن لى أن البياض خضاب ... فيخفى بتبيض القرون شباب
ليالى عند البيض فوداى فتنة ... وفخر ، وذاك الفخر عندى عاب
فكيف أذم اليوم ما كنت أشتهى ... وأدعو بما اشكوه حين أجاب
جلا اللون عن لون هدى كل صلب ... كما انجاب عن ضوء النهار ضباب

* * *

وفى الجسم نفس لا تشيب لشيبه ... ولو أن مافى الوجه منه حراب
لها ظفر ان كل ظفر أعده ... وناب اذا لم يبق فى الفم ناب
يغير منى الدهر ما شاء غيرها ... وأبلغ أقصى العمر وهى كعاب
وانى لنجم تهتدى صحبتى به ... اذا حال من دون النجوم سحاب

* * *

غنى عن الاوطان لا يستخفنى ... الى بلد سافرت عنه اياب
وعن ذملان العيس ان سامحت به ... والا ففى أوكارهن عقاب
وأصدى فلا أبدى الى الماء حاجة ... والشمس فوق اليعملات لعاب
وللسر منى موضع لا يناله ... نديم ولا يفضى اليه شراب

* * *

وللخود منى ساعة ثم بيننا ... فلاة الى غير اللقاء تجاب
وما العشق الا غرة وطماعة ... يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادى للغوانى رمية ... وغير بنانى للزجاج ركاب (١)
تركنا لاطراف القنا كل شهوة ... فليس لنا الا بهن لعاب

---

(١) يعنى زجاج الكؤوس .

تصرفه للطعن فوق حوائر (١) قد انقصفت فيهن منه كعاب
اعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الزمان كتاب

ويقول في مناسبة العيد وقد عزم على الرحيل من مصر يوم عيد الاضحى سنة ٣٥٠ هـ :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى؟ أم لامر فيك تجديد
اما الاحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيدا دونها بيد
لولا العلا لم تجب بي ما أجوب بها وجناء حرف ولا جرداء قيدود
وكان أطيب من سيفي مضاجعه أشباه رونقه الغيد الاماليد
لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئا تتيمه عين ولا جيد
يا ساقيي أخمر في كؤوسكما أم في كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا مالي لا تحركني هذي المدام ولا هذي الاغاريد
اذا أردت كميت اللون صافية وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبه اني بما أنا باك منه محسود
أمسيت أروح مثر خازنا ويدا أنا الغني وأموالي المواعيد

* * *

اني نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الايدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود
ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم الا وفي يده من نتنها عود
من كل رخو وكاء البطن منفتق لا في الرجال ولا النسوان معدود
أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه ، فله في مصر تمهيد
صار الخصي امام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد
العبد ليس لحر صالح بأخ لو أنه في ثياب الحر مولود

---

(١) يعني خيلا تحذر الطعن .

لا تشتر العبد الا والعصا معه ... ان العبيد لانجاس مناكيد
ما كنت أحسبني أحيا الى زمن ... يسيء لي فيه كلب وهو محمود
ولا توهمت ان الناس قد فقدوا ... وان مثل أبي البيضاء موجود

وقال يصف رحلته من مصر سنة ٣٥١ هـ :

ألا كل ماشية الخيزلى ... فدى كل ماشية الهيدبى
وكل نجاة بجاوية ... خنوف وما بي حسن المشى
ولكنهن حبال الحياة ... وكيد العداة وميط الاذى
ضربت بها التيه ضرب القمار ... اما لهذا وأما لذا
اذا فزعت قدمتها الجياد ... وبيض السيوف وسمر القنا
فمرت بنخل وفي ركبها ... عن العالمين وعنه غنى
وامست تخبرنا بالنقاب ... وادى المياه ووادى القرى
وقلنا لها أين أرض العراق ؟ ... فقالت ونحن بتربان ها
وهبت بجسمي هبوب الدبور ... مستقبلات مهب الصبا

* * *

فلما أنخنا ركزنا الرماح ... فوق مكارمنا والعلا
وبتنا نقبل أسيافنا ... ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ومن العراق ... ومن بالعواصم أني الفتى
وأني وفيت وأني أبيت ... وأني عتوت على من عتى
وما كل من قال قولا وفى ... وما كل من سيم خسفا أبى

وقال وقد غادر مصر يرثي فاتكا الاخشيد سنة ٣٥٢ هـ :

حتام نحن نسارى النجم في الظلم ... وما سراه على ساق ولا قدم
ولا يحس بأجفان يحس بها ... فقد الرقاد غريب بات لم ينم
تسود الشمس منا بيض أوجهنا ... ولا تسود بيض العذر واللمم

وكان حالهما في الحكم واحدة | لو احتكما من الدنيا الى حكم
ونترك الماء لا ينفك من سفر | ما سار في الغيم منه سار في الادم
لا أبغض العيس لكني وقيت بها | قلبي من الحزن أو جسمي من السقم
طردت من مصر أيديها بارجلها | حتى مرقن بنا من جوش والعلم
تبرى لهن نعام الدو مسرجة | تعارض الجدل المرخاة باللجم
في غلمة أخطروا أرواحهم ورضوا | بما لقين رضا الايسار بالزلم
تبدو لنا كلما ألقوا عمائمهم | عمائم خلقت سودا ، بلا لثم
بيض العوارض ، طعانون من لحقوا | من الفوارس ، شلالون للنعم
قد بلغوا بقناهم فوق طاقته | وليس يبلغ ما فيهم من الهمم
في الجاهلية الا أن أنفسهم | من طيبهن به في الاشهر الحرم

* * *

ما زلت أضحك ابلي كلما نظرت | الى من اختضبت أخفافها بدم
أسيرها بين أصنام أشاهدها | ولا أشاهد فيها عفة الصنم
حتى رجعت وأقلامي قوائل لي | المجد للسيف ليس المجد للقلم
اكتب بنا أبدا بعد الكتاب به | فانما نحن للاسياف كالخدم
اسمعتني وشفائي ما أشرت به | فان غفلت فدائي قلة الفهم
من اقتضى بسوى الهندي حاجته | أجاب كل سؤال عن هل بلم
توهم القوم أن العجز قربنا | وفي التقرب ما يدعو الى التهم

* * *

هون على بصر ما شق منظره | فانما يقظات العين كالحلم

وقال في عضد الدولة ، ويصف شعب بوان :

مغاني الشعب طيبا في المغاني | بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها | غريب الوجه واليد واللسان

---

(١) يسخر ممن يخضبون أقدامهم بالحناء .

ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان
طبت فرساننا والخيل حتى ... خشيت وان كرمن من الحران

* * *

غدونا تنفض الاغصان فيه ... على أعرافها مثل الجمان
فسرت وقد حجبن الشمس عنى ... وجئن من الضياء بما كفانى
والقى الشرق منها فى ثيابى ... دنانيرا تفر من البنان
لها ثمر يشير اليك منه ... باشربة وقفن بلا أوانى
وأمواه تصل بها حصاها ... صليل الحلى فى أيدى الغوانى

* * *

منازل لم يزل منها خيال ... يشيعنى الى النوبند جان
اذا غنى الحمام الورق فيه ... أجابته أغانى القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام ... اذا غنى وناح ، الى البنان
وقد يتقارب الوصفان جدا ... وموصوفاهما متباعدان
يقول بشعب بوان حصانى ... أعن هذا يسار الى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى ... وعلمكم مفارقة الجنان

* * *

القسم الثالث

جماعة من الكتاب

الجاحظ

أبو عثمان عمرو بن بحر

مولده ونشأته :

لم يتفق المؤرخون على السنة التي ولد فيها بل ان أكثرهم لم يذكر سنة مولده ، وذكر سنة وفاته ، وقالوا انه نيف على السبعين ، وينفرد ياقوت بقوله ان الجاحظ قال : أنا أسن من أبي نواس بسنة ، ولدت في أول سنة ١٥٠ هـ وولد في آخرها • وذكر ياقوت تاريخين آخرين لمولد أبي نواس سنة ١٤٥ هـ وسنة ١٣٦ هـ •

الا أن الراجح من أقوال المؤرخين والادباء أنه ولد في السنوات العشر الاولى من النصف الثاني من القرن الثاني ، أو حوالى سنة ١٥٦ هـ •

واسمه عمرو بن بحر بن محبوب ، كناني ليثي ، نسبة الى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة ــ وقالوا انه كان مولى أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفقيمي وقيل انه كناني صليبة لا ولاء •

وكان جده أسودا يقال له فزارة ، كان جمالا لعمرو بن قلع الكناني •

وقد ولد الجاحظ أسود اللون كآبائه ، جاحظ العينين ، لذلك لقب بالجاحظ لجحوظهما • كما لقب بالحدقي أيضا ، ولم يكن

الجاحظ مفرطا في الطول ، بل ربعــة وقد تنــدر بقبح صورته فقال : ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رآني استبشع منظري ، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفت ٠

أدب الجاحــظ

ثقافــة الجاحــظ :

ربما غلبت على ثقافته في مرحلة اقامتــه بالبصرة العربيــة من اللغــة والشــعر والحديث والتفســير ٠ مع بعض الثقافات الكلامية المتأثرة بالفلسفة والعقليات مع أساتذته من المعتزلة ٠ ويرجــح شــارل بللا قراءتــه لكتب اليونانيــين فــي المرحــلة البغداديــة (١) ٠

معرفة الفارسية :

ويرجح معرفته للفارسية وليس اجادته لها ، وقد واتته هذه المعرفة بحكم صلته بالوسط البغدادي في القرن الثالث ويفترض أن يكون هذا الوسط وخاصة طبقة الخاصة فيه واقعا تحت تأثير الفرس ، والثقافة الفارسية متداولة فيه ، ولا يبتعد أن تتداول بعض الالفاظ ٠ ويقــول بللات : « أغلب الظن ــ ولا مجــال هنا للتأكيد ــ أن الجاحظ قد أشبع رغبته بمطالعة الكتب المترجمة

(١) بللات : « الوسط البصري وأثره في تكوين الجاحظ » ، ص ١١٥ ٠ وراجع « الجاحظ معلم العقل » لشفيق جبري ، ص ٧٦ ٠

عن الفارسية التي وصلت اليه . ولم تكن هذه عديدة ولكنها كافية لاعطائه معلومات عامة عن تاريخ الفرس يمكن افهامها بمعلومات شفهية لم يحرم الجاحظ نفسه منها » .

أساتيذه :

في اللغة والنحو : أبو عبيدة **والاصمعي وأبو زيد الانصاري ، وأبو الحسن الاخفش** وفي الحديث : أبو يوسف بن ابراهيم القاضي ويزيد بن هارون والسرى بن عبدوية والحاج ابن محمد بن حماد بن سلمة . وشمامة بن وس الذى لازمه في بغداد . وأخذ الكلام عن ابراهيم بن سيار النظام .

ولا شك أن الجاحظ تعرف على النظام في البصرة في حلقة أبي الهذيل العلاف وصحبه الى بغداد وصار من مريديه . وروى الخطيب البغدادى ما يفيد هذا المعنى قال عن لسانه : « اجتمع أبو شمر ، وتمامة ، وعلى بن هيثم وابراهيم النظام وخرجوا الى باب الشماسية فنظروا الى موضع استطابوه فاجتمعوا فيه ووجهوا بي لاشترى لهم من السوق ببغداد مايحتاجون اليه » (١) . ويرجح أنه صحب النظام ببغداد منذ سنة ٢١٠ هـ . وقد كان يكبر أستاذه بعشرين عاما الا أن الاستاذ كان يتمتع لا ريب بمنزلة عالية في علم الكلام وبمكانة اجتماعية رفيعة .

الجاحظ ورواية الشعر :

كان يروى عن رواة الشعر الكثيرين الذين يترددون على

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، ج ٦ ، ص ٩٨ .

البصرة آنذاك كما أخذ على علمائه الكبار المعاصرين من أمثال الاصمعي وأبي عبيدة . قال :

« ... وقد أدركت المسجديين والمربديين . ولن لم يرو أشعار المجانين ولصوص الاعراب ، والارجاز الاعرابية القصار ، وأشعار اليهود والاشعار المنصفة فانهم كانوا لا يعدونه من الرواة ، ثم استبردوا ذلك كله . ووقفوا على قصار الحديث والقصائد ، والنتف والنتف من كل شيء . ولقد شهدتهم وما هم على شيء أحرص منهم على نسيب العباس بن الاحنف ، فما هو الا أن أورد عليهم خلف الاحمر نسيب الاعراب ، فصار زهدهم في شعر العباس بقدر رغبتهم في نسيب الاعراب ثم رأيتهم منذ سنيات وما يروى عندهم نسيب الاعراب الا حدث السن قد ابتدأ في طلب الشعر أو فتياني متغزل . وقد جلست الى أبي عبيدة والاصمعي ويحيى بن نجيم وأبي مالك عمرو بن كركرة مع من جلست من رواة البغداديين فما رأيت أحدا منهم قصد الى شعر في النسيب فأنشده . وكان خلف يجمع ذلك كله .

ولم أر غاية المتحدثين الا كل شعر فيه اعراب ، ولم ار غاية رواة الاشعار الا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج الى الاستخراج . ولم أر غاية رواة الاخبار الا كل شعر فيه الشاهد والمثل . ورأيت عامتهم ـ وقد طالت مشاهدتي لهم ـ لا يقفون الا على الالفاظ المتميزة والمعاني المنتخبة وعلى الالفاظ العذبة وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي اذا صارت في الصدور

عمرتها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلت الاقلام على مواطن الالفاظ ، وأشارت الى حسان المعانى • ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر ، ولقد رأيت أبا عمرو الشيبانى يكتب أشعاراً من أفواه جلسائه ليدخلها في باب التحفظ والتذاكر وربما خيل الى أن أبنـــاء أولئك الشعراء لا يستطيعون أبــدا أن يقولوا شعراً جيداً لمكان أعراقهم من أولئك الآباء •

ولولا أن أكون عيابا ثم للعلماء خاصة لصورت لك في هذا الكتاب ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد في وهمك من أبى عبيــدة » (١) •

وكان بين الجاحظ والاصمعى الراوية صلات كثيرة ، وربما وقف منه الاصمعى مواقف المعارضة والمخاشنة أحيانا •

ذكر ياقوت (٢) : حدث أبو الضياء قال : قال الجاحظ كان الاصمعى منا • فقال له العباس بن رستم : لا والله ، ولكن تذكر حين جلست اليه تسأله ، فجعله يأخذ نعله بيده ، وهى مخصوفة بحديد ويقول : نعم قناع القدرى • فعلمت أنه يعنيك » •

يريد الجاحــظ أن يقول أن الاصمعـــى كان يأخذ بــآراء المعتزلة ، ولكن صاحبه نفى ذلك وذكره بهجومه عليه في مجلس معه ، وحملته على القدرية « المعتزلة » •

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٣٥ — ٢٣٦ •

(٢) معجــم الادبــاء ، حـ ٦/٥٦ •

رحلاتـــه :

وكانت رحلاته ، مصدرا من مصادر معرفتـــه وعلمه ، فقد ســافر أولا من البصرة الى بغداد وتردد بينهما كثيرا ، وسافر الى الشام ، وحل بدمشق ، وصحب بهــا الوزير الفتـــح بن خاقان ، تحدث عن جامع دمشق الكبير ، كما تحدث عن براغيث دمشق وربما ذهب الى أنطاكية ومصـــر ٠

الجاحظ والاعتزال وعلم الكلام :

تتلمذ الجاحظ في مذهب الاعتزال على النظام وتأثر به ٠ وأعجب به ، وترى أثر الاعجاب باديا في مواضع كثيرة من كتبه ٠ ولم يكن هذا الاعجاب مع ذلك داعيا لان يسلم الجاحـظ لاستاذه بكل آرائه ، بل ، لقد وقف منه أحيانا موقف المناقشة والمعارضة ٠

ومن أمثلة ما جاء في كلام الجاحظ من اجلال وتعظيم للنظام قوله : « الاوائل يقولون : في كل ألف سنة رجل لا نظير له ، فان كان ذلك صحيحا ، فهو أبو اسحاق النظام » وقال مـــرة أخرى : « ما رأيت أحدا أعلم بالكلام والفقه من النظام » ٠

وذكر تأثيره في الاعتزال وجماعة المعتزلة فقال : « أنهج لهم سبلا وفتق لهم أمورا واختصر لهم أبوابا ظهرت فيهــا المنفعـــة ، وشملتهم بها النعمة » ٠

وقال في معرض نقـــده أحيانا :

« كان ابراهيم مأمون اللسان ، قليل الزلل والزيغ في باب

الصدق والكذب · ولم أزعم أنه قليل الزيغ ، على أن ذلك قد كان يكون منــه وان كان قليلا ، بل انما قلت على مثل قولك : فلان قليل الحياء ، وأنت لست تريد حياء البتة » ·

وانما عيبه الذى لا يفارقه ســوء ظنــه وجــودة قياسه على العارض والخاطر السابق الــذى لا يوثق بمثله ، فلو كان بــدل تصحيحه القياس التمس تصحيح الاصل الذى قاس عليه ، كان أمره على الخلاص ، ولكنه كــان يظن الظن ، ثــم يقيس عليه ، وينسى أن بدء أمره كان ظنا ، فاذا أتفق ذلك أيقن ، جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر فى صحــة معناه · ولكنه كان لا يقول : سمعت ، ولا رأيت · وكان كلامه اذا خرج مخرج الشهادة القاطعة لم يشك السامع أنه انما حكى ذلك عن سماع قد امتحنه ، أو عن معاينة قد بهرته » ·

وانفرد النظام بآراء خاصة فى اعتزال تبعه فيها جماعة من تلاميذه واتباعه عرفوا بالنظامية · وهى فرقــة من المعتزلة كما يذكر الشهرستانى ·

وكان أهم ما يأخذ به النظام نفسه فى علمه العقل والقياس · وكان كثير الشك والسخرية بأصحاب الحديث والاثر من المفسرين · كان يقول لاصحابه :

« لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين ، وان نصبوا أنفسهم للعامــة ، وأجابوا فى كل مسألة فان كثيرا منهم يقول بغير دراية ،

على غير أساس ، وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب اليهم - وليكن عندكم عكرمة والكلبي ، والسدى ، والضحاك ، ومقاتل بن سليمان وأبو بكر الاصم فى سبيل واحدة • فكيف أثق بتفسير ، وأسكن الى صوابهم وقد قالوا فى قوله عز وجل « وان المساجد لله » ان الله عز وجل لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التى نصلى فيها ، بل انما عنى الجباه وكل ما سجد الناس عليه من يد ورجل وجبهة وأنف وثفنة • وقالوا في قوله تعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » انه ليست الجمال والنوق ، وانما يعنى السحاب » •

وكان يأخذ فى منهجه الفكرى بالشك أولا ثم يبحث منه عن الحقيقة حتى يصل اليها • ومن أقواله : « الشاك أقرب اليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاد الى غيره حتى يكون بينهما حال شك » •

واهتم النظام بعلوم الفلسفة والكلام ، وعلوم الطبيعة ، وتأثر فيما يبدو بأرسطو ومنهجه العقلى •

وانتقلت آراء النظام الى تلميذه الجاحظ ، فآمن بالعقل ، ولم يسلم الى المفسرين ، بل عاداهم كثيرا وسفه آرائهم ، كما عارض اللغويين الذين يأخذون بظاهر النص ولا يتعمقون وراء المعنى •

ويرى الجاحظ أنه لولا المتكلمين والمعتزلة خاصة ، لضل الناس ، وأن العالم الذى يتصدى لامور العقيدة ينبغى أن يلم

بعلوم العقل والطبيعة حتى تتسع مداركه . يقـول (١) : « ولا يكون المتكلم جامعا لاقطار الكـلام متمكنا فى الصياغـة ، يصلح للرياسة حتى يكون الذى يحسن من كـلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة . والعالم عندنا هو الذى يجمعها » .

وأتم الجاحظ ثقافته بالاطلاع على كثير من الكتب التى وقعت له ، وكان رجلا طلعـه لا يكف عن القـراءة . وكـان معاصروه يعرفون فيه هذا الشغف الشديد بالكتاب . قال أبو هفان : « ولم أر قط ولا سمعت من احب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان ، حتى أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر .

وقد وقف على كثـير من كتب اللغـة والادب التى عرفت فى عصره ، وقرأ فـى كتب الفلسفة والطبيعة ، قـرأ كتـاب المنطق لارسطو طاليس وبعض كتب أقليدس ، وكثيرا مما ترجمه السريان أو القوة فى هذا المجال . وقد نقل عن ما سرجويه وأفليمون وحنين ابن اسحاق وتتبع الدكتور الحاجرى نقول الجـاحظ فـى كتاب الحيـوان .

وأحب الكتاب حبا بدا فى مواضع كثيرة من مؤلفاته ، ومنها قوله فى كتاب الحيوان : « والكتاب نعم الذخـر والعمدة ، ونعم الجليس والعدة ، ونعم النشرة والنزهة ونعـم المشتغل والحرفة ،

(١) كتاب الحيوان ، ١٣٤/٢ .

ونعم الانيس لساعة الوحدة • ونعم المعرفة ببلاد الغربة • والكتاب وعاء مليء علما وظرف حشي ظرفا (١) » •

ووقف الجاحظ على ثقافات بعض الامم التي خالطت الفكر العربي في عصره • كالفارسية واليونانية • وكان يقول : ان الامم التي فيها الاخلاق والآداب والحكم والعلم أربع هي : العرب ، والهند ، وفارس ، والروم - يعني اليونان •

ويرى أن العرب تفضلها جميعا في البيان « لانهم أنطق ، وأن لغتها أوسع ، وأن لفظها أدل ، وأن أقسام تأليف كلامها أكثر ، والامثال التي ضربت فيها أجود وأسير ، والبديهة مقصورة عليها ، والارتجال والاقتضاب خاص بها » •

وكتب الجاحظ ورسائله العديدة دليل على ثقافته الواسعة المتعددة ، المصادر وهي حافلة بمعارفه الكثيرة الواسعة ، وتنم رسالته « التربيع والتدوير » عن قدرته على الخوض في مواضيع شتى ، وتعطينا برهانا على مدى اتساع معارفه (٢) •

موقف الجاحظ من الاتجاهات الاجتماعية والمذاهب الدينية في عصره :

موقفه من الشعوبية :

يقول : « واعلم أنك لم تر قوما قط أشقى من هؤلاء الشعوبية

---

(١) الحيوان ، جـ ١ •

(٢) شارل بلات : بيئة البصرة وأثرها في الجاحظ ، ص ١١٠/١١١ •

ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكا لعرضه ، ولا أطول نصبا ، ولا أقل غنما من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنان في قلوبهم وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعر تلك النيران المضطرمة » .

وألف الجاحظ بعض كتبه يرد على الشعوبية والطاعنين على العرب ، وأولها كتاب « البيان والتبيين » لان البيان خاصة العرب والميزة التي عرفوا بها ونزل بها كتاب الله في لغتهم ليكون بيانا للناس هاديا لهم . ويقول في الجزء الثاني من البيان والتبيين :

« أردنا ـ أبقاك الله ـ أن نبتدىء صدر هذا الجزء الثاني من البيان والتبيين بالرد على الشعوبية وطعنهم على خطباء العرب وملوكهم ، اذ وصلوا ايمانهم بالمخاطر ،واعتمدوا على وجه الارض بأطراف القسي والعصي ... » .

كذلك فان كتاب البخلاء أراد أن يسخر فيه من البخل والبخلاء لانه ضد الكرم طبيعة العرب ومفاخرهم . وصدر كتابه هذا برسالة لسهل بن هارون ، فيها التمدح بالبخل وذم الكرم . وأخذ على بعض الموالى ومن جاراهم ممن يدينون بالشعوبية اتصاف أهل فارس بالبخل وخاصة أهل خراسان ، بل أنه خصص للشعوبية كتابا أشار اليه في « البخلاء » . يقول :

« ... وهذا الباب يكثر ويطول . وفيما ذكرنا دليل على

ما قصدنا اليه من تصنيف الحالات - فان أردته مجموعا فاطلبه فى كتاب « الشعوبية » ، فانه هنالك مستقصى » (١) ٠

ووقف من بعض اتجاهات عصره موقف العداء والسخرية ، كموقفه من الجهمية والمشبهة وأصحاب الظاهر ، والمفسرين والمحدثين ، والذين يروون الاخبار ويفسرون بعض آى القرآن بغير علم ولا تعقل ٠

يقول فى تفسير قوله تعالى : « وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وان منها لما يهبط من خشية الله » ٠

فذهب الجهمية (أتباع جهم بن صفوان) ومن أنكر ايجاد الطبائع مذهبا ، وذهب ابن حائط ومن لف لفه من أصحاب الجهالات ، مذهبا ، وذهب ناس من غير المتكلمين ، واتبعوا ظاهر الحديث ، وظاهر الاشعار ، وزعموا أن الحجارة كانت تعقل ، وتنطق ، وانما سلبت المنطق فقط ٠ فأما الطير والسباع فعلى ما كانت عليه ٠

قالوا : والوطواط ، والقرد ، والضفدع مطيعات ومثابات ، والعقرب والحية والحدأة والغراب والوزغ والكلب ، وأشباه ذلك عاصيات معاقبات ٠

---

(١) راجع كتاب « الجاحظ » ، حياته وآثاره ٠ للدكتور طه الحاجرى ، ص ٣٠٠ ٠

ولم أقف على واحد منهم فأقول له : « ان الوزعة التى تقتلها على أنها تضرم النار على ابراهيم أهى هذه أم هى أولادها ؟ فمأخوذة هى بذنب غيرها ؟ · أم تزعم أنه في المعلوم أن تكون تلك الوزع لا تلد ولا تبيض الا من يدين بدينها ويذهب مذهبها ؟ ·

وليس هؤلاء ممن يفهم تأويل الاحاديث ، وأى ضرب منها يكون مردودا وأى ضرب منها يكون متأولا ، وأى ضرب منها يقال: ان ذلك انما هو حكاية عن بعض القبائل · ولذلك أقول : لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام ، واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون » (١) ·

وقد ضايق هذا الموقف جماعة المحدثين ، وائمة أهل السنة فوقفوا من الجاحظ موقف العداء ، والهجوم واتهموه بالمروق لانه يعبث بالحديث وأصحابه ، ولانه يأخذ بالعقل والفلسفة والرأى · وهو منهج يخالف مناهجهم يقول ابن قتيبة الفقيه وعالم أهل السنة المعاصر له · (توفى سنة ٢٦٧ هـ) : « وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم · وهو مع هذا من أكذب الامة وأوضعهم لحديث ، وأنصرهم لباطل » (٢) ·

---

(١) الحيوان ، ٤/٢٨٧ _ ٢٨٩ ·

(٢) تأويل مختلف الحديث ، ص ٧٢ ·

موقفه من الزنادقة :

قال الجاحظ : « والزنادقة لم تكن قط أمة ، ولا كان لها ملك مملكة ، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق » ·

وهو يعني أن الزندقة شيع متفرقة من الناس لا تجمعهم على كلمة واحدة ، ولا أمة واحدة كالامة الاسلامية ، وأنهم لخروجهم عن حدود الدين ومعارضتهم لامور الشريعة وقواعدها ، ولتهجمهم على مقدسات العقيدة يحاربون وينبذون ويعاقبون بالقتل والمطاردة ·

وقد تعقب الجاحظ الزنادقة والملحدين تعقبه للخارجين المارقين ، وجادل المفكرين منهم أو أصحاب الزندقة الفكرية ، لانه من المعتزلة الذين نصبوا أنفسهم مدافعين عن هذا الدين الاسلامي وعن عقيدة الاسلام وعن الكتاب القرآن الكريم بالرأى والحجة ·

وتتبع الزنادقة من الادباء والشعراء ، وحمل عليهم وأزرى بهم ، سواء من تزندق منهم زندقة فكرية أو كان في زندقته خارجا عن قواعد المجتمع وعرف الحياة الاسلامية وأصول الدين · ومن بين من عرض لهم في مؤلفاته من شعرائهم حماد عجرد ، ذكر أبياتا له في هجاء عمارة بن حربية يقول فيها :

لو كنت زنديقا عمار حبوتني ... أو كنت أعبد غير رب محمد
أو كنت عندك أو تراك عرفتني ... كالنضر أو ألميت كابن المقعد
أو كابن حماد ربيئة دينكم ... حبل وما حبل الغوى بمرشد

كنني وجدت لربي مخلصا ... فجفوتني بغضا لكل موحد

وحبوت من زعم السماء تكونت ... والارض خالقها لها لم يمهد

والنسم مثل الزرع آن حصاده ... منه الحصيد ومنه ما لم يحصد

قال الجاحظ : « وحماد أشهر بالزندقة من عمارة بن حربية الذى هجاه بهذه الابيات وأما قوله : وحبوت من زعم السماء تكونت .. البيت . فليس يقول أحد أن الفلك بما فيه من التدبير تكون بنفسه ومن نفسه » .

ويذكر أبيات أبي نواس في هجاء أبان بن عبد الحميد اللاحقي ، والتي يقول فيها :

جالست يوما ابانا ... لا در در أبان

ونحن حضر رواق ... الامير بالنهر وان

حتى اذا ما صلاة الـ ... اولى دنت لاوان

فقال : كيف شهدتم ... بذا بغير عيان

لا اشهد الدهر حتى ... تعاين العينان

فقلت : سبحان ربي ... فقال سبحان ماني

فقلت : عيسى رسول ... فقال من شيطان

فقلت : موسى كليم ... المهيمن المنان

فقال : ربك ذو مقلة ... اذن ولسان

فنفسه خلقته ... أم من ؟ فقمت مكاني

عن كافر يتمرى ... بالكفر بالرحمن

يقول الجاحظ : « وتعجبني من أبي نواس ، وقد كان جالس المتكلمين أشد من تعجبي من حماد حين يحكي عن قوم من هؤلاء قولا لا يقوله أحد ، وهذه قرة عين المهجو . والذى يقول سبحان

ماني يعظم أمر عيسى تعظيما شديدا ، فكيف يقول أنه من قبيل شيطان • وأما قوله : فنفسه خلقته أم من ؟ فان هذه المسألة نجدها ظاهرة على ألسن العوام • والمتكلمون لا يحكمون هذا عن أحد •

وعاد الجاحظ في موضع آخر فاتهم أبا نواس بالخروج والكفر عندما عرض لقوله :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة ... قم سيدى نعص جبار السماوات

قال : هذا البيت مع كفره مقيت جدا • وكان يكثر في هذا الباب •

وقد تحدث عن الزنادقة في أكثر من موضع بكتابه «الحيوان» وذكر عجيب اعتقادهم وفرقهم •

كتبه :

وعرف الجاحظ بكثرة تاليفه ، فقد نقل أنه ألف كثيرا من الكتب ، وذكر جماعة من المؤرخين قوائم لمؤلفاته ، يختلط بها ما ليس له ، وقد يسقط منها بعض ما ألف وتردد ذكره في مصادر مختلفة ، ككتابه في الشعوبية الذى لم يذكره ياقوت في قائمة كتبه مع أنه جمع له عددا وافرا من الكتب والرسائل •

وأشهر قائمتين لمؤلفاته في كتابى « الفهرست » لابن النديم و « معجم الادباء » لياقوت الحموى •

ونشر ودرس عدد كبير منها في مقدمتها :

١ ـ كتاب الحيوان في ٧ أجزاء بتحقيق عبد السلام هارون •

٢ ـ كتاب البخلاء بتحقيق الدكتور محمد طه الحاجرى .

٣ ـ كتاب البيان والتبيين بتحقيق عبد السلام هارون .

٤ ـ مجموعات من رسائله تم تحقيقها أكثر من مرة وجمع مجموعة منها عبد السلام هارون ، في جزئين ، وأشهرها :

رسالة (العثمانية) ، و (مناقب الترك) ، و (فخر السودان) و (رسالة فى القيان) و (التربيع والتدوير) و (وحجج النبوة) و (المعادو المعاش) و (الجد والهزل) و (القول فى البغال) و (التبصر بالتجارة) و (طبقات المغنين) (١) .

وهناك بعض الكتب الهامة التى فقدت وأشار اليها هو فى مؤلفاته ككتاب « نظم القرآن » ، أو أشار اليها بعض العلماء مثل رسالته فى مدح مصر التى أشار اليها القلقشندى فى « صبح الاعشى » .

ونسبت بعض الكتب اليه خطأ مثل كتاب (التاج وكتاب (المحاسن والاضداد) وكتب الجاحظ تؤلف موسوعة علم ووثائق للحياة الاجتماعية والفكرية فى عصره . ففى كتاب « البيان والتبيين » نجد الرسالة الشهيرة التى بعث بها عمر بن الخطاب الى أبى موسى الاشعرى، كذلك يحوى قائمة بأسماء النساك والقصاص الاوائل .

---

(١) نشر مجلة المنتقد ، مجلد ٢ ، ج ٨ .

(٢) طبع بعناية أحمد زكى باشا .

(٣) طبع بتحقيق المستشرق فان فلوتن فى لندن سنة ١٨٩٧ م .

ويفيدنا كتاب « الحيوان » بأوسع المعلومات التى أفاد منهـا المستشرقون أحيانا عن بعض الفرق الدينية والمذاهب كالزنادقة والدهريين ·

ويقول شارل بللات (٤) : ويمكننا كتاب البخلاء من التقاط مظاهـر الفعاليـة الاجتماعية فـى البصرة بسرعة ، ومشاهدة برجوازية المـال فيها » ·

ونستطيع كذلك عن كتبه أن نلم بكثير من المعارف عن حياة الجاحظ وفكره ، فهو يتجلى فيما يكتب ، فتكاد تنطق كلماته بروحه وتبدى سطوره رسم شخصه ·

ونهج فى تأليفه نهجا مغايرا لنهج معاصريه ، فمال بكتبه ورسائله الى الوضوح والبساطة والصدق · وكان يأخذ على بعض علماء عصره التعقيد فى كتبهم ، فقد ذكر فى كتاب الحيوان أنه سأل أبا الحسن الاخفش العالم النحوى :

أنت أعلم الناس بالنحو ، فلماذا لا تجعل كتبك مفهومة كلها ؟ وما بالنا نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ؟ · وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم ؟ ·

قال ــ أنا رجل لم أضع كتبى هذه لله · وليست هى من كتب الدين · ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى اليه قلت حاجاتهم

---

(٤) البصرة وحياة الجاحظ ، ص ١٦ ·

الى فيها . وانما كانت غايتى المثالة . وأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس ما لم يفهموا . وأنا قد كسبت فى هذا التدبير اذ كنت الى التكسب ذهبت . ولكن ما بال ابراهيم النظام وفلان وفلان يكتبون الكتب لله بزعمهم ، ثم يأخذها مثلى فى موافقته وحسن نظره وشدة عنايته ولا يفهم اكثرها (١) .

ولكن الجاحظ اختلف عن هؤلاء ولعله كان « اول من اتخذ التأليف صناعة له يبرز بها نفسه ، ويظهر فيها مواهبه ، ويستجيب بها لنزوعه الفني . ومن ذلك جاء الكتاب الجاحظي نمطا جديدا في التأليف يجمع بين بسط العبارة وجمالها ، ويتجه الى جمهرة القراء على اختــلاف قواهــم ومداركهــم لا الى طائفــة خاصــة منهم (٢) . فهو عامي خاصي » يقول فى صفة الكتاب :

« وليس الكتاب الى شيء أحوج منه الى افهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لمـا فيه من الروية . ويحتاج من اللفظ الى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفلة والحشوة ، ويحطه عن غريب الاعراب ووحشى الكلام ، وليس له أن يهذبه جـدا . وينقحــه ، ويصفيه ويروقه ، حتى لا ينطق الا بلب اللب وباللفظ الذى حذف فضوله وأسقطت زوائده ، حتى عاد خالصا لا شوب فيه ، فانه فعل ذلك لم يفهم عنه الا بأن يجدد لهم أفهاما مرارا وتكرارا ، لان الناس كلهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد على عاداتهم الا بأن يعكس عليها ويؤخذ بها » .

---

(١) الحيوان ١/٩١ ـ ٩٢ .
(٢) الجاحظ للحاجرى ، ص ١٨٠ .

وذكر أبو حيان التوحيدى الجاحظ وكتبه ورسائله، ونقل عن أحد علماء عصره صفته لها بقوله : « وكتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة » ·

وقال عنه : « جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأى والادب ، وبين الذكاء والفهم · طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خلته ، ووطىء الرجال عقبه وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتداء به · لقد أوتى الحكمة وفصل الخطاب » ·

وقال أبو حيان : « قلت لابى محمد الاندلسى ـ يعنى عبد الله ابن حمود الزيدى،وكان من عدد أصحاب السيرافى: قلت اختلفت أصحابنا فى مجلس أبى سعيد السيرافى فى بلاغة الجاحظ وأبى حنيفة الدينورى صاحب النبات ووقع الرضا بحكمك ، فما قولك ؟ ·

فقال ـ أنا أحقر نفسى من الحكم لهما وعليهما ·

فقيل له ـ لابد من قول ·

قال ـ أبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان أكثر حلاوة · ومعانى أبى عثمان لائقة بالنفس سهلة فى السمع · ولفظ أبى حنيفة أعذب وأغرب وأدخل فى أساليب العرب ·

قال أبو حيان : « والذى أقول واعتقد وآخذ به أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تفريطهم

وتشر فضائلهم لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم أحدهما هذا الشيخ أى أبو عثمان عمرو بن بحر ، والثانى أبو حنيفة الدينورى والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ٠

ولو تناصرت الينا أخبارهما ـ يعنى أبا حنيفة الدينورى وأبا زيد البلخى ـ لكنا نحب أن نفرد لكل واحد منهما تقريظا مقصورا عليه ، وكتابا منسوبا اليه كما فعلت بأبى عثمان » ٠

وكان الجاحظ يعمد فى كتبه الى مزج الفكاهة بالجد ، فيخرج بالقارىء من ملل الى انتعاش ، وهو يسوق اليه النادرة فى طى الكلام ليرفه عنه ، ويجدد نشاطه ويبعث الحياة من جديد فى ذهنه ٠

ولا يتعفف الجاحظ عن ايراد نوادره بأساليب العامة ملحونة أحيانا ، يرويها كما هى كما قيلت دون أن يصرفها بالفصحى وذلك أطرى بالنادرة وأملح وقعا فى النفوس عنده ٠

وتمتاز كتبه كذلك بتنوع الموضوع والاستطراد والخروج من معنى الى آخر فى كثير من التشويق والامتاع وان بدا فى نظر بعض المعاصرين تشعيثا فى الافكار واضطرابا فى النهج ٠

وقد يكون هذا الاختلاط الذى دخل الى بعض كتبه كالحيوان أو البيان والتبيين راجعا الى اشتداد العلة عليه مما لم يمكنه من التنسيق وضم الفصول بعضها الى بعض كما أشار هو بنفسه ٠

لكن كتبه ورسائله على أية حال رياض للنفوس ، وواحات

للعقول تستجم بها وتتزود بعديد من المعـارف • وفيهـا رياضة للفكر فيما يشغل بال الناس في عصره من قضايا سياسية وعقدية ودينية أو اجتماعية أو أدبيـة •

يقول عنه شارل بللات : « انه ليس هناك كاتب معاصر أو لاحق يشبه الجاحظ » • ويقول ، وقد ظهر الجاحظ كمجدد حقيقي يجيد استعمال اللغـة بمهارة فائقـة • يجمع على ذلك أصدقاؤه وخصومه • ويقول عنه المسعودي : « وكتب الجاحظ تجلو صدأ الاذهان وتكشف واضح البرهان لانه نظمها أحسن نظم ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ • وكان اذا تخوف ملل القارىء وسأمه السامع، خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغـة الى نادرة طريفـة » (١) •

أسـلوبه :

وللجاحظ في كتبه أسلوب امتـاز بـه وعرف بين معاصريه ولاحقيه ، فيه السهولـة والوضوح ، والأبتعـاد عن التعقيد في المعاني وحوشي اللغـة • لا يعمد الى التقعر او التباهي بالمعرفة • وأكسب كلامه ضروبا من التلوين المعنوي واللفظي •

فهو يعمد الى خاصية المزج بين الجد والهزل ، والى الاستطرات من موضوع الى آخر ، ، معتمدا على تداعي المعاني والافكار ، أو تواصل الموضوعات ، ويزاوج القول في التعبير عن المعنى الواحد

---

(١) البصرة وتكوين الجاحظ ، ص ٣ ـ وراجع مروج الذهب ٣٤/٨ •

فيورده مرددا مزاوجا أو ملونا بلون من الصياغة فيه ايقاع موسيقى تطول فيه الفقرات وتقصر تــوارد المعاني ، واتصالها أو انفصالها ٠

ولا يميل الى السجع الرتيب ، لكنه مع ذلك يوفر لفقراته ضربا من الموسيقى تأتيه طواعية دون تكلف ٠

وقد يبدو فى تلك المزاوجة مسرفا فى القول ومطنبا أو لا يقصد المعنى مباشرة بل يدور حوله ، مما قد يسمه بعدم الدقة ، مع كونه آخذا منهج أصحاب الفلسفة والمنطق ، لكنه أديب لا يكتفى بأن تؤدى العبارة المعنى وحسب ، بل لابد من الايقاع فى الاداء ، ولهذا فهو يحب التعبير المشرق الجميل وان بدا مطيلا أو غير دقيق فى أداء معانيه ٠

وبالرغم من هذا كله فانه يبرأ مما يعيب بعض أساليب كتاب العربية، وهورغم ما يضمن كتبه ورسائله منقضايا عقلية،وجدل منطقى ، وتعقب لبعض الافكار العلمية الجافة فانه لا يعدم الطلاوة والتشويق بما أشرنا اليه من عناصر تشد القارىء أو السامع ٠

وهكذا نجح الجاحظ فى أن يحتفظ باهتمام قرائه الى حد يجعل جميع كتبه ورسائله تقرأ بلذة على الرغم من التكرار ، وفقدان النهج المنطقى ، وعدم تسلسل الافكار ، وكثرة الاستطرادات التى تعطى أسلوبه طابعه وطعمه الخاصين ٠

وان هذا الاسلوب الذى يبدو فى ظاهره بسيطا سهلا مرسلا طلقا ، يخفى فى طياته كثيرا من القضايا الغامضة والافكار المتجددة التى تستمد مادتها من الدين ·

أهم موضوعات كتبه :

القضايا والجوانب الاجتماعية :

« لعل اهتمامه بقضايا المجتمع فى عصره دعا بعض المستشرقين الالمان الى مقارنته بفولتير Voltaire الكاتب الفرنسى الاجتماعى المشهور ، كما يمكن مقارنته بالكتاب الانسانيين Humanistes ، بل لعله يستحق أكثر من أى كاتب عربي قديم آخر هذا اللقب (١) » ·

وتناول بعض الباحثين فى أدب الجاحظ هذا الجانب فى دراساتهم أمثال شارل بللات فى كتابه « بيئة البصرة وأثرها فى تكوين الجاحظ » (٢) والدكتورة وديعة طه النجم فى كتاب : « الجاحظ والحاضرة العباسية » (٣) ·

ويعرض الجاحظ فى كتبه لكثير من قضايا المجتمع ، ومنها الخلافات السياسية بين المذاهب والفرق المختلفة ، مثل ما يدور في رسالة « العثمانية » ، فيتعرض لوجوه الخلاف بين العلوية والعثمانية وأقوال كل منهم ورد الطرف الاخر عليها · ولكنه

(١) بللات ، ص ٥ ·

(٢) نشر هذا الكتاب بفرنسا ، باريس ·

(٣) الجاحظ والحاضرة العباسية ، طبع بغداد سنة ١٩٦٥ ·

يميل ميلا واضحا على العلوية ، ويفند الفضائل التى ينسبونها الى الامام على رضى الله عنه ٠

ورسالة بنى أمية (١) ، وهى تمثل صورة من الجدل السياسى والمذهبى الذى كان سائدا فى عصره بين المعتزلة وأهل الحديث حول الحكم على معاوية وبنى أمية ، فأهل الحديث يتأثمون ويتحرجون ويرون التوقف فى الحكم ، وأما جمهور المعتزلة فيعلنون التبرأ منه ٠ ويمثل الجاحظ فى هذه الرسالة رأى المعتزلة الذى أخذ به المأمون فى عصره والذى قال الطبرى أنه أمر مناديا فنادى : « برئت الذمة ممن ذكر معاوية بخير أو فضله على أحد من أصحاب رسول الله عليه وسلم » ٠

وارتبط المحدثون بالدفاع عن معاوية ، وبذلك كانت قضية من مسائل الخلاف الرئيسية بينهم وبين المعتزلة ٠

والرسالة الثالثة فى هذا الموضوع « امامة بنى العباس »(٢) وتدعو الى اثبات حق العباسيين فى الخلافة من ناحية الوراثة ، ومناقشة الآراء المختلفة التى كانت تثيرها هذه المسألة (٣) ٠

وتأتى بعد ذلك مجموعة من الرسائل تترى فى الامامة ، ووجوبها ومن يستحقها (٤) والامامة عند الشيعة ، والرافضة والزيدية ٠

---

(١) من مجموعة رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ٢٩٢ ٠

(٢) بقيت منه قطعة فى مجموع رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ٣٠٠ — ٣٠٢ ٠

(٣) الجاحظ للدكتور الحاجرى ، ص ١٩٣ ٠

(٤) فى مجموع مختارات فصول الجاحظ رسالة بعنوان « استحقاق الامامة » ص ٢٤٠ — المتحف البريطانى ٠

وتظهر بعض جوانب التعصب القبلي والعرقي في انتاجه ، كالصراع بين القحطانية والعدنانية يقول في آخر كتابه « النابتة » : « وقد كتبت _ مد الله في عمرك _ كتبا في مفاخرة قحطان وفي تفضيل عدنان ، وفي رد الموالي الى مكانهم في الفضل والنقص ٠٠ » ٠

وقال مرة أخرى في مقدمة الحيوان : « ٠٠ وعبتني بكتاب القحطانية ، وكتاب العدنانية في الرد على القحطانية » ٠ وذكرت أني تجاوزت فيه حد الحمية الى حد العصبية وأني لم أصل الى تفضيل العدنانية الا بتنقص القحطانية (١) » ٠

ويعرض لمشكلة الصراع بين الموالي والعرب في كتاب آخر أشار اليه أكثر من مرة هو « العرب والموالي » يقول في مقدمة الحيوان كذلك : « وعبتني بكتاب العرب والموالي ، وزعمت أني بخست الموالي حقوقهم ، كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم (٢) »٠

ويعرض لبعض الاقوال في هذه القضية التي قال فيها الشعوبية كثيرا ، وتحاملوا على العرب وفضلوا الفرس خاصة ٠ ومنها ما قاله في مواضع من كتاب « النابتة » : « وقد نجمت عن الموالي ناجمة ونبتت منهم نابتة تزعم أن المولى بولائه قد صار

---

(١) راجع الجاحظ لطه الحاجري ، ص ٢٣١ ٠

(٢) المرجع نفسه ، ص ٢٣١ _ ٢٣/ ٠

عربيا ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم : (مـولى القوم منهـم) ولقوله : (الولاء لحمة كلحمة النسب ، لا يباع ولا يوهب) .

وذكر ابن عبد ربه فى العقد جـزءا من الكتـاب فى كتاب « الشيعية فى النسب وفضائل العرب » . وجزءا آخر فى كتاب « الياقوتة الثانية فى الالحان واختلاف الناس فيه » . ويبدو من كلام ابن عبد ربه أن الجاحظ تكلم عن بعض شعراء الموالى مثل أبى نواس وقرظ شعره وأحسن الاختيار منه . قال فيه : « ومن الموالى الحسن بن هانيء ، وهو من أقدر الناس على الشعر وأطبعهم فيـه » . وكتابات الجاحظ تعكس موقفا جديدا للموالى ، فبعد أن كانوا شعوبية متعصبين صدر الدولة العباسية وطوال أيام المأمون بدأوا فى التخفيف من حدة هذه العصبية ضـد العرب ، وبدأوا يفاخرون بالولاء للعـرب كذلك فـان المنتصرين للعرب بـدءوا يهدئون من غلوائهـم فى الهجـوم ، لسيطرة الفرس على الدولة وخاصة فى عصر المأمون والواثق .

واذا كان سهل بن هارون خازن بيت الحكمة للمأمون زعيم الشعوبية فى عصره ، وألف كتبا كثيرة فى التعصب للفرس ضد العرب (١) فان العرب وجدوا من الجاحظ وابن قتيبة من يتصدى للرد على هؤلاء . وقد افتتح الجاحظ كتاب البخلاء برسالة سهل بن هارون هذا . وتولى فى الكتاب كله الرد عليها .

---

(١) بللات ، ص ٣١٢ ، وراجع جولد تسهر : العقائد والشريعة فى الاسلام ١٦٢/١ .

وقريب مع هذه القضية العرقية أو فيما يدور حولها من موضوعات الاجناس ومواقفها فى المجتمع الاسلامى فى ذلك تجرى بعض رسائله مثل « كتاب الصرحاء والهجناء » (١) و « فخر السودان على البيضان » ٠

ويذكر السودان فى كتابه الاول على أساس أنهم « السمر » ويعنى بهم العرب فى مقابلة الحمران وهم العجم من روم وصقالية وفرس وخراسانية ٠ ويذكر ما يقال فى ذلك أيامه من مثل سائر هو : ما يخفى ذلك على الاسود والاحمر ، أى العربى والعجمى ، ويكرره المبرد ٠

وفى الكتاب الثانى يعنى بالسودان الزنج من أهل النوبة والحبشة ومن اليهم وهو السودان الاصليون ويضاف اليهم أهل الهند والسند وسكان جزائر البحر الجنوبى (بحر العرب والمحيط الهندى) ٠

وقد كان للسودان أدوار فعالة فى التاريخ الاسلامى ٠ تبدأ فى يوم حنين حين قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : هل لك فى جيش بنى المعيزة تستعين بهم ؟ فرفض الرسول هذا العرض ٠ ثم كانت ثورتهم بالمدينة أيام أبى جعفر المنصور ، اضطروا واليه عليها الى الفرار ، وما زالت عناصر السودان تعمل حتى بلغت ثورتهم الكبرى فى القرن الثالث ، واستشعار الجاحظ لقوتهم فى مجتمع

---

(١) راجع كتاب الجاحظ للدكتور الحاجرى ، ص ٢٤٠ ٠

البصرة وخطورتهم آنذاك مما حفزه على كتابة هذه الرسالة . وقد كان للسودان كما كان لغيرهم من العصبيات والطوائف شعراء ذكر بعضهم الجاحظ في هذه الرسالة ، ويذكر منهم كبار الرجال ومشاهير الامة ممن قاموا بأدوار هامة في الجاهلية والاسلام أمثال عنترة بن شداد ، وسليك بن السلكة وبلال بن رباح مؤذن الرسول وأخيه وعمار بن ياسر وآل ياسر الذين لاقوا من العذاب أشده في سبيل رسالة الاسلام أول أمره . ومنهم كذلك سعيد بن جبير ، وهو من هو في صدق الايمان وصفاء البصيرة وقوة العزيمة . وعمير بن الحباب ، والعجاف بن حكيم وقد أقاما الدولة الاموية وأقعداها . الى غير هؤلاء من أبطال الحرب ورجال الدين والعلم .

ويقول في هذه الرسالة (١) :

« .. والناس مجمعون على أنه ليس في الارض أمة السخاء فيها أعم . وعليها أغلب من الزنج . وهاتان الخلتان لم توجدا قط الا في كريم .

وهي أطبع الخلق على الرقص الوقع الموزون ، والضرب بالطبل على الايقاع الموزون ، من غير تأديب ولا تعليم .

وليس في الارض أحسن حلوقا منهم ، وليس في الارض لغة أخف على اللسان من لغتهم ولا في الارض قوم أذرب ألسنة ، ولا أقل تمطيطا منهم .

---

(١) رسائل الجاحظ ، طبع عبد السلام هارون ج ١ ، ص ١٩٥ .

وليس في الارض قــوم ألا وأنت تصيب منهم الارت (١) ، والفأفاء ، والعين ، ومن في لسانه حبسة ، غيرهم .

والرجل منهم يخطب عنـد الملك بالزنـج من لدن طلـوع الشمس الى غروبها ، فلا يستعين بالتفاته ولا يسكته حتى يفرغ من كلامه .

وليس في الارض أمـة في شدة الابدان وقوة الاسر أعم منهم فيهما . وان الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذى تعجز عنه الجماعة من الاعراب وغيرهم . وهم شجعان أشداد الابدان ، أسـخياء . وهذه خصال هي الشرف » .

ويقول عنهم في الرسالة نفسها في موضع آخر :

« قالوا : وثلاثة أشياء جاءتكم من قبلنا ، منها الغالية ، وهي أطيب الطيب ، وأفخره ، وأكرمه ومنها النعش وهو أستر للنساء ، وأهون للحرم ، ومنها المصحف ، وهو أوفى لما فيه ، وأحصن له وأبهى له .

قالوا : ونحن أهول في الصدور ، وأملأ للعيـون ، كما أن المسودة أهول في العيون وأملأ في الصدور من المبيضة ، وكما أن الليل أهول من النهار .

قالوا : ودهم الخيل أبهـي وأقوى ، والبقـر السود أحسن

---

(١) الارت الذى في لسانه عقدة وحبسة .

وأبهى ، وجلودهـا أثمن وأنقى ، والحمر السود أثمن وأحسن وأقوى • وسود الشاء أدسم ألبانا ، وأكثر زبدا ، والدبس أغزر من الحمـر (١) •

وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الاسود ، ولا أعم منفعة ، ولا أبقى على الدهر ، والنخيل أقـوى مـا تكون اذا كانت سـود الجذوع •

قالوا : وأحسن الخضرة ما ضارع السواد • قال الله جل وعلا : (ومن دونهما جنتـان) ثم قـال لمـا وصفهمـا وشـوق اليهما (مدهامتان) قال ابن عباس : خضراوان من الري سوداوان •

وليس في الارض عود أحسن خشبا ولا أغلى ثمنا ، ولا أثقل وزنا ، ولا أسلم من القوادح ولا أجدر ان ينسب فيه الخط من الآبنوس • وقد بلغ مـن اكتنازه والتئامه ، ملوسـته وشـدة تداخله ، أنه يرسب في الماء دون جميع العيدان والخشب ، وقد غلب بذلك بعض الحجارة ، اذ صار يرسب وذلك الحجر لا يرسب•

والانسان أحسن ما يكون في العين مـا دام أسـود الشعر ، وكذلك شعورهم في الجنة ، وأكرم ما في الانسان حدقتاه ، وهما سوداوان • وأكرم الاكحال الاثمد ، وهو أسود • ولذلك جاء أن الله يدخل جميع المؤمنين الجنة جردا مردا مكحلين •

وأنفع ما في الانسان له كبـده التي بهـا تصلح معدته •

---

(١) الدبس : الحمر المشوبة بالسواد •

ويتهضم طعامه ، وبصلاح ذلك قام بدنه ، والكبد سوداء •

وأنفس ما في الانسان وأعـزه سـويداء قلبه ، وهي علقة سوداء تكون في جوف فؤاده تقوم في القلب مقـام الدمـاغ في الرأس •

ومن أطيب ما في المرأة وأشهاه شفتاها للتقبيل ، وأحسن ما يكونان اذا ضارعتا السواد • وقال ذو الرمـة :

لمياء فـي شفتيها حـوة لعس　　وفي اللثـاة وفي انيابهـا شنب

وأطيب الظل وأبرده ما كان أسود • وقال الراجز :

سـود غرابيب كاظـلال الحجـر

وقال حميد بن ثور :

ظللنا الى كهف وظلت ركابنـا　　الى مسـتكفات لهـن غـــروب
الى شـجر ألمى الظـــلال كأنها　　رواهب أحر من الشراب عذوب (١)

ومن حلقات هذه الدراســات فــي الاجناس رسالة « مناقب الترك»(٢)، وقد وجهها الى الفتح بنخاقان وزيرالخليفة المتوكل، والذى قتل معه سنة ٢٤٧ هـ ، وعنوان الرسالة كاملا» مناقب الترك وعامة جند الخلافة» • ومعروف أن الخليفة المعتصم كان قد بدأ يكثر من العناصر التركية في جيشه • والاتراك جنس كله يعيش في مشارق أرض الخلافة شمال شرق خراسان وفي البلاد الواقعة شرقي بحر قزوين •

---

(١) عذوب جمع عاذب وهو الذى لا يأكل ولا يشرب •
(٢) رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٥ •

وفي الرسالة حوار أو منافرة ومفاخرة بين عناصر مختلفة كالعرب والخراسانية كذلك ويبدو من حديثه أنه استشعر ما كان يستعر بين تلك العناصر من الخلاف والمنافرة ورأى خطرها فأراد أن يعرف لكل عنصر حقه وفضله يقول :

« وكتابنا هذا انما تكلفناه لنؤلف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولتزيد الألفة ان كانت مؤتلفة ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب ، فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة وشبهات مزورة (١) .

وتراه يعود الى نغمته السائدة في مثل هذه الرسائل والكتب وهي نغمة المؤاخاة بين العناصر المؤلفة للمجتمع العربي الذي يظله الاسلام بظله ويمد عليه جناحيه فلا يفرق بين زنجي وفارسي وعربي وتركي والجميع عرب ومسلمون ، ما داموا يقرءون القرآن بالعربية ، ويتعلمون علوم العرب ، وينظمون ويؤلفون باللغة العربية :

« وقد جعلوا اسماعيل وهو ابن عجميين عربيا ، لان الله تعالى فتق لهاته بالعربية المبينة على غير النشوء والتقدير . وسلخ طباعه من طبائع العجم ، ونقل الى بدنه تلك الاجزاء ، وركبه اختراعا

---

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٢٩ .

على ذلك التركيب ، وسواه تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة ثم حباه من طبائعهم ومنحه من خلاقهم وشمائلهم ، وطبعه من كرمهم وأنفتهم وهممهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهانا على رسالته ، ودليلا على نبوته ، فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكما جعل ابراهيم أبا لمن يلده ، فالبنوى خراساني من جهة الولادة ، والمولى عربي من جهة المدعى والعاقلة .

ويقول ان الله خلق العباد وله أن يجعل من عباده من شاء عربيا ، ومن شاء عجميا ومن شاء قرشيا ، ومن شاء زنجيا (١) .

ويقول : « وما الذى قسم الله — عز اسمه — بين الناس .. ألا كما صنع فى طينة الارض ، فجعل بعضها حجرا ، وبعض الحجر ياقوتا ، وبعضه ذهبا ، وبعضه نحاسا ، وبعضه رصاصا وبعضه حديدا أو بعضه ترابا ، وبعضه فخارا ..ومن يحصى عدد أجزاء الارض وأصناف الفلز ؟ .

واذا كان الامر على ما وصفنا فالبنوى خراساني، واذا كان الخراساني مولى ، والمولى عربي ، فقد صار الخراساني والمولى والمولى والعربي واحدا .

ولوفى ذلك أن يكون الذى فيهم من خصال الوفاق غامرا ما فيهم من خصال الخلاف بل هم فى معظم الامر وفى أكبر الشأن

---

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٣٢ .

وعمود النسب متفقون • والاتــراك خراسانية •• فقد صــار التركي الى الجميع راجعا ، وصار شرفه الى شرفهم زائدا (١) • واذا عرف سائر ذلك ســامحت النفوس ، وذهب التعقيد ومــات الضغن ، وانقطع سبب الاستثقال ، فلم يبق الا التنافس والتحاسد الذى لا يزال يكون بين المتقاربين فى القرابة والمجاورة •

على أن التوازر والتسالم فى القرابات وفــى بنى الاعمــام والعشائر أفشى وأعم من البعداء • وهو حين يذكر مناقب الترك فانما يقتصر على ذكر محاسنهم وفضائلهم ولا يعرض لمثالب غيرهم يقول : « وان كــان لا يمكن ذلك فــى مناقب الاتراك الا بذكر مثالب سائر الاجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب •• ولكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ، وانما يتفاضل الناس بكثــرة المحاسن وقلة المساوىء ، فأمــا الاشــتمال عــلى جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوىء ، دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف • وقد قال النابغة :

ولست بمستبق أخا لا تلمــــه	على شعث ، أى الرجــال المهذب

وقال قريش السعدى :

اخ لى كأيــام الحيــاة اخــاؤه	تلــون ألوانــا عــلى خطوبهــا
اذا عبت منــــه خــلة فتركتــه	دعتنــى اليــه خــلة لا أعيبهــا

وقــال بشــار :

اذا كنت فى كل الامور معاتبا	صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه

---

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٣٤ •

فعش واحدا أوصل اخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت ، وأى الناس تصفو مشاربه

وبدأ أبو عثمان في التعريف بفضائل الترك ، وطباعهم ، وخاصة في القتال .

يقول : « والتركي يرمي الوحش والطير والبرجاس (١) ، والناس ، والمجثمة ، والمثل الموضوعة ويرمي وقد ملأ فروج دابته مدبرا ومقبلا ، ويمنة ويسرة ، وصعدا وسفلا . ويرمي بعشرة أسهم قبل أن يفوق الخارجي سهما واحدا ، ويركض منحدرا من جبل ، أو مستفلا الى بطن واد بأكثر مما يمكن الخارجي على بسيط الارض .

وللتركي أربعة أعين : عينان في وجهه ، وعينان في قفاه .. والتركي في حال شدته معه كل شيء يحتاج اليه لنفسه وسلاحه ، ودابته وأداة دابته .

فأما الصبر على الخبب وعلى مواصلة السفر وعلى طول السرى وقطع البلاد ، فعجيب جدا .. ولو حصلت عمر التركي وحسبت أيامه لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الارض . والتركي يركب فحلا أو رمكة (فرسا) ، ويخرج غازيا أو مسافرا ، أو متباعدا في طلب صيد ، أو سبب من الاسباب فتتبعه الرمكة وأفلاؤها ، ان أعياه اصطياد الناس اصطاد الوحش،

---

(١) البرجاس : هدف في الهواء على رأس رمح أو نحوه .

وان أخفق أو احتاج الى طعام قصد دابة من دوابه ، وان عطش حلب رمكة من رماكه ، وان أراح واحدة تحته ركب أخرى من غير أن ينزل الى الارض .

وليس فى الارض أحد الا بدنه ينتفض على اقتيات اللحم وحده غيره ، وكذلك دابتــه تكتفــى بالمنقر (القصب)والعشب والشجر ، لا يظلها من شمس ولا يكنها من برد (١) .

ومن قضايا الحياة والمجتمع التى عرض لها أبو عثمان ضروب المعايش واختلافها وتنوعهــا ، وأسـباب كسب الرزق من تجـارة وصناعة وزراعة وغيرها . ويعرض لنا كتاب التبصر بالتجارة صورة لهذه الحرفة التاريخية القديمة قدم الانسان ، وقد ألم بها الجاحظ ، وعرف بأسرارها لنشأته فى البصرة ، وهى وسط تجارى ممتاز . ومنها رسائله (التبصر بالتجارة) و (المعاش والمعاد) و (غش الصناعــات) و (كتــاب الــزرع والنخــل والزيتــون والاعناب (٢) ، ورسالة مدح التجار وذم عمل السلطان (٣) .

التبصر بالتجارة ، ومدح التجار :

ونعلم أن الجاحظ نشأ فى وسط تجــارى هو البصرة ، بل عمــل هو نفسه ببيع بعض الاشياء الصغيرة أى بائعا جائلا على نهر

---

(١) رسائل الجاحظ ، ص ٤٨ .

(٢) نشرت بالمجمع العلمى بدمشق سنة ١٩٣٢ م ، وبالقاهرة ١٩٣٥ م .

(٣) الجاحظ للدكتور الحاجرى ، ص ٢٨٤ ، وتوجد منها قطعة فى مجموعة رسائل الجاحظ للسندوبى ، ص ١٥٥ .

سبحان ، واتصل بأحد كبـار التجـار وهو محمد بن عبد الملك الزيات الاديب الشاعر الكاتب والوزير الخطير في عهد المتوكل وكان صديقا له يبعث اليه بالرسائل ، ومؤلف وخص رسالة « مدح التجار » بالاشادة به وبمهنة التجـارة وشرفها ، لانــه ، أى ابن الزيات ـ لقى كثيرا من السخرية والاستهزاء بمهنته بعد توليـه الوزارة ، وكأن الجاحظ أراد أن يرد اليه اعتباره ، وأن يرفعه بشرف المهنة ٠

وقد بقيت لنا من هذه الرسالة قطعة تتألف من أربعة فصول ٠ يدافع عن التجارة فيقول : « ٠٠ وقد علم المسلمون أن خيرة الله تعالى من خلقه ، وصفيه من عباده ، والمؤتمن على وحيه من أهل بيت التجارة ، وهي معولهم ، وعليهـا معتمدهم ، وهـي صناعة سلفهم وسيرة خلفهم ٠٠ وقد غبر النبي صلى الله عليه وسلم برهة من دهره تاجرا ، وشخص فيه مسافرا ، وباع واشترى حاضرا ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ٠ ولم يقسم الله مذهبا رضيا ، ولا خلقا زكيا ، ولا عملا مرضيا ، الا وحظه منه أوفـر الحظوظ ، وقسمه فيه أجزل الاقسام ٠ ولشهرة أمره في البيع والشراء قال المشركون : (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق) فأوحى الله اليه : (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق) ٠ فأخبر أن الانبياء قبله كانت لهم صناعات وتجارات ٠

وذكر أن التجارة لا تمنع صاحبها من علم ، ولا تحجبه عن

أدب . يقول : « فأى صنف من العلم لم يبلغ التجار فيه غاية ، أو يأخذوا منه بنصيب ؟ أو يكونوا رؤساء أهله وعليتهم ؟ . هل كان في التابعين أعلم من سعيد بن المسيب أو أنبل ؟ . وقد كان تاجرا يبيع ويشترى ، وهو الذى يقول : ما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضوان الله عليهم قضاء الا وقد علمته . وكان أعبر الناس للرؤيا ، وأعلمهم بأنساب قريش » .

وكتاب التبصر بالتجارة محاولة من الجاحظ لعرض بعض أسرارها وصنوفها ، وما يجلب على البلاد المختلفة منها .. الى غير ذلك مما يتعلق بها . وهى معلومات تفيد كثيرا من الناس الذين يتصلون بهذه المهنة ، ولابد لهم من التعرف عليهـا كالمحتسبين ، فالمحتسب وظيفته قريبة الصلـة بالاسـواق والتجـارة والمكاييل والموازين ، لانه الرقيب عليها جميعا ، والمنفذ للشريعة وأصولها ، والراعى لمصالح الامـة بين التجار والصناع في الاسواق . وقد ألف كثير من العلمـاء في الحسبة ، واتصلـوا من قريب بأصول التجارة وأسرار السوق ، ودخائل كل حرفة وصناعة ، حتى لا يغيب شيء عمن يلى هذه الرتبة ، وليطبق حدود الله ، ويحفظ حق الناس ، ويردع كل من تسول له النفس غشا أو تدليسا أو كسبا حراما غير مشروع .

ومما يتصل بكتابات الجاحظ فى الموضوعات الاجتماعية ما يتعلق بحياتهم فى لهوهم وملاذهم ، وقد كتب فى ذلك جملة من

رسائله ، فضلا عما تخلل كتبه من فصول متنوعة · وأولى هـذه الرسائل « رسالة القيان » ، والمفاخـرة بين الجـوارى والغلمان وكتاب « طبقات المغنين » ·

ورسالة القيان محاولة لعرض حال الغناء والمغنيات فى ذلك العصر، ويعرض فيها للجوارى عامة ، ولموقف النساء ، وعلاقات النساء بالرجال ، والقول فى العشق والحب يقول :

والحب اسم واقع على المعنى الذى رسم له ، ولا تفسير له غيره، لانه قد يقال : ان المرء يحب الله ، وان الله جل وعز يحب المؤمن ، وان الرجل يحب ولده ، والولد يحب والده ويحب صديقه وبلده وقومه، ويحب على أى جهة يريد ، ولا يسمى ذلك عشقا ، فيعلم حينئذ أن اسم الحب لا يكتفى به فى معنى العشق حتى تضاف اليه العلل الاخر ، الا أنه ابتداء العشق ، ثم يتبعه حب الهوى ، فربما وافق الحق والاختيار وربما عدل عنهما ·

وهذه سبيل الهوى فى الاديان والبلدان وسائر الامور · ولا يميل صاحبه عن محبه واختياره فيما يرى · ولذلك قيل : « عين الهوى لا تصـدق » وقيـل : حبك الشيء يعمى ويصـم ، يتخذون أوثانهم أربابا لاهوائهم ، وذلك أن العاشق كثيرا ما يعشق غير النهاية فى الجمال ، ولا الغاية فى الكمال ، ولا الموصوف بالبراعة والرشاقة ، ثم ان سئل عن حجته فى ذلك لم تقم له حجة ·

ثم قد يجتمع الحب والهوى ، ولا يسميان عشقا ، فيكون ذلك

في الولد والصديق والبلد والصنف من اللباس والفرش والدواب. فلم نر أحدا منهم يسقم بدنــه ولا تتلف روحــه من حب بلده ولا ولده ، وان كان قد يصيبه عند الفراق لوعة واحتراق ٠

وقد رأينا وبلغنا عن كثير ممن قد تلف وطال جهده وضناه بداء العشق ٠ فعلم أنه اذا أضيف الى الحب والهــوى المشاكلة ، أعني مشاكلة الطبيعــة ، أي حب الرجــال النساء وحب النساء الرجال ، المركب في جميع الفحول والاناث من الحيـوان ، صار ذلك عشقا صحيحا ، وان كان ذلك عشقا من ذكر لذكر فليس الا مشتقا من هذه الشهوة ، والا لم يسم عشقا اذا قامت الشهوة ٠

ثم لم نره يكون مستحكما عند أول لقياه حتى يعقد ذلك الالف ، وتغرسه المواظبة في القلب فينبت كما تنبت الحبة في الارض حتى تستحكم وتشتد وتثمر ، وربما صار لها كالجذع السموق والعمود الصلب الشديد ، وربما انعقف فصار فيه بوار الاصل ، فاذا اشتمل على هذه العلل صار عشقا تاما ٠ ثم صارت قلة العيان تزيد فيه وتوقد نــاره ٠ والانقطــاع يسعره حتى يذهل العقل وينهك البدن ويشتغل القلب عن كل نافعة ويكون خيال المعشوق نصب عين العاشق والغالب على فكرته ، والخاطر في كل حالة على قلبــه ٠

واذا طال العهد واستمرت الايام تقضي على الفرقة،واضمحل على المطاولة ، وان كانت كلومه وندوبه لا تكاد تعفو آثارها ولا تدرس رسومها ، وكذلك الظفر بالمعشوق يسرع في حل عشقه ٠

والعلة في ذلك أن بعض الناس سرع الى العشق من بعض لاختلاف طبائع القلوب في الرقة والقسوة ، وسرعة الالف وابطائه ، وقلة الشهوة وضعفها ·

وقل ما يظهر العاشق للمعشوق عشقا الا عداه بدائه، ونكت في صدره وشغف فؤاده ، وذلك بين المشاكلة ، واجابة بعض الطبائع بعضا ، وتوقان بعض الانفس الى بعض وتقارب الارواح ، كالنائم يرى آخر ينام ولا نوم به فينعس ، وكالمتثائب يراه من لا تثاؤب به فيفعل مثل فعله ، قسرا من الطبيعة ·

وقل ما يكون عشق بين اثنين يتساويان فيه الا عن مناسبة بينهما في الشبه في الخلق والخلق ، وفي الظرف ، أو في الهوى ، أو في الطباع · ولذلك ما ترى الحسن يعشق القبيح ، والقبيح يحب الحسن · ويختار المختار الاقبح على الاحسن ، وليس يرى الاختيار في غير ذلك فيتوهم الغلط عليه ، لكنه لتعارف الارواح وازدواج القلوب » ·

وهكذا يعرض الجاحظ فلسفة الحب والمحبة ، أو الالفة والإلاف ، ودرجات الحب وأنواعه وربما كان الجاحظ أول كاتب عربي طرق هذا الموضوع على تلك الصورة المبسوطة محللا لهذه العلاقة بين الرجل والمرأة · وقد تبعه في ذلك بعض الكتاب ، كابن حزم في كتاب « طوق الحمامة » وصاحب «تزيين الاشواق» وابن الجوزي في «ذم الهوى» ،كما طرق أبو حيان التوحيدي الموضوع في

مواضع من كتبه· وعرض للصداقة في كتاب الصداقة والصديق على اعتبار أنها رابطة مسجلة وألف يجمع بين اثنين ·

كذلك عرض لها الوشـاء في كتـاب « الموشي » في الظرف والظرفاء ·

وعرض الجاحظ في كتاب القيان طباع القينات ، المغنيات خاصة ، والجوارى عامة وأحوالهن مع المترددين على بيوت القيان التي عرفت واشتهرت في المجتمع العباسي وكان الناس يقصدونها لقضاء أوقات من المتعة في السماع واللهو ·

يقـول الجاحـظ :

« ·· ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن ، وسكون النفوس اليهن ، وأنهن يجمعن للانسان من اللذات مالا يجتمع في شيء على وجه الارض ·

« ·· واذا رفعت القينة عقيرة حلقها تغنى حدق اليها الطرف، وأصغي نحوها السمع وألقى القلب اليها الملك ، فاستبق السمع والبصر أيهما يؤدى الى القلب ما أفاد منها قبل صاحبه فيتوافيان عند حبة القلب ، فيفرعان ما وعياه ، فيتولد منه السرور حاسة الملمس ، فيجتمع له في وقت واحد ثلاث لـذات لا تجتمع لـه في شيء قط ، ولم تؤد اليه الحواس مثلها ، فيكون في مجالسته للقينة أعظم الفتنة ، لانه روى في الاثر : « اياكم والنظرة فانها تزرع في القلب الشهوة » · وكفى بصاحبها فتنـة ، فكيف بالنظـر والشهوة اذا صاحبهما السماع ، وتكانفتهما المغازلة ·

ان القينة لا تكاد تخالص في عشقها ، ولا تناصح في ودها ، لانها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشـرك للمتربصين ، ليقتحموا في أنشوطتها · فاذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت بالشرب عند شربه ، وأظهـرت الشوق الى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحـزن لفراقه · فـاذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه ، وأنه قد تمقل في الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذى بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو اليه هواها ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعتها ، وبلت السحاءة بريقتها ، وأنه شجنها وشجوها في فكرتها وضميرها ، في ليلها ونهارها ، وأنها لا تريد سواه ، ولا تؤثر أحدا على هواه ، ولا تنوى انحرافا عنه ، ولا تريده لماله ، بل لنفسه · ثم جعلت الكتاب في مسدس طومار ، وختمته بزعفران ، وشـدته بقطعة زير (وتر العود) ، وأظهرت سترة عن مواليها ، ليكون المغرور أوثق بها · وألحت في اقتضاء جوابه ، فان أجيبت عنه ادعت أنها صيرت الجواب سلوتها ، وأقامت الكتاب مقام رؤيته وأنشدت :

وصحيفـة تحكي الضمـــير مليحـــة نغماتهـــا
جاءت وقد فـرح الفـؤا د لطـول مـا استبطاتهـا
فضحكت حـين رأيتهـا وبكيت حـين قراتهـا
عينـى رأت ما أنكـرت فتبـادرت عبراتهـــا
أظلوم ، نفسـى في يديـــك ، حياتها ووفاتهـا

ثم تغنت حينئذ :

بات كتاب الحبيب ندمانـي محدثي تـارة وريحـــاني

أضحكني في الكتـاب أولـه ثم تمـادى بـه فأبكـاني

ثم تجنت عليه الذنوب ، وتغايرت على أهله، وحمته النظر الى صواحبها، وسقته أنصاف أقداحها، وجمشته بعضوض تفاحها، وتحية من ريحانها ، وزودته عنـد أنصرافه خصلة من شعرها ، وقطعة من قرطها ، وشظية من مضرابها ، وأهدت اليه في النيروز تكة وسكرا وفي المهرجان خاتما وتفاحـة ، ونقشت على خاتمها اسمه ، وأبدت عند العثرة اسمه ، أغنية اذ رأته :

نظر المحب الى الحبيب نعيم وصدوده خطر عليك عظيـم

ثم أخبرته أنها لا تنام شوقا اليه ، ولا تهنـأ بالطعام وجدا به ، ولا تمل ـ اذا غاب ـ الدموع فيه · ولاذكرته الا تنغصت ، ولا هتفت باسمه الا ارتاعت، وأنها قد جمعت قنينة من دموعها من البكاء عليه ·· » ·

ويعرض الجاحظ لجوانب من حياة مجتمعه وأخلاق الناس فيه ، فيبدى من مساوىء السلوك ومقابح الخلـق عند الناس ، وينصح لهم بالسداد وسلوك الطريق القويم في الحياة ، وربما كانت رسالة المعاد والمعاش صورة لهذا اللون من كتابته ·

رسالة المعاد والمعاش : أو الاخلاق المحمودة والمذمومة :

كتب بها الى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دؤاد يقول له فيه : « فرأيت أن أجمع لك كتابا من الادب جامعا لعلم كثير من المعاد والمعاش أصف لك فيه علل الاشياء ، وأخبرك بأسبابها وما اتفقت عليه محاسن الامم ·· » ·

ويقول : « فألفت لك كتابى هذا اليك ، وأنا واصف لك فيه الطبائع التى ركب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون والى وجودها فى أنفسهم مضطرون وفى المعرفة بما يتولد عنها متفقون » ٠

يقول فيها :

« اعلم أن الآداب انما هى آلات تصلح أن تستغل فى الدين وتستعمل فى الدنيا وانما وضعت الآداب على أصول الطبائع ، وانما أصول أمور التدبير فى الدين والدنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملة فى الدين فسدت فيه المعاملة فى الدنيا ، وكل أمر لم يصح فى معاملات الدنيا لم يصح فى الدين ٠ وانما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة ٠ ولذلك قال الله عز وجل : (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) قال ابن عباس فى تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دبرت أمور الدنيا ، فكذلك هو اذا انتقل الى الدين ، فانما ينتقل بذلك العقل ، فبقدر جهله بالدنيا يكون جهله بالآخرة أكثر ، لان هذه شاهدة وتلك غيب ، فاذا جهل ما شاهد ، فهو بما غاب عنه أجهل ٠

ويقول :

« اعلم أن الله جل ثناؤه خلق خلقه ثم طبعهم على حب اجترار

المنافع ، ودفع المضار ، وبغض ما كان بخلاف ذلك · هذا فيهم طبع مركب وحيلة مفطورة · لا خلاف بين الخلق فيه ، موجود فى الانس والحيوان · لم يدع غيره مدع من الاولين والآخرين · وبقدر زيارة ذلك ونقصانه تزيد المحبة والبغضاء · فنقصانه كزيادته تميل الطبيعة معهما كميل كفتى الميزان ، قل ذلك أو كثر » ·

وهاتان جملتان داخل فيهما جميع محامد العباد ومكارمهم · والنفس فى طبعها حب الراحة والدعة والازدياد والعلو ، والعز والغلبة ، والاستطراف والتفوق وجميع ما تستلذ الحواس من المناظر الحسنة ، والروائح العبقة والطعوم الطيبة ، والاصوات الموقعة ، والملامس اللذيذة ومما كراهيته فى طباعهم أضداد ما وصفت لك وخلافته ·

فهذه الخلال التى تجمعها خلتان غرائز فى الفطر ، وكوامن فى الطبع ، حيلة ثابتة وشيمة مخلوقة · على أنها فى بعض أكثر منها فى بعض ، ولا يعلم قدر القلة فيه والكثرة الا الذى دبرهم ·

فلما كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهم من الارض أرزاقهم ، وجعل فى ذلك ملاذا لجميع حواسهم ، فتعلقت به قلوبهم وتطلعت اليه أنفسهم ··

وعلم الله أنهم لا يتعاطفون ، ولا يتواصلون ، ولا ينقادون الا بالتأديب ، وأن التاديب ليس الا بالامر والنهى ، وأن الامر والنهى غير ناجعين فيهم الا بالترغيب والترهيب اللذين فى

طباعهم ، فدعاهم الى جنته ،وجعلها عوضا ممـــا تركوا فى جنب طاعته ، وزجرهـــم بالترهيب بالنـار عن معصيته ، وخوفهـم بعقابها على ترك أمره • ولو تركهم جـل ثنـاؤه والطباع الاول جروا على سنن الفطرة ، وعادة الشيمة •

ثم أقام الرغبة والرهبة على حدود العدل وموازين النصفة . وعد لهم تعديلا متفقا ، فقال : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) •

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخل فى تدبيره الخلل ، ولا جائز عنده المحاباة ، ليعمل كل عامل على ثقة ممـــا وعـــده ، وواعده ، فتملقت قلوب العباد بالرغبة والرهبة ، فاطرد التدبير، واستقامت السياسة ، لموافقتهما مـــا فـــى الفطـــرة ، وأخذهما بمجامع المصلحـة •

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستثقل النفوس ، وأكثر معصيته فيما تلذ • ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : (حفت الجنـــة بالمكاره والنار بالشهوات) •

ويقول : واحفظ هذه الابواب التى يوجب بعضها بعضا ••

المنفعة توجب المحبة ، والمضرة توجب البغضـــاء ، والمضادة توجب العداوة ، وخلاف الهـوى يوجب الاستثقال ، ومتابعتـــه توجب الالفـــة ، والصدق يوجب الثقة ، والكذب يورث التهمة ، والامانة توجب الطمأنينـــة ، والعـــدل يوجب اجتماع القلوب ،

والجور يوجب الفرقة وحسن الخلق يوجب المودة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط يوجب المؤانسة والانقباض يوجب الوحشة ، والتكبر يوجب المقت ، والتواضع يوجب الثقة ، والجود بالقصد يوجب الحمد ، والبخل يوجب المذمة ، والتواني يوجب التضييع ، والجد يوجب رخاء الاعمال والهوينا تورث الحسرة ، والحزم يورث السرور ، والتغرير يوجب الندامة ، والحذر يوجب العـذر ... » .

ويقـــول :

واحذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم فيمثل لك التواني في صورة التوكل ويسلبك الحـذر ، ويورثك الهوينا باحالتك الى الاقدار ، فان الله انما أمـر بالتوكل عند انقطـاع الحيـل ، والتسليم للقضاء بعد الاعذار ، بذلك أنـزل كتابه ، وأمضى سنته فقـال : (خذوا حذركم) و (ولا تلقوا بأيديكـم الى التهلكة) .

وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « اعقلها وتوكل » . وسئل ما الحزم فقال : الحذر . واعلم أن تثمير المال آلة للمكارم ، وعون على الدين ، ومتألف للاخوان ، وأن من قد فقد المـال قلت الرغبة اليه والرهبة منه . ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره فاجهد الجهد كله الا تزال القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة ، في دين أو دنيا .

واعلم أن السرف لا بقاء معه لكثير ولا تثمير معه لقليل ، ولا

تصلح عليه دنيا ودين • وتأدب بما أدب الله تعالى به نبيه فقال : (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا) • • وقالت الحكماء : القصد أبقى للجمام •

فداوم حالك وبقاء النعمة بتقديرك أمورك على قدر الزمان ، وبقدر الامكان • فقد قال الشاعر :

من سابق الدهر كبا كبوة لم يستقلها من خطى الدهر
فاخط مع الدهر على ما خطا واجر مع الدهر كما يجرى

ويقول :

« واعلم أن المقادير ربما جرت بخلاف ما تقدر الحكماء ، فنال بها الجاهل في نفسه ، المختلط في تدبيره مالا ينال الحازم الاريب الحذر • فلا يدعونك ما ترى من ذلك الى التضييع والاتكال على مثل تلك الحال • فان الحكماء قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر فجاءت المقادير بخلاف ما قدر كان عندهم أحمد رأيا وأوجب عذرا ممن عمل بالتفريط وان اتفقت له الامور على ما أراد • ولعمرى بان كان ذلك يجيء الا في أقل الامور •

ولا تكونن لشيء مما في يدك أشد ضنا ،ولا عليه أشد حدبا منك بالاخ الذى قد بلوته في السراء والضراء ، فعرفت مذاهبه ، وخبرت شيمه ، وصح لك غيبه ، وسلمت لك ناحيته ، فانما هو شقيق روحك ، وباب الروح الى حياتك ، ومستمد رأيك ،

وتوام عقلك • ولست منتفعا بعيش مع الوحدة ولابد من المؤانسة ، وكثرة الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه • فان صفا لك أخ فكن به أشد ضنا منك بنفائس أموالك ، ثم لا يزهدنك فيه أن ترى منه خلقا او خلقين تكرههما ، فان نفسك التي هي أخص النفوس بك لا تعطيك المقادة في كل ما تريد ، فكيف بنفس غيرك ؟ وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره • وقد قالت الحكماء : « من لك باخيك كله » - « وأى الرجال المهذب » •

ويتصل بهذه الرسالة في الموضوع رسالته في « كتمان السر وحفظ اللسان » •

حب الاوطان : أو « رسالة في الحنين الى الاوطان » :

(مجموعة رسائل الجاحظ لهارون ج ٢/٣٨٤) قال :

« لقد قالت العجم : من علامة الرشد أن تكون النفس الى مولدها مشتاقة ، والى مسقط رأسها تواقة • وقالت الهند : حرمة بلدك عليك مثل حرمة أبويك لان تغذاءك منهما وغذاءهما منك • وقال آخر : احفظ بلدا رشحك غذاؤه وارع حمى أكنك فناؤه • وأولى البلدان بصبابتك اليه بلد رضعت ماءه ، وطعمت غذاءه •

يقول : « ومما يؤكد ما قلنا في حب الاوطان قول الله عز وجل حين ذكر الديار ، يخبر عن مواقعها من قلوب عباده • فقال : (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) فسوى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من

ديارهم . وقال تعالى : (وما لنا ألا نقاتل فـــي سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) .

وقال عمر رضي الله عنه : (عمر الله البلدان بحب الاوطان).

وكان يقال : لولا حب الناس الاوطان لخسرت البلدان .

وقال عبد الحميد الكاتب يذكر الدنيا : نفتنا عن الاوطان، وقطعتنا عن الاخوان .

الموضوعات الدينية والكلامية في كتبه ورسائله :

وشملت كتبه ورسائله كذلك موضوعات دينيـة متنوعة ، منهـا كتـاب « حجـج النبـــوة » و « كتـــاب نظـم القـرآن » وكتاب « آى القرآن » وكتاب « مسائل القرآن » وكتاب « خلق القرآن » وكتاب « الرد على المشبهة » وكتاب « الرد على النصارى » وكتاب « الرد على اليهود » .

ويعكس الجاحظ في هذه الكتب والرسائل آراءه الخاصة في اطار فلسفته الاعتزالية العامة .

ومما قاله في اليهود من كتاب الحجة (١) :

« ومتى أحببت أن تعرف في بنـــى اسرائيل ونقص أحلام القبط ، ورجحان عقول العرب ، وأحلام كنانة ، فانظر بواديهم ورباعهم ، وانظر الى بيئتهم وبقاياهم كما نظـرت الى غى بنى

---

(١) الجاحظ للدكتور طـه الحاجرى ، ص ٣٦٧ .

اسرائيل ونقص بين من مضى من القبط تعتبر ذلك وتعرف ما أقول : .. وكيف لا تقضى عليهم بالغى والجهل ولم تسمع لهم بكلمة فاخرة أو معنى نبيه ، لا ممن كان فى المبدأ ، ولا ممن كان فى المحضر ، ولا من قاطنى السواد ، ولا من نازلى الشام ، ثم أنظر الى أولادهم مع طول لبثهم فينا وكونهم معنا ، هل غير ذلك من أخلاقهم وشمائلهم وعقولهم وأحلامهم وآدابهم وفطنهم ؟ فقد صلح بنا كثير من أمور النصارى وغيرهم ، وليس النصارى كاليهود ، لان اليهود كلهم من بنى اسرائيل الا القليل ، فلم يقرب فيهم غيرهم ، لان مناكحهم مقصورة فيهم ، ومحبوسة عليهم فقصور أولهم مؤداه الى آخرهم ، وعقول أسلافهم مردودة على أخلافهم ، ثم اعتبر بقولهم لنبيهم عليه السلام : (اجعل لنا الها كما لهم آلهة) حين مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم يعبدونها .

وكقولهم : (أرنا الله جهرة) ، وكعكوفهم على عجل صنع من حليهم يعبدونه من دون الله بعد أن أراهم من الآيات ما أراهم ، وكقولهم : (اذهب أنت وربك فقاتلا انا ها هنا قاعدون) . وكذلك ما وعد محمد صلى الله عليه وسلم بنار الابد كوعيد موسى بنى اسرائيل بالقاء الهلاك على زرعهم ، والهم على أفئدتهم ، وتسليط الموتان على ماشيتهم ، وباخراجهم من ديارهم ، وأن يظفر بهم عدوهم ، فكان تعجيل العذاب الادنى فى استدعائهم

واستمالتهم وردعهم ، كتأخير العذاب على غيرهـم ، لان الشديد المؤخر لا يزجر الا أصحاب النظر في العواقب ، واصحاب العقول التي تذهب في تلك المذاهب » .

مثل من تفسيره للقرآن :

وهو يعرض لآيات الكتاب لتفسيرها ، لا يأخذ بالظاهر ولا بمجرد المدلول المحدود للفظ ، يستبطن المعاني ، ويجول جولة مع السياق ومع غاية التعبير القرآني وينشد أثره النفسي ، والعقلي، ويكشف الجاحظ عن اقتدار في اكتشاف أسرار التعبير . فانظر الى تفسيره لقوله تعالى : (قال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر) وقال مرة أخرى (بشهاب قبس) .

وان المسافر في هذا البيـد المترامـي من العرب لا يدري طريقه ، والرمال من تحته ممتدة على مرمـى البصر ، والسماء فوقه لا تريم متى يصل بأمان الى مخيم ، قد يخطيء ظنه وتقديره، وينفذ زاده ، وينضب ماؤه ، ويفقد الطريق ، ويضل السبيل ، فيضـرب بـلا هـدى ، ولا تسـل عـن حيرة هـذا المسـافر الضال ، وعن مدى ما يشعر بـه من وساوس وهواجس ، ثم ما يداعب به نفسه من آمال وبينما هو غارق في هواجسه وآماله ، والليل مغلق عليه ، والابـل تئط من التعب والضنى ، وبطنـه الطاوي يكاد يلتصق من السغب ، وريقه يكاد يجف من العطش ، وهو في متاهة لا تبصر العين فيها أثرا لحياة ، لا تسل عن حال هذا الضال وسعادته كيف يلقى قبسا من النار يطلع له من الافق

البعيد طلوع الامل الباسم يناديه ، ويفتح له الطريق أمام حياة بعد أن كاد يفقد الامل ، وتعمى السبل فيهرول وهو يمنى النفس بشبع ورى ، وراحة وأنس .

هذا ما أراد به الجاحظ من تفسيره للآية ، ومـا أراد أن يعلنه حين نقل قول أبى عقيل فى قوله تعالى : (وقال موسى لاهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بشهاب قبس) فقال أبو عقيل لـم يعرف موقع النـار من أبنـاء السبيل ومـن الجائـع المقرور (١) .

والقرآن استخدم اللفظـين « بخبر » و « بشهاب قبس » والمعنى واحد ، والاختلاف فى اللفظ . والنار فى الحالين هى القصد ، فعندها الخبر بما يحب السائرون السبيل وفيها القرى والدفء له . والمعترض ها هنا - وأغلب الظن أنه من الموالى غير العرب - لم يحس بما للنار فى البوادى لانه لم يحى حياة العرب البادين ، ولم يسمع منهم عن شـأنها وقدرها . فأنكـر أن يغير القرآن اللفظ على لسان موسى ، وحسب أن المعنى اختلف ، وأن التنزيل خالف نفسه وهو الذى لم يفهم قصد التنزيل ، ولم يلم بالمعنى المراد المـاما شاملا ، فوقع فى الخطأ ، ويحسب أنه قد ظفر على القرآن بحجة فى تناقض نظمه .

ويعرض الجاحظ للتفسير المجازى للقرآن ، والذى لا يؤخذ

---

(١) البيان والتبين ، طبع هارون ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ .

فيه بظاهر القول فيواجه الظاهرية والمعترضين بالحجج البينة ، وينالهم بالسخرية اللاذعة ليسفه آراءهم فيقول مثلا في قوله تعالى : (ان أصحاب الجنة اليوم في شغل فكهون) ٠

« وأصحاب الجنة لا يوصفون بالشغل ، وانما ذلك جواب لقول القائل : خبرني عن أهل الجنة بأى شيء يتشاغلون ؟ أم لهم فراغ أبدا ؟ فيقول المجيب : لا ،ما شغلهم الا افتضاض الابكار وأكل فواكه الجنة وزيارة الاخوان على نجائب الياقوت ٠

وهذا على مثال جواب عامر بن عبد قيس ، حين أقبل من جهة الحلبة وهو بالشام — من سبق ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل فمن صلى : قال أبو بكر ٠ قال : انما اسألك عن الخيل قال : وأنا أجيبك عن الخير ٠ وهو كقول المفسر حين سئل عن قوله : (لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا) فقال : ليس فيها بكرة ولا عشي ٠ وقد صدق القرآن وصدق المفسر ، ولم يتناكرا ولم يتنافيا ، لان القرآن ذهب الى المقادير ، والمفسر ذهب الى الموجود مع دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها (١) ٠

وفي قوله تعالى : (حتى اذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا، قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) ٠ فجعل للنار خزائن ، وجعل لها خزنة ،

---

(١) البيان ، ٢٧٦/٦ ٠

كما جعل في الجنة خزائن وجعل لها خزنة · ولو أن جهنم فتحت أبوابها ونحي عنها الخزنة ، ثم قيل لكل لص في الارض ولكل خائن في الارض دونك فقد أبيحت لك لما دنا منها · وقد جعل لها خزائن وخزنة ، وانما هذا على مثال ما ذكرنا · وهذا كثير في كلام العرب ·

وقال في قوله تعالى : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى : (وحفظناها من كل شيطان رجيم) وقال تعالى : (وجعلناها رجوما للشياطين) · ونحن لم نجد قط كوكبا خلا مكانه · فماينبغي ان يكون واحد من جميع هذا الخلق من سكان الصحارى والبحار ومن يراعى النجوم للاهتداء ، او يفكر في خلق السماوات أن يرى كوكبا واحدا زائلا ، مع قوله وجعلناها رجوما للشياطين ·

قيل لهم : قد يحرك الانسان يده أو حاجبه او اصبعه فتضاف تلك الحركة الى كله ، فلا يشكون أن الكل هو العامل لتلك الحركة ، ومتى فصل شهاب من كوكب ، فاحترق وأضاء في جميع البلاد ، فقد حكم كل انسان باضافة ذلك الاحراق الى ذلك الكوكب · وهذا جواب قريب سهل ·

ومنهج الجاحظ في تفسيره يميل الى الاعتدال ، فلا يأخذ بظاهر القول ، وقريبه ، ولا يتأول أو يذهب بعيدا كفعل الباطنية انما يفسر القرآن على ما يفهمه العرب أصحاب اللغة التى نزل بها ، آخذا في اعتباره ما يجوز فيها من وجوه التعبير

المختلفة كالمجاز والتشبيه والتمثيل والتقديم والتأخير وما اليها.
وفي تفسير قوله تعالى في سورة النحل : (يخرج من بطونها شراب) يقول : « فالعسل ليس شرابا ، وانما هو شيء يحول بالماء شرابا ، أو بالماء نبيذا كما ترى شرابا اذا كان يجيء منه الشراب . وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا : جلوت السماء اليوم بأمر عظيم . وقد قال الشاعر :

اذا سقط السماء بأرض قوم ... رعيناه وان كانوا غضابا

زعموا أنهم يرعون السماء ، وأن السماء تسقط .

ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها . ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا . وهذا الباب هو مفخر العرب في لغتهم ، وبه وبأشباهه اتسعت . وقد خاطب بهذا الكلام أهل تهامة، وهذيلا، وضواحي كنانة . وهؤلاء أصحاب العسل . والاعراب أعرف بكل صمغة سائلة ، وعسلة ساقطة . فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب ؟ أو طعن عليه ؟ من هذه الجهة (١) » .

وكذلك الايجاز وترك الفضول ، لجأ اليه القرآن في مثل قوله تعالى : (لا يصدعون عنها ولا ينزفون) في صفة خمر أهل الجنة . « وهاتان الكلمتان قد جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا . وقوله عز وجل حين ذكر فاكهة أهل الجنة (لا مقطوعة ولا ممنوعة) جمع بهاتين الكلمتين جميع تلك المعاني وفي

---

(١) كتاب الحيوان ، جـ٢ ، ص ٤٢٥/٤٢٩ .

التشبيه قوله تعالى : (انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين) فزعم ناس أن رءوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه - والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير وقالوا : انما عنى رءوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم - فقال أهل الطعن : كيف يجوز أن يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وصفت لنا صورته فى كتاب ناطق أو خبر صادق ٠

ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة ، والتفريع منها، على أنه لو كان شيء أبلغ فى الزجر من ذلك لذكره- فكيف يكون الشأن كذلك ، والناس لا يفزعون الا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صور لهم واصف صدوق اللسان بليغ فى الوصف ، ونحن لم نعاينها ، ولا صورها لنا صادق ٠ وعلى أن أكثر الناس من هذه الامم التى لم تعايش أهل الكتابين ، وحملة القرآن من المسلمين ولم تسمع الاختلاف لا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه ، ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيدا عاما ؟

قلنا : وان كنا نحن لم نر شيطانا قط ، و لاصور رءوسها لنا صادق بيده ، ففى اجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان ، حتى صاروا يضعون ذلك فى مكانين ، أحدهما أن يقولوا : لهو أقبح من الشيطان ، والوجه الآخر أن يسمى الجميل شيطانا ، على جهة التطير له ، كما تسمى الفرس الكريمة « شوهاء » ، والمرأة الجميلة صماء وقرناء وخنساء وجرباء وأشباه ذلك على جهة

التطير لها ، ففى اجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه فى الحقيقة أقبح من قبيح (١) ٠

وهكذا نجد الجاحظ فى تفسيره انما ينظر الى القرآن نظرة بيانية وعقلية ، لا يأخذ بمأثور الكلام والخبر ، أو بآراء المحدثين والمفسرين ، انما يعمد الى تحليله للآيات وفق ما تقتضيه أصول البيان العربى ، ووفق ما يعتقده من آراء المعتزلة والمتكلمين ٠

البيان والنقد والبلاغة :

وكان اهتمام الجاحظ فى كتبه بالبيان عدل اهتمامه بقضايا الفكر والحياة والدين ومعلوم أن المعتزلة اهتموا بالبيان ، وعلموا ناشئتهم البلاغة ووصفوا لهم أصولها ، وفى صحيفة بشر ابن المعتمر فى البلاغة التى رواها الجاحظ دليل على ذلك ٠

ويخصص الجاحظ كتابا كبيرا من كتبه لهذا الموضوع « البيان والتبيين » يبحث فيه البيان العربى فى صوره المختلفة من خطابه وشعر ورسائل ومثل وحكمة ، وان كان اهتمامه منصبا على الخطابة وحده الجاحظ البيان ، ووجوهه ، كما عرف بالبلاغة وعناصرها ، وحاول أن يوقف متعلمى البيان طرق التبيين وأصوله ٠

ولم يقتصر حديثه فى البيان ، و لانظراته البيانية والبلاغية

---

(١) كتاب الحيوان ، ٦ ٢١٢ - ٢١٣ ٠

على كتاب البيان والتبيين بل تعددت في مواضع كثيرة من كتبه ، كلما تعرض لتفسير آية أو بيت شعر أو مثل أو حكمة ويضع مقياسا عاما للحسن في البيان فيقول :

« وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فاذا كان المعنى شريفا بليغا ، وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال مصونا من التكلف صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة (١) ٠

ويدور البيان عند الجاحظ على عنصرى اللفظ والمعنى بمدلولاتهما القريبة ، المفردة والمركبة ، فقد يعني اللفظ النطق أو العبارة أو الكلمة الواحدة ٠ وقد يعني المعنى المضمون والموضوع ويعنى العبارة والمعنى القائم في النفس والمعنى المحدود ، والمعنى الجزئي للكلمة ، والمعنى المجازى والمعنى اللغوى ٠

وللجاحظ آراء كثيرة في النقد والبلاغة (٢) مفرقة تتعرض لبناء العبارة في الشعر والكلام وما ينبغي أن تتصف به البليغة

---

(١) البيان والتبيين ، ٢/٧٣ ٠

(٢) راجع أثر القرآن في تطور النقد العربي د الدكتور محمد زغلول سلام ، وبلاغة أرسطو بين العرب واليونان للدكتور ابراهيم سلامة ، ص ٥٤ - ٥٧ ، والبيان العربي من الجاحظ الى عبد القاهر للدكتور طه حسين ، في مقدمة نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر ٠

منها من التلاؤم والقـرن (١) ، كما يتحدث عن السرقات والمآخذ المعنوية فى الشعر (٢) ، والصدق والكذب فى البيان (٣) ، وأن الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت فى القلب ، واذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان (٤) • ويتحدث عن الطبع والصنعة فى الشـعر (٥) •

روح الفكاهة والسخرية فى أدب الجاحظ :

يقول ابن قتيبة عن الجاحظ أنه يلجأ فى كتبه الى المضاحيك والعبث •

وروح الفكاهة والسخرية سمة دالـة فى كتاباته ، وربما كانت من أبدع خصائص فنـه الكتابى ، فالفكاهة اقتدار وهبة من عند الله ، وهى تدخـل على نفس القـارىء النشاط وتروح عنـه •

ومن أجمل ما كتب متضمنا روح الفكاهة والسخرية كتابه الخالد « البخـلاء » ورسالته « التربيع والتدوير » وبعض فصول فى كتاب الحيوان ، وفى رسائل أخرى متفرقة •

وتراه فى البخـلاء يسخر منهم ويعرض حرصهم على طعامهم

---

(١) راجع البيان والتبيين ، ١/٢٠٥ •
(٢) البيـان ، ١/١٥٤ •
(٣) البيـان ، ١/٥٠ •
(٤) البيـان ، ١/٨٣ •
(٥) البيان ، ٢/٢٠٠ ـ ٢٠٢ •

بصور مضحكة كقوله في أحد بخلائه وقد دعاه هو وبعض أصحابه الى طعام كان خبزه قليلا ، على قدر كل واحد رغيف :

« وكنت أنا وأبو اسحاق ابراهيم بن سيار النظام وقطرب النحوى وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن فلان والخوان من جزعة ، والغضار صينى ملمع أو خلنجيه كيماكية ، والالوان طيبة شهية وغذية قدية ، وكل رغيف فى بياض الفضة كأنه البدر ، وكأنه مرآة مجلوة ، ولكنه على قدر عدد الرءوس ، فأكل كل انسان رغيفه الا كسرة ، ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ، ولم يمدوا بشيء فيتموا أكلهم والايدى معلقة ، وانما هى فى تنقير وتنتيف ٠٠ »

ويقول فى آخر :

« ٠٠ قد رأيناه ينفق على مائدته وفاكهته ألف درهم فى كل يوم ، وعنده فى كل يوم عرس ولان يطعن طاعن فى الاسلام أهون عليه من أن يطعن فى الرغيف الثانى ٠ ولشق عصا الدين أشد عليه من شق رغيف ٠ لا يعد الثلمة فى عرضه ثلمة ، ويعدها فى ثريدته من أعظم النقم ٠٠ » ٠

- وفى رسالة التربيع والتدوير نرى الجاحظ يفتن فى رسم صور ساخرة هزلية لشخص محمد بن عبد الوهاب الذى أدار حوله الرسالة ٠ وهى تعد من أبرع رسائل الهجاء فى أدبنا النثرى ، وقد شرع بها للناثرين من بعده طريقا ، اقتحموه ، وتفاوتوا فى فى سلوك دروبه ونواحيه ٠

كتاب الحيوان ، بين الادب والجدل الديني والاجتماعي :

يمثل كتاب الحيوان للجاحظ صورة واضحة متنوعة الجوانب لشخصية الجاحظ الادبية والمذهبية والفكرية والاجتماعية ·

فهو كتاب جامع لهذا كله · وان بدا مختصا بموضوع الحيوان ·

١ ـ منها أن موضوع الحيوان يشمل الحديث في الحياة وأسرارها ، وفيها عناصر البحث عن الخالق وقدرته ، والدليل على وحدته ، وعدله ، وحكمته ، فهو موضوع جليل لكشف حقائق الايمان ، وتدعيم جدل المعتزلة · او يمكن أن يستمد هؤلاء منه مددا كبيرا لافكارهم وحججا لهم على معارضيهم · وقد أشار الجاحظ الى اهتمام بعض المتكلمين في عصره بالكلب والديك والمناظرة بينهما (١)·

٢ ـ ومنها أن موضوع الحيوان كان تراثا دينيا أو هو في وجدان كثير من الشعوب التي دخلت الاسلام يتلون بألوان عقائد الاسلاف التي تحيط الحيوان بضروب من الافكار ، والعقائد انحدرت اليهم من ماضيها السحيق حين كانت تقدس الحيوان وتجعل منه آلهة للخير أو الشر · وتحوك حوله الاساطير والخرافات لتثبيت هذه العقيدة أو تلك · ويشير الى هذه العقائد والاساطير في مواضع كثيرة من

---

(١) راجع الجاحظ للدكتور طه الحاجرى ، ص ٤٠٣ والحيوان ١/٠٠/ و٢١٩_٢

الكتاب . كما أكد هذه الحقيقة فى المجتمع العباسى فى عصره ما رواه الحصرى فى أخبار أبى نواس قال الحصرى :

« لما حبس الامين أبا نواس دخل عليه خال الفضل بن الربيع وكان يتعهد المحبوسين ويسأل عنهم ، وكانت فيه غفلة ، فأتى أبا نواس فقال : ما جرمك حتى حبست فى حبس الزنادقة ؟ أزنديق أنت ؟ . قال : معاذ الله . قال : أتعبد الكبش ؟ قال : ولكنى آكله بصوفه . قال : أفتعبد الشمس ؟ . قال : والله ما أجلس فيها من بغضها . فكيف أعبدها ؟ . قال : أفتعبد الديك ؟ قال : لا والله بل آكله ولقد ذبحت ألف ديك ، لان ديكا نقرنى مرة ، فحلفت ألا أجد ديكا الا ذبحته (١) .

وقد اتصل حديث الديك والاعتقاد الدينى فيه بالاسلام ، فأحدث الناس حوله بعض الاحاديث كذلك الحديث الذى رواه الطبرانى فى معجمه :

« ان لله سبحانه وتعالى ديكا أبيض ، جناحاه موشيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ جناح بالمشرق وجناح بالمغرب . ورأسه تحت العرش ، وقوائمه فى الهواء ، يؤذن فى كل سحر ، فيسمع تلك الصيحة أهل السماوات ، وأهل الارض الا الثقلين الانس والجن ، فعند ذلك تجيبه ديوك الارض ، فاذا دنا يوم القيامة ، يقول الله سبحانه وتعالى : ضم جناحيك وغض صوتك ،

---

(١) جمع الجواهر للحصرى ، ص ١٣٤ طبع الرحمانية .

فيعلـم أهـل السموات والارض الا الثقلـين أن الســاعة قـد اقتربت (١) ·

وقد ارتبط هـذا المعنى الديني فـي الديك عند المسلمين لصياح الديكة قرب طلوع الفجر ، والفجر عندهم موعد فريضة الصلاة الاولى (الصبـح) · وربمـا ارتبط المعنى الديني عند ثنوية الفرس لانه مبشر بالضياء وخروجه من الظلمة ·

ويشير الجاحظ في غير موضع من كتابه الى اعتقاد الناس في تقسيم أنواع الحيوان الى شرير وخير ، وربما كان ذلك أثرا من آثار بعض عقائد الفرس القدماء من المجوس خاصة في أن الحيوان قسمة بين الهي الخير والشر ، بعضه من خلق اله الخير هرمز ، والآخر من خلق إله الشر آهريمان · ويتصل الاعتقاد في الحيوان كذلك فيما يتطير منه أو يتفاءل به من الحيوان ببعض عقائد الكلدانيين ·

٣ ـ أن موضوع الحيوان كان من عناصر الحياة الشعبية اليومية في المجتمع العباسي المعاصر فقد شغل بعض الناس بضروب من الحيوان ، في لهوهم ، فاتخذوا منه أداة لقضاء الوقت وشغل الفـراغ أو أداة للمفاخـرة والمبـارزة ، كاقتنائهم الديكة للمهارشـة ، والكباش ، والحمائـم وغيرها ·· وكتعصبهم عرقيا لهذا الحيوان أو ذاك · ومنـه تعصب العرب للبعير الناقة ، والفرس ، والهند للفيل مثلا ··

---

(١) راجع ، الجاحظ للدكتور طه الحاجري ، ص ٤٠٥ ·

٤ — ان هذا الموضوع نفسه كان موضوعا فلسفيا ، طرقه من قبل فلاسفة اليونان ، وألف فيه فيلسوفهم أرسطو (٢) كتابا ، أغلب الظن أن الجاحظ وقف عليه ، لكنه اختط لنفسه طريقا آخر مغايرا له ·

أما الدور الاجتماعي للحيوان ، وان كان متصلا بوشائج متينة ببعض العقائد والاساطير الدينية ، الا أن هذا الاتصال اليومي بين الحيوان والانسان في الحياة ، والمشاركة في بعض أعبائها جعل الروابط بينهما مدعاة لضروب من القصص ، أو الاساطير ·

ويختلف الحال في بعض المجتمعات التي يغلب عليها نوع خاص من الحيوان على بعضها الاخر فترى مجتمع البادية وحيوانه ، وعلاقة الناس والحيوان بعضهم ببعض يختلف عن مجتمع البلاد البحرية . أو الزراعية وعلاقات الناس والحيوان فيها بالضرورة ·

والمجتمع العباسي في عصر الجاحظ يجمع عناصر عديدة من مجتمعات بدوية صحراوية أو زراعية ريفية ، وجبلية ، وبحرية ، تتعدد بيئاتها ويتعدد حيوانها ·

وتختلط علاقات الناس بأنواع الحيوان ، لاختلاف بيئاتهم ، فحيوان الصحراء كالبعير والكلب والكبش ، قريب الى نفوس

---

(٢) توجد ترجمة له غير منسوبة بالمتحف البريطاني مخطوطة — ويشير ابن النديم الى إن ابن البطريق ترجم كتاب الحيوان لارسطو ·

البدو أثر لديهم ، لانه يشاركهم أعباء الحياة فيها ويتحمل معهم عناءهـا ، فيحملهم ويصبـر على الرحلة ، أو يدفع عنهـم شر الغريب ، وينبههم الى الغـارة أو يذود عنهم عوادى الحيوان المفترس كالذئب والسبع ، أو يمدهم بالطعـام ، من لبن ولحـم وحيوان البحار كالحوت والاسماك ، وطيـور البحـر لها كذلك علاقات بأبناء الجزر ، والثغور وقد كان بالبصرة موطن الجاحظ جماعة كبيرة من البحريين • رووا كثيرا من القصص عن حيوان البحار ، ولاحظ الجاحظ عليهم التزيد والاغراب • ومنها مـا يرويه أولئك من صداقة بين بحارة السفن وبعض الطيور التى تدلهم على الشاطيء •

يقول الجاحظ :

« ويزعـم البحريون أن طائرين يكونان ببـلاد السفالة ، أحدهما يظهر قبل قدوم السفن اليهـم قبل أن يمكن البحـر من نفسه لخروجهم فى متاجرهم فيقول الطائر : « قـرب أمـد » • فيعلمون بذلك أن الوقت قد دنا ، وأن الامكان قد قرب • قالوا : ويجيء طائر آخر وشكل آخر فيقول : سمارو ، وذلك فى وقت رجوع من قد غاب منهـم ، فيسمون هذين الجنسين من الطـير « قـرب » و « سـمارو » •• فيزعم أهل البحر أن ذينك الطائرين لا يطير أحدهما الا فى اناث ، وأن الآخر لا يطـير أبـدا الا فى ذكورة (١) » •

---

(١) الحيـوان ، ٣/٧ •

وربما كان من وحي أحاديث هؤلاء البحريين التي يروي الجاحظ طرائف منها حول الحيوان نبع قصص الف ليلة وليلة التي تدور في البحار من أمثال قصص السندباد والرخ وما اليها ·

والحيوان موضوع « فلسفي » ، واهتم به الجاحظ ، من باب اهتمامه الفلسفي ، والعلمي وقد قرا في كتب الفلاسفة والاطباء عن الحيوان ، فأراد أن يحيط علما بهذا العالم الذي تعطي المعرفة به زادا علميا وفكريا عظيما · ويشير الجاحظ الى ما جاء من معارف عن الحيوان عن طريق العرب واخبارهم وأشعارهم وما جاءه عن طريق العلم والمعرفة من فلاسفة وحكماء وأطباء ·

« وقل معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة · وقرأناه في كتب الاطباء والمتكلمين الا ونحن قد وجدناه أو قريبا منه في أشعار العرب والاعراب ، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا (١) » · فالالمام بأنواع الحيوان ، وطبائعه ، وتوالده ، وحياته من أمور المعرفة أو العلم الضرورية للفيلسوف والعالم ·

وقد مال الجاحظ في هذا الجانب من كتاب الحيوان أحيانا الى التجريب والملاحظة البصرية والمعاينة ، أو الاتصال بالتجربة اتصالا مباشرا ·

ولا يصدق الجاحظ ـ مدفوعا بهذا الروح العلمي ـ كل ما

---

(١) الحيوان ، ٧/٤٩ ·

يقع لسمعه من أخبار حول الحيوان ، وطبائعه ، وعيشه وتناسله، فهو يضعها موضع المناقشة والشك والتجريب والنظر ، فما ثبت منها لهذا كله أخذ به ، وما لم يثبت أنكره ، ونفاه حتى لو وقع له في الكتب أو من أفواه العلماء ٠

يقــول مثــلا :

« ومما لا أكتبه من الاجناس العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وقاح ، أخبار بعض العلماء وبعض من يؤلف الكتب ، يقرؤها ويدارس أهل البصرة ، ويتحفظها ، زعموا أن الضبع يكون عاما ذكرا وعاما أنثى ،وسمعت هذا من جماعة ، منهم من لا أستجيز تسميته » ٠ ثم يقول : « وأولئك بأعيانهم هم الذين يزعمون أن النمرة تضع في مشيمة واحدة جروا وفي عنقه أفعى قد تطوقت بــه » ٠

ويعد كتاب الحيوان من آخر ما ألف من الكتب، وهو يشكو فيه علته التي مات بها وتظهر عليه آثار الاضطراب لهذه العلة ، ولن وسنته ســمات النضوج والتجــارب العديدة فــي رحــلة حياته الطويلة ، ومن ذخيرة فكره الحافلة المنوعة ٠

ابن قتيبة في عصره

١ ـ نشأته

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (١) ، كان والده فارسيا من مرو الروز (٢) وتختلف المصادر فى البلد الذى ولد فيه ابن قتيبة ، فيذكر ابن النديم أنه الكوفة (٣) ، ويذكر الخطيب البغدادى أنه بغداد (٤) . ويبدو أنه ولد بالكوفة ، ولم يقم بها كثيرا فانتقل في صباه على الارجح الى مدينة السلام ، فطالت اقامته بها حتى عد من أبنائها .

وقد أثرت حياة بغداد فى نشأته الفكرية ، اذ أنه تلقى العلم على جماعة من علمائها الاجلاء ، فأخذ الحديث عن أئمته المشهورين فيه مثل اسحاق بن راهوية ، وتلقى النحو عن جماعة من علماء الكوفة والبصرة ، مثل أبى حاتم السجستانى .

وتأثر فى شبابه بما كان يدور فى أوساط العلماء من جدل وتناظر بين المعتزلة وأهل السنة ، ولمس فى فجر حياته غلبة

---

(١) دينور : ودينهور فى المصادر السريانية مدينة من أهم مدن جبال يرجع تأسيسها الى الجاهلية وكانت فى عهد الخليفة عمر أعمر مدينة فى اقليم همذان وقد سلمها الوالى الفارسى للعرب عقب وقعة نهاوند الحاسمة مباشرة (حوالى عام ٢١ هـ) وقد ازدهرت أيضا ازدهارا كبيرا فى عهد الامويين والعباسيين .

(٢) (الاشربة) لمحمد كرد على ـ ص ١ .

(٣) (الفهرست) طبع أوربا .

(٤) (تاريخ بغداد) ١٠ ، ١٧٠ .

المعتزلة على الحياة الفكرية ، فأعجب ـ على ما يبدو ـ بآرائهم كما يحكى فى « تأويل مختلف الحديث » (١) ٠

وقد اختير قاضيا لمدينة الدينور ، وهى بلدة من بلاد الجبل قرب قرميسين كان بها جماعة من العلماء والمحدثين والمشايخ المشاهير (٢) ، وقضى بالدينور زمنا اتصل فيه بأولئك المحدثين والفقهاء ، وتدارس أمور الدين والفقه ، ثم عاد الى بغداد ، وهناك وجد شمس المعتزلة آخذة فى الافول بعد أن تولى الخلافة جعفر المتوكل ، وساعد أهل الحديث والسنة على الظهور على منافسيهم ٠ فتقدم هو ليدلى بدلوه ، وينتصر للسنة ، ويجمع من الاراء والكتب ما يعينه على ذلك ٠

واتصل ابن قتيبة فى بغداد برجال الدولة كعادة غيره من العلماء والادباء وعرف منهم فى ذلك الوقت الوزير أبا الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المتوكل وابنه المعتمد (٣) وأهدى اليه كتابه « أدب الكاتب » ٠

واستمرت حياته العلمية ببغداد ، فاشتغل بالتدريس للناس زمنا (٤) ، وكان يقرأ كتبه على تلاميذه ، ومن بينهم جماعة من

---

(١) (تأويل مختلف الحديث) ص ٧٤ ٠

(٢) قرميسين : تشمل الاراضى السفلى من جبال قرميسين اما دينور فتشمل الاراضى العليا منها ٠

(٣) الانساب ـ ٢٣٨ ط أوربا ٠

(٤) وفيات الاعيان ـ ٢٤٦/٢ ط محى الدين ٠

العلماء الذين نبهوا بعد ذلك وكان لهم نتاج معروف مثل ابنه أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، الذى حدث بكتب أبيه فى مصر حين ولى القضاء بها ، وعبد الله بن جعفر بن درستويه الكاتب الفارسى صاحب « أدب الكتاب » .

وقد شارك مشاركة جدية فى محاربة نزعات الشك والفلسفة التى غلبت على العقول فى ذلك الوقت ، وسيتضح هذا عند تناول اتجاهاته المختلفة فى كتبه . وقد توفى ابن قتيبة بعد أن قضى حياته فى خدمة الدين والادب سنة ست وسبعين ومائتين على الارجح (١) ، وكانت وفاته فجأة ، صاح صيحة سمعت من بعد ثم أغمى عليه ، ومات . وقيل انه أكل هريسة فأصابته حرارة ثم صاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه الى وقت الظهر ثم اضطرب ساعة ثم هدأ .

٢ ـ ثقافته وآراؤه وعقائده

ذكرنا عند الكلام عن ثقافة العصر أن المعتزلة أثاروا حركة فكرية واسعة فى عصر المأمون والمعتصم ، وأن كثيرا من الكتب اليونانية وغيرها من مختلف الثقافات قد نقلت الى العربية وأثرت تأثيرا عظيما فى ثقافة العصر وثمراته الباقية ، وأشرنا الى النضال الفكرى بين المعتزلة وأهل السنة ، ولما كان ابن قتيبة

---

(١) اختلفت المصادر فى سنة وفاته بين ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ .
راجع (ابن خلكان) طبع باريس ١/٣٥٤ و (تاريخ بغداد) طبع السعادة ١٩٣١ ، ١٠/١٧٠ ـ ١٧١ .

أحد أبطال ذلك النضال ، فينبغي أن نقف عنده لنتعرف الى جوانبه ·

اتجه ابن قتيبة في مطلع حياته الى علم الكلام ، واجتذبته أضواؤه ، فجلس الى كثير من علماء المتكلمين وأخذ عنهم واغتر بكلامهم فقد قال : « وقد كنت في عنفوان الشاب وتطلب الاداب أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم ، فربما حضرت بعض مجالسهم ، وأنا مغتربهم طامع ان أصدر عنه بفائدة أو كلمة تدل على خير أو تهدي لرشد ، فأرى من جرأتهم على الله تعالى ، وقلة توقيهم ، وحملهم أنفسهم على العظائم لطرد القياس أولئلا يقع انقطاع ، ما أرجع معه خاسرا نادما (١) » ·

وقد أفاده اطلاعه على آراء المتكلمين في جدله معهم ، اذ قارعهم الحجة بالحجة وكال لهم بالكيل الذي كالوا به لاهل السنة والحديث ، وتأثر ابن قتيبة بآراء أبي حاتم السجستاني وشيخه المحدث اسحاق بن راهويه ودافع عنها (٢) ·

ويبدو أنه كان ملما بالفارسية (٣) ، مطلعا على كثير مما جاء في الكتب السماوية مترجما فقد استشهد في كثير من آرائه بما جاء في التوراة والانجيل ·

وفي كتبه دلائل كثيرة على المامه بالفلسفة ، منها ما ينقله

---

(١) تأويل مختلف الحديث ــ ص ٧٤ ·

(٢) تأويل مختلف الحديث ــ ص ٦٥ ·

(٣) كثيرا ما يذكر في كتبه (قرأت في كتب العجم كذا وكذا) ·

عن أرسطو صاحب المنطق كما ينقل عنـه بعض المعلومات فـي الطبيعة كأن يقول « وكيف لا يعجبون من حجر يجذب الحديد من بعد ويطيعه حتى يذهب به يمينا وشمالا بذهابه ، وهذا حجر المغناطيس وكيف صدقوا بقول أرسطاطاليس في حجر المستقيل أنه اذا ربط على بطن صاحب الاستقساء نشف منه الماء ٠٠٠٠ ٠٠٠ الخ (١) ٠ كما أنه يذكر في تأويـل مختلف الحديث » أنه اتصل بأيوب المتطبب ، وحنين بن اسحاق ٠

واختلطت دراساته الفلسفية ، والمنقولة عن العجم واليونان بآرائه الدينية ، ومع أنه كان من المنتصرين لاهل السنة المدافعين عن مبادئهـم وآرائهـم ، فقد اتهمه بعضهم بالخـروج ٠ قال الذهبي (٢) : « وقال الحاكم أجمعت الامة على أن القتبي كذاب ، واتهم بأنه كان خبيث اللسان يقع في كبار العلماء (٣) » ٠ كما اتهم بأنه منحرف عن العترة ، وأنه يميل الى التشبيه ، ويرى رأى الكرامية الذين يغالون في التشبيه والتجسيم ٠ قـال الذهبي : « قال البيهقي كان يرى رأى الكرامية » (٤) ٠

ولم يرض عنه أنصـار الفلسفة ، وسـاءهم هجومـه عليها وتقليله من شأنها ، فاتهم بالجهل بها وعدم المعرفة ٠

---

(١) أدب الكاتب ، وشرح أدب الكتاب ـ للبطليوسي ـ ص ٤٢٨ ٠

(٢) مقدمة « الاشربة » لمحمد كرد علي ـ ص ٢ ٠

(٣) نفس المصدر ـ ص ٥ ٠

(٤) ميـزان الاعتـدال ٠

ولكنه على الرغم من تلك الاتهامات التي وجهت اليه ظل محتفظا بمكانته العلمية الرفيعة . وظل يمثل الجاحظ في أهل السنة ، ولم ينس فضله جماعة من فضلاء المؤرخين فأشادوا به . ومن هؤلاء الخطيب البغدادي ، والحافظ الذهبي ، والسيوطي - وقد سخر من قول الحاكم « اجتمعت الامة على أنه كذاب » فقال : « وما أعلم الامة اجتمعت الا على كذب الدجال ومسيلمة (١) » . وقدره ابن تيمية حق قدره ، ووضعه في المكان اللائق ونفى عنه ما وجه اليه من طعن وتجريح ودافع عنه تهمة التشبيه وقوله بآراء الكرامية واعترف بأنه امام أهل السنة في زمن كان الجاحظ فيه امام المعتزلة وخطيبهم قال : « وكان أهل المغرب يعظمونه ويقولون من استجاز الوقيعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة ، ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه (٢) .

وذكر يوهان فك في « العربية » أنه أبرز الادباء الممثلين للتجديد السني (٣) .

ويعتبر ابن قتيبة كاتب أهل السنة في النصف الاخير من القرن الثالث ، فقد ألف كثيرا من الكتب تناول فيها قضية السنة والحديث ، وما وجه اليهما من اتهامات على أيدي المعتزلة ، وانتصر للمذهب ، وللمحدثين ومناهجهم في العلم والعقيدة ، واظهر هذه الكتب وأسيرها كتاب « تأويل مختلف الحديث » ،

---

(١) بغية الوعاة .

(٢) تفسير سورة الاخلاص لابن تيمية - ص ١٣٣ ط المنيرية بمصر /سنة ١٣٥٢ .

(٣) العربية - ص ١٣١ .

« والاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبة» و «المسائل والاجوبة » .

والاساس الذي تقوم عليه آراؤه هنا لا تتضح حتى نعرض لما كان يوجهه المعتزلة لاهل السنة من اتهامات ، فقد عرف المعتزلة بأنهم أهل التوحيد والعدل لانهاأصل عقيدتهم الفكرية أو الدينية ، والتوحيد عندهم أن الله واحد منزه عن الخلق لا يشبه شيئا ولا يشبهه شيء ، وكل ما يمس هذا الاعتقاد من قريب أو بعيد عندهم فهو باطل مشكوك فيه ، ويتفرع على هذا أن الله تعالى لا تنفصل صفاته عن ذاته ، ولا يجوز أن يشبه خلقه في شيء من تلك الصفات ، لذلك تأولوا ما جاء في القرآن من ألفاظ قد توحي بغير عقيدتهم . ويرى أهل السنة التسليم بما جاء في القرآن والحديث كما هو لا يتأولونه ، وهم وراء هذا يرون أن صفات الله تعالى منفصلة عن ذاته ، فالله عالم بعلم وقادر بقدرة . وقد يوضح هذا الخلاف ما ذكره الطبري في تفسير قوله تعالى : (وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يداه مبسوطتان) قال : وقد اختلف أهل الجدل — وهم المتكلمون —في تأويل قوله تعالى : (بل يداه مبسوطتان) قال بعضهم عنى باليد النعمة أو القوة أو الملك ، وقال آخرون : بل يد الله صفة من صفاته ، هي يد غير أنها ليست بجارحة ، واستدلوا على استحالة المعنى الاول بادلة منها قالوا : وذلك أن الله — تعالى ذكره — أخبر عن خصوصية آدم بما خصه به من خلقه

اياه بيده ، وكان لخصوصية آدم بذلك وجه مفهوم ، اذ كان جميع خلقه مخلوقين بقدرته ، ومشيئته في خلقه نعمه ، وهو لجميعهم مالك • قالوا : واذا كان ــ تعالى ذكره ــ قد خص آدم بذكره خلقه اياه بيده دون غيره من عباده ، كان معلوما أنه انما خصه لمعنى فارق غيره من سائر الخلق ، واذا كان كذلك بطل قول من قال : معنى اليد من الله القوة أو النعمة أو الملك » (١) •

وأما مبدأ العدل أن الله عادل لم يخلق الناس وهو مقدر لما يعملون من خير أو شر ، والا ما كان ثواب الجنة وعذاب النار ، فأعمال الانسان في الحياة باختياره ، ليس من العدل نسبتها للقدر • وانما غاية الامر أن الله تعالى يصطفي من عباده الاخيار ممن يرضى عنهم فيهبهم اللطف الذي يعينهم على السير في طريق الخير ، ويحجبه عن عبادة الذين لا يرضى عنهم فيسيرون كما توحي لهم أنفسهم •

ويرى أهل السنة عكس ذلك ، وأن القدر يتدخل في أعمال الانسان، لذلك سموا المعتزلة بالقدرية ، لانهم نسبوا القدر الى أنفسهم •

تلك هي الاصول ، وأما الفروع فما اختلفوا فيه منها القول في اعجاز القرآن ، فقد خرج النظام على جماعة المسلمين برأى في الاعجاز مؤداه أن القرآن معجز لان الله صرف الخلق عن الاتيان

---

(١) تفسير الطبري ــ وراجع ، مذاهب التفسير ، لجولد تسيهر ــ ص ٩٩ •

بمثله قال الشهرستاني : « انه كان يرى أن اعجاز القرآن من حيث الاخبار عن الامور الماضية والآتية ومن جهة صرف الدواعى عن المعارضـة ومنع العرب من الاهتمام به جبرا وتعجيزا ، حتى لو خلاهـم لكانوا قادرين على أن يأتـوا بسورة من مثله بلاغـة وفصاحة ونظما (١) » .

وقال الجاحظ تلميذه : ان النظام وأصحابه كانوا يزعمون أن القرآن حق ، وليس تاليفـه بحجـة ، وأنـه تنزيل وليس ببرهـان (٢) .

ويرى أكثر المعتزلة وأهل السنة أن القرآن معجـز ببيانه وأسلوبه الرائع الذى لا تستطيعه العرب ، والذى ظهر عجزهم عنه منذ عهد النبى صلى الله عليه وسلم . يقول الجاحظ أن معجزة النبي في القرآن كانت قاطعة ، وكان موقعها في العقل كموقع فلق البحر بالنسبة للعين (٣) كما يذكر أن العرب لم يقدروا على الاتيان بمثله عجزا ووهنا ، لا تهاونا ولا تغافلا لان الاتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلا بأن يكفيهم شر قتل الانفس والاولاد. ثم يرى أن الاعجاز متصل بالنظم وحده ، أي الاسلوب ، بصرف النظر عن معانيه (٤) .

---

(١) الملل والنحل ـ طبع ليزج ـ ص ٣٩ .

(٢) *رسائل الجاحظ ، طبع السندوبى* ـ ص ١٤٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٤) أثر القرآن فى تطور النقـد ـ لمحمد زغلول سلام ـ ص ٧٥ .

وتعرض كثير من العلماء في عصر الجاحظ لاعجاز القرآن من ناحية نظمه وبيانه وتعرض ابن قتيبة من وجهة نظر أهل السنة لهذه المسألة في كتابه « مشكل القرآن » على ما سنعرض له عند تحليل الكتاب ٠

وكان الخلاف بينهم حول تفسير ما جاء في القرآن من آيات المجاز والتشبيه والاستعارة وما يماثلها كذلك في الحديث : قال الجاحظ في تفسير قوله تعالى : (انها شجرة تنبت في أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين) ، وليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورة ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الامم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهيته وقد أجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك ، رجع بالايحاء والتنفير ، وبالاخافة والتقريع الى ما قد جعله الله في طباع الاولين والآخرين وعند جميع الامم على خلاف طبائع جميع الامم ، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن (١) ٠ وقال : « والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير » وقال النظام : لا تسترسلوا الى كثير من المفسرين » ٠

واختلف ابن قتيبة مع المعتزلة والجاحظ ، فانه كان يرى كما قلنا رأى مذهبه ولا يحاول أن يبعد في التأويل ، بل يفسر

---

(١) الحيوان _ ٤/٣٩ ٠
(٢) نفس المصدر _ ٦/٢١٢ ٠

في حدود النص تفسيرا لغويا محدودا على قدر ما تسمح به معاني الالفاظ الظاهرة . وقد اتهم بالتشبيه والتجسيم ، ولعل ذلك راجع الى بعض ما أورده في كتابه « تأويل مختلف الحديث » ولكنه أوضح موقفه بصورة ناضجة في « تأويل مشكل القرآن » ، فهو فيه معتدل لا يأخذ بمذهب أصحاب الظاهر من اللغويين ، كما ينفي تفسير المشبهة ، ويعرض في كتاب « الرد على الجهمية والمشبهة ما انزلق اليه هؤلاء من أخطاء .

وعارض المعتزلة المحدثين حول ما يمكن الاعتماد عليه من الحديث ، فكان عمرو بن عبيد لا يثق بهم (١) . وقد ذكر ابن قتيبة أنهم اتهموا أهل الحديث بالكذب والتناقض وأن النظام أنكر حجية الاجماع ، وغلب عليه القياس المنطقي ، والجواز العقلي ، كما أنهم نالوا من المحدثين بالسخرية ، والاتهام بالجهل وقلة المعرفة بالشعر واللغة ، أو بأنهم « أجهل الناس بما يحملون وأندر الناس حظا فيما يطلبون » وقالوا في ذلك :

زوامل في الاشعار لا علم عندهم ... بجيدها الاكطم الاباعر

لعمرك ما يدري البعير اذا غدا ... بأحماله ، أرواح، ما في الغرائر

« وأنهم قنعوا من العلم برسمه ، ومن الحديث باسمه . ورضوا بأن يقولوا : فلان عارف بالطرق راوية للحديث ، وزهدوا في أن يقال : عالم بما كتب أو عامل بما علم (٢) » .

---

١) أثر القرآن في تطور النقد - ص ٦٧ .

٢) تأويل مختلف الحديث - ص ١٠ - ١١ .

ويرد ابن قتيبة على هذه الآراء ردا شاملا جامعا فيرى : « أن معاني الكتاب والحديث وما أودعاه من لطائف الحكمة وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة والتولد والعرض والجوهر ، والكيفية والكمية ، والايتية ، ولو ردوا المشكل منهـا الى أهل العلم بها ، وضح لهم المنهج واتسع لهم المخرج (١) • وعنده أن اطلاق الامر للرأي والقياس في المسائل الدينية الدقيقة مثل صفات الله تعالى، وقدرته ،ونعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار يدعو الى الخلاف والزيغ والاحسن فيها أن تلجأ الى الحديث ونؤمن بما جـاء به متعلقا بها ، لانها في رأيه « أمور لا يعلمهـا نبي الا بوحـي من الله تعـالى (٢) » •

وبالرغم من دفاع ابن قتيبة عن الحديث ، فانه لم يكن محدثا بالمعنى المعـروف قـال الحافظ الذهبـي : « أبو محمد صاحب التصانيف صدوق قليل الروايـة (٣) » ، وقال : « ابن قتيبة من أوعية العلم ، لكنه قليل العمل في الحديث (٤) » وله كتاب في « غريب الحديث » وآخر في « اصلاح الغلط في غريب الحديث لابي عبيد » •

وكان يذهب فـي الفروع مذهب أحمد بن حنبل : فقـد

---

(١) تأويل مختلف الحديث ـ ص ١١١ •
(٢) نفس المصدر ـ ص ٧٧ •
(٣) ميزان الاعتـدال ـ ٢/٧٧ •
(٤) تذكرة الحفاظ ـ ٢/١٨ •

عاصره وأخذ عنه ، قال ابن تيمية : « ابن قتيبة من المنتسبين الى أحمــد » (١) ٠

٣ ـ بين ابن قتيبة والجاحظ

ذكر ابن قتيبة أنه أخـذ عن الجاحظ وأنه أجــازه ببعض كتبه (٢) ، وقال ابن تيمية : ويقال هو لاهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ، فانه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة ٠ وقد ذكر محمد كرد علي في مقدمة كتاب « الاشربة » ما كان بين ابن قتيبة والجاحظ ،وكيف أنه عنف في ردوده على الجاحظ ، واتهمه بالكذب ، وكان فيما يبدو مندفعا فــي حمية الذود عن آرائه وآراء شيوخه وأصحابه ، فأفلتت منه عبارات فيها عنف وتجريح لعالم جليل وأستاذ من أساتذة الفكر العربي ٠ قال في شأنه : « ثم نصير الى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استثارة ، وأشــدهم تلطفــا لتعظيم الصغير حتى يعظم وتصغير العظيم حتى يصغر ، ويبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشيء ونقيضه ،ويحتج لفضل السودان على البيضان وتراه يحتج مرة للعثمانية على الرافضــة ، ومــرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة ، ومرة يفضل عليا رضي الله عنه ، ومرة يؤخره ، ويقول : قال رسول الله صلى الله عليه وســلم ، ويتبعه قال الجماز وقال اسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش ،

---

(١) تفسير سورة الاخلاص ـ ص ١٢١ ٠

(٢) عيون الاخبار ـ ج ٣ ـ ص ١٩٩ ٠

ويجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أن يذكر في كتاب ذكرا فيه ، فكيف في ورقة أو بعد سطر وسطرين ، ويعمل كتابا يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين ، فاذا صار الى الرد عليهم تجوز في الحجة ، كأنه انما أراد تنبيههم على مالا يعرفون وتشكيك الضعفة من المسلمين ، وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث، يريد بذلك استمالة الاحداث وشراب النبيذ ، ويستهزيء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم - وهو مع هذا من أكذب الامة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل (١) » .

٤ - تأثره وتأثيره

وتنوعت دراسات ابن قتيبة اللغوية ، وقد سبق ذكرنا لاساتذته في هذا الميدان. ولعل من أبرزهم أبا حاتم السجستاني تلميذ الاصمعي ، وروى من الكوفيين ، وأخذ عن البصريين وخلط بين المذهبين . قال ابن النديم : « انه كان يغلو في البصريين الا أنه خلط في كتبه عن الكوفيين وكان صادقا فيما يرويه عالما باللغة والنحو (٢) » . وكان البطليوسي يقول انه ذو مذهب ضعيف في النحو (٣) ، وهو مع ذلك - كما عده السيوطي - من النحويين (٤) ويعتبر اماما لمدرسة بغداد التي مزجت بين آراء الكوفة والبصرة (٥) .

---

(١) تأويل مختلف الحديث - ٧١ - ٧٢ .
(٢) الفهرست - ص ٧٧ - ٧٨ .
(٣) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب - ٢٣ .
(٤) بغية الوعاة - ٢٩١ .
(٥) دائرة المعارف الاسلامية - م ٢٦٠ .

والباحث في كتبه يرى أنه يستشهد بآراء علماء المدينتين ، ويختار لنفسه مذهبا بينهما وتارة يفضل آراء علماء أحد الفريقين ، وترى هذا كثيرا في كتبه ، فهو يفضل آنا رأى أبي حاتم ، وآنا آخر راى أبن السكيت ، وتارة يأخذ بما قال الفراء ، وتارة بما قال السكاكي .

وذكر الازهرى ما ألفه ابن قتيبة في اللغة ، وما رد به على علمائها ، فقال : « وأما أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ، فانه ألف كتبا في مشكل القرآن وغريبه ، وألف كتاب « غريب الحديث » ،وكتابا في الانواء ، وكتابا في أدب الكتبة ، ورد على أبي عبيد حروفا في غريب الحديث سماها « اصلاح الغلط » ، وقد تصفحتها كلها ، ووقفت على الحروف التي غلط فيها ، وعلى الاكثر الذى أصاب فيه . فأما الحروف التي غلط فيها فاني أثبتها في مواقعها من كتابي ، ودللت على موضع الصواب فيما غلط فيه . وما رأيت أحدا يدفعه عن الصدق فيما يرويه عن ابي حاتم السجستاني ، والعباس بن الفرج الرياشي ، وأبي سعيد المكفوف البغدادى . فأما ما يستبد فيه برأيه ، من معنى غامض أو حرف من علل التصريف والنحو مشكل ، أو حرف غريب ، فانه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة . وألفيته يحدث بالظن فيما لا يعرفه و لايحسنه ، ورأيت أبا بكر ابن الانبارى ينسبه الى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة ، وقد رد عليه قريبا من ربع ما ألفه من مشكل القرآن (١) » .

---

(١) التهذيب ــ للازهرى ــ ص ١٣ .

ويذكر الازهرى فيما يذكر أنه قيل عن ابن قتيبة أنه يروى عن سيبويه والاصمعى وأبى عمرو وهو لم ير منهم أحدا ، ولم ير فى هذا نقصا أو انحرافا لانه أخذ عن جماعة ممن حضروا عليهم (١) » .

وقد ترك لنا فى مجموعة كتبه ما يشهد على علو كعبه فى اللغة رواية ودراية ، ومنها « كتاب غريب الحديث » ، و « اصلاح الغلط فى غريب الحديث لابى عبيد » ، و « تفسير غريب القرآن » و « وكتاب الانواء » ، وكتاب « أدب الكاتب » .

وكان الى جانب علمه باللغة أديبا واسع الاطلاع ، صاحب ذوق وبيان ، جامعا لعلوم الادب بمعناه العام ، راوية للشعر وأخباره ، ملما بدقائقه ، محيطا بكثير من المعارف العامة التى ينبغى للاديب أن يتزود بها ، وكان فى كتبه الادبية رجلا ذواقة يحسن الاختيار (٢) ، ينظر فى الشعر برأى صائب ، ولم يحب تحكيم المنطق والعقل كما لم يمل للتعنت اللغوى ، بالصورة التى كان يلقى بها اللغويون شعر المحدثين ، وكان ذوقه الادبى رائده فى تفسير المشكل من آيات القرآن ، فكان يرجع للذوق العربى ولا يحكم القياس .

وقد جمع الى جانب هذا وذلك كثيرا مما يتصل بثقافة

---

(١) راجع مقدمة « مشكل القرآن » بتحقيق السيد أحمد صقر - ص ٣٨ .
(٢) قيل فى حسن الاختيار :

قد عرفناك باختيارك اذكا ... ن دليلا على اللبيب اختياره

الكاتب والاديب من معارف عامة وسار على الدرب الذى انتهجه من قبل أبو عثمان الجاحظ ، وأبو حنيفة الدينورى ، ولذلك كان كثير من كتبه الادبية يدور حول تربية الملكة العربية و « تحبيب اللغة الى الدارسين والشادين (١) » وكان يقصد من ورائها الى ارشاد طبقة الكتاب وتعليمهم ، ووضع ثمرات ناضجة بين أيديهم يسهل عليهم هضمها والافادة منها ، ولعل كتابه « أدب الكاتب » خير ما يمثل هذا الاتجاه الداعى الى ثقافة الكتاب . يقول فى مقدمته « فانى رأيت كثيرا من كتاب زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدعة واستوطأوا مركب العجز وأعفوا أنفسهم من كد النظر وقلوبهم من تعب التفكير .. الخ ولهذا يقول : « فلما رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان ، وخشيت أن يذهب رسمه ، ويعفو أثره جعلت له حظا من غايتى وجزءا من تأليفى ، فعملت لمغفل التأديب كتبا خفافا فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل لانشطة لتحفظه ودراسته (٢) » .

وقد أعجب الناس بكتبه الادبية ، ذكر السمعانى أن الامير أبا نصر الميكالى قال : « تذاكرنا المتنزهات يوما ، وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم : أنزه الاماكن غوطة دمشق وقال آخرون : بل نهر الابلة . وقال آخرون : بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم : نهروان بغداد وقال بعضهم : شعب بوان بأرض فارس ، وقال

---

(١) محمد كرد على فى مقدمة « الاشربة » ـ ص ٦ .
(٢) مقدمة « أدب الكاتب » .

بعضهم: نوبهار بلخ فقال هذه متنزهات العيـون ، فأين أنتم من متنزهات القلوب ؟ .. قلنا : وما هي يا أبا بكـر ؟ قال عيـون الاخبار للقتيبي والزهرة لابن داود (١) .

وقد عد ابن خلدون كتابه « أدب الكاتب » من دواوين الادب الاربعـة .

وكثرت مؤلفات ابن قتيبة في مختلف علوم الدين واللغـة والادب حتى أربت على الخمسين في قول كثير من العلماء ، وزادها بعضهم الى ستين ونيف وبلغ بها آخرون زهاء ثلاثمائة (٢) .

---

(١) « الاشربة » نشر محمد كرد علي _ ص ٩ .

(٢) تفسير سورة الاخلاص _ ١٢٠/١٢١ .

أبوحيـان التوحيـدى

على بن محمـد العباسى

يعد أبو حيان من كتاب العربية المشهورين فى القرن الرابع الهجرى ، وهو من الادباء الموسوعيين الذين جالوا فى شتى ميادين المعرفة ٠

ولد أبو حيان في بغداد في العشر الاول من القرن الرابع الهجرى (سنة ٣١٠ هـ) من أبوين فقيرين ، وقد صمتت مصادر التاريخ والتراجم عن أخبار أسرته ونشأته ، واضطربت فى عام ولادته ، والاهمال الذى لاقاه التوحيدى من العلماء والادباء أمر يدعو الى العجب فهو على علو قدره ، مجهول الذكر ٠ قال ياقوت : « لم يذكر التوحيدى أحد في كتاب ولا دمجه ضمن خطاب (١) »٠ وكم من نابه من رجال الفكر أسدلت عليه ظلال النسيان وحجبته السنون ، وأغفلت ذكره الصحف ، لامـر مـا ، يصعب تحديده أحيانا ، وقد نجد العلة فيه وتعثر على السبب فى انكاره٠ والشاعر ابن الرومي مثال واضح على تجنى المؤرخين ، واهمال المؤلفين ٠

ومهما يكن من أمر فان ما بقي من أنباء عنـه ، وما حفظته الايام من كتبه يمكن أن يرسـم لنا صـورة وان لم تتضح معالمها لشخصه ، وحياته ، وصورة طيبة أكثر وضوحا وبيانـا لفكـره وأدبـه ٠

---

(١) معجـم الادبـاء ٠

عاش أبو حيان في بغداد بالعراق فى القرن الرابع الهجرى ، والخلافة تظلها الدولة البويهية الفارسية الشيعية ، وتفرض عليها حمايتها • وغلب على هذا العصر الفتنة والاضطراب وكثرة المنازعات والحروب الداخلية بين عناصر الدولة ، وأمرائها وقادتها ، وكان العراق في شماله وجنوبه مضطربا بين منازعات رؤساء القبائل وزعماء الطوائف فى الجنوب ، وانتفاضات كثير من الفئات الكادحة كثورة الزنج بالبصرة ، ومنازعات الحمدانيين وبعض الامراء في شمالى العراق وبعض أقاليم الشام •

ورغم هذا الاضطراب السياسى ، والفوضى الاجتماعية التى سادت القرن الرابع في العراق ، فان عصر ازدهار حضارى فى جوانب الفن والعلم والادب كان يظلل القرن لانه كان عصر حصاد للماضى الطويل المجيد، الذى بني فيه العرب والمسلمون أركان دولتهم ، ودعموا أسس حضارتهم ، حتى استحصدت وأثمرت فى هذا القرن الرابع بعد أن أزدهرت في القرن الثالث فى عصور الخلفاء العظام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل •

ومن مظاهر هذا النضج الحضارى ، تنوع الحياة الثقافية بجوانبها ، من فلسفة وعلم وأدب ولغة ، وظهور جماعة من كبار العلماء والادباء ، والشعراء ، كان لهم دور واضح فى تاريخ الثقافة العربية والاسلامية على مدى العصور أمثال ابن سينا ، وابن مسكويه وأبى سعيد السيرافى ، وأبى الحسن الاشعرى ، وابن العميد ، وأبى على الفارسى وابن جنى ، وأبى الطيب المتنبى،

وأبي حيان التوحيدى ، والحاتمي ،وأبي الحسن الرماني ، وأبي بكر الصولي ، والمرزباني ، وأبي هلال العسكرى والقاضى الجرجاني وابن نباته السعدى ، والسرى الرفاء ، وأبي بكر الصنوبرى ، وأبي فراس الحمداني ٠

وكانت دور العلم من مدارس ، ومساجد ، ومجالس في القصور مجالا للدرس والبحث والمناظرة ، كما كانت دكاكين الوراقين ، وأماكن السمر واللهو منتديات للادب والفن تجمع بين الفكر والفن ، وكم اهتم الشعراء بقضايا الفكر ، والمعاني ، والتجارب الانسانية اهتمامهم بالفن من غناء وطرب ، وجمال بناء ، وزينة ورياض ٠

ففي شعر شعراء العباسيين والبغداديين خاصة صور بينة لهذا كله ، ففي شعر ابن عبد القدوس والوراق وأبي العتاهية وبشر ابن المعتمر من الفلسفة والحكمة ، والالهيات والزهد ، كما في شعر أبي نواس ، والبحترى ، ومسلم بن الوليد وابن الرومي وابن المعتز من وصف لمظاهر الحضارة الزاهرة كمجالس الطرب والانس، وجميل الرياض، وأدوات الشراب والطعام ، من كئوس الذهب والفضة ، والقصور الفارهة الشاهقة ، والبرك ، والبساتين والتماثيل وما اليها مما يمكن جمعه وتصور الحياة الناعمة من خلاله تصورا حيا نابضا ، يختلف عن تصورها من خلال التاريخ ٠

ومضى الادب في القرن الرابع مرتبطا بالفكر والفن جميعا ، واذا كان كتاب القرن الثالث من أمثال الجاحظ وابن قتيبة وسهل

ابن هارون يجمعون بينهما فيتحدث الجاحظ عن قضايا الفكر في الحيوان ، ومشكلات الحياة والمجتمع في رسائله فخر السودان ، والتجارة ، فانه عرض للحياة الفنيـة كذلك من خـلال كتاباته الاجتماعية وخصها بالحديث في أكثر من فصل ورسالة مثل رسالته في القيـان ٠

وتابع الادباء في القرن الرابع الحديث في الفكر والفن والحياة ، فكانت رسائل الصابي ورسائل اخوان الصفا ، وكتاب الموشى للوشاء ، وكتابات أبي حيان التوحيدي في مؤلفاته من كتب ورسائل فضلا عن مسكويه وابن سينا وأبي سعيد السيرافي ٠

وشارك الشعر في هذا الاتجاه ، فكان صورة للحياة الفكرية والفنية الزاهرة ٠

نشأ التوحيدي اذا في هذا القرن الرابع في بغداد ، فكان طبيعيا أن يتم تكوينه في هذه البيئة ، فيأخذ منها بعض ملامحه ، أو تؤثر فيه البيئة ببعض معالمها أو كلها ٠

وأول المؤثرات في أبي حيان هو المكان والمجتمع ، وما كان يضطرب فيه من الاحداث والقيم ٠ ولعله في ذلك كان مستجيبا للمجتمع استجابة الجاحظ ، وان اختلفت الصورة ٠

اهتم التوحيدي منذ طفولته وصباه الاول بالدرس والقراءة ، وصرفه الاهتمام بالقراءة والدرس عن الزواج ، فلم يعرف عنه أنه تزوج و رزق أبنـاء ٠

وتردد في درسه على كثير من مجالس العلم وعدد من الشيوخ وكبار العلماء ، ولم يقنع فــي طلبه بلون من ألوان المعرفة ، بل أراد أن ينوع مصـادرها ، وأن يزود فكره بزاد غنى ، فألم من كل علم بطرف ٠

وقد كان أبو حيان رجلا طلعة ، وكان« شخصية فلسفية طلعة تستخلص الاسئلة من كل ما يقع أمامها ، سواء أكانت خلقية أو اجتماعية ، و لغوية أو اقتصادية أو نفسية ٠٠ » ٠

ومن أساتيذه النابهين أبو سليمان المنطقي : محمد بن طاهر ابن بهرام السجستاني الذى كان فيلسوفا ومنطقيا ، ولغويـا ، وصاحب نظر عميق في اللغــة والادب ٠
قال عنــه أبوحيــان (١) :

« أما شيخنا أبو سليمان فانه أدقهم نظرا ، وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكرا وظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع في العبارة ، ولكنه ناشيء مع العجمة وقلة نظر في الكتب ، فرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز وبخل بما عنده في هذا الكنز » ٠

وكان أبو حيان يتردد على مجلس أبى سليمان بمنزله ، وكان يؤمه معه جماعة من العلماء والادباء وسجل أبو حيان بعض ما دار في ذلك المجلس من مناقشات ومحاورات ٠

وقرظه أبو الفتح ابن العميد في رسالة بعث بها اليه قائلا :

---

(١) الامتاع والمؤانسة ـ ١/٣٢ طبعة القاهرة ١٩٣٩ ٠

« فلله درك ودر زمان أنت من أهله (١) » ووصفه أبو حيان في موضع آخر لابي سعيد السيرافي :

« ان شيخنا أبا سليمان غزير البحر ، واسع الصدر ، لا يغلق عليه في الامور الروحانية والانباء الالهية ، والاسرار الغيبية ، وهو طويل كثير الوحدة ، وقد أوتي مزاجا حسن الاعتدال ، وخاطرا بعيد المنال ، ولسانا فسيح المجال » .

وظلت علاقته بأستاذه أبي سليمان قائمة ردحا طويلا من الزمن ، وألف له كتاب امتاع المؤانسة ، لخص المجالس التي كان يحضرها عند الوزير ابن سعدان ، وتجمع كثيرا من رجال العلم والادب ويدور فيها حديث طويل حول موضوعات شتى .

وأخلص أبو حيان لاستاذه أبي سليمان، فظلت العلاقة بينهما طيبة ، وبقيت آثاره في كثير من كتبه واتصل باستاذ جليل آخر هو الشيخ أبو سعيد السيرافي (٢٨٤ هـ ـ ٣٦٨ هـ) ، وكان أبو سعيد عالما جليلا في اللغة والنحو على مذهب البصريين ، وكان السيرافي يدرس النحو ويفتي بمجلس الرصافة مدة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة . وقال ياقوت ، فما وجد له خطأ ، ولا عثر على زلة (٢) . وأتقن علوم القرآن من القراءات ، والتفسير ،

(١) مثالب الوزيرين تحقيق د. ابراهيم الكيلاني ـ ص ٢٩٨ ـ طبع دمشق ١٩٦١ .

(٢) معجم الادباء لياقوت ١٥٠/٨ .

والاحكام ، كما أتقن علـوم اللغـة والادب كالبلاغـة والشعر والعروض والقوافي ·

ومظم صيته ، وتعدت شهرته حدود بغداد ، فأصبح يستفتى في كثير من قضايا الدين والمعرفة واللغـة والادب ·

وكانت له في النحو آثار واضحة ، ونهج خاص ، فهو فضلا عن اهتمامه بمذهب البصريين فقد شرح كتـاب سيبويه شرحـا مفصلا ، وكان كلامه في النحو ـ على رأى أبي حيان ـ مفهوما على غير كلام الرماني الذى لم يكن مفهوما ·

ونقل ياقوت أنه كان يقال : النحويون في زماننا ثلاثة : « واحد لا يفهم كلامه ، وهو الرماني ، وواحد يفهم بعض كلامه ، وهو أبو على الفارسي ، وواحد يفهم جميع كلامه بلا أستاذ ، وهو السيرافي » (١) ·

ووصفه أبو حيان في المقابسات بقوله : « أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ ، وامام الائمة ، معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث ، والكلام ، والحساب والهندسة ، أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة فما وجد له خطأ ، ولا عثر منه على زلة ، وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه في ثلاثة آلاف ورقـة بخطـه في السليماني ، فما جاراه فيه أحد ، ولا سبقه الى اتمامه انسان · هذا مع الثقة في الديانة والامانة في الرواية (٢) ·

---

(١) معجم الادباء ١٤/٧٥ ·
(٢) المقابسات ـ ص ٥٨ ·

وقد كان السيرافي فضلا عن هذا العلم الواسع المتنوع على قدر عظيم من الخلق والدين والخشوع والتقوى ، وقد وصف بأنه « ما قرىء على أبي سعيد ذكر الموت والقبر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار ، والوعد والوعيد ، والعقاب والمجازاة ، والثواب والانذار ، والاعذار ، وذم الدنيا ، وتقلبها بأهلها ، وتغيرها على بنائها ، الا وبكى منها وجزع عندها ، وربما تنغص عليه يومه وليلته ، وامتنع من عاداته في الاكل والشرب (١) » ٠

وكان يذهب الى التزهد ، ويأخذ نفسه بسلوك الصوفية ، وربما تلقى أبو حيان دروسه الاولى في التصوف على يديه ٠ رأى ذلك ما سينيون فقال : « علم تلميذه في سن مبكرة أسرار علم التصوف (٢) » ٠

وأثر فيه من هذه الناحية الروحية أثرا واضحا لازمه طوال حياته ٠

وكان أبو سعيد السيرافي يأخذ في منهجه الفكرى بآراء المعتزلة ، وربما كان اتجاه التوحيدى الى الاعتزال متأثرا بآرائه وكثرة قراءاته للجاحظ وتعلقه به ٠

ومن أساتيذه في اللغة والنحو أبو الحسن على بن عيسى الرماني (٢٧٦ هـ - ٣٨٤ هـ) ، والاخشيد الوراق ، وقد كان

---

(١) معجم الادباء ١٧٢/٨ ٠

(٢) نقله د ٠ ابراهيم الكيلاني - ص ١٤ نوابغ الفكر العربي - أبو حيان التوحيدى وراجع أبو حيان لزكريا ابراهيم - ص ٣٣ ٠

وقد كان اماما في علوم اللغــة وغيرها ، فضلا عن أخذه بالاعتزال وطريقة المعتزلة ، وذكره التوحيدى بين العلماء الذين يفضلون الجاحظ ، قال :

« ومنهم على بن عيسى الرماني ، فانه لم ير مثله بلا تقيه ، ولا تحاش ولا اشمئزاز ولا استيحاش علما بالنحو ، وغزارة في الكلام ، وبصرا بالمقالات، واستخراجا للعويص وايضاحا للمشكل، مع تأله وتنزه ، ودين ويقــين وفصاحــة ، وفقاهــة وعفافــة ، ونظافــة (١) » ٠

وكان في طبقة أبي على الفارسي وأبي سعيد السـيرافي في علوم اللغة والنحو ، وانفرد بالبلاغة والتفسير ٠

وقدره أبو حيان حق قدره حين قال في حقــه :

« ٠٠٠ واما على بن عيسى فعالى الرتبة في النحو واللغــة والكلام والعروض والمنطق وعيب به ، الا أنه لـم يسلك طريق صاحب المنطق ، بل أفرد صناعته ، وأظهر براعة ٠ وقد عمل في القرآن كتابا نفيسا ، هذا مع الدين اليقين والعقل الرزين (٢)» ٠

وقد تخرج التوحيدى عليه في علم النحو ، وروى عنه في « المقابسات » بعضا من مقالات الرماني ٠

وأخــذ الفلسفة عن الفيلسوف النصراني يحيى بن عــدى

---

(١) معجــم الادباء ٧٦/١٤ ٠

(٢) الامتاع والمؤانسة ١٣٣/١ ٠

(ت سنة ٣٦٤ هـ) ، وقد كان ملما بعلوم اليونان وفلسفتهم كثير القراءة في كتبهم ، وقد تخرج ابن عدى على عالم كبير ومترجم من تراجمة المناطرة تمت على يديه ترجمة بعض الكتب اليونانية الى العربية وهو بشر بن متى بن يونس · وكان يحيى كثير النسخ للكتب · وترجم بعض كتب أرسطو من السريانية الى العربية ، ولخص بعض مؤلفات الفارابي ، وألف كثيرا في الفلسفة نقل أبو حيان في « المقابسات » بعض آرائه فيها · كالقول في « الحركة والزمان » ، والعلة والمعلول ، والصورة والمادة ، والكون والفساد ، والامكان والاستحالة ·

وكانت عبارته العربية رديئة ، كما يقول التوحيدى ، وكان مشوه الترجمة ·

وأخذ من يحيى بن عدى علوم الاوائل من الفلسفة والعلم الطبيعى ·

وأخذ علوم الفقه على شيخه المروزى أبى حامد أحمد بن بشر (ت ٣٦٢ هـ) وكان فقيها شافعيا (١) ، وأتم أبو حيان تكوينه الفكرى بالقراءة ، فقد قرأ كثيرا من الكتب ، وهيأ له عمله بالوراقة هذا الاطلاع ·

وخبر الحياة بتقلبه في البلاد ، وكان كثير الرحلة ، فأضاف الى علمه ، خبرته ·

---

(١) راجع تأثره بالمروزى في كتاب « أبو حيان التوحيدى » لزكريا ابراهيم ص ٣٦ ـ ٤١ ·

ووصلت أسباب الحياة بين أبي حيان وبعض أعيان الدولة ، وكبار رجالها ، وكانت صلته بالوزير المهلبي ـ وزير معز الدولة ـ قصيرة ، انتهت الى نفيه عن بغداد ٠

وحاول الاتصال بالصاحب بن عباد ، فلم يلق عنده قبولا ، فأدار له ظهره وألف فيه وفي أبي الفضل ابن العميد رسالتيه « مثالب الوزيرين » ٠ وهي رسالة هجاء ، صنعها كما صنع الجاحظ رسالته التربيع والتدوير فزاد عليه ٠

وخرج التوحيدى كما قال ياقوت حقا « متفننا في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والادب والفقه ، والكلام على رأى المعتزلة » ٠

وألف عديدا من الكتب رغم حياته المضطربة غير المستقرة ٠ اذ عاش فقيرا معظم حياته ، شاعرا بعدم التقدير من الناس ، متهما في رأيه ودينه ، مشردا ، لم ينعم بالطمأنينة في الجسد ولا العقل ، ولا النفس ٠

لقد كان كثير الشكوى ، حتى أن أستاذه عاب عليه هذا ، وكان هجاما ، حاد اللسان ، صريحا ، لا يدارى ، وان بدت فى طباعه صفات ضعف آخذها عليه الناس كالتذلل بالسؤال وتديمه نفسه ، واباحة عرضه للقاذفين ٠

وألف رغم هذا كله كتبا ورسائل ظلت خالدة في الادب والفكر العربي ، وان رماه الناس بالباطل ، واختلفوا فيه اختلافا

كبيرا • فقد عد عند العائبين من زنادقة الاسلام الثلاثة ابن الراوندي وأبو العلاء المعرى وأبو حيان التوحيدى •

وعد عند المنصفين من كبار المفكرين والمبدعين حتى عادلوه بالجاحظ •

بلغت آثاره ستا وعشرين أثرا بين موسوعات يبلغ أجزاؤها العشرة ورسائل صغيرة في صفحات •

وأهـم كتبـه :

١ ـ الامتاع والمؤانسة ، فى ثلاثة أجزاء طبع ١٩٣٩ ـ ١٩٤٢ ـ ١٩٤٤ بتحقيق أحمد أمين وأحمد الزين • ويتضمن أحاديث شتى سامر بها التوحيدى الوزير المهلبي ابن سعدان وجعله أربعين ليلة • وقال عنه القفطي : هو كتاب ممتع على الحقيقة •

٢ ـ الصداقة والصديق ، طبع سنة ١٣٠١ هـ باستانبول بمطبعة الجوائب ، ومرة أخرى بالقاهرة سنة ١٣٢٣ هـ • وجمع فيه كل ما عرف مما قيل عن الصداقة شعرا ونثرا منذ الجاهلية الى عصـره •

٣ ـ الهوامل والشوامل ، وطبع بالقاهـرة سنة ١٩٥١ م ، وهو أسئلة مطلقة في موضوعات عدة أدبيـة وفلسفية وأخلاقية ولغوية وجهها أبو حيان الى مسكويه وأجابه عنها •

٤ ـ البصائر والذخائر ، وهو كتاب ضخم ، موسوعة علم وأدب ، وثمرة تجارب واسعة لصاحبه ، أودعـه مـا رآه وسمعه

وحفظه في المجالس والدروس والكتب التي قرأها • فهو كقوله : « ثمرة العمر ، وزبدة الايام » •

٥ ـ مثالب الوزيرين ، كتاب فـي هجـاء أبي الفضل بن العميد ، والصاحب بن عباد وطبع حديثا سنة ١٩٦٠ م •

٦ ـ المقابسات ، من كتبه الفلسفية الطابع ، وهي مجموعة آراء لكبار علماء عصره أمثال يحيى بن عـدى ، وأبي سليمان المنطقي ، طبع سنة ١٣٠٥ هـ بالهند وسنة ١٩٢٩ م بمصر •

٧ ـ الاشارات الالهية • وهو كتاب صوفي يضـم مجموعة من المواعظ والاوراد الصوفية ، طبع بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بـدوى •

وعبرت مؤلفاته عن شخصيته ، وعبر المستشرق آدم متز عن اعجابه به وبكتبه فقال : « لم يكتب في النثر العربي بعد أبو حيان ما هو أسهل وأقوى وأشد تعبيرا عن شـخصية صاحبه ممـا كتب أبو حيـان (١) » •

ويمكن تتبع كتبه بتتبع تاريخ حياته ، وتجد بينها تناظرا واضحا ، ففي مراحـل حياته الاولى اذ هـو مشغول بالتحصيل والجلوس الى أساتذته من العلماء ، نجد كتبه مليئة بـآراء هؤلاء الاساتذة ويطبعها السؤال من أبي حيان والجواب من الاسـاتذة ،

---

(١) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع ـ ص ٤١٦ •

وتكاد أن تختفي شخصيته فيهـا الى جانبهـم · ومن أمثلتها كتاب « المقابسات » ·

وفي حالات غضبه وثورته عقب فشل رحلته الى المشرق وعدم توفيقه في رفقة الوزيرين الكبيرين والصاحبين الاديبين ابن العميد والصاحب ابن عبـاد يمس كتابـه « مثـالب الوزيرين » عن ذلك الغضب والهجاء لهما على سوء معاملتهما اياه ·

وفي مرحلة رضـاه مع الوزير ابن سعدان بعد عودتـه الى بغداد ، وقد اكتملت شخصيته الادبيـة والعلميـة ، وركن اليه الوزير ، وقربه ، وطلب اليه مسامرته بطرائف رأيه وغزير علمه وأدبه ويؤلف الكاتب « الامتاع والمؤانسـة » ، يجمع فيـه تلك المجالس ، وتظهر شخصيته واضحة ، فهو دائما الذى يجيب برأيه أو بعلمه ، أو بروايته وحفظه ، واذا عز عليه الجواب طلب مهلة ليسأل بعض أساتيذه أو العلماء فيما لم يعلم أو لم يتقن ·

وفي مرحلة حياته الاخيرة اذ تتقدم به السن ، وينظرها بين يديه فاذا هو هباء والخطى تسـير به الى النهايـة ، فتنمو عنده مشاعر صوفية ، ورغبات زهد دفينة ونزعات رفض للحياة كانت تستكن وتبدو · فينهي حياته بذلك الاتجاه الصوفي ويندرج كما قال المؤرخون في سلك الصوفية وشيوخهم ، بل يصبح شيخا له من الاتباع والمريدين ويؤلف لهـم ولنفسـه مجموعـة من الادعية والاوراد والمواعظ يضمنها كتابه « الاشارات الالهية » ·

نصوص من أدب أبي حيان التوحيدى

أولا : « من كتاب الامتاع والمؤنسة » :

« فضل العرب واللغـة العربيـة » •

قال فى الليلة السادسة :

« وقد سمعنا لغات كثيرة ــ وان لـم نستوعبهـا ــ من جميع الامم ، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند ، والترك وخوارزم ، وصقلاب ، وأندلس ، والزنج ، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوع العربية ، أعنى الفرج التى فى كلماتها ، والقضاء الذى نجده بين حروفها ، والمسافة التى بين مخارجها ، والمعادلـة التى تتذوقها فى أمثلتها ، والمساواة التى لا تجحد فى أبنيتها ، واذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول ، وصحة هذا الحكم فالحظ عرض اللغات الذى هو بين أشدها تلبسا وتداخلا ، وترادفا وتعاظلا ، وتعسرا وتعوصا ، والى ما يعدها مما هو أسلس حروفا ، وأرق لفظا ، وأخف اسما ، وألطف أوزانا ، وأحضر عيانا وأحلى مخرجا ، وأجلى منهجا ، وأعلى مدرجا ، وأعدل عدلا ، وأوضح فصلا ، وأصح وصلا ، الى أن تنزل الى لغة بعد لغة ، ثم تنتهى الى العربية ، فانك تحكم بأن المبدأ الذى أشرنا اليه فى الغوائص والاغماض ، سرى قليلا حتى وقف على العربية فى الافصاح والايماض » •

وهذا شيء يجده كل من كان صحيح البنية ، بريئا من الآفة ، متنزها عن الهوى والعصبية ، محبـا للانصاف فى الخصومـة ،

متحريا للحق في الحكومة ، غير مسترق بالتقليد ولا مخدوع بالالف ، ولا مسخر بالعادة ، واني لاعجب كثيرا ممن يرجع الى فضل واسع وعلم جامع ، وعقل سديد ، وأدب كثير ، اذا أبى هذا الذى وصفته ، وأنكر ما ذكرته ، وأعجب أيضا فضل عجب من الجيهاني (١) في كتابه وهو يسب العرب ، ويتناول أعراضها ويحط من أقدارها • ويقول يأكلون اليرابيع والضباب ، والجرذان والحيات ، ويتماونون ، ويتساورون ويتهاجون ، ويتفاحشون وكأنهم قد سلخوا من فضائل البشر ، ولبسوا أهب الخنازير •

قال : ولهذا كان كسرى يسمي ملك العرب « سكان شاه » اى ملك الكلاب •

قال : « وهذا لشدة شبههم بالكلاب وجرائها ، والظباء وأطلائها » •

وكلاما كثيرا من هذا الصوب أرفع قدره عن مثله ، وان كان يضع من نفسه بفضل قوله • أتراه لا يعلم لو نزل ذلك القفر ، وتلك الجزيرة ، وذلك المكان الخاوى ، وتلك القيافي والموامى ، كل كسرى كان في الفرس ، وكل قيصر كان في الروم ، وكل بلهور كان في الهند وكل نقفور كان بخراسان ، وكل خاقان كان بالترك ، وكل أخشاد كان بفرغانة ، وكل صبهبذ كان من أسكنان

(١) هو محمد بن أحمد الجيهاني ، وكان وزيرا للسامانيين ، وكان اديبا من رؤساء المتكلمين يظهر ويبطن الزندقة •

وأردوان ما كانوا يعدون هذه الاحوال ، لان من جاع أكل ما وجد وطعم ما لحق ، وشرب ما قدر عليه ، حبا للحياة ، وطلبا للبقاء ، وجزعا من الموت وهربا من الفناء ، أترى أنوشروان اذا وقع الى فيافي بني أسد ، وبر وسفوح طيبة ورمل يبرين ، وساحة هبير ، وجاع وعطش وعرى ، أما كان يأكل اليربوع والجرذان ، وما يشرب بول الجمل وماء البئر ، وما أسن في تلك الوهدات ؟ أو ما كان يلبس البرجد (١) والخميصة (٢) والسمل من الثياب (٣) ، وما هو دونه ، وأخشن ؟ • بلى والله ، ويأكل حشرات الارض ، ونبات الجبال ، وكل ما حمض ، ومر ، وخبث ، وضر • هذا جهل من قائله ، وحيف من منتحله •

على أن العرب ــ رحمك الله ــ أحسن حالا وعيشا اذا جادتهم السماء وصدقتهم الانــواء ، وازدانت الارض ، فهدلت الثمار ، واطردت الاودية وكثــر اللبن والاقط (٤) ، والجبن واللحــم ، والرطب والتمر ، والقمح • وقامت لهم الاسواق ، وطابت المرابع وفشــا الخصب ، وتوالى النتــاج ، واتصلت المبــرة ، وصــدق المصاب (٥) ، وأرفغ المنتجع (٦) وتلاقت القبائل على المحاضر ،

---

(١) البرجد : كساء غليظ من صوف أحمر • وقيل هو كساء ضخم مخطط يصلح للخباء وغــيره •

(٢) الخميصــة : كساء أسود مربع له علمان •

(٣) السمل : من الثياب الخلق البالي •

(٤) طعام يتخذ من لبن الغنم ويطبخ •

(٥) المصاب ، المقصد ، من صاب يصوب أي يتجه •

(٦) أرفغ له المعاش وسعه •

وتقاولوا ، وتضايفوا وتعاقدوا ، وتعاهدوا ، وتزاوروا ، وتناشدوا وعقدوا الذمم ، ونطقوا بالحكم ، وقروا الطراق ، ووصلوا العفاة ، وزودوا السابلة وأرشدوا الضلال ، وقاموا بالحملات (١) ، وفكوا الاسرى ، وتداعوا الجفلى ، وتعافوا النقرى وتنافسوا في إعمال المعروف ، هذا وهم في مساقط رءوسهم ، بين جبالهم ورمالهم ، ومناشيء آبائهم وأجدادهم ، وموالد أهلهم وأولادهم ، على جاهليتهم الاولى والثانية ٠

وقد رأيت حين هبت ريحهم ، وأشرقت دولتهم بالدعوة ، وانتشرت دعوتهم بالملة وعزت ملتهم بالنبوة ، وغلبت نبوتهم بالشريعة ، ورسخت شريعتهم بالخلافة ، ونضرت خلافتهم بالسياسة الدينية والدنيوية ، كيف تحولت جميع محاسن الامم اليهم ، وكيف وقعت فضائل الاجيال عليهم ، من غير أن طلبوها ، وكدحوا في حيازتها ، أو تعبوا في نيلها بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر ، وهذه النوادر من المآثر عفوا ، وقطنت بين أطناب بيوتهم سهوا ، دهوا ٠

وهكذا يكون كل شيء تولاه الله بتوفيقه ، وساقه الى أهله بتأييده ، وجلى مستحقيه باختياره ٠ ولا غالب لامر الله ، ولا مبدل لحكم الله ٠ ولذلك قال الله تعالى : (قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، انك على كل شيء قدير) ٠

---

(١) الحمالات ، الديات والغرامات ٠

ولله في خلقه أسرار ، تتصرف بها دوائر الليل والنهار ، وتتللها مجارى الاقدار حتى ينتهي بمحبوبها ومكروهها الى القرار ٠

عز الها معبودا ، وجل ربا محمودا مقصودا ٠

وبعد ، فالذى لا شك فيه من شأن العرب ، ولا جاحد له من حالها أنه ليس على وجه الارض من الناس ينزلون القفر ٠ وينتجعون السحاب والقطر ، ويحالجون الابل والخيل ، والغنم ، وغيرها ، ويستبدون في مصالحهم بكل ما عز وهان ، وبكل ما قل وكثر وبكل ما سهل وعسر ، ويرجون الخير من السماء في صوبها، ومن الارض في نباتها مع مراعاة الاوان بعد الاوان ، وثقة بالحال بعد الحال ، وتبصره فيما يقدل ويجتنب ، ما للعرب فيما قدمنا وصفه ، وكررنا شرحه من علمهم بالخصب والجدب ، واللين والقسوة والحر والبرد والرياح المختلفة والسحائب الكاذبة والمخايل الصادقة والانواء المحمودة والمذمومة والاسباب الغريبة العجيبة ٠

وهذا لانهم مع توحشهم مستأنسون ، وفي بواديهم حاضرون٠ فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات ومن أخلاق البادية أظهر الاخلاق ٠

وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه أصحاب المدن ، وأرباب الحضر لان الدناءة والرقة ، والكيس والهين ، والخلابة والخداع

والحيلة والمكر والرعب تغلب على هؤلاء ، وتملكهم لان مدار أمرهم على المعاملات السيئة ، والكذب في الحس ، والخلف من الوعد ٠

والعرب قد قدسها الله عن هذا البـاب بأسره ، وجبلهـا على أشرف الاخلاق بقدرته ، ولهذا تجد أحدهم وهو في بت حافيا (١)، حاسرا يذكر الكرم ، ويفتخر بالمحمدة وينتحل النجدة ، ويحتمل الكل ، ويضحك في وجه الضيف ، ويستقبله بالبشر ٠ يقول :

أحدثه ان الحديث من القرى ٠

ثم لا يقنع ببث العرف ، وفعل الخير ، والصبر على النوائب حتى يحض الصغير والكبير على ذلك ، ويدعو اليه ، ويستنهضه نحوه ، ويكلفه مجهوده وعفـوه ٠

وقد قيل لرجل منهم في يوم شات وهو يمشي في سمل : أما تجد البرد يا أخا العرب ؟ فقال أمشي الخيزلى ويكفيني حسبي ٠

والفارسي لا يحسن هذا النمط ،ولا يذوق هذا المعنى ، ولا يحلم بهذه اللطيفة وكذلك الرومي والهندي ، وغيرهما من جميع العجم ٠

ومما يدل على تحضرهم فـي جميع باديتهـم ، وتبديهـم فـي حاضرتهم ، وتحليهم بأشرف أحوال الامرين ، أسواقهم التي لهم

---

(١) بت ، البت كساء غليظ النسج من صوف أو وبر ٠ قال الشاعر :

من يك ذا بت فهذا بتي　　مقيـظ مريـع مشـتي

في الجاهلية ، مثل دومة الجندل (١) بقــرى كلب وهي النصف بين العراق والشام ، كان ينزلها الناس أول يــوم من شــهر ربيع الاول فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء ، والاخذ ، والعطاء ، وكان يعشرهم (٢) أكيدر دومــة وربمــا غلبت على السوق كلب فيعشرهم بعض رؤساء كلب ، فيقوم سوقهم الى آخــر الشهر ثم ينتقلون الى سوق هجر (٣) • وهو المشقر (٤) في شهر ربيع الآخر، فتقوم أسواقهم وكان يعشرهم المنــذر بن ســاوى من بني عبد الله بن دارم ، ثم يرتحلون نحو عمان ، فتقوم سوقهم بديار دبا ، ثم بصحار ، ثم يرتحلون فينزلون أرم وقــرى الشــحر ، فتقوم أسواقهم أياما ، ثم يرتحلون فينزلون عدن أبين • ومن سوق عدن تشترى اللطائم (٥) ، وأنواع الطيب • ولم يكن في الارض أكثر طيبا، وأحذق صناعا للطيب من عدن • ثم يرتحــلون فينزلون الرابيــة من حضر موت • ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء ، فتقوم أسواقهم بها • ومنها كانت تجلب آلة الخرز والادم ، والبرود ، وكانت تجلب اليها من معافر (٦) • وهي عدن البرود والحبر ،

---

(١) دومة الجندل ، سوق ، في موقع حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبــلي طــيء •

(٢) أكيــدر ، اســم صاحب دومــة •

(٣) قاعدة البحرين ، وقيل ناحية البحرين كلها هجــر •

(٤) المشقر حصن هناك بهجر قديم لواحدة من قبائلهم هي عبد القيس •

(٥) اللطائم الطيب ، والمسك ، واحدتها لطيمة •

(٦) مكان باليمن تنسب اليه الثياب المعافرية •

ثم يرتحلون الى عكاظ ، وذى المجاز فى الاشهر الحرم ، فتقوم أسواقهم بها ، فيتناشدون ويتحاجون ويتحادون ، ومن له أسير يسعى فى فدائه ، ومن له حكومة ارتفع الى الذى يقوم بأمر الحكومة من بنى تميم • وكان آخرهم الاقرع بن حابس • ثم يقفون بعرفة ،ويقضون ما عليهم من مناسكهم ، ثم يتوجهون الى أوطانهم •

وهذه الاسواق كانت تقوم طوال السنة ، فيحضرها من قرب من العرب ، ومن بعد • هذا حديثهم وهم همل لا عز لهم الا بالسؤدد ، ولا معقل لهم الا السيف ولا حصون الا الخيل ، ولا فخر الا بالبلاغة •

ثم لما ملكوا الدور والقصور ، والجنان والاودية ، والانهار ، والمعادن ، والقلاع والمدن والبلدان ، والسهل والجبل ، والبحر والبر لم يقعدوا عن شأو من تقدم بآلاف السنين ، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم ، بل أبروا عليه وزادوا ، وأغربوا وأفادوا • وهذا الحكم ظاهر معروف ، وحاضر مكشوف ، ليس الى مرده سبيل ، ولا لجاحده ومنكره دليل •

(ب) « من الليلة الثامنة » :

حديث الشعراء :

قال ابن سعدان : فصل حديثك ••• بحديث أصحابنا الشعراء • صف لى جماعتهم ، واذكر لى بضاعتهم ، وما خص كل واحد منهم •

قلت : لست من الشعر والشعراء في شيء ، وأكره أن أخطو على دحض (١) ، وأحتسى غير محض ·

قال : دع هذا القول ، فما خضنا في شيء الى هذا الوقت الا على غاية ما كان في النفس، ونهاية ما أفاد من الانس ، فكان من الوصف :

أما السلامي (٢) : فهو حلو الكلام ، متسق النظام ، كأنما يبسم عن ثغر الغمام ، خفي السرقة ، لطيف الاخذ ، واسع المذهب، لطيف المغارس ، جميل الملابس ، لكلامه ليطه بالقلب وعبث بالروح ، وبرد على الكبد ·

وأما الحاتمي (٣) : فغليظ اللفظ ، كثير المقد ، يحب أن يكون بدويا قحا ، وهو لم يتم حضريا ، غزير المحفوظ ، جامع بين النظم والنثر ، على تشابه بينهما في الجفوة ، وقلة السلاسة ، والبعد من السلوك ، بادى العورة فيما يقول ، لكأنما يبرز ما يخفي ، ويكدر ما يصفي · له سكرة في القول اذا أفاق منها خمر ،

---

(١) دحض مزلة ومزلقة للاقدام ·

(٢) السلامي : شاعر من أهل العراق ، عربي الاصل من بني مخزوم · ولد بالكرخ ببغداد سنة ٣٣٦ هـ واتصل بالصاحب ابن عباد وعضد الدولة البويهي ومدحهما· ترجم له صاحب اليتيمة ، وروى بعضا من شعره وتوفي سنة ٣٩٤ هـ ·

(٣) الحاتمي : علي بن الحسن ، الكاتب الاديب اللغوي الشاعر الناقد ، عاش في بغداد ، واتصل بالوزير المهلبي ، والتقى بالمتنبي عند وروده بغداد سنة ٣٥٠ هـ وساوله في شعره ، وألف فيه وفي شعره رسالتين ، أحدهما في معانيه، والاخرى في موافقة شعره شعر أرسطاليس ، توفي سنة ٣٨٨ هـ ·

واذا خمس سدر (١) ، يتطاول شاخصا ، فيتضاءل متقاعسا ، اذا صدق فهو مهين ، واذا كذب فهو مشين ٠

واما ابن جلبات (٢) : فمجنون الشعر ، متفاوت اللفظ ، قليل البديع ، واسع الحيلة ، كثير الزوق (٣) قصير الرشاء (٤) ، كثير الغثاء ، غره نفاقه (٥) ، ونفقه نماقه ٠

وأما الخالع (٦) : فأديب الشعر ، صحيح النحت ، كثير البديع ، مستوى الطريقة متشابه الصناعة ، بعيد من طفرة المتحير ، قريب من فرصة المتخير ، كان ذو الكفايتين يقدمه بالرى ويقبله على النشر والطى ٠

وأما ابن نباتة : فشاعر الوقت ، لا يدفع ما أقول الا حاسد ، أو جاهل ، أو معاند قد لحق عصابة سيف الدولة ، وعدا معهم ووراءهم ، حسن الحذر على مثال سكان البادية لطيف الائتمام بهم ، خفى المغاص فى واديهم ، ظاهر الاظلال على ناديهم ، هذا مع شعبة من الجنون ، وطائف من الوسواس ٠

وأما ابن الحجاج (٧) : فليس من هذه الزمرة بشيء ، لانه

---

(١) سدر : تحير ولم يبال ٠

(٢) هو أبو القاسم على بن جلبات من شعراء اليتيمة ج ٢/٢٧٠ ٠

(٣) الزوق : الزينة ٠

(٤) الرشاء : الحبل الذى يصل الدلو اذ يلقى به فى البئر ٠

(٥) النفاق : بفتح النون الرواج ٠

(٦) الخالع : أبو على الحسن بن على من شعراء المشرق ٠ اورده صاحب اليتيمة ٠

(٧) ابن الحجاج هو : أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، شاعر ماجن من شعراء =

سخيف الطريقة ، بعيد من الجد ، قريع في الهزل ، ليس للعقل بين شعره منال ، ولا له في قرضه مثال . على أنه قويم اللفظ سهل الكلام ، وشمائله نائية بالوقار عن عادته الجارية في الخسار ، وهو شريك ابن سكره في هذه الخرامة ، واذا جد أقعى . واذا هزل حكى الافعى .

وله مع ذي الكفايتين مناظرة طيبة .

قلت : لما ورد ذو الكفايتين (١) سنة أربع وستين ، وهزم الاتراك مع آفتكين ، وكان من الحديث ما هو مشهود سأل عن ابن حجاج — وكان متشوقا له ، لما كان يقرأ عليه من قوافيه فأحب أن يلقاه ، لانه ليس الخبر كالمعاينة . والمسموع والمبصر كالانثى والذكر ينزع كل واحد منهما الى تمامه (بالآخر)، فلما حضره أبو عبد الله احتبسه للطعام ، وسمع كلامه ، وشاهد سمته واستخلى شمائله، فقام من مجلسه ، فلما خلا به قال : يا أبا عبد الله لقد والله تهت عجبا منا ، فأما عجبي بك فقد تقدم . لقد كنت أفلي ديوانك ، فأتمنى لقاءك ، وأقول من صاحب هذا الكلام أطيش طائش ، وأخفه خفيف ، وأغرم غارم . وكيف يجالس من يكون في هذا الاهاب ؟ وكيف يقارب من يتسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب

= بغداد في القرن الرابع الهجري ، اتصل بالوزير المهلبي ، وعضد الدولة ، والصاحب بن عباد وابن العميد ، وهجا المتنبي وترجم له صاحب اليتيمة . توفي سنة ٣٩٦ هـ .

(١) ذو الكفايتين أبو الفتح ابن العميد ، الكاتب الوزير الاديب الشاعر .

الآداب . حتى شاهدتك الان ، فتهالكت على وقارك ، وسكون أطرافك ، وسكوت لفظك وتناسب حركاتك وفرط حيائك ، وناضر وجهك ، وتعادل كلك وبعضك . وانك لمن عجائب خلق الله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك ، وأن ذلك الديوان لك ، مع هذا التنافي الذى بين شعرك وبينك في جدك .

فقال أبو عبد الله : أيها الاستاذ . وكان عجبي منك دون عجبك مني ، لو تقارعنا على هذا لفلجت عليك بالتعجيب منك . لاني قلت : اذا ورد الاستاذ فسالقي منه خلقاجافيا وفظا غليظا ، وصاحب رواسير ، وآكل كوامخ (١) ، وجبليا ، ديلميا ، متكاثبا متعاظما ، حتى رأيتك الان ، وأنت ألطف من الهواء ، وأرق من الماء ، وأغزل من جميل بن معمر ، وأعزب من الحياة ، وأوزن من الطود ، وأغزر من البحر ، وأبهى من القمر ، وأندى من الغيث ، وأنطق من سحبان ، وأسخى من الغمام وأنفذ من السهام ، وأكبر من جميع الانام .

فقال أبو الفتح وتبسم : هذا أيضا من ودائع فضلك ، وبواعث تفضلك . ووصله وصرفه .

---

(١) كوامخ ، جمع كامخ ، والكامخ ، وهو أدام يؤتدم به ، وخصه بعضهم بالمخللات التي تستعمل لتشتهي الطعـام .

ثانيا : من البصائر والذخائر (١)

الجاحـــظ

يقـــول :

« وأبو عثمان الجاحظ ، فانك لا تجد مثله ، وان رأيت ما رأيت، رجلا أسبق في ميدان البيان منـــه ، ولا أبعد شوطا ، ولا أمد نفسا ، ولا اقوى منه • اذ جاء بيانه خجل وجه البليغ المشهود ، وكل لسان المستنفر الصبور ، وانتفخ سحر العارم الجسور •

ومتى رأيت ديباجة كلامه رأيت حوكـا كثـير الوشي ، قليل الصنعة ، بعيد التكلف ، حلو المجنى مليح المعطل ، له سلاسة الماء ، ورقة كرقة الهواء ، وحلاوة كحلاوة الناطل وعزة كعـزة كليب وائل • فسبحان من سخر له البيان ، وعلمه ، وسلم في يده قصب الرهان وقدمه ، مع الاتساع العجيب ، والاستعادة الصائبـة ، والكتابة الثابتة والتصريح المغنى ، والتعريض المبنى ، والمعنى الجيد ، واللفظ المفخم ، والطلاوة الظاهرة ، والحلاوة الحاضرة • ان جد لم يسبق ، وان هزل لم يلحق ، وان قال لم يعارض ، وان سكت لم يعرض له •

---

(١) الجزء الاول ص ٢٣٠ •

فهرست الموضوعات

الموضـــوع	رقم الصحيفة
المطبوعون ــ السيد الحميري	١٢٧
أبان بن عبد الحميد اللاحقي	١٢٩
مطيع بن ايـاس	١٣٣
النمط الاعـرابي	١٤١
شـعراء الغـزل ــ العباس بن الاحنف	١٤٣
شـعراء الحكمة والزهد ــ صالح بن عبد القدوس	١٤٦
أحمد بن المعذل	١٥١
أبو العتاهيـة	١٥٢
أصحاب البديع ــ مسلم بن الوليد	١٥٩
القسم الثاني ــ شعراء من القرنين الثالث والرابع	١٧٣
القرن الثالث ــ الاطار السياسي	١٧٥
الحياة الاجتماعية	١٨٠
الحياة الفكرية والثقافية	١٩٢
الشعر والشعراء ــ الاتجاهات الفنيـة	٢٠٤
شـعراء المذاهب ــ من أهل السنة علي بن الجهم	٢١٩
من العلوية ــ **دعبل بن علي**	٢٢١
أبو تمام حبيب بن اوس	٢٢٩
محمد بن داود الاصفهاني	٢٤٥
أبو العباس الناشيء	٢٤٩
العتابي ــ كلثوم بن عمـرو	٢٧٥

تم بحمــد اللــه

طبــع بمطبعــة التقــدم

عبد القــادر المــتــونى

٢١ شارع سيزوستريس ـ الاسكندرية ت : ٨٠٦٠٥٤


Bibliotheca Alexandrina
0355479